الموسوعة الشاملة

في

تاريخ الحروب الصليبية

تأليف وتحقيق وترجمة

الأستاذ الدكتور سهيل زكار

الجزء الثالث والعشرون

دار الفكر

للطباعة والنشر والتوزيع

الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية

المصادر العربية

مؤرخو القرن الثامن والقرون التي تليه

تأليف وتحقيق وترجمة

الأستاذ الدكتور سهيل زكّار

الجزء الثالث والعشرون

دمشق

١٩٩٥ ـــ ١٤١٦هـ

المصادر العربية

مؤرخو القرن الثامن والقرون التي تليه.

١ـ ابن فضل الله العمري
٢ـ التاج السبكي
٣ـ ابن قاضي شهبة
٤ـ أحمد بن علي الحريري

دمشق ١٤١٥/ ١٩٩٥

توطئة

بسم الله الرحمن الرحيم

اتبعت حتى الآن في اخراج مواد الموسوعة الترتيب الزمني، واضطررت في هذا المجلد الى خرق هذه القاعدة بعض الشيء ، فهذا أمر فرضته عليّ طبيعة المجلدين التاليين ، لأن كل واحد منهما صنف من قبل مؤرخ منفرد، وجمعت مواد هذا المجلد من كتابات عدد من المؤرخين هم:

١ــ ابن فضل الله العمري: شهاب الدين أحمد بن يحيى ، ولد بدمشق سنة ٧٠١هـ/ ١٣٠٢ م، لأسرة عربية عريقة تنتسب إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، وعملت هذه الأسرة منذ قرن تقريبا في ديوان الانشاء بمصر والشام، ومع أن العمري ولد بدمشق فانه شب وتعلم في مصر، واحترف مهنة آله ، فعندما ولي والده كتابة السر في دمشق، عمل أحمد في ديوان الانشاء، ولما تحول والده إلى مصر صار ابنه أحمد هو الذي يقرأ رسائل البريد على الملك الناصر محمد بن قلاوون.

ونال ابن فضل الله معارف جمة ماتوفر في عصره، وحقق مهارة واسعة في كتابة الانشاء والأعمال الديوانية، وأكسبه هذا معلومات موسوعية حول عصره من جميع الجوانب ، ولحسن الحظ أنه أودع هذه المعلومات في عدد من المصنفات أهمها موسوعته « مسالك الابصار في ممالك الأمصار».

وجميع ما كتبه ابن فضل العمري هام جدا ، القليل منه ما نشر ،

والغالب هـو مازال ينتظر النشر ، لاسيما موسوعته « مسالك الأبصار» واهتمت هذه الموسوعة بالمقام الأول « بالجغرافيا والتاريخ»، وما نشر منها حتى الآن قليل جدا ، وهناك محاولات ومشاريع لنشرها كاملة ، وهذا مما يتوجب على المؤسسات الثقافية والمعنية بالتراث في سورية، لأن العمريين ، وإن عاشوا في مصر ظلوا متمسكين بالانتماء الى بلاد الشام.

والجانب الجغرافي في موسوعة العمري متفوق على الجانب التاريخي ، وهذا الجانب على أهميته ، وطريقة عرضه الخاصة لايرقى بأي حال إلى مكانة القسم التاريخي في موسوعة النويري .

لقد لفق الاستاذ فؤاد سزكين نسخة مخطوطة من موسوعة العمري جمعها من عدة مكتبات، ونشرها كما هي مصورة ، لكن بما أنه لم يصور أفضل الموجود من مخطوطات مسالك الأبصار، ولارتفاع ثمن نسخة الكتاب ستظل الفائدة من هذا العمل محدودة جدا.

وعدت الى هذه الطبعة المصورة وصورت منها المواد التاريخية المتعلقة بالحروب الصليبية، ثم نسختها وحققتها، وهي بهذا تنشر للمرة الأولى ، ولاشك ان فيها ما يفيد من معلومات.

٢ـ التاج السبكي : تاج الدين ابو نصر عبد الوهاب بن تقي الدين أبي الحسن علي بن تمام بن يوسف بن موسى بن تمام السبكي ، ولد بمصر سنة ٦٢٧ هـ/ ١٣٢٧م، وتوفي بدمشق سنة ٧٧١هـ/ ١٣٧٠م وهو ابن اربع وأربعين سنة هجرية.

ولد السبكي في بيئة علمية ، ونشأ وسط بيت علم وثقافة ، مما أهله لتولي مناصب دينية وتعليمية رفيعة منذ مطلع شبابه، فقد مارس الافتاء

وهو في العشرين من عمره وولي الخطابة في الجامع الأموي، وولي القضاء أيضا، وتعرض للمحنة وسجن مدة ثمانين يوما، وانعكس هذا في تصنيفه لكتابه «معيد النعم ومبيد النقم ».

وعلى أهمية هذا الكتاب صنف السبكي كتبا أخرى خاصة في تراجم الشافعية فقد صنف طبقات الشافعية الكبرى، ثم اختصره الى طبقات وسطى ثم اختصره الى طبقات صغرى.

وبما أن صلاح الدين الأيوبي كان شافعي المذهب ، فقد ترجم له السبكي ترجمة وافيه، لسوء الحظ أنها وصلتنا مبتورة الآخر، وقمت باعادة تحقيق هذه الترجمة وضبطها مجددا، وايداعها في موسوعتنا هذه لتكتمل الفائدة.

٣ــ ابن قاضي شهبة : بدر الدين ابو الفضل محمد بن تقي ابن قاضي شهبة، الأسدي الشافعي الدمشقي ، ولد في دمشق سنة ٧٩٨هـ/ ١٣٩٦م وفيها نشأ ، وكان أبوه من علماء عصره ، اهتم بتثقيفه بنفسه، ودفعه أيضا الى رجال العلم والدين في أيامه، وقد تسلم عدة مناصب دينية وتعليمية ، وصنف عدة كتب منها في التاريخ سيرة لنور الدين محمود بن زنكي ، وكان قد عدّ في أيامه فقيه الشام بغير مدافع، عليه مدار الفتيا والمهم من الاحكام ، وظل يتمتع بصدارته حتى وفاته سنة ٨٧٤هـ/ ١٤٦٩م.

وتعرفت للمرة الأولى على كتابه الذي كتب فيه سيرة نور الدين سنة ١٩٦٧ فقد رأيت نسخة منه في مكتبة أياصوفيا، وأخرى في مكتبة نور عثمانية، وكان تصوير المخطوطات وقتها أمراً ميسوراً في استانبول ، وعلى نسخة نور عثمانية اعتمدت في عملي، ذلك أن نسخة أياصوفيا حملت عنوان « الدر الثمين في سيرة نور الدين».

ليس في هذه السيرة ما هو متميز او مبدع سواء في المنهج أو المواد، لكنها السيرة الوحيدة المفردة التي وصلتنا حول نور الدين ، لهذا عمدت الى تحقيق مخطوطتها ونشرها في موسوعتنا هذه.

ومفيد أن أشير أنني بدأت بجمع مواد موسوعتنا هذه منذ ثلاثين سنة، وفي اثناء عملي في المكتبة الوطنية بباريس وقفت على كتيب صغير حمل عنوان «الاعلام والتبيين في خروج الفرنج الملاعين على ديار المسلمين» تصنيف:

٤ـ أحمد بن علي الحريري، لكن من هو أحمد بن علي الحريري هذا؟ ليس في المصادر من كتب التراجم جواب لهذا السؤال، والذي نعرفه فقط أنه كان من رجال القرن العاشر للهجرة ، ذلك أن مخطوطة باريس بخط المؤلف، وهو قد كتبها في أواخر شوال سنة ست وعشرين وتسعمائة [١٥٢٠م].

ليس في الكتاب اشارة أخرى للمصنف ، هذا ولم يذكر الحريري مصادره، وخط الحريري نسخي جميل ، لكن لغته ليست فصحى بل أقرب إلى الدارجة فيها أخطاء كثيرة، نبهت عليها، لكن لم ابدلها ، لأن المخطوطة المعتمدة بخط المؤلف.

وأهمية كتاب الحريري، أنه ربما الوحيد بالعربية الذي أوقفه صاحبه على التاريخ للحروب الصليبية فقط، ذلك أن المؤرخين العرب عرضوا أخبار الحروب الصليبية ضمن الاطار العام لأحداث تاريخ الاسلام فلقد رأينا جميع النصوص المتقدمة قد وردت أصلا ضمن مصنفات تاريخية اسلامية عامة، ولايمكن هنا استثناء كتاب الروضتين ،لأن أبا شامة أوقفه للتأريخ للدولتين الأتابكية النورية والصلاحية الأيوبية.

ولايحوي كتاب الحريري تاريخ الحروب الصليبية بشكل مفصل ، بل كل ما هنالك مجرد اشارات الى أهم الأحداث ـ بنظر المؤلف بشكل متسلسل زمنيا ، مما يوحي بأن المصدر الذي اعتمده بشكل اساسي كان مرتبا حسب طريقة الحوليات، وفي نوعية الاختيار دليل على التذوق التاريخي للمصنف ، أقول تذوقه ، لكن ليس احترافه، فهو كثيرا ما يورد ذكر عدد من الحوادث التي وقعت في سنين متتالية تحت عنوان تاريخ سنة متقدمة ، ثم هو كثيراً ما يخطىء بتواريخه ، ويبدو أنه كان ذا ذوق أدبي بدليل ايراده لبعض المقطوعات الشعرية.

وكنت قد نشرت هذا الكتيب سنة ١٩٨١ في دمشق ، وقمت اللآن باعادة نشره بعد مراجعته وادخال بعض التعديلات على حواشيه.

من الله جل وعلا أرجو التوفيق والعون والسداد، والله تعالى أشكر وأحمد، والصلاة والسلام على خاتم الانبياء وسيد العرب والعجم محمد بن عبد الله وعلى آله وأصحابه أجمعين.

دمشق١٣ جمادى الأولى ١٤١٦ هـ

٧/ ١٠/ ١٩٩٥م

سهيل زكار

من مسالك الأبصار

لابن

فضل العمري

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على محمد واله وسلم

سنة إحدى وأربعين إلى سنة خمسين وخمسمائة

ذكر استيلاء الفرنج على طرابلس

وسبب ذلك أنهم نزلوا عليها وحاصروها فلما كان اليوم الثالث من نزولهم سمع الفرنج في المدينة ضجة عظيمة،وخلت الأسوار من المقاتلة وسببه أن أهل طرابلس اختلفوا فأرادت طائفة منهم تقديم بني مطروح، فوقع الحرب بين الطائفتين، وخلت الأسوار، فانتهز الفرنج الفرصة، وطلعوا بالسلالم وملكوها بالسيف في محرم هذه السنة، وسفكوا دماء أهلها، وبعد أن استقر الفرنج في طرابلس بذلوا الأمان لمن بقي من أهل طرابلس وتراجعت إليها الناس وحسن حالها[1]

وفيها سار زنكي ونزل على قلعة جعبر وحصرها وصاحبها علي بن مالك بن سالم بن مالك بن بدران بن المقلد العقيلي، وأرسل عسكراً إلى قلعة فنك، وهي تجاوز جزيرة ابن عمر فحصرها أيضاً وصاحبها حسام الدين الكردي البشنوي، ولما طال على زنكي منازلة قلعة جعبر أرسل مع حسان البعلبكي الذي كان صاحب منبج يقول لصاحب قلعة جعبر: قل لي من يخلصك مني؟ فقال صاحب جعبر: يخلصني منك الذي خلصك من بلك بن بهرام بن أُرتق، وكان بلك محاصراً لمنبج فجاءه سهم فقتله، فرجع حسان إلى زنكي يخبره بذلك، فاستمر زنكي منازلاً قلعة جعبر، فوثب عليه جماعة من مماليكه وقتلوه في خامس ربيع الآخر هذه السنة بالليل، وهربوا إلى قلعة جعبر، وصاح من بها على العسكر وأعلموهم بقتل زنكي، فدخل أصحابه إليه وفيه رمق، وكان عماد الدين زنكي حسن الصورة ، أسمر اللون، مليح العينين، قد وخطه الشيب، وكان قد زاد عمره على ستين سنة، ودفن بالرقة، وكان شديد الهيبة على

عسكره عظيمها، كان لـه الموصل وما معها من البلاد، وملـك الشام خلا دمشق، وكان شجـاعاً وكانت الأعـداء تحيط بمملكته من كـل جهة وهو ينتصف منهم، ويستولي على بلادهم.

ولما قتل زنكي كـان ولده نور الديـن محمود حاضراً عنده وأخـذ خاتم والده وهو ميت من أصبعه وسـار إلى حلب فملكها، وكان صحبة زنكي أيضاً الملـك ألب أرسـلان بن محمـود بن محمـد بن ملكشـاه السلجوقـي فـركب في يـوم قتل زنكـي واجتمعت عليـه العسـاكر فحسـن له بعـض أصحـاب زنكي الأكـل والشرب وسماع المغـاني، فسـار ألب أرسـلان إلى الرقة وأقـام بها منعكفاً على ذلك.وأرسل كبراء دولة زنكـي إلى ولده سيف الدين غـازي بن زنكي يعلمونـه بالحال وهو بشهرزور، فسـار إلى الموصل واستقـر في ملكها، وأمـا ألب أرسـلان فتفرقـت عنه العسـاكر وسـار إلى الموصل يريد ملكها، فلما قرب منها قبـض عليه غازي بن زنكي، وحبسه في قلعة الموصل واستقر ملك سيف الدين غازي للموصل وبلادها.

وفيها أرسل عبد المؤمـن بن علي جيشاً إلى جزيرة الأندلـس فملكوا ما فيها من بلاد الإسلام، واستولى عليها.

وفيها بعد قتل عماد الدين زنكي قصد مجير الدين ابن صاحب دمشق حصن بعلبك وحصره، وكـان به نجم الدين أيوب بـن شاذي مستحفظاً فخاف أن أولاد زنكي لايمكنهـم انجاده العاجل، فصـالحه وسلم القلعة إليه، وأخـذ منه اقطاعـا ومالاً وملكه عدة قـرى من بلاد دمشـق، وانتقل أيوب إلى دمشق وسلمها.

وفي سنة اثنتين وأربعين

دخل نـور الدين محمود بـن زنكي صاحـب حلب بلاد الفرنـج ففتح منها أرتـاح بالسيـف وحصن مامـولا وبصرفوت وكفـر لاثا، وفيهـا ملك

الفرنج المهدية بـإفريقية. وكان قد حصل بإفريقية غـلاء شديد حتى أكل النـاس بعضهـم بعضـا ودام من سنـة تسـع وثـلاثين وخمسمائة إلى هـذه السنة، ففارق الناس القـرى ودخل أكثرهم صقلية فاغتنـم رجاز الفرنجي صاحـب صقلية هذه الفـرصة وجهـز اسطولاً نحو مـائتين وخمسين شينيا مملوءة رجالاً وسلاحـاً واسم مقدمهم جرج، وساروا مـن صقلية إلى جزيرة قوصرة، وهـي ما بين المهديـة وصقلية، وسـاروا منها وأشرفوا على المهـدية ثامن صفر هـذه السنة وكان في المهدية الحسن بن علي بـن يحيى بن تميم ابن المعـز بن بـاديس الصنهـاجي صـاحب إفـريقية، فجمـع كبار البلـد واستشارهـم فرأ واضعف حـالهم، وقلة المونـة عندهم، فـاتفق رأي الأمير حسن على إخلاء المهديـة ، فخرج منها وأخذ ما خف حملـه، وخرج أهل المدينة على وجـوههم بأهليهم وأولادهـم وبقي الاسطول في البحـر يمنعه الريح من الـوصول إلى المهدية، ثم دخلوا المهديـة بعد مضي ثلثي النهار المذكور بغير مانع ولا مدافع، ولم يكن قد بقي من المسلمين بالمهدية ممن عزم على الخروج أحـد، ودخل جرج مقـدم الفرنـج إلى قصر الأمير حسن . فوجـده على حالـه لم يعدم منه إلا مـا خف حمله، ووجـد فيه جماعـة من حظايا الحسن والذخائر مملوءة من الذخاير النفسية من كل شيء غريب، وسار الأمير حسن بـأمواله وأولاده إلى بعض أمراء الغرب ممـن كان يحسن إليه، وأقام عنـده وأراد الحسن المسير إلى الخليفة الحافظ العلـوي صاحب مصر فلم يقدر على ذلـك لخوف الطرق، فسار إلى ملك بجايـة يحيى بن العزيـز من بنـي حماد، فوكـل يحيى المذكـور على الحسن وعلى أولاده مـن يمنعهم من التصرف ولم يجتمـع يحيى بهم. فأنزلهم في جزائر بنـي مزغنان، وبقي حسن كـذلك حتى ملك عبـد المؤمن بن علي بجايـة في سنة سبع وأربعين وخمسمائة وأخـذهـا هـي وجميع ممـالـك بنـي حماد فحضر الأمير حسن عنـده فأحسـن إليه عبـد المؤمن وأكـرمه، واستمـر في خدمـة عبد المؤمـن إلى أن ملك عبـد المؤمن المهـدية، وأقـام حسن فيهـا، وأمر عبـد المؤمـن الـوالي الـذي ولاه على المهـديـة أن يقتـدي بـرأي الأمير حسـن،

ويرجع إلى قوله، وكان عدة من ملك من بني باديس بن زيري بن مناد إلى الحسن تسعة ملوك، وكانت ولايتهم في سنة إحدى وستين وثلاثمائة ، وانقضت في سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة ، ثم إن جرج بذل الأمان لأهل المهدية، وأرسل وراءهم بذلك وكانوا قد أشرفوا على الهلاك من الجوع ، فتراجعوا إلى المهدية.

وفيها سار ملك الألمان - والألمان بلادهم وراء بلاد القسطنطينية - حتى وصل إلى الشام في جمع عظيم، ونزل على دمشق وحصرها وصاحبها مجير الدين أبق بن جمال الدين محمد بن بوري، والحكم وتدبير المملكة لمعين الدين أنر مملوك جده طغتكين ، وفي سادس ربيع الآخر زحفوا على دمشق ونزل ملك الألمان بالميدان الأخضر، وأرسل أنر إلى سيف الدين غازي صاحب الموصل يستنجده ، فسار بعسكره وسار معه أخوه نور الدين محمود بعسكره ونزلوا على حمص ففت ذلك في أعضاد الفرنج، وأرسل أنر إلى فرنج الشام يبذل لهم قلعة بانياس، فتخلوا عن ملك الألمان واشاروا عليه بالرحيل وخوفوه من امداد المسلمين، فرحل عن دمشق إلى بلاده، وسلم أنر قلعة بانياس إلى الفرنج حسبما شرطه لهم.

وفيها كان من نور الدين محمود ومن الفرنج مصاف بأرض يغرا من العمق، فانهزم الفرنج، وقتل منهم جماعة ، وأسر جماعة، وأرسل من الأسرى والغنيمة إلى أخيه سيف الدين غازي صاحب الموصل.

وفيها ملك الفرنج من الأندلس مدينة طرطوشة وجميع قلاعها، وحصون لارده.

وفيها كان الغلاء العام من خراسان إلى العراق إلى الشام إلى المغرب.

وفيها قُتل نور الدين شاهنشاه بن أيوب أخو صلاح الدين، قتلته

الفرنـج في منازلتهـم لدمشق، فجـرى بينهم وبين المسلمين مصـاف قتل فيه، شاهنشاه، وهو أكبر من صلاح الدين وكانا شقيقين.

وفي سنة أربع وأربعين

توفي غازي بن عماد الدين أتابك زنكي، صاحب الموصل بمرض حاد في أواخر جمادى الآخرة ، وكانت ولايته ثلاث سنين وشهراً وعشرون يوماً، وكان حسن الصـورة، ومولده سنة خمسمائة وخلـف ولداً ذكراً فربـاه عمه نور الدين، وأحسن إليه، وتوفي المذكور شـاباً وانقرض بموته عقب سيف الديـن غازي، وكان سيف الـدين كريماً، يصنـع لعسكره كل يوم طعـاماً كثيراً بكرةً وعشياً، وهـو أول من حمل على رأسه السنجق في ركـوبه، وأمر الأجناد أن لا يـركبوا إلاّ بـالسيوف في أوساطهـم، والدبـوس تحت ركبهم، فلما فعل ذلك اقتـدى به أصحاب الأطراف فلما توفي سيف الـدين غازي كان أخـوه قطب الـدين مـودود بن زنكـي مقيماً بالموصـل، فاتفـق جمال الديـن الوزير وزيـن الدين أمير الجيـش على تمليكه، فحلفاه وحلفـا له، وأطاعه جميع بـلاد سيف الدين أخيه، ولما تملك تـزوج الخاتون ابنة حسام الديـن تمرتاش، صاحـب ماردين، وكـان أخوه سيـف الدين قـد ملكها، ومات قبل الدخول بها، وهي أم أولاد قطب الدين.

وفيها توفي الحافظ العلوي صاحب مصر، وكـانت خلافته عشرين سنة إلاّ خمسـة أشهر، وعمـره نحواً مـن سبـع وسبعين سنة ولم يل الأمر مـن الخلفاء العلويين بمصر من أبوه غير خليفـة غير الحافظ والعاضد على ما سنذكـره، ولما توفي الحافظ بويـع بعده ولده الظافـر بأمر الله أبـو منصور اسماعيـل، واستوزر ابـن مصـال ، فبقـي أربعين يـومـاً، وحضر مـن الاسكندريـة العادل بـن السلار ، وكـان قد خـرج ابن مصـال في طلب بعض المفسدين ، فـأرسل العادل بن السلار ربيبه عبـاس بن أبي الفتوح ابن يحيى بن تميم بن المعز بن باديس الصنهاجي وكان أبوه أبو الفتوح قد

فارق أخاه علي بن يحيى صاحب إفريقية، وقدم إلى الديار المصرية، وتوفي بها فتزوج العادل بن السلار بزوجة أبي الفتوح، ومعها ولدها فرباه العادل وأحسن تربيته، ولما قدم العادل إلى مصر يريد الاستيلاء على الوزارة أرسل ربيبه عباس في عسكر إلى ابن مصال فظفر به عباس وقتله، وعاد إلى العادل بالقاهرة فاستقر العادل في الوزارة ، وتمكن ولم يكن للخليفة معه حكم ، وبقي كذلك إلى سنة ثمان وأربعين وخمسمائة فقتله ربيبه عباس، وتولى الوزارة على ما سنذكره.

وفيها حصر نور الدين محمود بن زنكي حصن حارم، فجمع البرنس صاحب أنطاكية الفرنج، وسار إلى نور الدين محمود، واقتتلوا فانتصر نور الدين ، وقتل البرنس، وانهزم الفرنج، وكثر القتل فيهم، ولما قتل البرنس ملك بعده ابنه بيمند، وهو طفل، وتزوجت أمه برجل آخر وسمي بالبرنس، ثم إن نور الدين غزاهم غزوة أخرى فهزمهم وقتل فيهم وأسر، وكان فيمن أسر البرنس الثاني زوج أم بيمند، فتمكن حينئذ بيمند في ملك أنطاكية.

وفيها زلزلت الأرض زلزلة شديدة ، وفيها توفي معين الدين أنر صاحب دمشق، وهو الذي كان ينسب إليه الحكم فيها، وإليه ينسب قصر معين الدين الذي في الغور.

وفيها تولى أبو المظفر يحيى بن هبيرة وزارة الخليفة المقتفي يوم الأربعاء رابع ربيع الآخر، وكان قتل ذلك اليوم صاحب ديوان الزمام،

وفي سنة خمس وأربعين

في رابع عشر المحرم أخذت العرب جميع الحجاج بين مكة والمدينة ، فهلك أكثرهم ولم يصل منهم إلى البلاد إلاّ القليل.

وفيها سار نور الدين محمود بن زنكي إلى فامية وحصر قلعتها وتسلمها من الفرنج، وحصنها بالرجال والذخائر، وكان قد اجتمع الفرنج وساروا ليرحلوه عنها فملكها قبل وصولهم، فلما بلغهم فتحها تفرقوا.

وفيها سار الأدفونش صاحب طليطلة، بجموع الفرنج إلى قرطبة وحصرها ثلاثة أشهر ولم يملكها ، ورحل عنها .

وفي سنة ست وأربعين

انهزم نور الدين من جوسلين ثم أسر جوسلين، وكان جوسلين من أعظم فرسان الفرنج قد جمع بين الشجاعة وجودة الرأي، وكان نور الدين قد عزم على قصد بلاده، فجمع جوسلين الفرنج وأكثر وسار نحو نور الدين والتقوا، فانهزم المسلمون وأسر منهم جمع كثير وكان من جملة من أسر منهم السلاح دار ، ومعه سلاح نور الدين ، فأرسله جوسلين إلى مسعود بن قلج أرسلان صاحب قونية وأقصرا، وقال: هذا سلاح زوج ابنتك وسيأتيك بعده ما هو أعظم منه، فعظم ذلك على نور الدين وهجر البلاد، وأفكر في أمر جوسلين وجمع التركمان وبذل لهم الوعود إن ظفروا به إما بإمساك أو بقتل ، فأتفق أن جوسلين طلع إلى الصيد فحبسه التركمان وأمسكوه، فبذل لهم مالاً فأجابوا إلى إطلاقه، فسار بعض التركمان إلى أبي بكر بن الداية نائب نور الدين بحلب، فأرسل عسكراً كبسوا التركمان الذين عندهم جوسلين وأحضروه إلى نور الدين أسيراً، وكان أسر جوسلين من أعظم الفتوح، وأصيبت النصرانية كافة بأسره، ولما أسر سار نور الدين إلى بلاده وقلاعه وملكها وهي : تل باشر وعين تاب، ودلوك، وأعزاز، وتل خالد، وقورس، والراوندان، وبرج الرصاص، وحصن البارة، وكفر سود، وكفر لاثا، ومرعش، ونهر الجوز،

وغير ذلك في مدة يسيرة، وكان نور الدين كلما فتح منها موضعاً حصنه بما يحتاج إليه من الرجال والذخائر.

وفي سنة تسع وأربعين

سار عبد المؤمن بن علي إلى بجاية وملكها وملك جميع ممالك بني حماد وأخذها من صاحبها يحيى بن العزيز آخر ملوك بني حماد، وكان يحيى المذكور مولعاً بالصيد واللهو لاينظر في شيء من أمر مملكته، ولما هزم عبد المؤمن عسكر يحيى هرب يحيى وتحصن بقلعة قسنطينة من بلاد بجاية، ثم نزل يحيى إلى عبد المؤمن بالأمان فأمنه وأرسله إلى بلاد المغرب، وأقام بها وأجرى عليه عبد المؤمن رزقاً كثيراً، وقد ذكر في تاريخ القيروان أن مسير عبد المؤمن وملك تونس وإفريقية إنما كان في سنة أربع وخمسين.

وفي هذه السنة في أول رجب توفي السلطان مسعود بن محمد بن السلطان ملكشاه بهمذان، ومولده سنة اثنتين وخمسمائة في ذي القعدة، ومات معه سعادة البيت السلجوقي،فلم يقملهم بعده راية يعتز بها، وكان حسن الأخلاق كثير المزاح والانبساط مع الناس، كريماً عفيفاً عن أموال الرعايا، ولما مات عهد بالملك إلى ابن أخيه ملكشاه بن محمود فقعد في السلطنة ، وخطب له، وكان المتغلب على المملكة أمير يقال له خاص بيك وأصله صبي تركماني اتصل بخدمة مسعود فتقدم على سائر أمرائه، ثم إن خاص بيك المذكور قبض على السلطان ملكشاه بن محمود وسجنه، وأرسل إليه أخيه محمد بن محمود وهو بخوزستان فأحضره، وتولى السلطنة ، وجلس على السرير، وكان قصد خاص بيك أن يمسكه ويخطب لنفسه بالسلطنة، فبدره السلطان محمد ثاني يوم وصوله، فقتل خاص بيك، وقتل معه زنكي الجامدار، وألقى برأسيهما فتفرق أصحابهما.

وفيها جمعت الفرنج وساروا إلى نور الدين وهو محاصر دلوك فرحل عنها وقاتلهم أشد قتال وهزمهم وقتل وأسر منهم خلق كثير، ثم عاد نور الدين إلى دلوك فملكها، ومما مدح به في ذلك:

أعـــــدت بعصرك هـــــذا الجديـــــد
فتـــــوح النبـــــي وأعصـــــارهـــــا

وفي تـــــل بـــــاشر بـــــاشرتهم
بـــزحـــف تســـور أســـوارهـــا

وإن دالكتهـــــم دلـــــوك
فقـــد ســـددت فصـــدقـــت أخبـــارهـــا

ذكر ملك نور الدين محمود دمشق

كان الفرنج قد تغلبوا بتلك الناحية بعد ملكهم عسقلان ، حتى أنهم استعرضوا كل جارية ومملوك بدمشق من النصارى، وأطلقوا قهراً من أراد منهم الخروج من دمشق واللحوق بوطنه شاء صاحبه أم أبى، فخشي نور الدين محمود بن زنكي أن يملكوا دمشق، فكاتب أهل دمشق واستمالهم في الباطن، ثم سار إليها وحصرها ففتح له باب الشرقي، فدّخل وملك المدينة، وحصر مجير الدين أبق بن محمد بن بوري بن طغتكين في القلعة وبذل له اقطاعاً من جملته مدينة حمص، فسلم مجير الدين القلعة إلى نور الدين وسار إلى حمص فلم يعطه إياها نور الدين وأعطاه عوضها بالس، فلم يرضها مجير الدين، وسا ر عنها إلى العراق ، وأقام ببغداد وابتنى داراً بقرب النظامية وسكنها حتى مات بها . وفيها أخذ نور الدين قلعة تل باشر من الفرنج.

سنة إحدى وخمسين إلى ستين وخمسمائة

في سنة إحدى وخمسين ثارت أهل بلاد إفريقية على من بها من الفرنج فقتلوهم، وسار عسكر عبد المؤمن فملك بونه، وخرج جميع أهل إفريقية

عن طاعة الفرنج ما عدا المهدية وسوسة، وفيها قبض زين الدين علي كوجك نائب قطب الدين مودود بن زنكي صاحب الموصل على الملك سليمان شاه بن السلطان محمد بن ملكشاه السلجوقي، وكان سليمان المذكور قد قدم بغداد وخطب له بالسلطنة في هذه السنة ، وخلع عليه الخليفة ، وقلده السلطنة على عادتهم، وخرج من بغداد بعسكر الخليفة ليملك به بلاد الجبل، فاقتتل هو وابن عمه السلطان محمد بن محمود بن ملكشاه، فانهزم سليمان شاه، وسار يريد بغداد على شهرزور، فخرج إليه كوجك بعسكر الموصل فأسره وحبسه بقلعة الموصل مكرماً إلى أن كان منه ما نذكره في سنة خمس وخمسين ، وفيها تاسع جمادى الآخرة توفي خوارزم شاه أطسز بن محمد بن أنوشتكين، وكان قد أصابه فالج فاستعمل أدوية شديدة الحرارة، فاشتد مرضه وتوفي، وكانت ولادته في رجب سنة تسعين وأربع مائة ، وكان حسن السيرة، وملك بعده ابنه أرسلان.

وفيها توفي الملك مسعود بن قلج أرسلان بن سليمان بن قطلومش بن أرسلان بن سلجوق صاحب قونية وغيرها من بلاد الروم، ولما توفي ملك بعده ابنه قلج أرسلان.

وفيها في رمضان هرب السلطان سنجر بن ملكشاه من أسر الغز وسار إلى قلعة ترمذ ثم إلى جيحون، ووصل إلى دار ملكه مرو، وكانت مدة أسره من سادس جمادى الأولى سنة ثمان وأربعين إلى رمضان سنة إحدى وخمسين.

وفيها بايع عبد المؤمن لولده محمد بولاية العهد، وكانت ولاية العهد بعده لأبي حفص عمر، وكان من أصحاب ابن تومرت من أكبر الموحدين،فأجاب إلى خلع نفسه والبيعة لابن عبد المؤمن، وفيها استعمل عبد المؤمن أولاده على البلاد، فاستعمل ابنه عبد الله على بجايةوأعمالها،

وابنه عمر على تلمسان وأعمالها، وابنه علياً على فاس وأعمالها، وابنه أبا سعيد على سبته والجزيرة الخضراء وما لقه وكذلك غيرهم.

وفيها سار الملك محمد بن سلطان محمد السلجوقي من همذان بعساكره إلى بغداد وحصرها، وجرى بينهم قتال، وحصن الخليفة دار الخلافة واعتد للحصار ، واشتد الأمر على أهل بغداد وبينا الملك محمد على ذلك إذ وصل إليه الخبر أن أخاه ملك شاه وألدكز صاحب بلاد أران، ومعه الملك أرسلان بن طغريل بن السلطان محمد، وكان ألدكز مزوجاً بأم أرسلان المذكور، قد دخلوا إلى همذان، فسار الملك محمد من بغداد إليهم في الرابع والعشرين من ربيع الأول.سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة

وفيها احترقت بغداد فاحترق درب قراسا، ودرب اللبان وخزانه ابن جرد، والظفرية والخاتونية، ودار الخلافة وباب الأزج، وسوق السلطان، وغير ذلك .

وفيها قتل مظفر بن حماد صاحب البطيحة في الحمام، وتولى بعده ابنه.

وفي سنة اثنتين وخمسين

في رجب كـان بالشام زلازل قـوية، فخربـت بها حماه، وشيزر، وحمص، وحصن الأكراد، وطرابلس، وأنطاكيـة وغيرها من البلاد المجاورة لها حتى وقعت الأسوار والقـلاع فقام نور الديـن بن زنكي في ذلك القيـام الرضي مـن تداركهـا بالعماره وإغـارته على الفـرنـج ليشغلهم عـن قصد البـلاد وهلك تحت الردم مـالا يحصى، ويحكى أن معلم كتاب كـان بمدينة حماه فارق المكتـب، وجاءت الـزلزلـة فسقط المكتـب على الصبيان كلهـم فلم يحضر أحد يسأل عن صبي هناك لهلاكهم، ولما خربت شيزر بهذه الزلزلة وسقط سورها فبـادر إليها بعض أمراء نور الدين محمـود بن زنكي، وكان بالقـرب منها ، فصعد إليهـا، وتسلمها وتملكها، وعمـر أسوارها، وكـانت شيزر لبنـي منقذ الكنانيين يتـوارثونها من أيام صـالح بن مـرداس، هكذا ذكر ابن الأثير في الكـامل أن بني منقذ المذكـورين ملكوا شيزر مـن أيام صالح بـن مرداس[٢]وكان ملـك صالح بـن مرداس حلب في سنـة أربع عشرة وأربع مائة وانقضـى ملكه سنة عشرين وأربع مـائة وقد ذكر (غير) ابـن الاثير مثل القـاضي شمس الـديـن ابن خلكـان، والقاضي شهـاب الديـن ابن أبي الـدم الحموي وغيرهما ما يخالـف ذلك، ونحـن نذكـر ما قـالوه مختصراً، ثـم نرجـع إلى ما ذكـره ابـن الأثير قالـوا: وفي سنة أربـع وتسعين وأربعمائة استولى بنـو منقذ على شيزر وأخـذوها من الـروم، قال ابن أبي الدم :وكـان فتحها منهـم علي بن مقلد بن نصر بـن منقذ ، قال: ورد كتابه إلى بغـداد لشرح قصته ، فمنه بعد البسملة :« كتابي من حضره شيزر، حماها الله تعـالى، وقد رزقني الله عز وجل مـن الاستيلاء على هذا المعقل العظيـم مالم يتـأت لمخلوق في هـذا الزمـان وإذا عرف الأمـر على حقيقتـه علم أني هـاروت هذه الأمـة ، وسليمان الجن والمردة وأنني أفـرق بين المرء وزوجته واستنزل القمر من محله، أنـا أبو النجم والشعرى شعري نظـرت إلى هذا الحصـن فرأيـت أمراً يـذهـل الألباب يسـع ثلاثـة آلاف بالأهـل والمال ويمسكه خمس نسـوة، فعمدت إلى تـل بينه وبين حصـن

الـروم يعرف بـالخراص، ويسمـى هذا التـل تـل الجسر فعمـرته حصنـاً، وجمعـت فيه أهلي وعشيرتي، وقفـزت قفـزة على حصـن الخراص فأخـذتـه بالسيف من الروم، ومع ذلك فلما أخذت من به من الروم أحسنت إليهم وأكـرمتهـم ومـزجتهـم بـأهلي وعشيرتي، وخلطـت خنـازيـرهـم بغنمـي ونـواقيسهـم بصـوت الأذان ، فـرأى أهـل شيـزر فعلي ذلـك وأنسـوا بي، ووصل إليهـم مني الأكرام والاتحاف، فوصـل إليّ منهم نصفهم، فبـالغت في إكرامهم، ووصل إلي مسلـم بن قريش فقتل منهم مـن أهل شيزر نحو عشرين رجلاً فلما انصرف عنهـم مسلم سلموا الحصن إليّ» هـذا خلاصة ما ذكره القاضي شهـاب الدين المذكور، وبين ما ذكره ومـا ذكره ابن الأثير من التفاوت أكثر من خمسين سنة.

قال الملك عماد الدين[٣] :والذي يخطر لي أن ما ذكره ابن الأثير أولى، لأن حماة وشيزر فتحتـا مع الشام على يـد أبي عبيدة بـن الجراح رضي الله عنه، واستمـر الشام للمسلمين إلى حدود سنـة تسعين وأربع مـائة، فسار الفرنـج إلى الشام وملكـوا أعاليـه بسبب اشتغـال ملوك المسلمين بقتـال بعضهم بعضاً، ولم يذكر ملكهم لشيزر.

قـال ابـن الأثير: فلما انتهـى ملـك شيـزر إلى نصر بـن علي بـن منقـذ استمر فيها إلى أن مـات سنة إحدى وتسعين وأربعمائة، فلما حضره الموت استخلف أخـاه مرشد بـن علي على حصن شيـزر، فقال مرشـد: والله لا وليته ولأخـرجن مـن الدنيـا كما دخلتها، ومـرشد هـو والد مـؤيد الـدولة أسامـة ابن منقذ، فلما امتنـع مرشد مـن الولاية ولاهـا نصر أخاه الصغير سلطان الدولة بن علي، واستمر مـرشد مع أخيه سلطان على أجمل صحبة مدة من الـزمان وكان لمرشد عـدة أولاد نجباء، ولم يكن لسلطان ولـد، ثم جـاء لسلطـان أولاد، فخشي عليهـم مـن أولاد أخيـه مـرشـد ،وسعـى المفسـدون بين مـرشـد وسلطـان، فتغير كـل منهما على صـاحبـه فكتـب سلطان إلى أخيه مـرشد أبياتاً يعاتبـه، وكان مرشد عـالماً بالأدب والشعر،

فأجابه مرشد بقصيدة طويلة منها:

شكت هجرنا والذنب في ذاك ذنبها
فيا عجباً من ظالم جاء شاكيا

وطاوعت الواشين فيّ وطالما
عصيت عذولاً في هواها وواشيا

ومال بها تيه الجمال إلى القلى
وهيهات أن أمسي لها الدهر قاليا

ولما أتاني من قريضك جوهر
جمعت المعالي فيه والمعانيا

وكنت قد هجرت الشعر حيناً لأنه
تولى برغمي حين ولى شبابيا

وقلت أخي يرعى بني وأسرتي
ويحفظ عهدي فيهم وذماميا

فما لك لما أن حنى الدهر صعدتي
وثلم مني صارماً كان ماضيا

تنكرت حتى صار برك قسوة
وقربك مني جفوة وتنائيا

على أنني ما حلت عما عهدته
ولا غيرت هذي الشؤون وداديا

وكان الأمر بين مرشد وأخيه سلطان فيه تماسك إلى أن توفي مرشد سنة إحدى وثلاثين وخمس مائة، فأظهر سلطان التغير على أولاد أخيه وجاهرهم بالعداوة ففارقوا شيزر، وقصد أكثرهم نور الدين محمود بن زنكي، وشكوا إليه من عمهم سلطان، فغاظه ذلك ولم يمكنه قصده لانشغاله بجهاد الفرنج، وبقي سلطان كذلك إلى أن توفي وولي بعده أولاده، فلما خربت القلعة هذه السنة بالزلزلة لم ينج من بني منقذ الذين كانوا بها أحد، كان صاحبها قد ختن ولده وعمل دعوة للناس، وأحضر جميع بني منقذ في داره، وجاءت الزلزلة فسقطت القلعة والدار عليهم

فهلكوا عن آخرهم، وكان لصاحب شيزر بن منقذ حصان يحبه، ولايزال على باب داره، فلما سقطت الدار سلم من بني منقذ واحد وهرب يطلب باب الدار فلما خرج رفسه الحصان المذكور فقتله ، وتسلم نور الدين القلعة والمدينة.

وفي هذه السنة توفي السلطان سنجر بن ملكشاه بن ألب أرسلان بن داود بن ميخائيل بن سلجوق وأصابه قولنج، ثم اسهال فمات منه، ومولده بسنجار في رجب سنة تسع وسبعين وأربعمائة استوطن مدينة مرو في خراسان، وقدم بغداد مع أخيه السلطان محمد واجتمع بالخليفة المستظهر ، فلما مات محمد خوطب سنجر بالسلطان ، واستقام أمره وأطاعته السلاطين، وخطب له على منابر الاسلام بالسلطنة نحو أربعين سنة، وكان قبلها يخاطب بالملك نحو عشرين سنة، ولم يزل أمره عاليا إلى أن أسره الغز، ولما خلص من أسرهم وكاد أن يعود إليه ملكه أدركه أجله، وكان مهيباً كريماً، وكانت البلاد في زمانه آمنة، ولما وصل خبر موته إلى بغداد قطعت خطبته، ولما حضر السلطان سنجر الموت استخلف على خراسان الملك محمود بن محمد بن بغراخان ، وهو ابن أخت سنجر، فأقام خائفاً من الغز.

وفيها استولى أبو سعيد بن عبد المؤمن على غرناطة من الاندلس وأخذها من الملثمين، وانقرضت دولة الملثمين ولم يبق لهم غير جزيرة ميورقة، ثم سار أبو سعيد في جزيرة الأندلس وفتح المرية، وكانت بأيدي الفرنج مدة عشر سنين.

وفيها أخذ نور الدين بعلبك من انسان كان استولى عليها يقال له الضحاك البقاعي، وكان قد ولاه صاحب دمشق عليها، فلما ملك نور الدين دمشق استولى الضحاك على بعلبك.

وفيها قلع الخليفة المقتفي باب الكعبة وعمل عوضه باباً مصفحاً بالفضة والذهب ، وعمل لنفسه من الباب الأول تابوتاً فدفن فيه.

وفي سنة ثلاث وخمسين

قصد السلطان ملكشاه بن محمود السلجوقي قم وقاشان ونهبها وكان أخوه السلطان محمد بن محمود بعد رحيله عن حصار بغداد قد مرض، وطال مرضه، فأرسل إلى أخيه محمد أن يكف عن النهب ويجعله ولي عهده، فلم يقبل ملكشاه ذلك، ثم سار ملكشاه إلى خوزستان فأخذها من صاحبها شملة التركماني.

وفي أواخر سنة أربع وخمسين

نزل عبد المؤمن على مدينة المهدية، وأخذها من الفرنج يوم عاشوراء سنة خمس وخمسين، وملك جميع إفريقية، وكان قد ملك الأفرنج إفريقية في سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة، وأخذوها من صاحبها الحسن بن علي بن يحيى بن تميم الصنهاجي، وبقيت في أيديهم إلى هذه السنة ففتحها عبد المؤمن ، فكان ملك الفرنج للمهدية اثني عشرة سنة تقريباً، ولما ملكها عبد المؤمن أصلح أحوالها، واستعمل عليها بعض أصحابه، وكان قد سار إلى بني حماد ملوك بجاية، ثم اتصل بعبد المؤمن حسبما تقدم، فأقام عنده مكرماً إلى هذه السنة ، فأعاده عبد المؤمن إلى المهدية وأعطاه بها دوراً نفيسة واقطاعاً، ثم رحل عبد المؤمن عنها إلى المغرب.

وفيها توفي السلطان محمد بن محمود بن محمد بن ملكشاه السلجوقي في ذي الحجة ، وهو الذي حاصر بغداد، ولما عاد عنها لحقه سل وطال به فمات بباب همذان، وكان مولده في ربيع الآخر سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة وكان كريماً عاقلاً خلف ولداً صغيراً، ولما حضره الموت سلم ولده إلى آق سنقر الأحمديلي، وقال أنا أعلم أن العساكر لاتطيعه لأنه

طفل، فهو وديعة عندك فأرحل به إلى بلادك فرحل.به آق سنقر إلى بلد مراغة، ولما مات السلطان محمد اختلفت الأمراء فطائفة طلبت ملكشاه أخاه ، وطائفة طلبوا سليمان شاه بن محمد بن ملكشاه بن السلطان ألب أرسلان الذي كان اعتقل في الموصل، وهم الأكثر ، ومنهم من طلب أرسلان بن طغريل الذي مع ألدكز، وبعد موت محمد سار أخوه ملكشاه إلى أصفهان وملكها.

وفيها مرض نور الدين محمود بن زنكي مرضاً شديداً وأرجف بموته بقلعة حلب فجمع أخوه أمير ميران بن زنكي جمعاً، وحصر قلعة حلب، وكان شيركوه بحمص، وهو من أكبر أمراء نور الدين ، فسار إلى دمشق ليستولي عليها، وبها أخوه نجم الدين أيوب، فأنكر عليه أيوب ذلك، وقال أهلكتنا ، المصلحة أن تعود إلى حلب فإن كان نور الدين حياً خدمته في هذا الوقت ، وإن كان ميتاً فأنا في دمشق أكفيكها، فعاد شيركوه إلى حلب مجداً، وجلس نور الدين في شباك يراه الناس، فلما رأوه حياً تفرقوا عن أخيه أمير ميران، واستقامت الأحوال .

وفيها استقر في ملك اليمن علي بن مهدي وأزال ملك بني نجاح على ما قدمنا ذكره في سنة اثنتي عشرة وأربعمائة، وعلي بن مهدي المذكور من حمير من قرية يقال لها العنبرة من سواحل زبيد، كان أبوه مهدي رجلاً صالحاً ونشأ ابنه على طريقة أبيه في العزلة والتمسك بالصلاح، ثم حج واجتمع بالعراقيين، وتضلع من معارفهم، ثم صار واعظاً وكان فصيحاً صبيحاً، حسن الصوت، عالماً بالتفسير، غزير المحفوظات، وكان يتحدث في شيء من أحوال المستقبلات فيصدق، فمالت إليه القلوب واستفحل أمره ، وصار له جموع ، فقصد الجبال وأقام بها إلى سنة إحدى وأربعين وخمسمائة ثم عاد إلى أملاكه، وكان يقول في وعظه:أيها الناس دنا الوقت ،أزف الأمر كأنكم بما أقول لكم قد رأيتموه عياناً، ثم عاد إلى الجبال إلى حصن يقال له الشرف وهو لبطن من خولان، فاطاعوه

وسماهم الأنصار وسمى كل من صعد معه من تهامة المهاجرين ، وأقام على خولان رجلاً اسمه سبأ وعلى المهاجرين رجلاً اسمه النويتي، وسمى كلا الرجلين شيخ الإسلام وجعلهما نقيبين على الطائفتين ، فلا يخاطبه أحد غيرهما وهما يوصلان كلامه إلى الطائفتين وحوائجهما إليه، وأخذ يغادي الغارات ويراوحها على التهائم حتى أجلى البوادي، وقطع الحرث والقوافل، ثم إنه حاصر زبيد، واستمر مقيماً عليها حتى قتل فاتك بن محمد آخر ملوك بني نجاح قتله عبيدة، وجرى بين ابن مهدي وعبيد فاتك حروب شديدة وآخر ها أن ابن مهدي انتصر عليهم، وملك زبيد، واستقر في دار الملك يوم الجمعة رابع عشر رجب،اعني سنة أربع وخمسين،وبقي ابن مهدي في الملك شهرين وإحدى وعشرين يوماً، ومات علي بن مهدي في السنة التي ملك فيها، فملك اليمن بعده ولده مهدي ، ثم عبد النبي بن مهدي بن علي بن مهدي ، وخرجت المملكة من عبد النبي إلى أخيه عبد الله ثم عادت إلى عبد النبي واستقر فيها حتى سار إليه توران شاه بن أيوب من مصر في سنة تسع وستين وخمسمائة، وفتح اليمن واستقر في ملكه، وأسر عبد النبي، وهو آخر ملوك اليمن من آل مهدي، وكان مذهب علي بن مهدي التكفير بالمعاصي، وقتل من خالف اعتقاده من أهل القبلة ، واستباحة وطيء سباياهم واسترقاق ذراريهم، وكان حنفي الفروع، وكان أصحابه يعتقدون فيه فوق ما يعتقده الناس في الأنبياء صلوات الله عليهم، ومن مذهبه قتل من سرق ومن سمع الغناء(٤).

وفي سنة خمس وخمسين

سار سليمان شاه إلى همذان وما كان منه إلى أن مات ، وسببه أنه لما مات محمد بن محمود بن محمد بن ملكشاه السلجوقي أرسلت الأمراء وطلبت عمه سليمان شاه بن محمد بن ملكشاه ليولوه السلطنة، وكان قد اعتقل في الموصل مكرماً، فجهزه قطب الدين مودود بن زنكي صاحب

الموصل بشيء كثير، وجهاز يليق بالسلطنة وسار معه زين الدين علي كوجك بعسكر الموصل إلى همذان، وأقبلت العساكر إليه كل يوم تلقاه طائفة وأمير، ثم تسلطت العساكر عليه ، ولم يبق له حكم، وكان سليمان شاه فيه تهور، وكان يدمن شرب الخمر، حتى شرب في رمضان نهاراً، وكان يجمع عنده المساخر ولا يلتفت إلى الأمراء، فأهمل العسكر بابه، وكانوا لايحضرون بابه، وكان قد رد جميع الأمور إلى شرف الدين كرديان الخادم، وهو من مشايخ خدام السلاجقة يرجع إلى دين وحسن تدبير، فاتفق أن سليمان قعد يشرب بالجبل ظاهر همذان فحضر إليه مشايخ خدام السلاجقة فسلط عليهم المساخر فعبثوا بهم، فحضر إليه كرديان ولامه فأمر المساخر فعبثوا بكرديان أيضاً، حتى أن بعضهم كشفوا له سوءته، فاتفق كرديان مع الأمراء على قبضه، وعمل كرديان دعوة عظيمة فلما حضرها سليمان شاه قبض عليه كرديان وحبسه، وبقي في الحبس مدة ثم أرسل إليه كرديان من خنقه، وقيل سقاه سماً فمات في ربيع الآخر سنة ست وخمسين ، ولما مات سار ألدكز بعشرين ألفاً ومعه أرسلان شاه بن طغريل بن محمد بن ملكشاه ابن السلطان ألب أرسلان ، ووصل إلى همذان فلقيه كرديان وأنزله بدار المملكة وخطب لأرسلان شاه بالمملكة وكان الدكز متزوجاً لأم أرسلان شاه، فولدت لألدكز أولاداً منهم البهلوان محمد وقزل أرسلان عثمان ابنا الدكز، وبقي ألدكز أتابك أرسلان وابنه البلهوان أخو أرسلان لأمه حاجبه، وكان ألدكز أحد مماليك السلطان مسعود اشتراه في أول أمره ثم أقطعه أران وبعض بلاد أذربيجان، فعظم شأنه ، وقوي أمره، ولما خطب لأرسلان شاه بالسلطنة في تلك البلاد أرسل ألدكز إلى بغداد يطلب الخطبة لأرسلان شاه بالسلطنة على عادة الملوك السلجوقية، فلم يجب إلى ذلك ، وقد قدمنا موت سليمان وولاية أرسلان لتتصل الحادثة.

وفيها توفي الفائز بنصر الله أبو القاسم عيسى بن الظافر اسماعيل خليفة مصر، وكانت خلافته ست سنين وشهرين، وكان عمره لما ولي

خمس سنين ولما ولي دخل الصالح ابن رزيك القصر، وسأل عمن يصلح فأحضر منهم إنسان كبير السن، فقال بعض أصحاب الصالح:لايكون عباس أحزم منك حيث اختار الصغير، فأعاد الصالح الرجل إلى موضعه وأحضر العاضد لدين الله أبي محمد عبد الله بن الأمير يوسف بن الحافظ، ولم يكن أبوه خليفة، وكان العاضد ذلك الوقت مراهقاً فبايع له بالخلافة، وزوجه الصالح ابنته ونقل معها من الجهاز مالا سمع بمثله.

وفيها في ربيع الآخر توفي الخليفة المقتفي لأمر الله أبي عبد الله محمد ابن المستظهر أبي العباس أحمد بعلة التراقي.

خلافة المستنجد بالله بن المقتفي ثاني ثلاثين خلفاء بني العباس رضي الله تعالى عنهم

وبويع له لما توفي أبوه المقتفي، وبايعه أهله وأقاربه فمنهم عمه أبو طالب ، ثم أخوه أبو جعفر ، وأمه أم ولد تدعى طاووس، ثم بايع الوزير ابن هبيرة وغيرهم.

وفيها في رجب توفي السلطان خسرو شاه بن بهرام شاه بن مسعود بن إبراهيم بن مسعود بن محمود بن سبكتكين صاحب غزنه ، وكان عادلاً حسن السيرة وكانت ولايته في سنة ثمان وأربعين وخمسمائة ، ولما مات ملك ابنه ملكشاه وقيل إن خسرو شاه مات في حبس غياث االدين الغوري ، وأنه آخر ملوك آل سبكتكين حسبما تقدم في سنة سبع وأربعين. وفيها توفي السلطان ملكشاه بن محمود بن محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان بأصفهان مسموماً.

وفيها حج أسد الدين شيركوه بن شاذي مقدم جيش نور الدين محمود بن زنكي.

وفي سنة ست وخمسين

في ربيع الآخر توفي الملك علاء الـدين الحسن بن الحسين الغوري ملك الغور. وكان عادلاً حسن السيرة ، ولما مات ملـك بعده ابن أخيه غياث الدين محمد ، وقد قدمنا ذلك في سنة سبع وأربعين.

وفيها تقدم المؤيد آي آبه السنجري بامساك أعيان نيسابور لأنهم كانوا رؤساء للحرامية والمفسدين وأخذ المؤيد بقتـل المفسدين فخربت نيسابور وكان من جملة ما خرب مسجد عقيـل، وكان مجمعاً لأهل العلم ، وكان فيـه خـزائن الكتب الموقـوفـة، وخـرب مـن مدارس الحنفيـة سبـع عشرة مدرسة، وأحرق ونهب عدة من خزائن الكتب وأما الشاذياخ(٥) فإن عبد اللـه بن طـاهـر بن الحسين بنـاهـا لما كان أميراً للمـأمـون على خراسـان وسكنهـا هو والجنـد، ثم خـربت بعـد ذلـك، ثم جـددت في أيام ألـب أرسلان السلجوقي ثم تشعثت بعد ذلك فلما كان الآن وخربت نيسابور ، أمر المؤيد آي آبه بإصلاح سور الشـاذياخ وسكنها هو والناس ، فخربت نيسابور كل الخراب، ولم يبق بها أحد.

وفي هذه السنة في رمضان قتل الملك الصـالح أبو الغارات طلائع بن رزيك الأرمني وزير العاضد العلوي، جهـزت عليه عمة العاضد من قتله بالسكاكين، وهو داخل في دهليز القصر، فحمـل إلى بيته وبه رمق فأرسل يعتب العـاضد، فأرسـل العاضد يحلـف له أنه مـا علم بذلـك، وأمسك العاضـد عمته فـأرسلها إلى طلائع فقتلهـا، وسأل العـاضد أن يـولي ابنه رزيك الوزارة، ولقب العادل، ومات طلائع فاستقر ولـده العادل رزيك في الوزارة.

وفيها ملك عيسى مكة شرفها الله تعالى، وكان أمير مكة قاسم بن أبي فليتـه بن قـاسم بـن أبي هـاشم العلـوي، فلما وصل أمير الحاج إلى مكـة

رتب عوض قاسم عمه عيسى بن قاسم بن أبي هاشم فبقي كذلك إلى شهر رمضان، ثم إن قاسم بن أبي فليته جمع العرب وقصد عمه عيسى، فلما قارب مكة رحل عنها عيسى وعاد قاسم إلى ملكها، ولم يكن معه ما يرضي به العرب، فكاتبوا عمه عيسى وصاروا معه، وقدم عيسى إليهم وهرب قاسم وصعد إلى جبل أبي قبيس، فسقط عن فرسه فأخذه أصحاب عمه عيسى وقتلوه، فغسله عيسى ودفنه بالمعلى عند أبيه أبي فليته، واستقرت مكة لعيسى.

وفيها عبر عبد المؤمن بن علي المجاز إلى الأندلس، وبنى على جبل طارق من الأندلس مدينة حصينة، وأقام بها ستة أشهر، وعاد إلى مراكش.

وفيها ملك قرا أرسلان صاحب حصن كيفا قلعة سابان، وكانت لطائفة من الأكراد، ولما ملكها خربها وأضاف أعمالها إلى حصن طالب.

وفي سنة سبع وخمسين

نازل نور الدين محمود بن زنكي قلعة حارم وهي للفرنج مدة، ثم رحل عنها ولم يملكها.

وفيها سارت الكرج في جمع عظيم ودخلوا بلاد الإسلام، وملكوا مدينة دوين من أعمال أذربيجان ونهبوها، ثم جمع ألدكز صاحب أذربيجان جمعاً وغزا الكرج وانتصر عليهم وقتل منهم مقتلة عظيمة.

وفيها حج الناس فوقع فتنة وقتال بين صاحب مكة وأمير الحاج، فرحل الحجاج ولم يقدر بعضهم على الطواف بعد الوقوف، قال ابن الأثير: وكان ممن حج ولم يطف جدته أم أبيه، فوصلت إلى بلادها وهي على احرامها إلى قابل، فاستفتت الشيخ أبا القاسم بن البرزي، فأفتى أنها إذا ما دامت على إحرامها إلى قابل وطافت حمل حجها الأول ثم تفدي

وتحل ثم تحرم احراماً ثانياً وتقف بعرفات وتعمل مناسك الحج فيصير لها حجة ثانية فبقيت على احرامها إلى قابل وفعلت كما قال، فتم حجها الأول والثاني. وفيها مات الكيا الضياء الصنهاجي(٦) صاحب ألموت مقدم الاسماعيلية، وقام ابنه مقامه فأظهر التوبة.

وفي سنة ثمان وخمسين

في صفر وزر شاور للعاضد لدين الله العلوي، وكان شاور يخدم الصالح طلائع بن رزيك ، فولاه الصعيد وكانت الصعيد أكبر المناصب بعد الوزارة، ولما جرح الصالح أوصى ولده العادل أن لايغير على شاور شيئاً لعلمه بقوة شاور، فلما تولى العادل بن الصالح الوزارة كتب إلى شاور بالعزل، فجمع شاور جموعه وسار نحو العادل إلى القاهرة، فهرب العادل فطرد شاور وراءه وأمسكه وقتله وانقضت بمقتله دولة بني رزيك، واستقر شاور في الوزارة ، وتلقب أمير الجيوش، وأخذ أموال بني رزيك وودائعهم، ثم إن أبا الأشبال ضرغام جمع جمعاً، ونازع شاور في الوزارة في شهر رمضان وقوي على شاور ، فانهزم شاور إلى الشام مستنجداً بنور الدين.

ولما تمكن ضرغام من الوزارة قتل كثيراً من الأمراء المصريين لتخلو له البلاد، فضعفت الدولة لهذا السبب حتى خرجت البلاد من أيديهم.

وفيها في العشرين من جمادى الآخر توفي عبد المؤمن بن علي صاحب بلاد المغرب ، وإفريقية، والأندلس، وكان قد سار من مراكش إلى سلا فمرض بها ومات ، ولما حضره الموت جمع جيوش الموحدين وقال لهم : قد جربت ابني محمداً فلم أجده يصلح لهذا الأمر، وإنما يصلح له ابني يوسف فقدموه وبايعوه ودعي بأمير المؤمنين، فاستقرت قواعد ملكه ، وكانت مدة ولاية عبد المؤمن ثلاثاً وثلاثين سنة وشهوراً، وكان حازماً

سديد الرأي حسن السياسة للأمور ، كثير سفك الدم على الذنب الصغير، وكان يعظم أمر الدين ويقويه ويلزم الناس بالصلاة بحيث أنه من رُئي في وقت الصلاة غير مصل قتل، وجمع الناس في المغرب على مذهب الإمام مالك رضي الله عنه في الفروع، وعلى مذهب أبي الحسن الأشعري في الأصول.

وفيها ملك آي آبه السنجري قومس، ولما ملكها ارسل إليه السلطان أرسلان بن طغريل بن محمد بن ملكشاه خلع وألوية وهدية جليلة، فلبس المؤيد الخلعة وخطب له في بلاده.

وفيها كبس الفرنج نور الدين محمود وهو نازل بعسكره في البقيعة تحت حصن الأكراد فلم يشعر نور الدين إلاّ وقد اطلت عليهم صلبان الفرنج، وقصدوا خيمة نور الدين فلسرعة ذلك ركب نور الدين فرساً وفي رجله الشبحة، فنزل كردي وقطعها فنجا نور الدين وقتل الكردي، فأحسن نور الدين إلى مخلفيه، ووقف عليهم الوقوف وسار نور الدين إلى بحيرة حمص فنزل عليها ، وتلاحق به من سلم من المسلمين.

وفيها أمر المستنجد بإجلاء بني أسد وهم أهل الحلة الزيدية، فقتل منهم جماعة وهرب الباقون وتشتتوا في البلاد وذلك لفسادهم في البلاد وسلمت بطائحهم وبلادهم إلى رجل يقال له ابن معروف.

وفي سنة تسع وخمسين

سير نور الدين محمود بن زنكي عسكراً مقدمهم أسد الدين شيركوه ابن شاذي إلى الديار المصرية ومعهم شاور، وكان قد سار من مصر هارباً من ضرغام الوزير، فلحق شاور بنور الدين واستنجده، وبذل له ثلث أموال مصر بعد رزق جندها إن أعاده إلى الوزارة، فوصل شيركوه إلى مصر، وهزم عسكر ضرغام عند قبر السيدة نفيسة، وأعاد شاوراً إلى

وزارته، وكان مسير أسد الدين في جمادى الأولى هذه السنة، واستقر شاور في الوزارة ، وخرجت إليه الخلع في مستهل رجب من هذه السنة، ثم غدر شاور بنور الدين، ولم يف له بشيء مما شرط فسار أسد الدين واستولى على بلبيس والشرقية، فأرسل شاور يستنجد بالفرنج ليخرجوا أسد الدين شيركوه من البلاد ، فسار الفرنج واجتمع معهم شاور بعسكر مصر وحصروا شيركوه ببلبيس ودام الحصار ثلاثة أشهر ، وبلغ الفرنج حركة نور الدين وأخذه حارم، فراسلوا شيركوه في الصلح،وفتحوا له فخرج من بلبيس بمن معه من العسكر، ووصلوا إلى الشام سالمين.

وفيها في شهر رمضان فتح نور الدين محمود قلعة حارم وأخذها من الفرنج بعد مصاف جرى بينه وبين الفرنج، فانتصر نور الدين ، وقتل وأسر من الفرنج عالماً كثيراً، وكان في جملة الأسرى البرنس صاحب انطاكية والقومص صاحب طرابلس، وغنم منهم المسلمو ن شيئاً كثيراً.

وفيها في ذي الحجة سار نور الدين وفتح بانياس، وكانت بيد الفرنج من سنة ثلاث وأربعين وأربعمائة إلى هذه السنة.

وفيها توفي جمال الدين أبو جعفر محمد بن علي بن أبي منصور الأصفهاني وزير قطب الدين مودود بن زنكي،صاحب الموصل في شعبان مقبوضا عليه، وكان قد قبض عليه قطب الدين في سنة ثمان وخمسين، وكان قد تعاهد جمال الدين المذكور وأسد الدين شيركوه أنه من مات منهما قبل الآخر ينقله الآخر إلى مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم فيدفنه بها، فنقله شيركوه ، وقد ذكرنا طرفاً من أخباره مع الوزراء.

وفي سنة ستين وخمسمائة

في ربيع الأول توفي بمازندران شاه رستم بن علي بن شهريار بن قارن، وملك بعده ابنه علاء الدين الحسن، وفيها ملك المؤيد آي آبه مدينة

هراة، وفيها كان بين قليج أرسلان بن مسعود بن قليج أرسلان صاحب قونية وما جاورها من بلاد الروم وبين ياغي سيان صاحب ملطية وما يجاورها حروب شديدة وانهزم فيها قليج أرسلان فاتفق موت ياغي سيان صاحب ملطية في تلك المدة، وملك بعده ابن أخيه ابراهيم بن محمد بن الدانشمند، واستولى ذي النو ن محمد بن الدانشمند على قيسارية وملك شاهنشاه بن مسعود أخو قليج أرسلان مدينة أنكورية، واصطلح المذكورون على ذلك، واستقرت بينهم القواعد واتفقوا.

وفيها توفي الوزير عون الدين يحيى بن هبيرة في جمادى الأولى.

سنة إحدى وستين إلى سبعين وخمسمائة

في سنة إحدى وستين

فتح نور الدين محمود حصن المنيطرة من الشام، وكانت بيد الفرنج.

وفي سنة اثنتين

عاد أسد الدين شيركوه إلى الديار المصرية، جهزه نور الدين بألفي فارس، فوصل إلى ديار مصر واستولى على الجيزة، وأرسل شاور إلى الفرنج واستنجدهم وجمعهم ، وساروا في إثر شيركوه إلى جهة الصعيد واجتمع عسكر مصر والفرنج، وحصروا الناصر صلاح الدين يوسف بالاسكندرية مدة ثلاثة شهور، فسار شيركوه إليهم والتقوا بموضع يقال له البابين، فانهزم الفرنج والمصريون، واستولى شيركوه على بلاد الجيزة واستغلها، ثم سار إلى الاسكندرية وملكها، ثم جعل فيها ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب وعاد شيركوه إلى جهة الصعيد.

واجتمع عسكر مصر والفرنج ، وحصروا صلاح الدين بالاسكندرية

مـدة ثلاثـة شهـور، فسار شيركـوه إليهم فـاتفقـوا على الصلح على مـال يحملـوه إلى شيركـوه ، ويسلـم إليهـم الاسكنـدريـة ، ويعـود إلى الشـام، وتسلم المصريـون الاسكندريـة في منتصف شوال مـن هذه السنـة، وسار شيركوه إلى الشام، فوصل دمشق ثـامن عشر ذي القعدة، واستقر الصلح بين الفـرنج والمصريين على أن يكـون للفرنـج في القاهـرة شحنة، وتكـون أبوابها بيد فرسانهم، ويكون لهم من دخل مصر كل سنة مائة ألف دينار.

وفيها فتح نور الـدين صافيتا والعريمة، وفيها عصـى غازي بن حسان صاحـب منبج على نـور الديـن بمنبج ، فجهـز إليه نـور الديـن عسكراً أخذوا منه منبج، ثم أقطعها نور الدين لقطب الدين ينال بن حسان أخا غازي المذكـور، فبقي فيهـا إلى أن أخذها منـه صلاح الديـن يوسـف بن أيوب سنة اثنتين وتسعين.

وفيهـا تـوفي فخر الـديـن قـرا أرسـلان بـن داود بن سقمان بـن أرتـق صاحـب حصن كيفا، وملك بعده نور الدين محمد.

وفي سنة ثلاث وستين

فارق زيـن الديـن كوجك بـن بكتكين نائب قطب الـدين مـودود بن زنكي صـاحـب الموصل خـدمة قطب الـدين واستقـر بإربل، وكـانت في أقطاعه، وكـانت له إربل مع غيرهـا فقنع بها وسكنها وسلم مـا كان بيده من البلاد إلى قطب الدين، وكان زين الدين قد عمي وطرش.

وفي سنة أربع وستين

ملك نـورالدين محمود قلعـة جعبر، وأخذها مـن شهاب الدين مـالك ابن علي بن مـالك بن سالم بن مـالك بن بدران العقيلي، وكانـت بأيديهم من أيـام السلطان ملكشاه، ولم يقـدر نور الـدين على أخذهـا إلا بعد أن

أسر صاحبها المذكور، بنو كلاب وأحضروه إلى نور الدين ، فاجتهد به على تسليمها، فلم يفعل ، فأرسل عسكراً تقدمهم فخر الدين مسعود ابن علي الزعفراني وردفه بعسكر آخر مع مجد الدين أبي بكر بن الداية، وكان رضيع نور الدين وحصروا قلعة جعبر، فلم يظفروا منها بشيء ولم يزالوا على صاحبها مالك حتى سلمها وأخذ عوضها مدينة سروج بأعمالها والملاحة من بلد حلب، وعشرين ألف دينار معجلة وباب بزاعة.

وفيها في ربيع الأول سار أسد الدين شيركوه بن شاذي إلى ديار مصر، ومعه العساكر النورية، وسبب ذلك تمكن الفرنج من الديار المصرية، وتحكمهم على المسلمين بها، حتى ملكوا بلبيس قهراً في مستهل صفر هذه السنة، وقتلوا كل من فيها، ثم ساروا من بلبيس ونزلوا على القاهرة عاشر صفر وحاصروها، وأحرق شاور مدينة مصر خوفاً من أن يملكها الفرنج، وأمر أهلها ونقلهم إلى القاهرة فبقيت النار تعمل أربع وخمسين يوماً، فارسل العاضد الخليفة إلى نور الدين يستغيث به، وأرسل في الكتب شعور النساء وصانع شاور الفرنج على ألف ألف دينار يحملها إليهم، فحمل إليهم مائة ألف دينار، وسألهم أن يرحلوا عن القاهرة ليقدر على جمع المال، فرحلوا وجهز نور الدين العسكر مع شيركوه وانفق فيهم المال،وأعطى شيركوه مائتي ألف دينار سوى الخيل والدواب والأسلحة، وأرسل معه عدة أمراء منهم ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب على كره منه، أحب نور الدين مسير صلاح الدين ، وفيه ذهاب الملك من بيته، وكره صلاح الدين المسير وفيه سعادته(وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خيراً لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم[٧]) ولما قرب شيركوه من مصر رحل الفرنج على أعقابهم إلى بلادهم، وكان هذا لمصر فتحاً جديداً، ووصل أسد الدين شيركوه إلى القاهرة في رابع ربيع الآخر، واجتمع بالعاضد وخلع عليه وعاد إلى خيامه بالخلعة العاضدية، وأجرى عليه وعلى عسكره الإقامات الوافرة ، وشرع شاور يماطل شيركوه فيما بذله لنور الدين من تقرير المال و إفراد ثلث البلاد له ، ومع ذلك

شاور يركب كل يوم إلى أسد الدين شيركوه ويعده ويمنيه (وما يعدهم الشيطان إلا غروراً [٨])ثم إن شاور عزم على أن يعمل دعوة لشيركوه وأمرائه ويقبض عليهم فمنعه ابنه الكامل بن شاور من ذلك ، ولما رأى عسكر نور الدين من شاور ذلك عزموا على قتله، واتفق على ذلك صلاح الدين يوسف وعز الدين جرديك وغيرهما، وعرفوا شيركوه بذلك فنهاهم عنه، واتفق أن شاور قصد شيركوه على عادته، فلم يجده في المخيم ، وكان قد مضى لزيارة قبر الامام الشافعي رضي الله عنه، فلقي صلاح الدين وجرديك شاوراً وأعلماه برواح شيركوه إلى الزيارة، فساروا جميعا إلى شيركوه فوثب صلاح الدين وجرديك على شاور ورموه عن فرسه إلى الأرض وأمسكوه في سابع ربيع الآخر هذه السنة ، فهرب أصحابه عنه وأرسلوا أعلموا شيركوه بها فعلوه فحضر ولم يمكنه تخليصه، وسمع العاضد بذلك فأرسل إلى شيركوه يطلب منه إنفاذ رأس شاور فقتله، وأنفذ رأسه إلى العاضد، ودخل عند ذلك شيركوه إلى قصر العاضد فخلع عليه للوزارة، ولقبه الملك المنصور أمير الجيوش، وسار بالخلع إلى دار الوزارة وهي التي كان فيها شاور، واستقر في الأمر ، وكتب له منشور بالإنشاء الفاضلي، وكتب له بعد البسملة: « من عبد الله ووليه الإمام العاضد لدين الله أمير المؤمنين إلى السيد الأجل الملك المنصور سلطان الجيوش ولي الأئمة مجير الأمة أبي الحارث شيركوه العاضدي، عضد الله به الدين وامتع بطوله أمير المؤمنين وأدام قدرته وإعلاء كلمته سلام عليك، فإنا نحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ونسأله أن يصلي على محمد خاتم النبيين وسيد المرسلين وعلى آله الطاهرين والأئمة المهديين وسلم تسليماً». ثم ذكر تفويض الخلافة إليه ووصايا ، وكتب العاضد بخطه على طرة المنشور « هذا عهد لم يعهد لوزير بمثله فتقلد أمانة رآك أمير المؤمنين أهلاً لحملها، وخذ كتاب أمير المؤمنين بقوة واسحب ذيل الفخار بأن اعتزت خدمتك ببنوة النبوة». ومدحت الشعراء أسد الدين، ووصل إليه من الشام مديح العماد

الكاتب قصيدة أولها:

بالجد أدركت ما أدركت لا اللعب
كم راحة جنيت من دوحة التعب
يا شيركوه بن شاذي الملك دعوة من
نادى فعرّف خير ابن بخير أب
جرى الملوك وما حازوا بركضهم
من المدى في العلي ما حزت بالخبب
تمل من ملك مصر رتبة قصرت
عنها الملوك فطالت سائر الرتب
قد أمكنت أسد الدين الفريسة من
فتح البلاد فبادر نحوها وثب

وفي شيركوه وقتل شيركوه يقول عرقلة الدمشقي:

لقد فاز بالملك العقيم خليفة
له شيركوه العاضدي وزير
هو الأسد الضاري الذي جل خطبه
وشاور كلب للرجال عقور
بغى وطغى حتى لقد قال صحبه
على مثلها كان اللعين يدور
فلا رحم الرحمن تربة قبره
ولا زال عنها منكر ونكير(٩)

وأما الكامل بن شاور فإنه لما قتل أبوه دخل القصر، وكان آخر العهد به، ولما لم يبق لأسد الدين شيركوه منازع أتاه أجله (حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة(١٠)) فتوفي يوم السبت الثاني والعشرين من جمادى الآخرة سنة أربع وستين وخمسمائة، وكانت ولايته شهرين وخمسة أيام، وكان شيركوه وأيوب ابني شاذي من بلددوين.

قال ابن الأثير: وأصلهما من الأكراد الروادية فقصدا العراق وخدما

بهروز شحنـة السلجوقيـة ببغداد، وكـان أيوب أكبر مـن شيركوه فجعلـه بهروز مستحفظاً قلعة تكـريت، ولما انكسر عماد الـديـــن زنكي مـن عسكر الخليفـة ومر على تكريت خـدمه أيوب وشيركوه ، ثـم إن شيركوه قتل إنسـاناً بتكـريت فـأخرجهما بهروز مـن تكريـت فلحقا بخـدمة عماد الدين زنكـي، فأحسن إليهما وأعطاهما اقطاعـات جليلة ، ولما ملك عماد الديـن قلعة بعلبـك جعل أيـوب مستحفظاً عليهـا، فلما حاصره عسكـر دمشق بعد موت زنكي سلمها أيـوب إليهم على إقطاع كبير، وبقي أيوب من أكبر أمـراء عسكر دمشق، وبقـي شيركوه مع نـور الدين محمـود بعد قتل أبيه زنكي، وأقطعـه نور الدين حمص والرحبة، لما رأى مـن شجاعته وزاده عليهما، وجعله مقدم عسكره، فلما أراد نور الـدين ملك دمشق أمر شيركوه فكاتب أخاه أيوب فساعد نـور الدين على فتح دمشق وبقيا معه إلى أن أرسل شيركوه إلى مصر مرة بعد أخـرى حتى ملكها، وتوفي في هذه السنة على ما ذكرناه، ولما توفي شيركوه كان معـه صلاح الدين يوسف ابن أخيه أيـوب، وكان قد سـار معه على كره، قال صـلاح الدين: أمـرني نور الدين بالمسير مع عمي شيركوه، وكـان قد قال شيركوه بحضرته لي: تجهز يا يـوسف للمسير، فقلـت: والله لو أعطيـت ملك مصر مـا سرت إليها، فلقد قاسيـت بالاسكندرية مالا أنسـاه أبداً، فقال لنور الديـن: لابد من مسيره معي، فـأمرني نور الديـن وأنا أستقيل، فقـال نور الدين: لابـد من مسيرك مع عمك، فشكوت الضـائقة، فأعطاني ما تجهزت بـه كأنما أساق إلى الموت.

ولما مات شيركوه طلب جماعة من الأمـراء النورية التقدم على العسكر، وولاية الـوزارة العاضدية منهـم عين الدولة اليـاروقي، وقطب الديـن ينال المنبجي، وسيف الـدين علي بن أحمد المشطوب الهكاري، وشهـاب الدين محمود الحارمي خال صـلاح الدين، فأرسل العاضد طلـب صلاح الدين وولاه الوزارة ، ولقبـه الملك الناصر ، فلـم يطعه الأمراء المذكـورون، وكان مع صلاح الدين الفقيه عيسى الهكـاري،فسعى مع المشطوب حتى أماله

إلى صلاح الدين ثم قصد الحارمي، وقال: هذا ابن أختك وعزه وملكه لك، فمال إليه أيضاً، ثم فعل بالباقين كذلك، فكلهم أطاع غير عين الدولة الياروقي فإنه قال: أنا لا أخدم يوسف ، وعاد إلى نور الدين بالشام، وثبتت قدم صلاح الدين على أنه نائب لنور الدين وكان نور الدين يكاتبه بالأمير الاسفهسلار، ويكتب علامته على رأس الكتاب تعظيماً أن يكتب اسمه، وكان لا يفرده بكتاب بل الأمير صلاح الدين وكافة الأمراء بالديار المصرية يفعلون كذا وكذا، ثم أرسل صلاح الدين يطلب من نور الدين أباه أيوب وأهله فأرسلهم نور الدين إليه، فأعطاهم الإقطاعات بمصر وتمكن من البلاد وضعف أمر العاضد، ولما فوض الأمر إلى صلاح الدين تاب عن شرب الخمر ، وأعرض عن أسباب اللهو، وتقمص لباس الجد ودام على ذلك إلى أن توفاه الله عز وجل.

قال ابن الأثير في الكامل: رأيت أكثر ما يقع ممن ابتدى الملك تنتقل الدولة منه إلى غير عقبه، فإن معاوية تغلب وملك فانتقل الملك إلى بني مروان بعده، ثم ملك السفاح من بني العباس فانتقل الملك إلى بني أخيه المنصور، ثم السامانية أول من استبد بالملك منهم نصر بن أحمد فانتقل الملك إلى عقب أخيه اسماعيل ، ثم عماد الدولة ابن بويه ملك فانتقل الملك إلى بني أخيه ركن الدولة، ثم ملك طغرلبك السلجوقي فانتقل الملك إلى بني أخيه جغري، ثم شيركوه ملك، فانتقل الملك إلى ابن أخيه صلاح الدين ، ولما قام صلاح الدين بالملك لم يبق الملك في عقبه بل انتقل إلى بني العادل أبي بكر ، ولم يبق لأولاد صلاح الدين غير حلب وكان سبب ذلك كثرة قتل من يتولى أولاً، وأخذه الملك وعيون أصحابه فيه، فيحرم على عقبه ذلك.

ولما استقر قدم صلاح الدين في الوزارة قتل مؤتمن الخلافة، وهو مقدم السودان، فاجتمعت السودان وهم حفاظ القصر في عدد كبير، وجرى

بينهم وبين صلاح الدين وعسكره وقعة عظيمة بين القصرين ، فانهزم السودان ، وقتل منهم خلق كثير، وتبعهم صلاح الدين فأجلاهم قتلاً وتهجيجاً، وحكم صلاح الدين على القصر ، وأقام فيه بهاء الدين قراقوش الأسدي وكان خصياً أبيض، وبقي لايجري في القصر صغيرة ولا كبيرة إلا بأمر صلاح الدين

وفيها كان بين اينانج السنجري صاحب الري وبين ألدكز حرب انتصر فيها ألدكز، وملك الري وهرب اينانج وانحصر في بعض القلاع، فبعث ألدكز ورغب غلمان اينانج في الإقطاعات إن قتلوا اينانج فقتلوه، ولحقوا بألدكز، فقال: مثل هؤلاء لاينبغي الا بقاء عليهم فهربوا إلى البلاد ولحقوا بخوارزم شاه، فصلب الذي تولى منهم قتل اينانج الحاجب استاذه، وفيها توفي ياروق أرسلان التركماني، وكان مقدماً كبيراً وإليه تنسب الطائفة الياروقية من التركمان ، وكان عظيم الخلقة، سكن بظاهر حلب، وبنى على شاطىء قويق هو واتباعه عمائر كثيرة ، وتعرف الآن بالياروقية مشهورة هناك.

وفي سنة خمس وستين

سارت الفرنج إلى دمياط وحصروها وشحنها صلاح الدين بالرجال والسلاح والذخائر، وأخرج على ذلك أموالاً عظيمة، فحصروها خمسين يوماً، وخرج نور الدين فأغار على بلادهم بالشام ، فرحلوا عائدين على أعقابهم، ولم يظفروا بشيء منها، قال صلاح الدين : مارأيت أكرم من العاضد أرسل إلي مده مقام الفرنج على دمياط ألف ألف دينار مصرية ، سوى الدواب وغيرها.

وفيها سار نور الدين وحاصر الكرك مدة، ثم رحل عنه.

وفيها كانت زلزلة عظيمة خربت الشام فقام نور الدين في عمارة

الأسوار، وحفظ البلاد أتم قيام، وكذلك خربت بلاد الفرنج فخافوا من نور الدين واشتغل كل منهم بعمارة ما يليه من بلاده عن قصد بلاد غيره.

وفيها في ذي الحجة مات قطب الدين مودود بن زنكي بن آقسنقر صاحب الموصل، وكان مرضه حمى حادة، ولما مات صرف أرباب الدولة الملك عن ابنه الأكبر عماد الدين زنكي بن مودود بن زنكي إلى أخيه الذي هو أصغر منه سيف الدين غازي بن مودود، فسار عماد الدين زنكي إلى عمه نور الدين مستنصراً به، وتوفي قطب الدين وعمره أربعون سنة، وكانت مدة ملكه إحدى وعشرين سنة وخمسة أشهر ونصف، وكان من أحسن الملوك سيرة.

وفيها توفي الملك طغر لبك بن قاورت بيك صاحب كرمان، واختلف أولاده: بهرام شاه، وأرسلان شاه وهو الأكبر، واستنجد كل منهما وطلب الملك، فاتفق موت أرسلان شاه في تلك المدة، فاستقر بهرام شاه في ملك كرمان.

وفيها توفي مجد الدين أبو بكر ابن الداية رضيع نور الدين، وكانت حلب وحارم وقلعة جعبر اقطاعه فأقر نور الدين أخاه علياً على إقطاعه.

وفي سنة ست وستين

في تاسع ربيع الآخر توفي الخليفة المستنجد أبو المظفر يوسف بن المقتفي، وكان سبب موته أنه مرض واشتد مرضه وكان قد خاف منه استاذ داره عضد الدين أبو الفرج بن ابن رئيس الرؤساء وقطب الدين قيماز الصفوي، وهو حينئذ أكبر أمراء بغداد، فاتفقا ووضعا للطبيب على أن يصف له ما يهلكه ، فوصف له دخول الحمام فامتنع منه لضعفه، ثم إنه دخلها وغلق عليه الباب فمات، فلما مات أحضر عضد الدين وقطب الدين:

المستضيء بالله أبو محمد الحسن بن المستنجد بالله ثالث ثلاثين خلفاء بني العباس رحمهم الله

وشرطا عليه شروطاً أن يكون عضد الدين وزيراً وابنه كمال الدين استاذ دار، وقطب الدين أمير العسكر، فأجابهم إلى ذلك، ولم يل الخلافة من اسمه الحسن غيره وغير الحسن بن علي رضي الله عنهما ،وبايعوا المستضيء بالله بالخلافة يوم موت أبيه بيعة خاصة، وفي غده بيعة عامة.

وفيها سار نور الدين محمود بن زنكي إلى الموصل، وهي بيد ابن أخيه غازي بن مودود، فاستولى عليها نور الدين وملكها، فلما ملكها اطلق المكوس منها، وقرر أمورها، ثم وهبها لابن أخيه غازي المذكور، وأعطى سنجار لعماد الدين زنكي بن مودود وهو أكبر من أخيه سيف الدين غازي فقال كمال الدين الشهرزوري :هذا طريق إلى أذى يحصل للبيت الأتابكي، لأن عماد الدين كبير لايرى طاعة أخيه غازي وهو صغير، وسيف الدين غازي هو الملك لايرى الأغضاء، فيحصل الخلف، ويطمع الأعداء.

وفيها سار صلاح الدين عن مصر فغزا الفرنج قرب عسقلان والرملة وعاد إلى مصر، ثم رجع إلى أيله وحصرها وهي للفرنج على ساحل البحر الشرقي، ونقل إليها المراكب وحصرها براً وبحراً وفتحها في العشر الأول من ربيع الأول ، واستباح أهلها وما فيها ، وعاد إلى مصر، ولما استقر بمصر كان بها دار للشحنة تسمى دار المعونة يحبس فيها ، فهدمها صلاح الدين وبناها مدرسة للشافعية، وكذلك بنى دار العزل مدرسة للشافعية، وعزل قضاة المصريين وكانوا سبعة، ورتب قضاة شافعية. وذلك في العشرين من جمادى الآخرة ، وكذلك اشترى تقي الدين عمر ابن أخي صلاح الدين منازل العز، وبناها مدرسة للشافعية.

وفي سنة سبع وستين

ثاني جمعة من المحرم قطعت خطبة العاضد لدين الله أبي محمد عبد الله، وكان سبب الخطبة العباسية بمصر أنه لما تمكن صلاح الدين من مصر وحكم على القصر، وأقام فيه قراقوش الأسدي، وكان خصياً أبيض. وبلغ نور الدين ذلك فأرسل إلى صلاح الدين يأمره بقطع الخطبة العلوية، وإقامة الخطبة العباسية، فراجعه صلاح الدين في ذلك خوف الفتنة فلم يلتفت نور الدين إلى ذلك، وأصر عليه ، وكان العاضد قد مرض، فأمر صلاح الدين الخطباء أن يخطبوا للمستضيء ويقطعوا خطبة العاضد، فامتثلوا ذلك ولم ينتطح فيها عنزان، وكان العاضد قد اشتد مرضه، فلم يعلمه أحد من أهله بقطع خطبته، فتوفي العاضد يوم عاشوراء، ولم يعلم بقطع خطبته، ولما توفي جلس صلاح الدين للعزاء، واستولى على قصر الخلافة وعلى جميع ما فيه وكانت كثرته تخرج عن الإحصاء ، وكان فيه أشياء نفيسة من الأعلاق الثمينة والكتب والتحف فمن ذلك الجبل الياقوت ، وكان وزنه سبع عشرة درهماً.

قال ابن الأثير في الكامل: أنا رأيته ووزنته، ومما حكي أنه كان بالقصر طبل للقولنج إذا ضرب به الإنسان ضرط، فكسر ولم يعلموا به إلا بعد ذلك، ونقل أهل العاضد إلى موضع من القصر ووكل بهم من يحفظهم، وأخرج جميع من فيه من عبد وأمه فباع البعض وعتق البعض، ووهب البعض، وخلا القصر من سكانه كأن لم يغن بالأمس، ولما اشتد مرض العاضد أرسل إلى صلاح الدين يستدعيه فظن ذلك خديعة، فلم يمض إليه، فلما توفي علم صدقه وندم على تخلفه عنه، وجميع مدة خلافتهم من حين ظهر المهدي بسجلماسة في ذي الحجة سنة ست وتسعين ومائتين إلى أن توفي العاضد في هذه السنة. سنة سبع وستين وخمسمائة :

مائتان واثنتان وسبعون سنة تقريباً، وهذا دأب الدنيا لم تعط إلا واستردت ولم تحل إلا وتمررت، ولم تصف إلا وتكدرت ، بل صفوها لايخلو من الكدر، ولما وصل خبر الخطبة العباسية بمصر إلى بغداد ضربت البشائر ستة أيام، وسيرت الخلع مع عماد الدين صندل، وهو من خواص الخدم المعتقون إلى نور الدين وصلاح الدين والخطباء، وسيرت الأعلام السود، وكان العاضد قد رأى مناماً أن عقرباً خرجت من مسجد بمصر معروف ذلك المسجد للعاضد ولرعيته فاستيقظ العاضد مرعوباً واستدعى بمن يعبر الرؤيا وقصه عليه فعبر له بوصول أذى إليه من شخص بذلك المسجد، فتقدم العاضد إلى والي مصر باحضار أهل ذلك المسجد فأحضر إليه شخصاً صوفياً يقال له نجم الدين الخبوشاني فاستخبره العاضد عن مقدمه ، وسبب مقامه بذلك المسجد، فأخبره بالصحيح في ذلك ، ورآه العاضد أضعف من أن يناله بمكروه فأمر له بمال وقال ادع لنا ياشيخ ، وأمره بالإنصراف، فلما أراد السلطان صلاح الدين إزالة الدولة العلوية استفتى الفقهاء وكان نجم الدين الخبوشاني المذكور من جملتهم فبالغ في الفتيا، وصرح بتعديد مساوئهم، وسلب عنهم الإيمان، وأطال الكلام في ذلك، فصحت به رؤيا العاضد.

وفيها وقع بين نور الدين وصلاح الدين وحشة في الباطن ، فإن صلاح الدين سار ونازل الشوبك، وهي للفرنج ثم رحل عنه خوفاً أن يأخذه، فلم يبق ما يعوق نور الدين عن قصد مصر، فتركه ولم يفتحه لذلك، وبلغ نور الدين ذلك فكتمه وتوحش خاطره لذلك، ولما استقر صلاح الدين بمصر جمع أقاربه وكبراء دولته وقال: بلغني أن نور الدين يقصدنا، فما الرأي؟ فقال تقي الدين عمر ابن أخيه: نقاتله ونصده وكان ذلك بحضرة أبيهم نجم الدين أيوب، فأنكر على تقي الدين ذلك،

وقال: أنا والدكم لو رأيت نور الدين لنزلت وقبلت الأرض بين يديه، بل أكتب وقل لنور الدين: لو جاءني إنسان واحد من عندك، وربط المنديل في عنقي وجرني إليك سارعت إليك، وانفضوا على ذلك، ثم اجتمع أيوب بابنه صلاح الدين خلوة، وقال: لو قصدنا نور الدين أنا كنت أول من يمنعه ويقاتله، ولكن إذا أظهرنا ذلك يترك نور الدين جميع ما هو فيه، ويقصدنا ولا ندري ما يكون من ذلك، فإن جميع عسكرنا انما هم أمراء نورالدين وغلمانه ، وإن أظهرنا الطاعة تمادى الوقت بها تحصل به الكفاية من عند الله تعالى، فكان كما قال.

وفيها توفي الأمير محمد بن مردنيش صاحب شرقي بلاد الأندلس، وهي : مرسيه وبلنسية وغيرهما،فقصد اولاده أبا يعقوب يوسف بن عبد المؤمن ملك المغرب، وسلموا إليه بلادهم، فسر بذلك يوسف وتسلمها منهم، وتزوج أختهم وأكرمهم ووصلهم بالأموال الجزيلة، وكان قد قصدهم يوسف المذكور في مائة ألف مقاتل فأجابوا بدون قتال كما ذكرنا.

وفيها عبر الخطا نهر جيحون، فجمع خوارزم شاه أرسلان بن أطسز ابن محمد بن أنوشتكين عساكره وسار إلى لقائهم، فمرض ورجع مريضاً، وأرسل عسكراً مع بعض المقدمين فقاتلوا الخطا، فانهزم عسكر خوارزم شاه وأسر مقدمهم، ورجع الخطا إلى بلادهم بعد ذلك.

وفيها اتخذ نور الدين بالشام الحمام الهوادي، وتسمى المناسيب، لنقل البطائق والأخبار، وفيها عزل المستضيء وزيره عضد الدين ابن رئيس الرؤساء مكرهاً، لأن قطب الدين قيماز ألزمه بعزله، فلم يمكنه مخالفته.

سنة ثمان وستين

توفي خوارزم شاه أرسلان بن أطسز بن محمد بن أنوشتكين، وكان قد

عاد من قتال الخطا مريضاً، ولما مات ملك بعده ابنه الصغير سلطان شاه محمود، ودبرت والدته المملكة ، وكان ابنه الأكبر علاء الدين تكش مقيماً بجند قد أقطعه أبوه إياها، فلما بلغه موت أبيه وولاية أخيه الصغير أنف من ذلك، واستنجد بالخطا، وسار إلى أخيه الصغير سلطان شاه وطرده، ثم أن سلطان شاه قصد ملوك الأطراف واستنجدهم على أخيه تكش فطرده، وكانت الحرب بينهم سجالاً حتى مات سلطان شاه في سنة سبع وثمانين وخمسمائة واستقر تكش في ملك خوارزم وفي تلك الحروب بين الأخوين قتل المؤيد آي آبة السنجري قتله تكش صبراً وملك بعده ابنه طغان شاه بن المؤيد آي آبه.

وفيها سار شمس الدولة تورانشاه بن أيوب أخي صلاح الدين الأكبر من مصر إلى النوبة للتغلب عليها،فلم تعجبه تلك البلاد، فغنم وعاد إلى مصر.

وفيها توفي شمس الدين ألدكز بهمذان ، وملك بعده ابنه محمد البهلوان، ولم يختلف عليه أحد وكان ألدكز هذا مملوكاً للكمال السميري وزير السلطان محمود، ثم صار للسلطان محمود، فلما ولي مسعود ولاه وكبره حتى صار ملك أذربيجان وغيرها من بلاد الجبل، وأصبهان والري، وكان عسكره خمسين ألف فارس، وكان يخطب في بلاده بالسلطنة للسلطان أرسلان بن طغريل، ولم يكن لأرسلان معه حكم، وكان ألدكز حسن السيرة.

وفيها سارت طائفة من الترك من ديار مصر مع مملوك لتقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب اسمه قراقوش إلى إفريقية ونزلوا على طرابلس الغرب، فحاصرها مدة، ثم فتحها قراقوش واستولى عليها، وملك كثيراً من بلاد إفريقية.

وفيها غزا أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن بلاد الفرنج من الاندلس.

وفيها سار نور الدين محمود بن زنكي إلى بلاد قليج أرسلان بن مسعود، واستولى على مرعش وبهسنا، ومرزبان، وسيواس، فأرسل إليه قليج أرسلان يستعطفه ويسأل الصلح، فقال نور الدين لا أرضى إلا أن يرد ملطيه على ذي النون بن الدانشمند وكان قليج أرسلان قد أخذها منه، فبذل له سيواس، واصطلح مع نور الدين، فلما مات نور الدين عاد قليج أرسلان، واستولى على سيواس، وطرد عنها ذا النون بن الدانشمند.

وفيها سار صلاح الدين من مصر إلى الكرك وحصرها ، وكان قد وعد نور الدين أن يجتمعا على الكرك، فخاف صلاح الدين من الاجتماع بنور الدين،وكان نور الدين قد وصل إلى الرقيم وهو بالقرب من الكرك، فرحل صلاح عن الكرك عائداً إلى مصر، وأرسل تحفاً إلى نور الدين واعتذر أن أباه مرض، وهو يخشى موته فتذهب مصر فقبل نور الدين عذره في الظاهر، وعلم المقصود في الباطن ولما وصل صلاح الدين إلى مصر وجد أباه نجم الدين أيوب بن شاذي قد مات ، وكان سبب موته أنه ركب بمصر فنفرت به فرسه، فوقع وحمل إلى قصره، فبقي أياماً ومات في السابع والعشرين من ذي الحجة من هذه السنة.

وفي سنة تسع وستين

ملك تورانشاه اليمن وكان صلاح الدين وأهله خائفين من نور الدين، فاتفق رأيهم على تحصيل مملكة غير مصر بحيث إن قصدهم نور الدين قاتلوه، فإن هزمهم التجأوا إلى تلك المملكة، فجهز صلاح الدين أخوه شمس الدولة تورانشاه بن أيوب إلى النوبة فلم تعجبه بلادها، ثم سيره في هذه السنة بعسكره إلى اليمن، وكان صاحب اليمن حينئذ عبد النبي المقدم ذكره في سنة أربع وخمسين وخمسمائة، فتجهز تورانشاه،

ووصل اليمن، وجرى بينه وبين عبد النبي قتال فانتصر تورانشاه، وهزم عبد النبي وهجم زبيد وملكها، وأسر عبد النبي، ثم قصد عدن وكان صاحبها اسمه ناشر، فخرج لقتال تورانشاه فهزمه تورانشاه وهجم عدن وملكها، وأسر ناشر واستولى تورانشاه على بلاد اليمن، واستقرت في ملك صلاح الدين، واستولى على أموال عظيمة من عبد النبي، وكذلك من عدن.

وفيها في رمضان صلب صلاح الدين جماعة من أعيان المصريين، فانهم قصدوا الوثوب عليه وإعادة الدولة العلوية، فعلم بهم وصلبهم عن آخرهم فمنهم عبد الصمد الكاتب والقاضي العويرس، وداعي الدعاة، وعمارة بن علي اليمني.

وفي هذه السنة توفي

الملك العادل نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي بن اق سنقر

صاحب الشام وديار الجزيرة وغير ذلك يوم الأربعاء حادي عشر شوال، بعلة الخوانيق بقلعة دمشق المحروسة، وكان نور الدين قد شرع بتجهيز الدخول إلى مصر وأخذها من صلاح الدين، وكان يريد أن يخلي ابن أخيه سيف الدين غازي بالشام، ويسير هو بنفسه إلى مصر فأتاه أمر الله الذي لايرد، وكان نور الدين أسمر طويل القامة، ليس له لحية إلا في حنكه، حسن الصورة وكان قد اتسع ملكه جداً، وخطب له بالحرمين واليمن لما ملكها تورانشاه بن أيوب، وكذلك كان يخطب له بمصر، وكان مولد نور الدين سنة إحدى عشرة وخمسمائة، وطبق الأرض ذكره بحسن السيرة والعدل، وكان من الزهد والعبادة على قدر عظيم، وكان يصلي غالب الليل كما قيل:

جمع الشجـــاعـــة والخشـــوع لـــربـــه
مـــا أحســـن المحـــراب في المحـــراب

وكان عارفاً بالفقه على مذهب أبي حنيفة ، وليس عنده فيه تعصب، وهو الذي بنى أسوار مدن الشام مثل : دمشق، وحماه، وحمص، وشيزر، وبعلبك، وغيرها لما تهدمت بالزلازل، وبنى المدارس الكثيرة الحنفية والشافعية، ولايحتمل هذا المختصر ذكر فضائله.

ولما توفي نور الدين قام ابنه الملك الصالح اسماعيل بالملك بعده، وعمره إحدى عشرة سنة ، وحلف له العسكر بدمشق وأقام بها وأطاعه صلاح الدين بمصر، وخطب له بها وضربت له السكة، وكان المتولي لتدبير دولته الأمير شمس الدين محمد بن عبد الملك المعروف بابن المقدم ، ولما مات نور الدين وتولى ولده الملك الصالح سار سيف الدين غازي بن قطب الدين مودود صاحب الموصل، وملك جميع البلاد الجزرية.

وفي سنة سبعين

في أولها اجتمع على رجل من أهل الصعيد يقال له الكنز جمع عظيم، وأظهر الخلاف على صلاح الدين، فأرسل إليه صلاح الدين عسكراً فقتل الكنز وجماعة معه، وانهزم الباقون.

وفي سلخ ربيع الأول ملك صلاح يوسف بن أيوب مدينة دمشق، وحمص، وحماه، وسببه أن شمس الدين ابن الداية المقيم بحلب أرسل سعد الدين كمشتكين يستدعي الملك الصالح بن نور الدين من دمشق إلى حلب ليكون مقامه بها، فسار الملك الصالح مع سعد الدين إلى حلب، ولما استقر بحلب تمكن كمشتكين وقبض على شمس الدين ابن الداية وأخوته، وقبض على الرئيس ابن الخشاب وأخوته، وهو رئيس

حلب، واستبد سعد الدين كمشتكين بتدبير الملك الصالح فخافه ابن المقدم وغيره من أمراء دمشق، وكاتبوا صلاح الدين بن أيوب صاحب مصر، واستدعوه ليملكوه عليهم فسار صلاح الدين جريدة في سبعمائة فارس، ولم يلبث فوصل إلى دمشق وخرج كل من بها من العسكر والتقوه وخدموه، ونزل بدار والده أيوب المعروفة بدار العقيقي، وعصت عليه القلعة ، وكان فيها من جهة الملك الصالح خادم اسمه ريحان ، فراسله صلاح الدين واستماله فسلم القلعة إليه فصعد إليها صلاح الدين وأخذ ما فيها من الأموال، ولما ثبت قدمه في دمشق استخلف بها أخاه سيف الإسلام طغتكين بن أيوب وسار إلى حمص مستهل جمادى الأولى، وكانت حمص وحماه وقلعة بارين وسلمية وتل خالد والرها من بلد الجزيرة في اقطاع فخر الدين مسعود بن الزعفراني، فلما مات نور الدين لم يمكن فخر الدين مسعود المقام بحمص وحماه لسوء تدبيره مع الناس، وكانت هذه البلاد له بغير قلاعها فإن قلاعها كان فيها ولاة لنور الدين، وليس لفخر الدين معهم في القلاع حكم إلا بارين، فإن قلعتها كانت له أيضاً فنزل صلاح الدين على حمص في حادي عشر جمادى الأولى، وملك المدينة، وعصيت عليه القلعة ، فترك عليها من يضيق عليها، ورحل إلى حماه فملك مدينتها مستهل جمادى الآخرة من السنة، وكان بقلعتها الأمير عز الدين جرديك أحد المماليك النورية، فامتنع في القلعة فذكر له صلاح الدين أنه ليس له غرض سوى حفظ بلاد الملك الصالح عليه وإنما هو نائبه، وقصد من جرديك المسير إلى حلب في رسالة فاستحلفه جرديك على ذلك وسار جرديك إلى حلب برسالة من صلاح الدين واستخلف في قلعة حماه أخاه، فلما وصل جرديك إلى حلب قبض عليه كمشتكين وسجنه، فلما علم أخوه بذلك سلم قلعة حماة إلى صلاح الدين فملكها، ثم سار صلاح الدين إلى حلب وحصرها، وبها الملك الصالح بن نور الدين، فجمع أهل حلب وقاتلوا صلاح الدين وصدوه عن حلب ، وأرسل سعد الدين كمشتكين إلى سنان مقدم الإسماعيلية

أموالاً عظيمةليقتلوا صلاح الدين ، فأرسل سنان جماعة ليقتلوا صلاح الدين ، ووثبوا على صلاح الدين فقتلوا دونه، واستمر صلاح الدين محاصراً لحلب إلى مستهل رجب،ورحل عنها بسبب نزول الفرنج على حمص، ووصل صلاح الدين حماه ثامن رجب وسار إلى حمص فرحل الفرنج عنها، ووصل صلاح الدين إلى حمص وحاصر قلعتها وملكها في حادي عشر من شعبان، ثم أرسل إلى بعلبك فملكها، ولما استقر ملك صلاح الدين لهذه البلاد أرسل الملك الصالح إلى ابن عمه سيف الدين غازي يستنجده على صلاح الدين، فجهز جيشه صحبة أخيه مسعود بن مودود بن زنكي، ومقدم الجيش عز الدين محمود المعروف بسلفندار، وطلب أخاه الأكبر عماد الدين زنكي بن مودود يسير في الصحبة فامتنع مصانعة لصلاح الدين، فسار سيف الدين غازي وحصره بسنجار، ووصل عسكر الموصل صحبة عز الدين مسعود بن مودود وسلفندار إلى حلب وانضم إليهم عسكر حلب، وساروا إلى صلاح الدين فأرسل صلاح الدين يبذل حمص وحماة، وأن يفرد بيده دمشق ويكون فيها نائباً للملك الصالح، فلم يجيبوه إلى ذلك وساروا لقتاله، واقتتلوا عند قرون حماه، فانهز م عسكر الموصل وحلب ، وغنم صلاح الدين، وعسكره أموالهم وتبعهم صلاح الدين حتى حصرهم بحلب، وقطع صلاح الدين حينئذ خطبة الصالح بن نور الدين، وأزال اسمه عن السكة ، واستبد بالسلطنة، فراسلوا صلاح الدين في الصلح على أن يكون له ما بيده من الشام، ويكون للملك الصالح ما بقي بيده منه فصالحهم على ذلك، ورحل عن حلب في العشر الأول من شوال هذه السنة أعني سنة سبعين وخمسمائة وفي العشر الآخر من شوال ملك السلطان صلاح الدين بارين، وأخذها من صاحبها فخر الدين مسعود بن الزعفراني، وكان فخر الدين من أكابر الأمراء النورية.

وفيها ملك البهلوان بن ألدكز مدينة تبريز وأخذها من ابن آق سنقر الأحمديلي.

وفيها مات شملة التركماني صاحب خوزستان وتولى ولده.

وفيها وقع بين الخليفة وبين قطب الدين قيماز مقدم عسكر الخليفة ببغداد فتنة، فنهبت دار قيماز، وهرب إلى الحلة، ثم إلى الموصل فلحقه في الطريق عطش شديد، وهلك أكثر أصحابه ومات هو قبل وصوله إلى الموصل، فحمل ودفن بظاهر باب العمادي ولما هرب قيماز خلع الخليفة على عضد الدين وأعاده إلى الوزارة.

سنة إحدى وسبعين إلى سنة ثمانين وخمسمائة

وفي سنة إحدى وسبعين

في عاشر شوال كان المصاف بين السلطان صلاح الدين وبين غازي صاحب الموصل بتل السلطان، فهرب سيف الدين غازي والعساكر التي كانت معه ، فإنه كان قد استنجد بصاحب حصن كيفا، وصاحب ماردين وغيرهما، وتمت على سيف الدين الهزيمة حتى وصل إلى الموصل مرعوباً، وقصد الهروب منها إلى بعض القلاع ، فسكنه وزيره، وأقام بالموصل واستولى صلاح الدين على أثقال عسكر الموصل وغيرها، وغنم ما فيها ، ثم سار صلاح الدين إلى بزاعة فحصرها وتسلمها ، ثم سار إلى منبج فحصرها في آخر شوال وصاحبها قطب الدين ينال بن حسان المنبجي، وكان شديد البغض لصلاح الدين ، وفتحها عنوة وأسر ينال، وأخذ جميع موجوده، ثم أطلقه فسار ينال إلى الموصل فأقطعه سيف الدين غازي مدينة الرقة، ثم سار السلطان صلاح الدين إلى أعزاز ونازلها ثالث ذي القعدة وتسلمها حادي عشر ذي الحجة، فوثب اسماعيلي على صلاح الدين فضربه بسكين في رأسه وجرحه فمسك صلاح الدين يد الاسماعيلي على تلك الحال، ووثب آخر عليه فقتله وثالث فقتل وجاء السلطان إلى خيمته مذعوراً وأعرض جنده وأبعد من

أنكره منهم ولما ملك السلطان أعزاز رحل عنها، ونازل حلب في منتصف ذي الحجة وحصرها ، وبها الملك الصالح بن نور الدين ، وانقضت هذه السنة وهو محاصر لحلب، فسألوا صلاح الدين في الصلح فأجابهم، وأخرجوا إليه بنتاً صغيرة لنور الدين فأكرمها وأعطاها شيئاً كثيراً، وقال لها: ما تريدين؟ فقالت: قلعة أعزاز، وكانوا قد علموها ذلك، فسلمها السلطان إليهم، واستقر الصلح، ورحل صلاح الدين عن حلب في العشرين من المحرم سنة اثنتين وسبعين.

وفيها نازل طاشتكين أمير الحاج العراقي مكة، وكان قد أمره الخليفة بعزل مكثر بن عيسى صاحب مكة، فجرى بين الحجاج وبينه قتال ، فانهزم مكثر في البرية، وأقام طاشتكين أخاه داود مقامه بمكه.

وفيها في ذي الحجة قدم تورانشاه بن أيوب من اليمن إلى الشام، وأرسل إلى أخيه صلاح الدين يعلمه بالحال، وكتب إليه أبياتاً من شعر أبي النجم المصري.

وإلى صلاح الدين أشكو أنني
من بعده مضنى الجوانح مولع

جزعاً لبعد الدار عنه ولم أكن
لولا هواه لبعد دار أجزع

ولأركبن إليه متن عزائمي
ويخب بي ركب الغرام ويوضع

ولأسرين الليل لا تسري به
طرف الخيال ولا البروق اللمع

وأقدمن إليه قلبي مخبراً
أني بجسمي عن قريب أتبع

حتى أشاهد منه أسعد طلعة
من أفقها صبح السعادة يطلع

وفي سنة اثنتين وسبعين

قصد السلطان صلاح الدين بلد الاسماعيلية في المحرم فنهبه وخربه وأحرقه، وحصر قلعة مصياف فارسل سنان مقدم الاسماعيلية إلى خال صلاح الدين وهو شهاب الدين الحارمي صاحب حماه يسأل أن يسعى في الصلح، فسأل الحارمي الصفح عنهم، فأجابهم صلاح الدين وصالحهم ورحل عنهم، وأتم السلطان صلاح الدين مسيره إلى مصر فإنه كان قد بعد عهده بها، بعد أن استقر له ملك الشام، ولما وصل إلى مصر في هذه السنة أمر ببناء السور الدائر على مصر والقاهرة والقلعة التي على جبل المقطم ودور ذلك تسعة وعشرون ألف ذراع بالهاشمي، ولم يزل العمل فيه إلى أن مات صلاح الدين، وفيها أمر صلاح الدين ببناء المدرسة التي على قبر الإمام الشافعي بالقرافة، وعمل بالقاهرة مارستان.

وفي سنة ثلاث وسبعين

وفي جمادى الأولى سار السلطان صلاح الدين من مصر إلى الساحل لغزو الفرنج، فوصل إلى عسقلان في رابع عشر منه فنهب، وتفرق عسكره في الإغارة ، وبقي السلطان في بعض العسكر فلم يشعر إلا بالفرنج قد طلعت عليه فقاتلهم أشد قتال ، وكان لتقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب ولد اسمه أحمد وهو من أحسن الشباب أول ما تكاملت لحيته ، فقال له أبوه تقي الدين: احمل عليهم، فحمل على الفرنج وقاتلهم فأثر فيهم أثراً جميلاً، وعاد سالماً فأمره أبوه بالعود فقتل رجلاً من الأفرنج، وقتل شهيداً، وتمت الهزيمة على المسلمين، وقاربت حملات الفرنج السلطان فولى منهزماً إلى مصر على البرية ومعه من سلم، ولقوا في طريقهم مشقة من العطش وهلك كثير من الدواب، وأخذت الفرنج العسكر الذين كانوا تفرقوا للإغارة أسرى، وأسر الفقيه عيسى،

وكان من أكبر أصحاب السلطان، فافتداه السلطان من الأسر بعد سنتين بستين ألف دينار، ووصل السلطان إلى القاهرة نصف جمادى الآخرة.

قال ابن الأثير : رأيت كتاباً بخط يد صلاح الدين إلى أخيه تورانشاه نائبه بدمشق يذكر له الوقعة وأوله:

ذكرتك والخطي يخطر بيننا
وقد نهلت منا المثقفة السمر

ويقول فيه: لقد أشرفنا على الهلاك غير مرة، وما نجانا الله تعالى منه إلاّ لأمر يريده سبحانه وتعالى «وما ثبتت إلا وفي نفسها أمر[١١].»

وفيها سار الفرنج وحصروا مدينة حماه في جمادى الأولى ، وطمعت الفرنج بسبب بعد صلاح الدين بمصر وهزيمته من الفرنج، ولم يكن غيرتورانشاه بدمشق ينوب عن أخيه صلاح الدين، وليس عنده كثير من العسكر وكان تورانشاه أيضاً كثير الانهاك في اللذات مائلاً إلى الراحات، ولما حصروا حماه كان بها صاحبها شهاب الدين الحارمي خال صلاح الدين ، وهو مريض، واشتد حصار الفرنج لحماه، وطال زحفهم عليها حتى أنهم هجموا بعض أطراف المدينة وكادوا يملكون البلد قهراً بالسيف، ثم جد المسلمون في القتال وأخرجوا الفرنج إلى ظاهر السور وأقام الفرنج كذلك على حماه أربعة أيام، ثم رحلوا عنها إلى حارم، وعقيب رحيلهم عنها مات صاحبها شهاب الدين الحارمي،وكان له ابن من أحسن الناس شباباً فمات قبله بثلاثة أيام.

وفيها قبض السلطان الملك الصالح بن نور الدين صاحب حلب على سعد الدين كمشتكين ، وكان قد تغلب على الأمر وكانت حارم لكمشتكين، فأرسل الملك الصالح إليهم فلم يسلموها إليه، فأمر لكمشتكين أن يسلمها فأمرهم بذلك فلم يقبلوا منه، فأمر بتعذيب كمشتكين ليسلموا القلعة فعذب وأصحابه يرونه لايرحمونه حتى مات في

العذاب، وأصر الحال بأصحابه على الامتناع، ووصل الفرنج إلى حارم بعد رحيلهم عن حماه، وحصروا حارم أربعة أشهر ، فأرسل الملك الصالح مالاً للفرنج وصالحهم فرحلوا عن حارم، وبلغ أهلها الجهد وبعد أن رحل الفرنج عنها أرسل إليها الملك الصالح عسكراً وحصروها، فلم يبق بأهلها ممانعة فسلموها إلى الملك الصالح فاستناب بها مملوكاً كان لابيه اسمه سرخك.

وفيها في المحرم خطب للسلطان طغريل بن أرسلان بن طغريل بن السلطان محمد بن السلطان ملكشاه المقيم ببلاد ألدكز، وكان أبوه أرسلان الذي تقدم ذكره قد توفي.

وفيها في ذي الحجة قتل عضد الدين محمد بن عبد الله بن هبة الله وزير الخليفة، وكان قد عبر دجلة عازماً على الحج فقتله الاسماعيلية، وحمل مجروحاً إلى منزله فمات به، وكان مولده في جمادى الأولى سنة أربع عشرة وخمسمائة.

وفي سنة أربع وسبعين

طلب تورانشاه من أخيه صلاح الدين بعلبك، وكان السلطان أعطاها شمس الدين محمد بن عبد الملك المقدم لما سلم دمشق إلى صلاح الدين، فلم يمكن صلاح الدين منع أخيه عن ذلك، فأرسل إلى ابن المقدم ليسلم بعلبك فعصى بها ولم يسلمها، فارسل السلطان وحصره ببعلبك فطال حصارها فأجاب ابن المقدم إلى تسليمها على عوض، فعوض عنها، وسلمها السلطان فأقطعها أخاه تورانشاه.

وفيها كان بالبلاد غلاء عام وتبعه وباء عام.

وفيها سير السلطان صلاح الدين ابن أخيه تقي الدين عمر بن

شاهنشاه إلى حماه، وابن عمه محمد بن شيركوه إلى حمص وأمرهما بحفظ بلادهما، فاستقر كل واحد منهما بحفظ بلاده.

وفي سنة خمس وسبعين

سار صلاح الدين وفتح حصناً كان بناه الفرنج عند مخاضة الأحزان، بالقرب من بانياس عند بيت يعقوب وفي ذلك يقول علي بن محمد الساعاتي الدمشقي:

أتسكن أوطان النبيين عصبة
تمين لدى أيمانها وهي تحلف
نصحتكم والنصح للدين واجب
ذروا بيت يعقوب فقد جاء يوسف

وفيها كانت حرب بين عسكر السلطان صلاح الدين ومقدمهم ابن أخيه تقي الدين عمر، وبين عسكر قليج أرسلان بن مسعود صاحب بلاد الروم، وسببها أن حصن رعبان كان بيد شمس الدين ابن المقدم، وطمع فيه قليج أرسلان، وأرسل إليه عسكراً ليحصروه، وكانوا قرابة عشرين ألفاً، فسار إليهم تقي الدين في ألف فارس فهزمهم، وكان يفتخر ويقول: هزمت بألف عشرين ألفاً.

وفيها في ثاني ذي القعدة توفي المستضيء بأمر الله أبو محمد الحسن بن يوسف، وكان قد حكم في دولته ظهير الدين أبو بكر منصور بن نصر المعروف بابن العطار بعد قتل عضد الدين الوزير، فلما مات المستضيء قام ظهير الدين ابن العطار ، وأخذ البيعة لولده الناصر لدين الله.

خلافة الناصر لدين الله بن المستضيء رابع ثلاثين خلفاء بني العباس

ولما استقرت بيعة الناصر حكم استاذ دار مجد الدين أبو الفضل، وقبض على ظهير الدين بن العطار في سابع ذي القعدة ونقل إلى التاج، وأخرج ظهير الدين المذكور ميتاً على رأس حمال ليلة الأربعاء ثاني عشر ذي القعدة فثارت به العامة وألقوه عن رأس الحمال وشدوا في ذكره حبلاً وجروه في البلد، وكانوا يضعون في يده مغرفة، يعني أنها قلم، وقد غمست في العذرة، ويقولون: وقع لنا يامولانا، هذا فعلهم به، مع حسن سيرته، وكفه عن أموالهم، ثم خلص منهم ودفن.

وفيها في ذي القعدة نزل تورانشاه أخو صلاح الدين عن بعلبك، وطلب عوضها الاسكندرية، فأجابه السلطان صلاح الدين إلى ذلك واقطع بعلبك لعز الدين فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب، فسار فرخشاه إلى بعلبك وسار شمس الدولة تورانشاه إلى الاسكندرية وأقام بها إلى أن مات .

وفي سنة ست وسبعين

في ثالث صفر توفي سيف الدين غازي بن مودود بن زنكي صاحب الموصل والديار الجزرية ، وكان مرضه السل، وطال، وكان عمره نحو ثلاثين سنة، وكانت ولايته عشر سنين ونحو ثلاثة أشهر ، وكان حسن الصورة مليح الشباب تام القامة أبيض اللون عاقلاً عادلاً عفيفاً، شديد الغيرة لايدخل بيته غير الخدم إذا كانوا صغاراً، فإذا كبر أحدهم منعه، وكان عفيفاً عن أموال الرعية مع شح كان فيه، وأوصى بالمملكة بعده إلى أخيه عز الدين مسعود بن مودود، وأعطى جزيرة ابن عمر وقلاعها لولده سنجر شاه، فاستقر ذلك بعد موته حسبما قرره، وكان مدبر الدولة والحاكم فيها مجاهد الدين قيماز،

وفيها سار السلطان صلاح الدين إلى جهة قليج أرسلان بن مسعود صاحب بلاد الروم ووصل إلى رعبان، ثم اصطلحوا فقصد صلاح الدين إلى جهة بلاد ابن ليون الأرمني، وشن فيها الغارات فصالحه ابن ليون على مال حمله وأسرى أطلقهم.

وفيها توفي شمس الدولة تورانشاه بن أيوب أخو صلاح الدين الأكبر بالاسكندرية، وكان له معها أكثر بلاد اليمن ونوابه هناك يحملون إليه الأموال من زبيد وعدن وغيرهما، وكان أجود الناس وأسخاهم كفاً، يخرج كلما يحمل إليه من الأموال اليمنية ودخل الاسكندرية ، ومع هذا لما مات كان عليه مائتي ألف دينار مصرية ديناً، فوفاها أخوه صلاح الدين عنه لما وصل إلى مصر هذه السنة في شعبان، واستخلف بالشام ابن أخيه عز الدين فرخشاه ابن شاهنشاه بن أيوب صاحب بعلبك.

وفي سنة سبع وسبعين

عزم البرنس صاحب الكرك على المسير إلى مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم والإستيلاء على تلك النواحي الشريفة، وسمع بذلك عز الدين فرخشاه نائب عمه السلطان صلاح الدين بدمشق، فجمع وقصد بلاد الكرك وأغار عليها، وأقام في مقابلة البرنس، ففرق البرنس جموعه وانقطع عزمه عن الحركة.

وفيها وقع بين نواب تورانشاه باليمن بعد موته اختلاف كبير، فخشي السلطان صلاح الدين فجهز إليها جيشاً مع جماعة من أمرائه، فوصلوا إلى اليمن وأسرعوا واستولوا عليها، وكان نائب تورانشاه على عدن عز الدين عثمان الزنجيلي وعلى زبيد حطان بن كامل بن منقذ الكناني، من بيت صاحب شيزر.

وفيها في رجب توفي الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين محمود بن زنكي بن آق سنقر صاحب حلب، وعمره نحو تسع عشرة سنة ، ولما اشتد به مرض القولنج وصف له الأطباء الخمر، فمات ولم يستعمله، وكان حليماً عفيف اليد والفرج واللسان، ملازماً لأمور الدين، لايعرف له شيئاً مما يتعاطاه الشباب، وأوصى بملك حلب إلى ابن عمه عز الدين مسعود ابن مودود بن زنكي صاحب الموصل، فلما مات سار مسعود ومجاهد الدين قيماز من الموصل إلى حلب، واستقر في ملكها، وكاتبه أخوه عماد الدين زنكي بن مودود صاحب سنجار في أن يعطيه حلب، ويأخذ منه سنجار، فاشار قيماز بذلك ، فلم يمكن مسعود إلا موافقته، وأجاب إلى ذلك ، فسار عماد الدين إلى حلب وتسلمها، وسلم سنجار إلى أخيه مسعود، وعاد مسعود إلى الموصل.

وفي سنة ثمان وسبعين

خامس المحرم سار السلطان صلاح الدين عن مصر إلى الشام ، ومن عجيب الاتفاق أنه لما برز من القاهرة ، وخرجت أعيان الناس لوداعه، أخذ كل يقول شيئاً في الوداع وفراقه، وفي الجماعة معلم لبعض أولاد السلطان فأخرج رأسه من بين الحاضرين وأنشد:

تمتع من شميم عرار نجد
فما بعد العشية من عرار

فتطير صلاح الدين ، وانقبض بعد انبساطه، وتنكد المجلس على الحاضرين، فلم يعد بعدها صلاح الدين إلى مصر مع طول المدة، وسار السلطان صلاح الدين وأغار في طريقه على بلاد الفرنج وغنم، ووصل إلى دمشق في حادي عشر صفر، ولما سار السلطان إلى الشام اجتمعت الفرنج قرب الكرك ليكونوا على طريقه فانتهز فرخشاه ابن أخي السلطان الفرصة وسار إلى الشقيف بعساكر الشام وفتحه، وغار على ما يجاوره من بلاد الفرنج، وأرسل إلى السلطان وبشره بذلك.

وفيها سير السلطان أخاه سيف الإسلام طغتكين إلى بلاد اليمن ليملكها ويقطع الفتن عنها، وكان بها حطان بن منقذ الكناني، وعز الدين عثمان الزنجيلي قد عاد إلى ولايتها، فإن الأمير الذي كان قد سيره السلطان نائباً إلى اليمن تولى وعزلها، ثم توفي فعاد بين حطان وعثمان الفتن قائمة، فوصل سيف الإسلام إلى زبيد فتحصن حطان في بعض القلاع، فلم يزل سيف الإسلام يتلطف به حتى نزل إليه فأحسن صحبته، ثم إن حطان طلب دستوراً ليسير إلى الشام، فلم يجبه إلا بعد جهد ، فجهز حطان أثقاله قدامه، ودخل حطان ليودع سيف الإسلام فقبض عليه، وأرسل استرجع أثقاله وأخذ جميع ماله، وكان فيما أخذه سيف الإسلام من حطان سبعين غلاف زردية مملوءة ذهباً عيناً، ثم سجن حطان في بعض قلاع اليمن، فكان آخر العهد به ،وأما عثمان الزنجيلي، فإنه لما جرى لحطان ذلك خاف وسار نحو الشام وسير أمواله في البحر فصادفها مراكب سيف الإسلام فأخذوا كلما لعثمان الزنجيلي وصفت اليمن لسيف الإسلام.

وفيها سار السلطان صلاح الدين من دمشق في ربيع الأول ونزل قرب طبرية وشن الإغارة على بلاد الفرنج مثل بيسان وجينين والغور، فغنم وقتل وعاد إلى دمشق، ثم سار إلى بيروت وحصرها وأغار على بلادها، ثم عاد إلى دمشق ، ثم سار إلى البلاد الجزرية، وعبر الفرات من البيرة فصار معه مظفر الدين كوكبوري بن زين الدين علي كوجك بن بلتكين، وكان حينئذ صاحب حران، وكاتب السلطان صلاح الدين ملوك تلك الأطراف واستمالهم فأجابه نور الدين محمد بن قرا أرسلان صاحب حصن كيفا ، وصار معه وحاصر السلطان الرها، وملكها وسلمها إلى مظفر الدين كوكبوري صاحب حران، ثم سار السلطان إلى الرقة، وأخذها من صاحبها قطب الدين ينال بن حسان المنبجي، فسار ينال إلى عز الدين مسعود صاحب الموصل، ثم سار السلطان إلى الخابور وملك

قرقيسيا وماكسين وعربان، واستولى على الخابور جميعه، ثم سار إلى نصيبين وحاصرها وملك المدينة، ثم ملك القلعة وأقطع نصيبين أميراً كان معه يقال له أبو الهيجاء السمين، ثم سار عن نصيبين وقصد الموصل وقد استعد صاحبها عز الدين مسعود ومجاهد الدين للحصار، وشحنوها بالرجال والسلاح، فحصر السلطان الموصل وأقام عليها منجنيقاً فأقاموا من داخل المدينة تسعة مناجينيق، وضايق الموصل فنزل السلطان محاذيا باب كندة، ونزل صاحب حصن كيفا باب الجسر، ونزل تاج الملوك بوري أخو صلاح الدين على باب العمادي، وجرى القتال بينهم وكان ذلك في شهر رجب، فلما رأى حصارها يطول رحل عن الموصل إلى سنجار وحاصرها وملكها، واستناب بها سعد الدين بن معين الدين أنر، وكان من أكابر الأمراء وأحسنهم صورة ومعنى، ثم سار السلطان إلى حران وعزل في طريقه أبا الهيجاء عن نصيبين.

وفيها عمل البرنس صاحب الكرك اصطولاً في بحر أيلة، وساروا في البحر فرقتين : فرقة أقامت على حصن أيلة يحصرونه ، وفرقة سارت نحو عيذاب يفسدون في السواحل، وبغتوا المسلمين بتلك النواحي، فإنهم لم يعهدوا بذلك البحر فرنجياً قط، وكان بمصر الملك العادل أبي بكر نائباً عن أخيه السلطان صلاح الدين، فعمل اصطولاً في بحر عيذاب وأرسله مع حسام الدين لؤلؤ الحاجب وهو متولي الاصطول بمصر، وكان مظفراً، فيه شجاعة ، فسار حسام الدين مجداً في طلبهم وأوقع بالذين يحاصرون أيلة فقتلهم وأسرهم، ثم سار في طلب الفرقة الثانية، وكانوا قد عزموا على الدخول إلى الحجاز الشريف ومكة والمدينة حرسهما الله تعالى ، وسار لؤلؤ يقفو أثرهم فبلغ رابغ فأدركهم بساحل الحوراء، وتقاتلوا في البحر أشد قتال، وظفر الله تعالى المسلمين بهم، وقتل لؤلؤ أكثرهم وأخذ الباقين أسرى، وأرسل مهم ألفي رجل إلى منى لينحروا بها، وعاد بالباقين إلى مصر فقتلوا عن آخرهم.

وفيها توفي عز الدين فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب، صاحب بعلبك، وكان ينوب عن صلاح الدين بدمشق وهو ثقته من بين أهله، وكان فرخشاه شجاعاً كريماً فاضلاً، له شعر جيد، ووصل خبر موته إلى صلاح الدين وهو في البلاد الجزرية فأرسل إلى دمشق شمس الدولة محمد بن عبد الملك المقدم ليكون بها ، وأقر بعلبك على بهرام شاه بن فرخشاه المذكور.

وفي سنة تسع وسبعين

ملك صلاح الدين حصن آمد بعد حصار وقتال في العشر الأول من المحرم، وسلمه إلى نور الدين محمد بن قرا أرسلان بن داود بن سقمان بن أرتق صاحب حصن كيفا، ثم سار إلى الشام، وقصد تل خالد من أعمال حلب وملكه، ثم سار إلى عين تاب وحصرها وبها ناصر الدين محمد بن الشيخ اسماعيل الذي كان خازن نور الدين محمود بن زنكي، وكان قد سلم نور الدين عين تاب إلى اسماعيل المذكور فبقت معه إلى الآن، فحاصرها وملكها بتسليم صاحبها إليه فأقره صلاح الدين عليها وبقي من جملة أمراء السلطان ثم سار السلطان إلى حلب وحصرها وبها عماد الدين زنكي بن مودود بن عماد الدين زنكي بن آق سنقر فطال الحصار عليه، وكان قد كثرت اقتراحات أمراء حلب وأهلها عليه ، وقد ضجر من ذلك، وقد كره حلب، لذلك فأجاب السلطان صلاح الدين إلى تسليم حلب على أن يعوض عنها سنجار ونصيبين، والخابور، والرقة، وسروج، واتفقوا على ذلك، وسلم حلب إلى السلطان في صفر هذه السنة، وكان أهل حلب ينادون على عماد الدين: « ياحمار بعت حلب بسنجار» ، وشرط السلطان على عماد الدين زنكي الحضور إلى خدمته بنفسه وعسكره ،متى استدعاه لايحتج بحجة عن ذلك.ومن عجيب الإتفاق أن محيي الدين بن الزكي قاضي دمشق مدح السلطان بقصيدة منها:

وفتحكـــم حلبـــاً بـــالسيـــف في صفـــر
مبشراً بفتـــوح القـــدس في رجـــب

فوافق فتح القدس في رجب سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة ، وكان من جملة من قتل على حلب تاج الدين بوري أخو السلطان الأصغر ، وكان شجاعاً كريماً طعن في ركبته فانفلقت فمات منها، ولما استقر الصلح عمل زنكي دعوة للسلطان واحتفل فيها، فبيناهم في سرورهم إذ جاء انسان فأسر إلى السلطان بموت أخيه، فوجد عليه في قلبه وجداً عظيماً، وأمر بتجهيزه سراً، ولم يعلم السلطان في ذلك الوقت أحداً ممن كان في تلك الدعوة لئلا يتنكد عليهم ما هم فيه، وكان السلطان يقول: ما وقعت علينا حلب رخيصة بموت بوري، وكان هذا من السلطان من الصبر العظيم، ولما ملك السلطان حلب أرسل إلى حارم وبها سرخك الذي ولاه الملك الصالح بن نور الدين في تسليم حارم، وجرى بينهما مراسلة فلم ينتظم بينهما حال، وكاتب سرخك الفرنج، فوثب عليه أهل القلعة وقبضوه وسلموا حارم إلى السلطان، فتسلمها وقرر أمر بلاد حلب وأقطع أعزاز أميراً يقال له سليمان بن جندر.

وفيها قبض عز الدين صاحب الموصل على نائبه مجاهد الدين قيماز.

وفيها لما فرغ السلطان من تقرير أمر حلب جعل فيها ولده الملك الظاهر غازي، وسار إلى دمشق وتجهز منها للغزو وعبر نهر الأردن تاسع جمادى الآخرة من هذه السنة، وأغار على بيسان وأحرقها، وشن الإغارة على تلك النواحي، ثم تجهز السلطان إلى الكرك وأرسل إلى أخيه الملك العادل أبي بكر بمصر يأمره أن يلاقيه إليها، فسارا واجتمعا عليها وحصر الكرك وضيق عليها، ثم رحل عنها في منتصف شعبان وسار معه أخوه العادل، وأرسل السلطان ابن أخيه الملك المظفر تقي الدين عمر إلى مصر نائباً له موضع العادل، ووصل السلطان إلى دمشق وأعطى

أخوه العادل مدينة حلب وقلعتها وأعمالها، وسيره في شهر رمضان، وأحضر ولده الظاهر منها إلى دمشق.

وفيها توفي شاه أرمن ابن سكمان بن ظهير الدين ابراهيم بن سكمان القطبي صاحب خلاط، وكان عمره لما توفي أربعاً وستين سنة، ولما توفي شاه أرمن كان بكتمر مملوك أبيه بميافارقين فلما سمع بكتمر بموته سار من ميافارقين إلى خلاط، وكان أهلها يريدونه ومماليك شاه أرمن متفقين معه، فأول وصوله تملك خلاط وجلس على كرسي شاه أرمن ، واستقر في مملكة خلاط حتى قتل سنة تسع وثمانين.

وفي سنة ثمانين وخمسمائة

سار أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن ملك الغرب إلى بلاد الأندلس، وعبر البحر في جمع عظيم من عساكره، وقصد بلاد الفرنج وحصر شنترين من غرب الأندلس، وأصابه مرض فمات منه في ربيع الأول، وحمل في تابوت إلى مدينة إشبيلية، وكان حسن السيرة ، واستقامت له المملكة لحسن تدبيره، ولما مات بايع الناس ولده يعقوب ابن يوسف وكنيته أبو يوسف، وملكوه عليهم في الوقت الذي مات فيه أبوه لئلا يكونوا بغير ملك يجمع كلمتهم لقربهم من العدو، فقام يعقوب بالملك أحسن قيام، وأقام راية الجهاد، وأحسن السيرة.

وفيها في ربيع الآخر سار السلطان صلاح الدين من دمشق للغزاة ، وكتب إلى مصر، فسارت عساكره إليها، ونازل الكرك وضيق عليه، وملك ربضه ، وبقيت القلعة وليس بين القلعة والربض إلا خندق عميق، وقصد السلطان طمه فلم يمكنه لكثرة المقاتلة، فجمعت الفرنج فارسها وراجلها وقصدوه، فلم يمكن السلطان إلاّ الرحيل فرحل إليهم، فأقاموا في أماكن وعرة، وأقام السلطان قبالتهم، وسار من الفرنج جماعة ودخلوا

الكرك، فعلم بـامتناعه عليه، فسـار إلى نابلس وأحرقهـا، ونهب ما بتلك النواحي وقتل وسبـى فأكثر فسار إلى سبسطية وبها مشهد زكـريا فاستنقذ من بها من أسرى المسلمين ثم سار إلى جينين، وعاد إلى دمشق.

وفيها مات قطب الدين إلغازي بن نجـم الدين ألبي بن حسام الدين تمرتاش بـن ايلغازي بن أرتـق صاحب ماردين، وقد تقدم في سنـة سبع وخمسمائة ملك ألبي بـن تمرتاش، وبقي ألبي في ملك ماردين حتى مات وملك ولـده قطب الـدين ايلغـازي، ولما مات ايلغـازي المذكور كـان له أولاد أطفال ، فـأقيم في الملك بعـده ولده حسام الـدين بولـق أرسلان ، وقـام بتدبير المملكـة مملوك والـده نظام الـديـن البقش حتـى كبر بولـق أرسـلان ، وكان بـه هوج وخبـط فمات بولـق وأقـام أبق بعـد أخاه أرتـق أرسلان ولقبـه ناصر الدين ولم يكـن له حكم بل الحكـم إلى البقش وإلى مملوك للبقش اسمـه لؤلؤ كان قـد تغلب على استاذه البقش بحيـث كان لايخرج البقش عن رأي لؤلؤ المذكور، وبقـي الأمر كذلك إلى سنة إحدى وستمائة فمرض النظام البقش وأتاه ناصر الديـن صاحب ماردين يعوده ، فلما خرج مـن عنده خـرج معه لؤلـؤ فضربه نـاصر الديـن بسكين فقتله وعاد إلى البقـش فضربه بسكين فقتلـه أيضاً، واستقل نـاصر الديـن أرتق أرسلان بملك ماردين من غير منازع.

وفيها سار شيخ الشيوخ صدر الديـن عبد الرحيم من عند الخليفة إلى صلاح الـدين في رسـالة، ومعه شهـاب الدين بشير الخادم ليصلحا بين السلطان صـلاح الديـن وبين عز الـدين مسعـود صاحـب الموصل فلـم ينتظم حال، واتفـق أنهما مرضا بدمشق وطلبـا المسير إلى العراق وسارا في الحر فمات بشير بالسخنة ومات صدر الدين شيـخ الشيوخ بالرحبة ودفن بمشهد البوق، وكان أوحد زمانه قد جمع بين رئاسة الدين والدنيا.

وفيها في محرم أطلق عـز الدين مسعود صـاحب الموصل مجاهد الـدين قيماز من الحبس وأحسن إليه.

سنة إحدى وثمانين إلى سنة تسعين وخمسمائة

في سنة إحدى وثمانين

حصر السلطان صلاح الدين الموصل وهو حصاره الثاني، فأرسل إليه عز الدين مسعود والدته وابنة عمه نور الدين محمود بن زنكي وغيرهما من النساء يطلبون منه ترك الموصل وما بأيديهم، فردهم، واستقبح الناس ذلك من صلاح الدين لاسيما والشفعاء بنت نور الدين وأخوها ووالدة عز الدين ، وحاصر الموصل وضايقها وبلغه وفاة شاه أرمن صاحب خلاط في ربيع الآخر هذه السنة فسار عن الموصل إلى جهة خلاط وملكها.

وفيها توفي نور الدين محمد بن قرا أرسلان بن داود بن سقمان بن أرتق صاحب حصن كيفا وآمد، وملك بعده ولده قطب الدين سقمان ، وكان صغيراً فقام بتدبيره القوام بن سماقا الأسعردي وحضر سقمان إلى السلطان صلاح الدين وهو نازل على ميافارقين فأقره على ما كان بيد والده نور الدين محمد بن قرا أرسلان، وأقام معه أميراً من أصحاب والده.

ملك صلاح الدين ميافارقين

لما سار السلطان عن الموصل إلى أخلاط جعل طريقه على ميافارقين، وكانت لصاحب ماردين الذي توفي، وبها من يحفظها من جهة شاه أرمن، ، صاحب خلاط المتوفى، فحاصرها السلطان وملكها في سلخ جمادى الأولى ، ثم إن السلطان رجع عن قصد أخلاط إلى الموصل، فجاءته رسل عز الدين مسعود، يسأل الصلح، واتفق أن السلطان مرض ورجع من كفرزمار عائداً إلى حران فلحقته رسل صاحب الموصل

بالإجابة إلى ما طلب، وهو أن يسلم صاحب الموصل إلى السلطان شهرزور وأعمالها، وولاية القراملي وجميع ماوراء الزاب، وأن يخطب للسلطان صلاح الدين على جميع منابر الموصل، وأن يضرب اسمه على الدراهم والدنانير، وتسلم السلطان ذلك، واستقر الصلح وأمنت البلاد، ووصل السلطان إلى حران، وأقام بها مريضاً، واشتد به المرض حتى أنهم أيسوا منه، ثم إنه عوفي وعاد إلى دمشق في المحرم سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة، ولما اشتد مرض السلطان سار ابن عمه محمد بن شيركوه صاحب حمص إلى حمص، وكاتب بعض أكابر دمشق في أن يسلموا إليه دمشق إذا مات السلطان، وفيها ليلة عيد الأضحى شرب بحمص صاحبها ناصر الدين محمد بن شيركوه بن شادي، فأصبح ميتاً، قيل إن السلطان صلاح الدين دس عليه من سقاه سماً فمات، لما بلغه مكاتبته أهل دمشق في مرضه، ولما مات أقر السلطان حمص وما بيد محمد على ولده شيركوه، وعمره اثنتا عشرة سنة، وخلف صاحب حمص شيئاً كثيراً من الدواب والآلات وغيرها، فاستعرضها السلطان عند نزوله بحمص في عوده من حران، وأخذ أكثرها ، ولم يترك إلاّ مالا خير فيه.

وفي سنة اثنتين وثمانين

أحضر السلطان ولده الملك الأفضل من مصر وأقطعه دمشق ، وسببه أن الملك المظفر تقي الدين عمر ابن أخي السلطان، كان نائب عمه بمصر، ومعه الملك الأفضل ، فأرسل الملك المظفر يشتكي من الأفضل: إنني لاأتمكن من استخراج الخراج لأنني إذا أحضرت من عليه الخراج ، وأردت عقوبته يطلقه الملك الأفضل، فأخرج السلطان ولده من مصر وأقطعه دمشق، وتغير السلطان على تقي الدين في الباطن لأنه ظن أنه إنما أخرج الأفضل من مصر ليتملكها إذا مات السلطان، ثم أحضر أخاه العادل من حلب، وجعل معه العزيز عثمان ولده نائباً عنه بمصر، واستدعى تقي الدين من مصر، فتوقف عن الحضور، وقصد اللحوق

بمملوكه قراقوش المستولي على بلاد برقة وإفريقية من المغرب، وبلغ السلطان ذلك فساءه، وأرسل يستدعي تقي الدين ويلاطفه، فحضر إليه ولما حضر تقي الدين عند السلطان زاده حماه وعليها منبج، والمعرة ، وكفر طاب، وميافارقين، وجبل جور، بجميع أعمالها.

واستقر العزيز عثمان ولد السلطان بمصر هو والعادل ، ولما أخذ السلطان حلب من أخيه العادل عوضه عنها حران والرها، وفيها غدر البرنس صاحب الكرك، وأخذ قافلة عظيمة من المسلمين، وأسرهم ، وأرسل السلطان يطلب منه إطلاقهم بحكم الهدنة التي كانت بينهم على ذلك، فلم يفعل، فنذر السلطان أنه إن ظفّره الله به قتله بيده.

وفيها توفي البهلوان محمد بن ألدكز صاحب بلد الجبل وهمذان والري وأصفهان وأذربيجان وأرانية وغيرها من البلاد، وكان عادلاً حسن السيرة وملك البلاد بعده أخوه قزل أرسلان عثمان ، وكان السلطان طغريل ابن محمد بن ملكشاه السلجوقي مع البهلوان، وله الخطبة في بلاده وليس له من الأمر شيء فلما مات البهلوان خرج طغريل عن حكم قزل، وكثر جمعه، واستولى على بعض البلاد وجرى بينه وبين قزل أرسلان حروب.

-١٠٧٠٦-

وفي سنة ثلاث وثمانين

كانت مبادىء غزوات صلاح الدين وفتوحه، ففيها جمع السلطان العساكر وسار بفرقة من العسكر، وضايق الكرك خوفاً على الحجاج من صاحب الكرك، وأرسل فرقة أخرى مع ولده الملك الأفضل، فأغاروا على بلاد عكا وتلك الناحية ، وغنموا شيئاً كثيراً، ثم سار السلطان ونزل على طبرية، وحصر مدينتها وفتحها عنوة بالسيف، وتأخرت القلعة، وكانت طبرية للقومص صاحب طرابلس، وكان قد هادن السلطان ودخل في طاعته، فأرسلت الفرنج إلى القومص القسوس والبطرك ينهونه عن موافقة السلطان ويوبخونه ، فصار معهم، واجتمع الفرنج لملتقى السلطان، فكانت.

وقعة حطين

وهي الوقعة العظيمة التي فتح الله بها الساحل وبيت المقدس.

لما فتح السلطان طبرية اجتمعت الفرنج بفارسهم وراجلهم، وساروا إلى السلطان ، فركب السلطان من طبرية وسار إليهم يوم السبت لخمس بقين من ربيع الآخر، والتقى الجمعان واشتد بينهم القتال،فلما رأى القومص شدة الأمر حمل على من قبله من المسلمين، وكان هناك تقي الدين عمر صاحب حماه، فأفرج له ثم عطف عليه فقتل ألف فارس من أصحابه ، ونجا القومص من المعركة، ووصل إلى طرابلس وبقي مدة، ومات عنتاً، ونصر الله المسلمين وأحدقوا بالفرنج من كل جانب وأبادهم قتلا وأسراً، وكان من جملة من أسر ملك الفرنج الكبير، والبرنس أرناط صاحب الكرك وصاحب جبيل، والهنفري بن هنفري ومقدم الداوية، وجماعة من الاسبتارية. وما أصيب الفرنج من حين خرجوا إلى الشام، وهي سنة إحدى وتسعين وأربعمائة بمصيبة مثل هذه الوقعة.

ولما انقضى المصاف جلس السلطان في خيمة، وأحضر ملك الفرنج وأجلسه إلى جانبه، وكان الحر والعطش به شديداً، فسقاه ماء مثلوجاً، فسقى ملك الفرنج منه البرنس أرناط صاحب الكرك، فقال له السلطان: إن هذا الملعون لم يشرب الماء باذني، فيكون أمانا له، ثم كلم السلطان البرنس ووبخه وقرعه على غدره وقصده الحرمين الشريفين، وقام السلطان بنفسه فضرب عنقه بيده، فارتعدت فرائص ملك الفرنج، فسكنه السلطان، ثم عاد السلطان إلى طبرية وفتح قلعتها بالأمان، ثم سار إلى عكا وحاصرها وفتحها بالأمان ، ثم راسل أخاه الملك العادل فحاصر مجدل يابا وفتحه عنوة بالسيف، ثم فرق السلطان عسكره ففتحوا : الناصرة ، وقيسارية، وحيفا ، وصفورية ، ومعليا، والفولة، وغيرها من البلاد المجاورة لعكا بالسيف، وغنموا وقتلوا وأسروا أهل هذه الأماكن ، وأرسل فرقة إلى نابلس ففتحوا قلعتها بالأمان، وسار السلطان إلى تبنين وفتحها بالأمان، ثم سار السلطان الملك الناصر صلاح الدين إلى صيدا فأخلاها صاحبها وتسلمها السلطان ساعة وصوله لسبع بقين من جمادى الأولى هذه السنة، ثم سار إلى بيروت وحصرها وتسلمها في التاسع والعشرين من جمادى الأولى بالأمان، وكان حصرها مدة ثمانية أيام، وكان صاحب جبيل من أعظم الفرنج وأشدهم عداوة للمسلمين، ولم تك عاقبة اطلاقه حميدة، وأرسل السلطان من تسلم جبيل وأطلقه.

وفيها حضر المركيس في سفينته إلى عكا، وهي للمسلمين ، ولم يعلم المركيس بذلك، واتفق هجوع الهواء، فراسل المركيس الملك الأفضل ، وهو بعكا يقترح أمانا، فكتب له الملك الأفضل أمانا، فرده يشترط فيه شروطاً، فأجيب إليها، فراسل الملك الأفضل يعلمه أنه يدوس بساطه في يوم معلوم، فصبر عليه الملك الأفضل، فاتفق في ذلك اليوم تحرك الهواء، فأقلع المركيس إلى صور، واجتمعت عليه الفرنج الذين بها، وملك صور، وكان وصول المركيس إلى صور واطلاق الفرنج الذين أخذ السلطان بلادهم بالأمان وأطلقهم من أعظم أسباب الضرر التي حصلت حتى

راحت عكا، وقوي الفرنج بذلك، ثم سار السلطان إلى عسقلان وحاصرها أربعة عشر يوما، وتسلمها بالأمان سلخ جمادى الأخرة، ثم بث السلطان عسكره ففتحوا : الرملة ، والدارون، وغزة، وبيت لحم، وبيت جبريل، والنطرون، وغير ذلك ، ثم سار السلطان ونازل القدس وبه من النصارى عدد يفوت الحصر، وضايق السلطان السور بالنقابين، واشتد القتال بينهم، وعلقوا السور، فطلب الفرنج الأمان، فلم يجبهم السلطان إليه، وقال: لا آخذها إلا بالسيف مثلما أخذها الفرنج من المسلمين، فعاودوه بالأمان، وعرفوه ما هم عليه من الكثرة وأنهم إن أيسوا من الأمان قاتلوا خلاف ذلك، فأجابهم السلطان إليه بشرط أن يؤدي كل من بها من الرجال عشرة دنانير، ومن النساء خمسة، ومن الأطفال دينارين، ومن عجز عن الأداء كان أسيراً، فأجيب إلى ذلك ، وسلمت إليه المدينة يوم الجمعة سابع وعشرين رجب، وكان يوماً مشهوداً، ورفعت الأعلام الاسلامية على أسواره، ورتب السلطان على أبواب البلد من يقبض منهم المال المذكور، فخان المرتبون في ذلك ، ولم يقبضوا منه إلاّ القليل، وكان على رأس قبة الصخرة صليب كبير مذهب ، فتسلق المسلمون ، وقلعوه، وسمع لذلك ضجة عظيمة لم يعهد مثلها من المسلمين للفرح والسرور، ومن الكفار التفجع والتوجع، وكان الفرنج قد عملوا في الجامع الأقصى هرياً ومستراحاً، فأمر السلطان بازالة ذلك وإعادة الجامع إلى ما كان عليه ، وكان نور ا لدين محمود بن زنكي قد عمل منبراً بحلب، وتعب عليه مدة، وقال: هذا لأجل القدس، فأرسل صلاح الدين أحضره من حلب، وجعله في الجامع الأقصى، وأقام السلطان بعد فتوح القدس بظاهره إلى الخامس والعشرين من شعبان يدبر أمور البلد وأحواله، وتقدم بعمل الربط والمدارس الشافعية، ثم رحل إلى عكا ومنها إلى صور، وصاحبها المركيس قد حصنها بالرجال، وحفر خنادقها، ونزل السلطان على صور تاسع شهر رمضان، وحاصرها وضايقها ، وطلب الأسطول، فوصل إليه في عشر شوان، فاتفق أن

الفرنج كبسوهم وأخذوا خمس شواني، ولم يسلم من المسلمين إلا من سبح ونجا، وأخذ الباقون ، فطال الحصار عليها ، فرحل السلطان في آخر شوال ، وكان أول كانون أول . وأقام بعكا وأعطى العساكر الدستور، فسار كل واحد إلى بلده، وبقي السلطان بعكا في حلقته، وأرسل إلى هونين ففتحها بالأمان.

وفيها سار شمس الدين محمد بن عبد الملك المقدم حاجاً، وكان هو أمير الحاج الشامي ليجمع بين الغزاة وزيارة القدس والخليل والحج في عام واحد، فسار ووقف بعرفات ولما أفاض أرسل إليه مجير الدين طاشتكين أمير الحاج العراقي يمنعه من الإفاضة قبله، فلم يلتفت إليه، فسار العراقيون واشتبكوا مع الشاميين فقتل بينهم جماعة وابن المقدم يمنع أصحابه من القتال، ولو مكنهم لانتصفوا من العراقيين ، فجرح ابن المقدم ومات شهيداً، ودفن بمقبرة المعلى.

وفيها قوي أمر السلطان طغريل بن أرسلان شاه بن طغريل بن السلطان محمد بن السلطان ملكشاه بن ألب أرسلان بن جغري بك داود بن ميكائيل بن سلجوق، وملك كثيراً من البلاد، وأرسل قزل أرسلان بن ألدكز يستنجد الخليفة ويخوفه عاقبة أمر طغريل.

وفيها سار شهاب الدين الغوري وغزا بلاد الهند.

وفيها قتل الخليفة الناصر استاذ داره أبا الفضل مجد الدين بن الصاحب، ولم يكن للخليفة معه حكم، وظهر له أموال عظيمة فأخذت جميعها، وفيها استوزر الخليفة الناصر جلال الدين أبا المطهر عبيد الله بن يونس، ومشى أرباب الدولة في ركابه حتى قاضي القضاة.

- ١٠٧١٠ -

وفي سنة أربع وثمانين

شتى السلطان في عكا، ثم سار بمن معه إلى كوكب، وجعل على حصارها الأمير قيماز النجمي، وسار منها في ربيع الأول، ودخل دمشق، وفرح الناس بقدومه، وكتب إلى الأطراف باجتماع العساكر، وأقام في دمشق خمسة أيام وسار منها في ربيع الأول من السنة، ونزل على بحيرة قدس غربي حمص وأتته العساكر بها، فأولهم عماد الدين زنكي بن مودود ابن زنكي بن آق سنقر صاحب سنجار ونصيبين، ولما تكاملت العساكر رحل ونزل تحت حصن الأكراد، وشن الغارات على بلاد الفرنج، وسار من حصن الأكراد فنزل على أنطرطوس سادس جمادى الأولى، وتسلمها ساعة وصوله فجعل لحفظها الأمير سابق الدين عثمان بن الداية صاحب شيزر، ثم سار السلطان إلى اللاذقية ووصل إليها رابع عشرين جمادى الأولى، ولها قلعتان، فحصر القلعتين، وزحف إليها فطلب أهلها الأمان، فأمنهم وتسلم القلعتين، ولما تسلمها سلمها إلى ابن أخيه الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب، فحصنها وعمر قلعتها، وكان تقي الدين عظيم الهمة في تحصين القلاع والغرامة عليها كما فعل بقلعة حماة، ثم ر حل السلطان عن اللاذقية سابع عشرين جمادى الأولى إلى صهيون وحاصرها وضايقها وطلب أهلها الأمان فلم يجبهم إلاّ على أمان أهل القدس فيما يؤدوه، فأجابوا إلى ذلك، وتسلم السلطان قلعة صهيون وسلمها إلى أمير من أصحابه يقال له ناصر الدين منكورس صاحب قلعة أبي قبيس، ثم فرق عسكره في تلك الجبال، فملكوا حصن بلاطنس، وكان الفرنج الذين به قد هربوا وأخلوه وملكوا حصن العيد، وحصن هونين، ثم سار السلطان عن صهيون ثامن جمادى الآخرة ووصل إلى قلعة بكاس فأخلاها أهلها وتحصنوا بقلعة الشغر، فحاصرها السلطان ووجدها منيعة وضايقها، فرمى الله في قلوبهم الرعب، وطلبوا الأمان وتسلمها يوم الجمعة سادس جمادى الآخرة بالأمان، وأرسل السلطان ولده الملك الظاهر غازي - صاحب حلب - فحصر سرمين

وضايقها واستنـزل أهلها على قطيعة قررها عليهم، وهـدم الحصن، وعفى أثره، وكان في هذه وفي جميـع الحصون المذكورة من المسلمين الجم الغفير، فـأطلقـوا ، وأعطوا الكسـوة والنفقـة، ثـم سـار السلطان مـن الشغـر إلى برزية، ورتـب عسكره ثلاث فرق، وداومهـا بالزحف وملكهـا بالسيف في السابع والعشرين من جمادى الآخرة، وسبى وقتل من أهلها غالبهم.

قال ابن الأثير في الكامل: كنت مع السلطان في فتحه لهذه البلاد طلباً للغزاة فحكى ذلك عن مشاهدة[١٢].

ثم سـار السلطان، ونزل على جسر الحديـد ، وهو على العـاصي بقرب أنطاكية، فأقام عليه أياما حتى تلاحق به من تأخر من العسكر ، ثم سار إلى دربساك، ونـزل عليها ثـامن رجب هـذه السنة، وحـاصرها وضـايقها وتسلمها بالأمان على شرط أن لايخرج أحد منهـا إلا بثيابه فقط، وتسلمها تاسـع عشر رجب، ثـم سار إلى بغراس وحصرهـا وتسلمها بـالأمان على حكم أمان دربسـاك، وأرسل بيمند صاحب أنطاكيـة إلى السلطان يطلب منه الهدنـة والصلح، وبـذل اطلاق كـل أسير عنده، فـأجيب إلى ذلـك، واصطلحـوا ثمانية أشهـر، وكـان صاحـب أنطاكيـة حينئـذ أعظم ملـوك الفرنج في هذه البـلاد، فإن أهل طرابلس سلموا إليه طـرابلس بعد موت القومص صاحبهـا على ما ذكرناه ، فجعل بيمند صاحـب أنطاكية ابنه في طرابلس.

ولما فرغ السلطـان من أمر هذه البـلاد والهدنة سار إلى حلـب ودخلها ثالـث شعبان، وسار منها إلى دمشـق، وأعطى عماد الدين زنكـي دستوراً وكذلـك أعطى غيره مـن العساكر الشرقيـة ، وجعل طـريقه لما رحـل من حلب على قبر عمر بن عبد العزيز، فـزاره، وزار الشيخ أبا زكريا المغربي، وكان مقيماً هنـاك، وكان من عبـاد الله الصلحاء، ولـه كرامات ظـاهرة ، وكـان مع السلطـان الأمير أبو فليتـه قاسـم بـن مهنا الحسنـي صاحـب

مدينـة الرسـول صلى الله عليـه وسلم ، وشهد معـه مشاهـده وفتوحـاته، وكان السلطـان يتبرك برؤيته، ويتيمن بصحبتـه، ويرجع إلى قولـه. ودخل السلطـان دمشـق في رمضـان ، فـأشير عليـه بتفـريـق العسـاكـر ليريحوا ويستريحوا، فقـال السلطـان: العمـر قصير والأجـل غير مـأمـون،وكـان السلطـان لما سار إلى البـلاد الشمالية، قـد جعل على الكـرك وغيرها مـن يحصرها، وخلّى أخـاه العادل بتملـك الجهات يباشر ذلـك ، فأرسـل أهل الكرك يطلبـون الآمان، فأمـر الملك العادل المبـاشرين لحصارهـا بتسلمها فتسلموها، وهي الكرك والشوبك، وما بتلك الجهة من البلاد.

ثم سـار السلطان من دمشق المحـروسة في منتصف رمضـان إلى صفد وحصرها، وتسلمهـا بالأمـان، ثم سار إلى كـوكب، وعليهـا قيماز النجمي يحاصرها، فضايقهـا السلطان وتسلمها بالأمـان في منتصف ذي القعدة ، وسير أهلها إلى صـور، وكان اجتماع أهل هـذه القلاع في صور مـن أعظم أسباب الضرر على المسلمين ، ظهـر ذلك فيما بعد. ثم سـار السلطان إلى القـدس فعيـد فيـه عيـد الأضحـى، ثم سـار إلى عكـا فـأقـام بها حتـى انسلخت السنـة. وفيها أرسـل قزل بـن ألدكـز يستنجد بـالخليفة الامـام النـاصر على طغريـل بـن أرسـلان بن طغـريـل بـن محمد بـن السلطـان ملكشاه السلجـوقي ويحذره عـاقبة طغـريل، فـأرسل الخليفـة عسكراً إلى طغريل ، والتقوا ثامن ربيـع الأول هذه السنة قرب همذان، فانهزم عسكر الخليفة ، فغنم طغريل أموالهم وأسر مقدمهم الوزير جلال الدين.

وفي سنة خمس وثمانين

سار السلطان صـلاح الدين ، ونزل بمرج عيون، وحضر إليـه صاحب شقيف أرنون، وبذل لـه تسليم الشقيف بعد مدة عينها خـديعة منه، فلما بقـي ثـلاثـة أيـام استحضره السلطان، وكـان اسمـه أرنـاط وقـال لـه في التسليم، فقـال: لايوافقني عليه أهلي وأهـل الحصن ، فأمسكـه السلطان وبعث به إلى دمشق فحبسه.

وفيها كان:

حصار الفرنج عكا

كان قد اجتمع بصور أهل البلاد التي أخذها السلطان بالأمان، فكثر جمعهم حتى صاروا في عدد لايحصى، فأرسلوا إلى البحر يبكون ويستنجدون، وصوروا المسيح ، وصوروا عربي يضرب المسيح وقد أدماه، وقالوا: هذا نبي العرب يضرب المسيح، فخرجت النساء من بيوتهن ووصل من البحر عالم لايحصى كثرة، وساروا من صور إلى عكا، ونازلوها في منتصف رجب هذه السنة، وضايقوا عكا وأحاطوا بسورها من البحر إلى البحر، ولم يبق للمسلمين إليها طريق، فسار السلطان، ونزل قرب الفرنج وقابلهم في مستهل شعبان وباتوا على ذلك، وأصبحوا وحمل تقي الدين عمر صاحب حماة من ميمنة السلطان على الفرنج فأزالهم عن موقفهم والتصق بالسور وانفتح الطريق إلى المدينة، فأدخل السلطان إلى عكا عسكراً نجدة، وكان من جملتهم أبو الهيجاء السمين، وبقي المسلمون يغادون القتال ويراوحونه إلى عشرين شعبان، ثم كان بين المسلمين وبينهم الوقعة العظيمة، فإن الفرنج اجتمعوا وحملوا على السلطان في القلب، فأزالوه عن موقفه، وأخذ الفرنج يقتلون المسلمين إلى أن بلغوا خيمة السلطان، فانحاز السلطان هو وخاصته إلى جانب، وانقطع مدد الفرنج وانشغلوا بقتال الميمنة ، فحمل السلطان على الفرنج الذين خرقوا الميمنة ، وعطف الجيش عليهم فأفنوهم قتلاً، فقتل في ذلك الوقت من الفرنج قريب الثلاثين ألفاً، ووصل المنهزمون من المسلمين بعضهم إلى طبرية ، وبعضهم إلى دمشق،وجافت الأرض بعد هذه الوقعة ، ولحق السلطان مرض القولنج، فأشار عليه الأمراء بالانتقال من ذلك الموضع فوافقهم، ورحل عن عكا رابع عشر رمضان هذه السنة إلى

الخروبة، فلما رحل تمكن الفرنج من حصار عكا وانبسطوا في تلك الأرض، ووصل اسطول المسلمين في البحر مع حسام الدين لؤلؤ الحاجب، فظفر باسطول الفرنج وأخذه، وأخذ من الفرنج أموالاً عظيمة، ودخل بالكل إلى عكا، فقوى به قلوب المسلمين، وكذلك وصل الملك العادل بعسكر مصر بالسلاح إلى أخيه السلطان، فقويت قلوب المسلمين بوصوله.

وفي سنة ست وثمانين

بعد دخول صفر رحل السلطان من الخروبة، وعاد إلى قتال الفرنج بعكا، وكان الفرنج قد عملوا قرب سور عكا ثلاثة أبرجة، طول البرج ستون ذراعاً جلبوا خشبها من جزائر البحر وعملوها طبقات ، وشحنوها بالسلاح ولبسوها جلود البقر والطين بالخل لئلا تعمل فيها النار، فتحيل المسلمون وأحرقوا البرج الأول، فاحترق بمن فيه من الرجال والسلاح، ثم أحرقوا الثاني والثالث، وانبسطت نفوس المسلمين لذلك بعد الكآبة ، ووصلت إلى السلطان عساكر البلاد.

وبلغ المسلمين وصول ملك الألمان ، وكان قد سار من بلاد وراء القسطنطينية بمائة ألف مقاتل، واغتم المسلمون لذلك وأيسوا من الشام بالكلية ، فسلط الله على الألمان الغلاء والوباء، فهلك أكثرهم في الطريق، ولما وصل ملكهم إلى بلاد الأرمن نزل في نهر هناك يغتسل، فهلك غرقاً، وأقاموا ابنه مقامه، فرجع من عسكره طائفة إلى بلادهم، وطائفة اختارت أخا ابن الملك المذكور، فرجعوا مع ابن الملك ، ووصل مع ابن الملك المتولي أولاً إلى فرنج عكا ألف مقاتل ،وكفى الله المسلمين شرهم.

وبقي السلطان وفرنج عكا يتناوشون القتال.إلى العشرين من جمادى

الآخرة ، فخرجت الفرنج بالفارس والراجل من خنادقهم وأزالوا الملك العادل عن موقفه، وكان معه عسكر مصر، فعطف عليهم المسلمون وقتلوا من الفرنج قريب عشرة آلاف ، فرجعوا إلى خنادقهم، وحصل للسلطان مغص، فانقطع في خيمة صغيرة ولولا ذلك كانت الفيصلة ، ولكن إ ذا أراد الله أمراً فلا مرد له.

وفيها قوي الشتاء واشتدت الرياح، وأرسل الفرنج مراكبهم إلى صور خوفاً أن تنكسر ، فانفتحت الطريق إلى عكا في البحر ، وأرسل السلطان إليها البدل، فكان العسكر الذين خرجوا منها أضعاف الواصلين إليها، فحصل التفريط بذلك.

وفيها ثامن شوال توفي زين الدين يوسف بن زين الدين علي كوجك صاحب إربل، وكان مع السلطان بعسكره، ولما مات أقطع السلطان إربل أخاه مظفر الدين كوكبوري بن زين الدين علي كوجك، وأضاف إليه شهرزور وأعمالها، وارتجع ما كان بيد المظفر وهو : حران، والرها، وسار مظفر الدين إلى إربل وملكها.

وفيها استولى الخليفة الناصر على حديثه عانة، بعد أن حصرها مدة.

وفيها أقطع السلطان ما كان بيد مظفر الدين وهو : حران والرها وسميساط الملك المظفر تقي الدين عمر زيادة على ما بيده، وهو ميافارقين، ومن الشام: حماه والمعرة، وسلمية، ومنبج، وقلعة نجم، وجبلة، واللاذقية وبلاطنس، وبكسرائيل.

- ١٠٧١٦ -

وفي سنة سبع وثمانين

كان استيلاء الفرنج على عكا

واستمر حصار الفرنـج لعكا إلى هذه السنة، وكانوا قـد أحاطوا بها من البحر إلى البحر، وحفروا عليها خندقاً، فلـم يتمكن السلطان من الوصول إليهم، وكانـوا محاصرين لعكا وهم كـالمحصورين من خـارج بالسلطان، واشتد حصـارهم لعكا وطـال، وضعف مـن بها عن حفظ البلـد، وعجز السلطان صلاح الدين عن دفع العـدو عنهم، فخرج الأمير سيف الدين علي بـن أحمد المشطـوب، وطلـب الأمان مـن الفـرنـج على مـال وأسرى يقومون به للفرنج، فأجابـوهـم إلى ذلك، وصعدت أعلام الفرنج على عكا يوم الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة وقـت الظهر، واستولوا على البلد بما فيه ، وحبسـوا المسلمين في أماكن من البلـد، وقالوا إنما نحبسهم ليقـوموا بـالمال والأسرى وصليب الصلبـوت، وكتبوا إلى السلطـان صـلاح الديـن بـذلـك، فحصـل مـا أمكـن تحصيله مـن ذلـك، وطلـب منهـم اطـلاق المسلمين فلم يجيبوا إلى ذلك.

فعلم منهـم الغدر، واستمـر أسرى المسلمين بها، ثم قتـل الفرنـج من المسلمين جماعة كثيرة، واستمروا بـالباقين في الأسر، وبعد استيلاء الفـرنج على عكـا وتقريـر أمـرها ، رحلـوا عنهـا مستهل شعبـان نحـو قيساريـة، والمسلمـون يسـايرونهم ويتخطفـون منهـم، ثـم سـاروا من قيسـاريـة إلى أرسـوف، ووقـع بينهـم وبين المسلمين مصـاف أزالـوا المسلمين عـن مـواقفهم، ووصلـوا إلى سـوق المسلمين، فقتلوا خلقـاً كثيراً أكثـرهم مـن السوقة، ثم سـار الفرنج إلى يافا وقد أخلاها المسلمـون فملكوها، ثم رأى السلطان تخريب عسقلان مصلحة لئلا يحصـل لها ما حصل لعكا، فسار إليها واخلاهـا، ورتب الحجارين في تعليـق أسوارها وتخريبها، فـدكها إلى الأرض، فلما فرغ مـن تخريب عسقـلان رحل عنهـا ثاني شهـر رمضان إلى

الرملة فخرب حصنها، وخرب كنيسة لـدّ،ثم سار إلى القدس وقرر أموره، وعاد إلى مخيمه ثامن رمضان، ثم تراسل الفرنج والسلطان في الصلح على أن يتزوج الملك العادل أخو السلطان بأخت ملك الانكتار ويكون للملك العادل القدس ولامرأته عكا، فحضر القسيسون وأنكروا عليها ذلك إلا أن يتنصر الملك العادل، فلم يتفق بينهم حال، ثم رحل الفرنج من يافا إلى الرملة ثامن ذي القعدة، وبقي كل يوم يقع بينهم وبين المسلمين مناوشات ، ولقوا من ذلك شدة شديدة.

وأقبل الشتاء وحالت الأوحال بينهم، ولما رأى السلطان ذلك وقد ضجرت العساكر أعطاهم الدستور، وسار إلى القدس لتسع بقين من ذي القعدة، ونزل داخل البلد واستراحوا مما كانوا فيه، وأخذ السلطان في تعمير القدس وتحصينه، وأمر العسكر بنقل الحجارة، وكان السلطان ينقل الحجارة بنفسه على فرسه ليقتدي به العسكر، فكان يجتمع عند العمالين في اليوم الواحد ما يكفيهم أيام.

وفيها كانت وفاة الملك المظفر تقي الدين عمر، وكان تقي الدين عمر ابن شاهنشاه بن أيوب قد سار إلى البلاد المرجعة من كوكبوري التي زاده إياها عمه السلطان من وراء الفرات، وهي حران، وغيرها فامتدت عين الملك المظفر إلى بلاد مجاوريه، واستولى على السويداء وحاني وأتقع مع بكتمر صاحب أخلاط، فكسره وحصره في أخلاط، وتملك معظم البلاد ثم رحل عنها ونازل ملازكرد وهي لبكتمر وضايقها، وكان في صحبته ولده الملك المنصور محمد فعرض للملك المظفر مرض شديد وتزايد به حتى توفي يوم الجمعة لاحدى عشر ليلة بقيت من رمضان هذه السنة، فأخفى ولده المنصور وفاته، ورحل عن ملازكرد، ووصل به إلى حماه ودفنه بظاهرها، وبنى إلى جانب التربة مدرسة وهي مشهورة هناك، وكان المظفر شجاعاً شديد البأس، ركناً عظيماً من أركان بيت أيوب، وكان عنده فضل الأدب، وله شعر حسن، واتفق أن في ليلة الجمعة التي توفي

فيها الملك المظفر توفي حسام الديـن محمد بن عمر بن لاجين، وأمه ست الشام بنت أيوب أخت السلطان، فأصيب السلطان في تاريخ واحد بابن أخيه وابن أخته.

ولما مـات الملك المظفـر راسـل ابنه الملـك المنصـور السلطان صـلاح الديـن ، واشترط شروطاً نسبه السلطـان فيها إلى العصيان، فكـاد أمره أن يضطرب بالكلية ، فراسل الملـك المنصور الملك العادل أخو السلطان في استعطاف خاطر السلطان، فما برح الملك العـادل بأخيه السلطان يراجعه ويشفـع في الملك المنصـور حتـى أجابـه، وقـرر للملك المنصـور : حماه، وسلميـة، والمعرة، ومنبـج، وقلعـة نجم، واسترجـع منـه البلاد الشرقيـة ، وأقطعها أخاه الملك العادل بعـد أن شرط السلطان على الملك العادل أن ينزل عـن كل ماله مـن الإقطاع بالشـام خلا الكرك والشوبـك والصلت والبلقاء، ونصـف خاصه بمصر، وأن يكـون غليه في كل سنـة خمسة آلاف غرارة تحمل من الصلت والبلقاء إلى القـدس، ولما استقر ذلك سار الملك العادل إلى البلاد الشرقية، وقرر أمورهـا، وعاد إلى خدمة السلطان في آخرة جمادى الآخرة من السنـة المقابلة، أعني سنـة ثمان وثمانين، ولما قدم الملك العادل على السلطان كان الملك المنصور صاحب حماه صحبته، فلما رأى السلطـان الملك المنصـور بن تقـي الـدين نهض واعتنقـه وغشيه البكـاء، وأنزله في مقدمة عسكره.

وفيها في شعبـان قتل قـرا أرسلان عثمان بن ألـدكز ملـك: أذربيجان، وهمذان، والـري، وأصفهان بعـد أخيه محمـد البهلوان ، وكـان قوي عليـه السلطان طغـريل السلجوقي، وهـزم عسكر بغداد كما تقدم ذكـره، ثم إن قـزل أرسلان تغلـب واعتقل طغـريل بـن أرسلان شـاه في بعض البـلاد، وسار قزل أرسـلان بعد ذلك إلى أصبهان وتعصب على الشفعـوية، وأخذ جماعة مـن أعيانهم فصلبهـم، وعاد إلى همذان وخطـب لنفسه بـالسلطنة،

ودخل لينام على فراشه، وتفرق عنه أصحابه، فدخل عليه من قتله على فراشه ولم يعرف من قتله.

وفيها قدم معز الدين قيصر شاه بن قليج أرسلان صاحب بلاد الروم إلى السلطان صلاح الدين، وسببه أن والده فرق مملكته على أولاده، وأعطى ولده هذا ملطيه، ثم تغلب بعض أخوته على أبيه قليج أرسلان وألزمه بأخذ ملطية من أخيه المذكور، فخاف من ذلك وسار إلى السلطان مستجيراً، فأكرمه السلطان وزوجه بابنة أخيه الملك العادل، وعاد معز الدين إلى ملطية في ذي القعدة وقد انقطعت اطماع أخيه منه.

قال ابن الأثير: لما ركب السلطان صلاح الدين ليودع معز الدين قيصر شاه المذكور ترجل معز الدين له فترجل السلطان، فلما ركب السلطان عضده معز الدين وركبه، وكان علاء الدين بن عز الدين مسعود صاحب الموصل مع السلطان إذ ذاك فسوى ثياب السلطان، فقال بعض الحاضرين: ما بقيت تبالي يابن أيوب بأي موتة تموت، يركبك ملك سلجوقي، ويصلح ثيابك ابن أتابك زنكي(١٣).

وفي سنة ثمان وثمانين

سار الفرنج إلى عسقلان وشرعوا في عمارتها والسلطان في القدس.

وفيها قتل المركيس صاحب صور، قتله الباطنية، وكانوا قد دخلوا في زي الرهبان إلى صور.

وفيها عقدت الهدنة مع الفرنج، وعاد السلطان إلى دمشق، وكان سبب ذلك أن ملك الانكتار مرض فطال عليه البيكار، فكاتب الملك العادل يسأله الدخول على السلطان في الصلح، فلم يجب السلطان إلى الصلح ثم اتفق الأمراء عليه لطول البيكار، وضجر العسكر، فأجاب

السلطان واستقر أمر الهدنة يوم السبت ثامن عشر شعبان، وتحالفوا على ذلك يوم الأربعاء الثاني والعشرين من شعبان، ولم يحلف ملك الانكتار بل أخذوا يده وعاهدوه، واعتذر بأن الملوك لايحلفون، وقنع بذلك السلطان، وحلف الكندهري، ابن أخته، وخليفته في الساحل، وكذلك حلف غيره من عظماء الفرنج.

ووصل ابن الهنفري وباليان إلى خدمة السلطان ومعهما جماعة من مقدمي الفرنج، وأخذوا يد السلطان على الصلح، واستحلفوا الملك العادل أخا السلطان والأفضل والظاهر ابني السلطان، والملك المنصور محمد ابن تقي الدين عمر صاحب حماه، والملك المجاهد شيركوه صاحب حمص، والأمجد بهرام شاه بن فرخشاه صاحب بعلبك، والأمير بدر الدين دلدرم صاحب تل باشر والأمير سابق الدين عثمان بن الداية صاحب شيزر، والأمير سيف الدين علي بن أحمد المشطوب، وغيرهم من المقدمين الكبار، وعقدت هدنة عامة في البر والبحر، وجعلت مدتها ثلاث سنين وثلاثة أشهر أولها أيلول الموافق لحادي عشرين من شعبان، وكانت الهدنة على أن يستقر بيد الفرنج يافا وعملها، وقيسارية وأرسوف وحيفا وعكا بأعمالهم وأن تكون عسقلان خراباً، وشرط السلطان دخول صاحب أنطاكية وطرابلس في عقد هدنتهم، وأن تكون لد والرملة مناصفة بينهم وبين المسلمين، فاستقرت القاعدة على ذلك، ورحل السلطان إلى القدس في رابع شهر رمضان، وتفقد أحواله وأمر بتشييد أسواره وزاد في وقف المدرسة التي عملها بالقدس وهذه المدرسة كانت قبل الاسلام تعرف بصندحنه يذكرون أن فيها قبر حنّه أم مريم، ثم صارت في الإسلام دار علم قبل أن تملك الفرنج القدس،ثم لما ملك الفرنج القدس سنة اثنتين وتسعين وأربع مائة أعادوها كنيسة كما كانت قبل الإسلام، فلما فتح السلطان القدس أعادها مدرسة، وفوض تدريسها إلى القاضي بهاء الدين بن شداد، ولما استقر أمر الهدنة أرسل السلطان مائة حجار لتخريب عسقلان، وأن يخرج من بها من الفرنج، وعزم على

الحج والإحرام من القدس، وكتب إلى أخيه سيف الإسلام صاحب اليمن بذلك، ثم قيده الأمراء وقالوا لاتعتمد على هدنة الفرنج خوفاً من غدرهم، فانتقض عزمه، ورحل عن القدس لخمس مضين من شوال إلى نابلس، ثم إلى بيسان، ثم إلى كوكب، وبات بقلعتها ، ثم رحل إلى طبرية ولقيه بها الأمير بهاء الدين قراقوش الأسدي، وقد خلص من الأسر، وكان قد أسر بعكا لما أخذها الفرنج مع من أسر، فسار قراقوش مع السلطان إلى دمشق، ثم إلى مصر، ثم إلى بيروت، ووصل إلى خدمته بيمند صاحب أنطاكية يوم السبت حادي وعشرين شوال، فأكرمه السلطان، وفارقه غد ذلك اليوم، وسار السلطان إلى دمشق، ودخلها يوم الأربعاء لخمس بقين من شوال، وفرح الناس به لأن غيبته عنهم كانت أربع سنين ، وأقام العدل والإحسان بدمشق وأعطى العساكر دستوراً، فودعه الملك الظاهر وداعاً لالقاء بعده، وسار إلى حلب وبقي مع السلطان بدمشق ولده الملك الأفضل ، والقاضي الفاضل، وكان الملك العادل قد أستأذن السلطان وسار من القدس إلى الكرك لينظر في مصالحه، ثم عاد الملك العادل إلى دمشق طالباً الديار الشرقية التي صارت له بعد تقي الدين عمر، فوصل إلى دمشق حادي عشرين ذي القعدة ، وخرج السلطان إلى لقائه، وفيها وقف السلطان ثلث نابلس على مصالح القدس، وأقطع الباقي الأمير عماد الدين أحمد ابن سيف الدين علي بن المشطوب وأميرين معه وذلك بعد وفاة سيف الدين علي ابن أحمد المشطوب.

وفيها توفي السلطان عز الدين قليج أرسلان بن مسعود بن قليج أرسلان بن سليمان بن قطلومش بن أرسلان يبغو بن سلجوق، وكان ملكه في سنة إحدى وخمسين وخمسمائة، وكان ذا سياسة حسنة وهيبة عظيمة وعدل وافر، وغزوات كثيرة، وكان له عشر بنين وقد ولى كل واحد منهم قطراً من بلاد الروم، وأكبرهم قطب الدين ملكشاه وكان أعطاه أبوه سيواس فسولت له نفسه القبض على أبيه وأخوته والإنفراد

بالسلطنة، وساعده على ذلك صاحب أرزنكان، فسار قطب الدين ملكشاه وهجم على والده قليج أرسلان بمدينة قونية وقبض عليه، وقال لوالده وهو في قبضته أنا بين يديك أنفذ أوامرك ، ثم إنه أشهد على والده أنه قد جعله ولي عهده، ثم مضى ملكشاه إلى حرب أخيه نور الدين سلطان شاه صاحب قيسارية ووالده في القبضة معه، وهو يظهر أن ما يفعله إنما هو بأمر والده،فخرج عسكر قيسارية لقتاله، فوجد أبوه عز الدين قليج أرسلان عند اشتغال العسكر بالقتال فرصة فهرب إلى ابنه سلطان شاه صاحب قيسارية فأكرمه وعظمه كما يجب عليه، فرجع قطب الدين ملكشاه إلى قونية وخطب لنفسه بالسلطنة، وبقي أبوه قليج أرسلان يتردد في بلاده بين أولاده كلما ضجر منه واحد منهم ينتقل إلى الآخر حتى حصل عند ولده غياث الدين كيخسرو صاحب برجلو فقوى أباه قليج أرسلان وأعطاه وجمع له وحشد وسار إلى قونية وملكها وأخذها من ابنه ملكشاه، ثم سار إلى أقصرا فاتفق أن عز الدين قليج أرسلان مات في التاريخ المذكور فأخذه ولده كيخسرو وعاد به إلى قونية فدفنه بها، وأثبت أنه ولي عهد أبيه قليج أرسلان، ثم إن ركن الدين سليمان أخا غياث الدين كيخسرو قوي على أخيه كيخسرو وأخذ منه قونية فهرب كيخسرو إلى الشام مستجيراً بالملك الظاهر صاحب حلب، ثم مات ركن الدين سليمان سنة ستمائة وملك بعده ولده قليج أرسلان ، فرجع غياث الدين كيخسرو إلى بلاد الروم وأزال ملك قليج أرسلان بن سليمان، وملك بلاد الروم جميعها واستقرت سلطنته ببلاد الروم وبقي كذلك إلى أن قتل وملك بعده ابنه عز الدين كيكاوس، ثم توفي كيكاوس.وملك بعده أخوه علاء الدين كيقباذ، وتوفي علاء الدين كيقباذ سنة أربع وثلاثين وستمائة وملك بعده ولده غياث الدين كيخسرو بن كيقباذ وكسره التتر سنة أربع وأربعين وستمائة وتضعضع حينئذ ملك السلاجقة ببلاد الروم، ثم مات كيخسرو بن كيقباذ بن قليج أرسلان بن مسعود بن قليج أرسلان بن سليمان بن قطلومش بن أرسلان يبغو بن سلجوق، وانقضى بموت كيخسرو المذكور ملك سلاطين بلاد الروم في

الحقيقة ، لأن من صار بعد لم يكن له في السلطنة غير مجرد الاسم وخلف كيخسرو المذكور صبيين هما: ركن الدين، وعز الدين، فملكا بعده معاً مديدة، ثم انفرد ركن الدين بالسلطنة وهرب أخوه عز الدين إلى قسطنطينية، وتغلب على ركن الدين معين الدولة البرواناه، والبلاد في الحقيقة للتتر،ثم إن البرواناه قتل ركن الدين، وأقام ابناً لركن الدين يخطب له بالسلطنة والحكم للبرواناه وهو نائب التتر على ما سنذكره إن شاء الله تعالى.

وفيها غزا شهاب الدين الغوري الهند فغنم، وقتل مالا يحصى، وفيها خرج السلطان طغريل بن أرسلان بن طغريل من الحبس بعد قتل قزل أرسلان بن ألدكز، وكان قزل قد اعتقله حسبما تقدم ذكره في سنة تسع وثمانين وخمسمائة.

وفي سنة تسع وثمانين

كانت وفاة السلطان الملك الناصر صلاح الدين أبو المظفر يوسف بن نجم الدين أيوب تغمده الله برحمته.

دخلت هذه السنة والسلطان بدمشق على أجمل المسرة، وخرج إلى شرقي دمشق متصيداً وغاب خمسة عشر يوماً وصحبته أخوه الملك العادل، ثم عاد إلى دمشق وودعه الملك العادل وداعاً لا لقاء بعده، وسار إلى الكرك، وأقام فيه حتى بلغه وفاة السلطان، وأقام السلطان بدمشق وركب يوم الجمعة خامس عشر صفر وتلقى الحجاج وكانت عادته لايركب إلاّ وعليه كزاغند، فركب ذلك اليوم وقد اجتمع بسبب اجتماع الحجاج وركوبه عالم كثير، ولم يلبس الكزاغند، ثم ذكره وهو راكب فطلبه فلم يجده لأنه لم يحمل معه ، ولما التقى الحجاج استعبرت عيناه كيف فاته الحج، ووصل إليه مع الحجاج ولد أخيه سيف الإسلام صاحب اليمن، ثم عاد السلطان بين البساتين على جهة المنيبع، ودخل إلى القلعة على الجسر وكانت هذه آخر ركباته، فلحقه ليلة السبت السادس عشر من صفر كسل عظيم وغشية نصف الليل حمى صفروايه ، وأخذ المرض في التزايد، وفصده الأطباء في الرابع فاشتد مرضه وحدث به في التاسع رعشة وغاب ذهنه وامتنع من تناول المشروب واشتد الارجاف في البلد وغشي الناس من الحزن والبكاء عليه ما لا يمكن حكايته، وحقن في العاشر حقنتين فاستراح بدنه وتناول من ماء الشعير مقداراً صالحاً، ثم لحقه عرق عظيم حتى نفذ من الفراش، واشتد المرض ليلة ثاني عشر مرضه وهي ليلة السابع والعشرين من صفر وحضر عنده الشيخ أبو جعفر إمام الكلاسة، ليبيت عنده في القلعة بحيث إن احتضر في الليل لقنه الشهادة، وتوفي السلطان في الليلة المذكورة، وهي المسفرة عن نهار الأربعاء ثامن وعشرين صفر بعد صلاة الصبح سنة تسع وثمانين، وبادر القاضي الفاضل بعد صلاة الصبح فحضر وفاته، ووصل

القاضي بهاء الدين بن شداد بعد موته وغسله الخطيب الدولعي بدمشق، وأخرج بعد صلاة الظهر من نهار الأربعاء المذكور في تابوت مسجى بثوب، وجميع ما احتاجه من ثياب تكفينه أحضرها القاضي الفاضل من جهات حل عرفها، وصلى عليه الناس، ودفن بقلعة دمشق في الدار التي كان مريضاً فيها، وكان نزوله إلى قبره بعد صلاة العصر من النهار المذكور، وكان الملك الأفضل ابنه حلف الناس له عندما اشتد بوالده المرض، وجلس للعزاء في القلعة، وأرسل الملك الأفضل الكتب بوفاة والده إلى أخيه الملك العزيز عثمان بمصر، وإلى أخيه الملك الظاهر بحلب، وإلى عمه الملك العادل بالكرك، ثم إن الأفضل عمل لوالده تربة قرب الجامع، وكانت داراً لرجل صالح ، ونقل إليها السلطان يوم عاشوراء سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة، ومشى الأفضل بين يدي تابوته، وأخرج من باب القلعة على دار الحديث إلى باب البريد وأدخل الجامع ووضع قدام النسر، وصلى عليه القاضي محيي الدين ابن الزكي، ثم دفن وجلس ابنه الأفضل في الجامع ثلاثة أيام للعزاء، وانفقت ست الشام بنت أيوب أخت السلطان في هذه النوبة أموالاً عظيمة وكان مولد السلطان صلاح الدين بتكريت في شهور سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة، فكان عمره سبعاً وخمسين سنة وكان مدة ملكه بالديار المصرية نحو أربع وعشرين سنة، وملكه للشام قريباً من تسع عشرة سنة، وخلف سبعة عشر ولداً ذكراً وبنتاً واحدة ، وكان أكبر أولاده الملك الأفضل نور الدين علي، ولد بمصر سنة خمس وستين وخمسمائة ، وكان العزيز عثمان أصغر منه بنحو سنتين.وكان الظاهر صاحب حلب أصغر منهما، وبقيت البنت حتى تزوجها ابن عمها الملك الكامل صاحب مصر ولم يخلف السلطان صلاح الدين في خزانته غير سبعة وأربعين درهماً وجرم واحد صوري، وهذا من رجل له البلاد المصرية والشام واليمن والشرق دليل قاطع على فرط كرمه، ولم يخلف داراً ولا عقاراً.

قال العماد الكاتب: حسبت ما أطلقه السلطان في مدة مقامه بمرج

عكا من خيل عراب وأكاديش، فكان اثني عشر ألف رأس وذلك غير ما أطلقه من أثمان الخيل المصابة في القتال، ولم يكن له فرس يركبه إلا وهو موهوب أو موعود به، ولم يؤخر صلاة عن وقتها ولا صلى إلاّ في جماعة، وكان إذا عزم على أمر توكل على الله ولا يفضل يوم على يوم وكان كثير سماع الحديث النبوي ، قرأ مختصراً في الفقه تصنيف سليم الرازي، وكان حسن الخلق، صبوراً على المكاره كثير التغافل عن ذنوب أصحابه يسمع من أحدهم ما يكره ولا يعلمه بذلك ولا يتغير عليه، وكان يوماً جالساً فرمى بعض المماليك بعضاً بسر موجة فأخطأته ووصلت إلى السلطان فأخطأته ووقعت قريباً منه، فالتفت إلى الجهة الأخرى ليتغافل عنها، وكان طاهر المجلس لايذكر أحداً في مجلسه إلا بخير، وطاهر اللسان فلا يولغ بشتم أحد قط.

قال العماد الكاتب: مات بموت السلطان الرجال، وفات بفواته الافضال، وغاضت الأيادي وفاضت الأعادي، وانقطعت الأرزاق وادلهمت الآفاق، وفجع الزمان بواحده وسلطانه ورزىء الإسلام بمسند أركانه.

ولما توفي السلطان الملك الناصر صلاح الدين استقر في الملك بدمشق وبلادها المنسوبة إليها ولده الأفضل نور الدين علي، وبالديار المصرية الملك العزيز عماد الدين عثمان، وبحلب الملك الظاهر عماد الدين غازي وبالكرك والشوبك والبلاد الشرقية الملك العادل سيف الدين أبو بكر ابن أيوب، وحماه وسلمية والمعرة ومنبج وقلعة نجم الملك المنصور ناصر الدين محمد بن الملك المظفر تقي الدين عمر، وببعلبك الملك الأمجد مجد الدين بهرام شاه بن فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب، وبحمص والرحبة وتدمر الملك المجاهد أسد الدين شيركوه بن محمد بن شيركوه ابن شاذي، وبيد الملك الظافر خضر بن السلطان صلاح الدين بصرى وهو في خدمة أخيه الأفضل، وبيد جماعة من أمراء الدولة بلاد وحصون

منهم سابق الدين عثمان ابن الداية بيده شيزر، وأبو قبيس، وناصر الدين منكورس بن خماردكين بيده صهيون وحصن برزية ، وبدر الدين دلدرم ابن بهاء الدين ياروق بيده تل باشر،وعز الدين سامة بيبده كوكب وعجلون، وعز الدين ابراهيم بن شمس الدين بن المقدم بيده بعرين وكفر طاب وفامية.

والملك الأفضل هو الأكبر من أولاد السلطان المعهود إليه بالسلطنة، واستوزر الملك الأفضل ضياء الدين نصر الله بن محمد بن الأثير مصنف المثل السائر، وهو أخو عز الدين بن الأثير مصنف الكامل، فحسن للملك الأفضل طرد أمراء أبيه، ففارقوه إلى أخويه العزيز والظاهر.

قال العماد الكاتب: وتفرد الوزير بوزره، ومد الجزري في جزره، ولما اجتمعت الأمراء بمصر حسنوا للملك العزيز الإنفراد بالسلطنة، ووقعوا في أخيه الأفضل، فمال إلى ذلك وحصلت الوحشة بين الأخوين الأفضل والعزيز.

وفيها بعد موت السلطان قدم الملك العال من الكرك إلى دمشق وأقام فيها وظيفة العزاء على أخيه، ثم توجه إلى بلاده التي هي وراء الفرات.

وفي هذه السنة لما مات السلطان صلاح الدين كاتب عز الدين مسعود بن مودود بن زنكي، صاحب الموصل، ملوك البلاد المجاورة للموصل يستنجدهم، واتفق مع أخيه عماد الدين زنكي بن مودود صاحب سنجار، وسار إلى حران وغيرها، فلحق عز الدين مسعود إسهال قوي وضعف فنزل العسكر مع أخيه عماد الدين وعاد إلى الموصل وصحبته مجاهد الدين قيماز، فحلف العسكر عز الدين لابنه أرسلان شاه بن مسعود، وقوي بعز الدين مسعود المرض، وتوفي في

السابع والعشرين من شعبان هذه السنة، وكانت المدة ما بين وفاته ووفاة السلطان صلاح الدين نصف سنة، ومدة ملك عز الدين الموصل ثلاث عشرة سنة وتسعة أشهر، وكان ديناً خيراً عادلاً كثير الإحسان أسمر مليح الوجه خفيف العارضين يشبه جده عماد الدين زنكي بن آق سنقر، واستقر في ملك الموصل بعده ولده أرسلان شاه، وكان القائم بأمره مجاهد الدين قيماز، وفي هذه السنة أول جمادى الأولى قتل سيف الدين بكتمر صاحب خلاط، وبين قتله وموت السلطان شهران، ولما بلغ بكتمر موت السلطان صلاح الدين أسرف في إظهار الشماتة بموت السلطان، وضرب البشائر ببلاده، وعمل تختاً وجلس عليه، وسمى نفسه السلطان المعظم(١٤) وكان اسمه بكتمر فسمى نفسه عبد العزيز وكأن قد فعل ذلك، فلم يمهله الله تعالى، وكان هذا بكتمر من مماليك ظهير الدين شاه أرمن، وكان له حينئذ خشداش اسمه هزار ديناري، واسم هزار ديناري آق سنقر، ولقبه بدر الدين جلبه تاجر جرجاني اسمه علي إلى خلاط، فاشتراه منه شاه أرمن ابن سكمان بن ابراهيم، وأعجب به شاه أرمن فجعله ساقياً، ولقبه هزار ديناري، وبقي على ذلك برهة من الزمان، فلما تولى بكتمر على مملكة خلاط بقي هذا من أكبر الأمراء وتزوج عينا خاتون بنت بكتمر، وخلف بكتمر ولداً، وأخذ هزار ديناري ولد بكتمر وأمه واعتقلهما بقلعة أرزاس بموش، وعمر ابن بكتمر سبع سنين، واستقر بدر الدين آق سنقر هزار ديناري في مملكة خلاط حتى توفي في سنة أربع وتسعين وخمسمائة على ما سنذكره إن شاء الله تعالى.

وفيها شتى شهاب الدين الغوري في نوشاوور، وجهز مملوكه أيبك في عساكر كثيرة إلى بلاد الهند ففتح وغنم وعاد منصوراً.

وفيها توفي سلطان شاه بن أرسلان ابن خوارزم شاه أطز بن محمد بن أنوشتكين، وكان قد ملك خراسان، ولما مات انفرد أخوه تكش بالمملكة وقد تقدم ذكرهما في سنة ثمان وستين وخمسمائة .

وفيها مات الأمير داود بن عيسى بن محمد بن أبي هاشم أمير مكة، ومازالت إمارة مكة له تارة ولأخيه مكثر تارة حتى مات.

وفي سنة تسعين وخمسمائة

قتل طغريل بن أرسلان بن طغريل بن السلطان محمد بن ملك شاه ابن ألب أرسلان بن جغري بك داود بن ميكائيل بن سلجوق، وكان قد حبسه قزل أرسلان بن ألدكز، وخرج طغريل من الحبس سنة ثمان وثمانين وخمسمائة، وملك همذان وغيرها، وجرى بينه وبين مظفر الدين أزبك بن محمد البهلوان بن ألدكز حرب وقيل بل هو قطلغ اينانج أخو أزبك المذكور، فانهزم ابن البهلوان، ثم إن البهلوان بعد هزيمته استنجد بخوارزم شاه علاء الدين تكش، وخاف منه فلم يجتمع بخوارزم شاه تكش، وملك الري وذلك سنة ثمان وثمانين وبلغ تكش أن أخاه سلطان شاه قصد خوارزم فصالح طغريل السلجوقي، وعاد تكش إلى خوارزم، وبقي الأمر كذلك حتى مات سلطان شاه سنة تسع وثمانين وتسلم تكش مملكة أخيه سلطان شاه وخزائنه، وولى ابنه محمد بن تكش نيسابور، وولى ابنه الأكبر ملكشاه مرو،ولما دخلت سنة تسعين سار تكش ليحارب طغريل السلجوقي، فسار طغريل للقائه قبل اجتماع عسكره ، والتقى العسكران بالقرب من الري، وحمل طغريل بنفسه فقتل وكان قتله في رابع وعشرين ربيع الأول هذه السنة ، وحمل رأس طغريل إلى تكش، فأرسل إلى بغداد فنصب بها عدة أيام، وسار تكش فملك همذان وتلك البلاد جميعها، وسلم بعضها إلى ابن البهلوان، وأقطع الباقي لمماليكه ورجع تكش إلى خوارزم، وهذا طغريل هو آخر من ملك بلاد العجم من السلاطين السلجوقية، وقد تقدم ذكر ابتداء دولة السلجوقية في سنة اثنتين وثلاثين وأربعمائة، وأول من ملك منهم العراق وأزال دولة بني بويه طغرلبك بن مكائيل بن سلجوق، ثم ملك بعده ألب أرسلان بن جغري بك داود بن مكائيل، ثم ابنه ملكشاه بن ألب أرسلان ثم ابنه

محمود بن ملكشاه، وكـان طفلاً فقام بتدبير الدولة والدته تـركان خاتون، ومات محمود وهو ابن سبع سنين وملك أخـوه بركياروق ابن ملكشاه، ثم أخوه محمد بـن ملكشاه، ثم ابنه محمـود بن محمد، ثم ابنـه داود بن محمد مدة يسيرة، ثـم عمه طغر لبـك بن محمد ثم أخـوه مسعود بن محمـد، ثم أخيه ملكشاه بن محمـود بن محمد أياماً يسيرة، ثم أخـوه محمد بن محمود، ثم بعـد محمد المذكـور اختلفت العسـاكر، وقـام من بنـي سلجوق ثـلاثة أحدهـم ملكشاه بن محمـود، أخو محمـد المذكور، والثاني سليمان شـاه بن محمـد بن السلطـان ملكشـاه الأكبر، وهو عـم محمـد المذكـور، والثالـث أرسلان شـاه بن طغـريل بـن محمد بـن السلطان ملكشـاه، وكان ألـدكز متـزوجاً بـأم أرسلان شـاه المذكور، فقـوي عليهما سليمان شاه واستقـر في همذان سنـة خمس وخمسين وخمسمائة، ثم قبـض سليمان شـاه وقتل وسـم ملكشـاه بـن محمـود ومات بـأصفهـان في سنـة خمس وخمسين وخمسمائة، وانفرد أرسلان شاه بـن طغريل ربيب ألدكز على السلطنـة، ثم ملك ابنه طغـريل بـن أرسـلان شاه بـن طغـريـل في سنة سـت وثمانين وخمسمائة، وجرى لـه ما ذكرنـاه حتى قتل تكـش في هذه السنة ، أعنـي سنة تسعين وخمسمائة، وانقرضت به دولة السلجوقية من تلك البلاد.

وفيها أرسـل الخليفة الناصر عسكـراً مع وزيره مؤيـد الدين محمـد بن علي المعروف بـابن القصـاب إلى خوزستان وهـي بلاد شملـة وأولاده من بعـده ، وكان قـد مـات صاحبهـا ابن شملـة، واختلفـت أولاده فوصـل عسكـرالخليفةإلى خـوزستـان وملكـوا مـدينـة تستر في محرم سنة إحـدى وتسعين وغيرهـا من البـلاد، وملكـوا قلعـة الناظـر وقلعـة كـاكرد وقلعـة الأمـوج وغيرهـا مـن البـلاد والحصـون، وأنفـذوا بنـي شملـة أصحـاب خوزستان إلى بغداد [١٥].

وفيهـا أعني سنـة تسعين استحكمت الـوحشـة بين الأخويـن العزيـز والأفضـل ابني السلطـان صلاح الـديـن، وسار العـزيز في عسكـر مصر

وحصر أخاه الأفضل بدمشق وأرسل الأفضل إلى عمه العادل وأخيه الظاهر وابن عمه المنصور صاحب حماه يستنجدهم، فساروا إلى دمشق واصلحوا بين الأخوين ورجع العزيز إلى مصر، ورجع كل ملك إلى بلده وأقبل الأفضل بدمشق على الشرب وسماع الأغاني ليلاً ونهاراً ، وأشاع ندماؤه أن عمه العادل حسن له ذلك، فكان يعمله بالخفية فأنشده العادل:

فلا خير في اللذات ... ما دونها ستر

فقبل وصية عمه، وتظاهر بذلك وفوض أمر المملكة إلى وزيره ضياء الدين ابن الأثير الجزري يدبرها برأيه الفاسد، ثم إن الملك الأفضل أظهر التوبة عن ذلك، وأزال المنكر، وواظب على الصلوات وشرع في نسخ مصحف بيده.

سنة إحدى وتسعين إلى سنة ستمائة

وفي سنة إحدى وتسعين

سار ابن القصاب وزير الخليفة بعد تملكه خوزستان إلى همذان وملكها، وأخذ يستولي على تلك البلاد للخليفة، فتوفي مؤيد الدين بن القصاب في أوائل شعبان سنة اثنتين وتسعين.

وفيها غزا يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن ملك الغرب بالأندلس الفرنج، وجرى بينهم مصاف عظيم انتصر فيه المسلمون، وقتل من الفرنج ما لا يحصى وولوا منهزمين وغنم المسلمون مالا يحصى.

وفيها جهز الخليفة الإمام الناصر عسكراً مع مملوك له اسمه سيف الدين طغريل، فاستولى على أصبهان.

وفيها قدم مماليك البهلوان عليهم مملوكاً من البهلوانية اسمه كوكجا فعظم أمره، واستولى على الري وهمذان.

وفيها عاود الملك العزيز عثمان قصد الشام ومنازلة أخيه الملك الأفضل وسار ونزل الفوار من أرض السواد من بلاد دمشق، واضطرب بعض أمرائه عليه، وهم طائفة من الأسدية وفارقوه فبادر العزيز إلى مصر بمن بقي معه من العسكر، وكان الأفضل قد استنجد بعمه العادل لما قصده أخوه العزيز، فلما رحل العزيز إلى مصر رحل العادل والأفضل ومن انضم إليهما من الأسدية في إثر العزيز طالبين مصر، وساروا حتى نزلوا على بلبيس، وقد ترك العزيز فيها جماعة من الصلاحية وقصد الأفضل مناجزتهم بالقتال ، فمنعه عمه العادل فقصد الأفضل المسير إلى مصر والاستيلاء عليها، فمنعه عمه العادل أيضاً، وقال مصر لك متى شئت ، وكان العادل مع العزيز في الباطن، وقال ارسل الى القاضي الفاضل ليصلح بين الأخوين، وكان القاضي الفاضل قد اعتزل عن ملابستهما لما رأى من فساد أحوالهما، فدخل عليه الملك العزيز وسأله فتوجه إلى القاهرة إلى الملك العادل، واجتمع به واتفقا على أن يصلحا بين الأخوين، فأصلحا بينهما وأقام العادل بمصر عند العزيز على حسب تقرير أمور المملكة ، وعاد الأفضل إلى دمشق.

وفيها كان بين يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن وبين الفرنج بالأندلس شمالي قرطبة حروب عظيمة، انتصر فيها يعقوب وانهزم الفرنج.

وفي سنة اثنتين وتسعين

سار شهاب الدين الغوري صاحب غزنة إلى بلاد الهند وفتح قلعة عظيمة تسمى بهنكربالأمان ثم سار إلى قلعة كواكبر بينهما نحو خمسة أيام ، فصالحه أصحابها على مال حملوه إليه، ثم سار في بلاد الهند فغنم وأسر وعاد إلى غزنة.

وفيهـا سلم صـدر الـدين محمـد بن عبـد اللطيـف الخجندي رئيـس الشافعية أصفهان إلى عسكر الخليفة ، فقتله سنقر الطويل شحنة الخليفة بأصبهان بسبب منافرة جرت بينهما.

وفيها نقل الملك الأفضل أباه صلاح الـدين من قلعة دمشق إلى التربة بالمدينة، وكان مدة لبثه في القلعة ثـلاث سنين، ولزم الملك الأفضل الزهد والقناعـة ، وأموره مسلمة إلى وزيره ضيـاء الدين بـن الأثير الجزري، وقد اختلفت الأحوال به، وكثـر شاكوه وقل شاكروه، فلما بلـغ العادل والعزيز بمصر اضطراب الأمور على الأفضل اتفق العـادل والعزيز على أن يأخذا دمشق ويسلمها العـزيز إلى العادل وتكون السكة والخطبة للعـزيز بسائر البلاد، كما كـانت لأبيه، فخـرجا وسارا مـن مصر، فأرسل الملـك الأفضل إليهما فلك الدين أحد أمرائه، وكان فلـك الدين أخا الملك العادل لأمه، واجتمع فلـك الدين بالملـك العادل فأكرمـه واظهر الإجابة إلى مـا طلبه، وأتـم العـادل والعـزيـز السير حتـى نـازلا دمشـق وقـد حصنهـا الملـك الأفضـل، فكاتـب بعض الأمـراء من داخـل الملك العـادل وصاروا معـه أنهم يسلمـون المدينة إليـه ، فزحـف الملك العـادل والعزيـز ضحى يـوم الأربعاء سادس عشرين رجب هذه السنة، فـدخل الملك العزيز من باب الفرج، والعادل من باب توما، فأجاب الملك الأفضل إلى تسليم القلعة ، وانتقـل منها بـأهله وأصحـابه وأخـرج وزيـره ضياء الـدين بـن الأثير في صندوق خوفاً عليـه من الفتك ، وكان الملك الظافـر خضر بن السلطان صلاح الـدين صـاحب بصرى مـع أخيه الملـك الأفضل ومعـاضداً لـه، فأخذت منه بصرى أيضـاً فلحق بأخيه الملك الظاهـر، وأقام عنده بحلب وأعطـي الملك الأفضـل صرخد، فسـار إليها بـأهله ، واستـوطنها ودخـل الملك العـزيز إلى دمشق، يـوم الأربعاء رابـع شعبان ثم سلـم دمشق إلى عمه الملك العادل، على حكم ما كـان وقع عليه اتفاقهما، وتسلمها الملك العادل ، ورحل الملك العزيز من دمشق عشية يوم الاثنين تاسع شعبان ،

وكانت مدة ملك الأفضل لدمشق ثلاث سنين وشهراً، وأبقى الملك العادل السكة والخطبة بدمشق للملك العزيز، ولما استقر الملك الأفضل بصرخد كتب إلى الخليفة الإمام الناصر يشكو من عمه أبي بكر وأخيه العزيز عثمان وأول الكتاب:

مولاي إن أبا بكر وصاحبه عثمان
قد غصبا بالسيف حق علي
فانظر إلى حظ هذا الاسم
كيف لقي من الأواخر ما لاقى من الأول

فكتب الملك الناصر جوابه:

وافى كتابك يا ابن يوسف معلناً
بالصدق يخبر أن أصلك طاهر
غصبوا علياً حقه إذ لم يكن
بعد النبي له بيثرب ناصر
فاصبر فإن غداً عليه حسابهم
وابشر فإن ناصرك الإمام الناصر

وفي سنة ثلاث وتسعين

توفي بنيسابور ملكشاه بن تكش، وكان أبوه خوارزم شاه قد جعله فيها، وجعل له الحكم على تلك البلاد، وجعله ولي عهده، وخلف ملكشاه ولداً اسمه هندوخان فلما مات ملكشاه جعل تكش في نيسابور ولده الآخر قطب الدين محمد، وهو الذي ملك بعد أبيه تكش وجعل لقبه علاء الدين ، وكان بين الأخوين ملكشاه ومحمد عداوة مستحكمة.

وفيها توفي في شوال سيف الإسلام ظهير الدين طغتكين بن أيوب صاحب اليمن، ولما مات سيف الإسلام كان ولده الملك المعز اسماعيل

بالسرين، فبعث إليه جمال الدولة كافور جماعة من الجند فعرفوه بوفاة والده، ومضوا به إلى ممالك أبيه ، فسلموها إليه وكانت وفاة سيف الإسلام بزبيد ، وكان شديد السيرة مضيقاً على رعيته يشتري أموال التجار لنفسه ويبيعها كيف شاء، وجمع من الأموال ما لا يحصى، حتى أنه كان يسبك الذهب ويجعله كالطاحون ويدخره.

وفي سنة أربع وتسعين

في المحرم توفي عماد الدين زنكي بن مودود بن زنكي بن آقسنقر صاحب سنجار والخابور والرقة، وكان حسن السيرة متواضعاً يحب العلم وأهله، إلا أنه كان شديد البخل، وملك بعده ولده قطب الدين محمد، وتولى تدبير دولته مجاهد الدين يرنقش مملوك أبيه.

وفيها في جمادى الأولى سار نور الدين أرسلان شاه بن مسعود بن مودود بن زنكي صاحب الموصل إلى نصيبين فأخذها من ابن عمه قطب الدين محمد بن زنكي، فأرسل قطب الدين واستنجد الملك العادل، فسار الملك العادل إلى البلاد الجزرية ، ففارق نور الدين أرسلان شاه نصيبين، وعاد إلى الموصل فعاد قطب الدين محمد بن زنكي وملك نصيبين.

وفيها سار خوارزم شاه تكش إلى بخارى وهي للخطا وحاصرها وملكها وكان تكش أعور، فأخذ أهل بخارى في مدة الحصار كلباً أعور وألبسوه قباء وقالوا للخوارزمية: هذا سلطانكم ورموه في المنجنيق إليهم، فلما ملكها تكش أحسن إلى أهل بخارى وفرق فيهم أموالاً ولم يؤاخذهم بما فعلوه في حقه.

وفيها وصل جمع عظيم من الفرنج إلى الساحل واستولوا على قلعة بيروت، فسار الملك العادل ونزل على تل العجول، وأتته النجدة، ووصل

إليه سنقر الكبير صاحب القدس وميمون القصري صاحب نابلس، وسار الملك العادل إلى يافا وفتحها بالسيف وقتل مقاتلتها، وسبى نساءها وصبيانها، وكان هذا الفتح ثالث فتح لها، ونازلت الفرنج تبنين، فأرسل الملك العادل إلى الملك العزيز صاحب مصر، وسار الملك العزيز بعساكره واجتمع بعمه الملك العادل على تبنين، فرحل الفرنج على أعقابهم إلى صور، ثم رحل الملك العزيز إلى مصر، وترك غالب العسكر مع عمه، وجعل إليه أمر الحرب والصلح.

ومات في هذه المدة سنقر الكبير، فجعل الملك العادل أمر القدس إلى صارم الدين قطلق مملوك عز الدين فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب، ولما عاد الملك العزيز إلى مصر في هذه المرة مدحه القاضي ابن سناء الملك بقصيدة منها:

قدمت بالسعد وبالمغنم
كذا قدوم الملك المقدم
أغثت تبنين وخلصتها
فريسة من ماضغي ضيغم
شنشنة تعرف من يوسف
في النصر لا تعرف من أخزم
مقدم صار جمادى به
كمثل ذي الحجة في الموسم

ثم طاول الملك العادل الفرنج فطلبوا الهدنة، واستقرت بينهم ثلاث سنين، ورجع الملك العادل إلى دمشق، ثم سار الملك العادل من دمشق إلى ماردين وحصرها وصاحبها حينئذ حسام الدين بولق أرسلان بن ألبي ابن تمرتاش بن ايلغازي، بن أرتق، وليس لبولق من الحكم شيء وإنما الحكم إلى مملوك أبيه البقش.

وفيها توفي بدر الدين هزار ديناري صاحب خلاط آقسنقر وقد تقدم

ذكـر ملكـه لخلاط سنـة تسـع وثمانين وخمسمائة ولما تـوفي هـزار دينـاري استـولى على خـلاط خشـداشـه قتلـغ وكان مملـوكـاً أرمنـي الأصـل مـن السناسنة، فملـك خلاط سبعة أيام، ثـم اجتمع عليه الناس وأنـزلوه من القلعة وقتلـوه، واتفق كبراء الـدولة وأحضروا محمد بـن بكتمر مـن القلعة التي كـان معتقلاً فيهـا واسمها أرزاس وأقـاموه في مملكـة خلاط، ولقبـوه الملـك المنصور، وقـام بتدبيره شجـاع الديـن قتلغ الـدوادار ، وكان قتلـغ المذكور قفجاقـي دوادار لشاه أرمن سكمان بن إبراهيم، واستقـر محمد بن بكتمر كـذلك إلى سنة اثنتين وستمائة، فقبـض على أتابكه قتلـغ الدوادار وحبسه ثم قتله ، فخـرج عليه مملوك لشاه أرمن يقال له عـز الدين بلبان، واتفق العسكر مع بلبان المذكور وقبضـوا على محمد بن بكتمر وحبسوه ثم خنقوه ورموه من سور القلعةإلى أسفل وقالوا وقع، واستمر بلبان في مملكة خـلاط دون سنـة، وقتله بعـض أصحـاب طغـريـل بن قليـج أرسـلان صاحـب أرزن، وقصد طغريل أن يتسلـم خلاط، فلم يجبه أهلهـا وعصوا عليه فعاد إلى أرزن، ثـم وصل الملك الأوحد أيوب ابـن الملك العادل أبي بكر بن أيوب وتسلم خلاط وملكها ثمان سنين.

وفي سنة خمس وتسعين

منتصف ليلـة السابـع والعشرين مـن المحرم تـوفي الملك العـزيز عماد الدين عثمان بن الملـك الناصر صلاح الدين يوسف بـن أيوب، وكان قد طلع إلى الصيد فـركض خلف ذئب وتقنطر وحم في سابـع المحرم بجهة الفيوم، فعـاد إلى الأهرام وقد اشتـدت حماه، ودخل القـاهرة يوم عـاشوراء وحدث بـه يرقـان وقرحـة في الأمعاء ، واحتبـس طبعه، فمات في التـاريخ المذكور، وكـانت مدة ملكه سـت سنين إلا شهراً، وعمره سبعـاً وعشرين سنـة وأشهراً، وكـان في غايـة السماحـة والكرم والعـدل والـرفق بـالرعيـة والإحسان إليهم، ففجعت الرعية بموتـه فجعة عظيمة، وكان الغالـب على دولة الملك العزيـز فخر الدين جهاركس، فأقـام في الملك الملك المنصور

محمد بن الملك العزيز، واتفقت الأمراء على احضار واحد من بني أيوب، وعملوا مشورة بحضور القاضي الفاضل فأشار بالملك الأفضل، وهو حينئذ بصرخد فأرسلوا إليه فسار مجدًا، ووصل إلى القاهرة على أنه أتابك الملك المنصور بن الملك العزيز وكان عمر الملك المنصور حينئذ تسع سنين وشهوراً، وكان مسير الملك الأفضل من صرخد لليلتين بقيتا من صفر في تسعة عشر نفراً متنكراً خوفاً من أصحاب عمه العادل، فإن غالب تلك البلاد كانت له، فوصل بلبيس خامس ربيع الآخر، ثم سار الملك الأفضل إلى القاهرة فخرج الملك المنصور بن العزيز للقائه فترجل له عمه الملك الأفضل ودخل بين يديه إلى دار الوزارة، وهي كانت مقر السلطنة، ولما وصل الملك الأفضل إلى بلبيس التقاه العسكر فتنكر منه فخر الدين جهاركس وفارقه، فتبعه عدة من العسكر وساروا إلى الشام وكاتبوا الملك العادل وهو محاصر ماردين، وأرسل الملك الظاهر إلى أخيه الملك الأفضل يسير يقصد دمشق وأخذها من عمه الملك العادل، وأن ينتهز الفرصة لاشتغال العادل بحصار ماردين، فبرز الملك الأفضل من مصر، وسار إلى دمشق وبلغ الملك العادل وصوله إلى دمشق فترك على ماردين الملك الكامل، وسار الملك العادل وسبق الأفضل إلى دمشق فدخل قبل نزول الأفضل إليها بيومين، ونزل الملك الأفضل على دمشق ثالث عشر شعبان هذه السنة، وزحف من الغد على البلد وجرى بينهم قتال وهجم بعض عسكره إلى المدينة حتى وصلوا إلى باب البريد ولم يمدهم العسكر ، فتكاثر أصحاب الملك العادل وأخرجوهم من البلد ثم تخاذل العسكر فتأخر الأفضل إلى ذيل عقبة الكسوه، ثم وصل إلى الملك الأفضل أخوه الظاهر صاحب حلب، فعاد إلى مضايقة دمشق، ودام الحصار عليها، وقلت الأقوات عند الملك العادل وعند أهل دمشق، وأشرف الأفضل والظاهر على أخذ دمشق، وعزم العادل على تسليم البلد لولا ما حصل بين الأخوين الأفضل والظاهر من الخلف، وخرجت السنة وهم على ذلك، وكان منهم ما سنذكره إن شاء الله تعالى.

وفيها قصد الملك المنصور محمد بن الملك المظفر تقي الدين عمر صاحب حماه بارين، وبها نواب عز الدين إبراهيم بن شمس الدين محمد ابن المقدم، وحاصرها وكان الأمير عز الدين مع الملك العادل محصوراً بدمشق، ونصب الملك المنصور عليها المناجنيق وجرح حال الزحف، ثم فتحها تاسع عشرين ذي القعدة، وأقام ببارين مدة حتى أصلح أمورها.

وفيها في جمادى الآخرة توفي أبو يوسف يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن صاحب المغرب والأندلس بمدينة سلا، وكانت ولايته خمس عشرة سنة، وكان يتظاهر بمذهب الظاهرية، وأعرض عن مذهب مالك،وعمره ثمان وأربعون سنة وتلقب بالمنصور، ولما مات يعقوب ملك ابنه محمد وتلقب بالناصر، ومولد محمد سنة ست وسبعين وخمسمائة، وعبد المؤمن وبنوه جميعهم كانوا يسمون بأمير المؤمنين.

وفيها رحل عسكر الملك العادل مع ابنه الملك الكامل عن حصار ماردين.

وفيها كانت فتنة عظيمة في عسكر غياث الدين محمد ملك الغورية وهو بفيروزكوه، وسببها أن الإمام فخر الدين الرازي محمد بن عمر كان قد قدم إلى غياث الدين، فبالغ غياث الدين في إكرامه، وبنى له مدرسة بقرب جامع هراة، فعظم ذلك على الكرامية وهم كثيرون بهراة، ومذهبهم التجسيم والتشبيه، وكان الغورية كلهم كرامية، فكرهوا الإمام فخر الدين لكونه شافعي، وهو يناقض مذهبهم فاتفق أن فقهاء الكرامية والحنفية والشفعوية حضروا بفيروزكوه عند غياث الدين للمناظرة ، وحضر الإمام فخر الدين الرازي والقاضي عبد المجيد بن عمر المعروف ابن القدوة وهو من الكرامية الهيصمية، وله عندهم محل كبير لزهده وعلمه، فتكلم الرازي فاعترض عليه ابن القدوه وطال الكلام، فقام غياث الدين فاستطال فخر الدين الرازي على ابن القدوه وشتمه، وبالغ في أذاه وابن

القدوة لايزيده على أن يقول لايفعل مولانا، لا واخذك الله فصعب على الملك ضياء الدين ، وهو ابن عم غياث الدين، وزوج ابنته وشكا إلى غياث الدين من فخر الدين الرازي ونسبه إلى الزندقة، ومذهب الفلاسفة، فلم يصغ إليه غياث الدين، فلما كان الغد وعظ الناس ابن عمر بن القدوة بالجامع وقال بعد حمد الله والصلاة على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم(ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين(١٧))أيها الناس إننا لانقول إلاّ ما صح عندنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأما علم أرسطو وكفريات ابن سينا، وفلسفة الفارابي فلا نعلمها ، فلأي حال شتم بالأمس شيخ من شيوخ الإسلام يذب عن دين الله وسنة نبيه، وبكى وبكى الكرامية معه واستغاثوا، وثار الناس من كل جانب وامتلأ البلد فتنة ، وبلغ ذلك السلطان غياث الدين فبعث جماعة سكنوا الناس ووعدهم باخراج فخر الدين الرازي من عندهم، وتقدم إلى فخر الدين بالعود إلى هراة فعاد إليها.

وفيها في ربيع الأول توفي مجاهد الدين قيماز بقلعة الموصل، وهو الحاكم بدولة نور الدين أرسلان صاحب الموصل، وقيماز المذكور هو الذي كان حاكماً على عز الدين مسعود والد نور الدين أرسلان حتى قبض عليه مسعود، ثم أخرجه بعد مدة وكان قيماز عاقلاً أديباً فاضلاً في الفقه على مذهب الإمام أبي حنيفة وبنى عدة جوامع وربط ومدارس.

وفيها فارق غياث الدين ملك الغورية مذهب الكرامية وصار شافعي المذهب.

وفي سنة ست وتسعين

كان في أوائلها الملكان الأفضل والظاهر على دمشق محاصريها، واتفق وقوع الخلف بين الأخوين الأفضل والظاهر وسببه أنه كان للملك

الظاهـر مملوك يحبه اسمـه أيبك، ففقد ووجد عليـه الملك الظاهـر وجداً عظيماً، وتوهم أنه دخل دمشق فـأرسل يكشف خبره واطلع الملك العادل وهـو محصـور على القضيـة، فـأرسـل إلى الظـاهـر يقـول :إن محمـود بـن السكري أفسـد مملوكـك وحمله إلى الأفضل أخيـك ،فقبض الظـاهر على ابن السكري، فظهر المملوك عنـده، فتغير على أخيه الأفضل ، وترك قتال الملك العـادل، وظهر الفشل في العسكـر ،فتأخـر الأفضل والظاهـر عن دمشـق وأقـامـا بمـرج الصفر إلى أواخـر صفـر، ثـم سـارا إلى رأس الماء ليقيمان إلى أن ينسلـخ الشتاء، ثـم انثنى عـزمهما وسار الأفضـل إلى مصر والظاهر إلى حلب على القريتين، ولما تفرقا خرج الملك العادل من دمشق وسـار في إثـر الأفضـل إلى مصر ، فلما وصل العسكـر إلى مصر تفـرقـت عساكـره لأجل الربيع ، وأدركـه عمه العادل فخرج الأفضـل وضرب معه مصافـاً فانكسر الأفضل وانهزم إلى القاهـرة، ونازل العادل القاهـرة ثمانية أيام، فأجـاب الأفضل إلى تسليمها على أن يعوض عنها ميـافارقين وحاني وسميساط، فأجـابه العادل إلى ذلك ولم يـف له به، وكان دخـول العادل إلى القاهرة في حادي عشرين ربيع الآخر هذه السنة.

قـال ابن الأثير: كـان دخـول العـادل إلى القاهـرة يـوم السبـت ثامـن عشريـن ربيع الآخـر وتوفي القـاضي الفاضـل في سـابع عشرة ثـم سافـر الملك الأفضل إلى صرخد(١٨) ..

وأقام العـادل بمصر على أنه أتـابك الملـك المنصور محمـد بن العـزيز عثمان مـدة يسيرة ، ثـم أزال الملـك المنصـور محمـد واستقـل العـادل بالسلطنة، ولما استقرت المملكة للملك العـادل أرسل إليه الملك المنصور صاحب حماه يعتـذر إليه مما وقع فيه بسبـب أخذ بارين مـن ابن المقدم، فقبل الملك العـادل عذره وأمره برد بـارين إلى ابن المقدم، فـاعتذر الملك المنصور عنهـا لقربها مـن حماة، ونزل عـن منبج وقلعـة نجم لابـن المقدم عوضاً عـن بارين، فرضي ابـن المقدم بذلك لأنهما خير مـن بعرين بكثير،

وتسلمهما عز الدين إبراهيم بن شمس الدين محمد بن عبد الملك المقدم، وكان له أيضاً فامية وكفر طاب، وخمس وعشرين ضيعة من المعرة، وكذلك كاتب الملك الظاهر صاحب حلب عمه الملك العادل وصالحه وخطب له بحلب وبلادها ، وضرب السكة باسمه، واشترط الملك العادل على صاحب حلب أن يكون خمسمائة فارس من خيار عسكر حلب في خدمة الملك العادل كلما خرج إلى البيكار، والتزم الملك الظاهر صاحب حلب بذلك وقصر النيل في هذه السنة تقصيراً عظيماً حتى أنه لم يبلغ أربعة عشر ذراعاً.

وفيها في العشرين من رمضان توفي خوارزم شاه تكش بن أرسلان بن أطز بن محمد بن أنوشتكين صاحب خوارزم وبعض خراسان والري وغيرها الجبلية شهر ستانية، وولي الملك بعده ابنه محمد بن تكش وكان لقبه قطب الدين محمد فغيره إلى علاء الدين وكان تكش عادلاً حسن السيرة ، يعرف الفقه على مذهب أبي حنيفة والأصول، ولما بلغ غياث الدين ملك الغورية موت خوارزم شاه تكش ضربت نوبيته ثلاثة أيام، وجلس للعزاء مع ما كان بينهما من العداوة المستحكمة وهذا خلاف ما فعله بكتمر بعد موت السلطان صلاح الدين، ولما استقر في المملكة محمد بن تكش هرب ابن أخيه هندوخان بن ملكشاه بن تكش إلى غياث الدين ملك الغورية يستنصره على عمه، فأكرمه غياث الدين ووعده القيام معه.

وفي سنة سبع وتسعين

توفي عز الدين إبراهيم بن محمد بن عبد الملك المقدم وصارت بلاده بعده وهي: منبج، وقلعة نجم، وفامية، وكفر طاب لأخيه شمس الدين عبد الملك بن محمد بن بن عبد الملك المقدم، ولما استقر الشمس عبد الملك بمنبج سار إليها الملك الظاهر وحصرها وملك منبج، وعصى عبد

الملك بن المقدم بالقلعة فحصره، ونزل عبد الملك بالأمان فاعتقله الملك الظاهر، وملك قلعة منبج، وبعد أن فرغ من منبج سار إلى قلعة نجم ، وفيها نائب ابن المقدم فحصرها وملكها في آخر رجب هذه السنة، وأرسل الملك الظاهر إلى الملك المنصور صاحب حماه يبذل له منبج وقلعة نجم على أن يصير معه على الملك العادل، فاعتذر الملك المنصور باليمين التي في عنقه للملك العادل، فلما أيس الملك الظاهر منه سار إلى إلى المعرة ، وأقطع بلادها واستولى على كفر طاب، وكانت لابن المقدم ، ثم سار إلى فامية وبها قراقوش نائب ابن المقدم، وأرسل الملك الظاهر أحضر ابن المقدم من حلب، وكان معتقلاً بها وأحضر معه أصحابه الذين اعتقلهم وضربهم قدام قراقوش ليسلم فامية، فامتنع ، فأمر الملك الظاهر بضرب عبد الملك بن المقدم ، فضرب ضرباً عظيماً وبقي يستغيث، فأمر قراقوش فضربت النفارات على قلعة فامية لئلا يسمع أهل البلاد صراخه، ولم يسلم القلعة ، فرحل عنها الملك الظاهر، وتوجه إلى حماه وحاصرها لثلاث بقين من شعبان هذه السنة، ونزل شمال البلد وشعث التربة التقوية وبعض البساتين وزحف من جهة الباب الغربي وقاتل قتالاً شديداً، ثم زحف في آخر شعبان من الباب الغربي والباب القبلي وباب العميان وجرى بينهم قتال شديد، وجرح الملك الظاهر بسهم في ساقه ، واستمر الحرب إلى أيام من رمضان، فلما لم يحصل على غرض صالح الملك المنصور على مال حمله إليه قيل أنه ثلاثين ألف دينار صورية، ثم رحل الملك الظاهر إلى دمشق وبها الملك المعظم بن الملك العادل، فنازلها الملك الظاهر هو وأخوه الملك الأفضل، وانضم إليهما فارس الدين ميمون القصري صاحب نابلس ومن وافقه من الأمراء الصلاحية، واستقرت القاعدة بين الأخوين الأفضل والظاهر أنهما متى تملكا دمشق يتسلمها الأفضل،ثم يسيران إلى الملك العادل بمصر فيأخذاها منه ويتسلمها الأفضل وتسلم دمشق حينئذ إلى الملك الظاهر صاحب حلب بحيث تبقى مصر للملك الأفضل ويصير الشام جميعه

للظاهر، وكان قد تخلف من الأمراء الصلاحية عنهما فخر الدين جهاركس وزين الدين قراجا، فأرسل الملك الأفضل وسلم صرخد إلى زين الدين قراجا، ونقل الأفضل ولديه وأهله إلى عند الملك المجاهد بحمص، وبلغ الملك العادل حصار الأخوين لدمشق فخرج بعساكر مصر، وأقام بنابلس ولم يجسر على قتالهما واشتدت مصادمة الملكين الأفضل والظاهر لدمشق وتعلق النقابون بسورها، فلما شاهد الملك الظاهر صاحب حلب ذلك حسد أخاه الأفضل على دمشق، وقال له: أريد أن تسلم دمشق إليّ الآن، فقال له: إن حريمي حريمك وهم على الأرض، وهب هذه البلد لك فاجعلها لي إلى حين تملك مصر وتأخذه، فامتنع الظاهر عن قبول ذلك، وكان قتال العسكر والأمراء الصلاحية إنما هو لأجل الأفضل، فقال لهم الأفضل: إن كان قتالكم لأجلي فاتركوا القتال وصالحوا الملك العادل، وإن كان قتالكم لأجل أخي الملك الظاهر فإياكم فها أنتم وإياها، فقالوا: إنما قتالنا لأجلك وتخلوا عن القتال، وأرسلوا صالحوا الملك العادل، وخرجت السنة وقد تفرقت العساكر، فرحل الظاهر عن دمشق في أول المحرم سنة ثمان وتسعين، وسار الأفضل إلى حمص.

وفيها توفي العماد الكاتب

وفيها سار الملك غياث الدين ملك الغورية بعساكره، واستدعى أخاه شهاب الدين من غزنة فسار إليه بعساكره أيضاً، وسار غياث الدين إلى خراسان، واستولى على ما كان لخوارزم شاه بخراسان، ولما ملك غياث الدين مرو سلمها إلى هندوخان بن ملكشاه بن خوارزم شاه تكش الذي هرب من عمه محمد إلى غياث الدين، ثم استولى غياث الدين على سرخس، وطوس، ونيسابور، وغيرها، ولما استقر ت هذه البلاد لغياث الدين عاد إلى بلاده، وتوجه أخوه شهاب الدين إلى بلاد الهند فغنم وفتح نهرواله من أعظم بلاد الهند.

وفيها في رمضان ملك ركن الدين سليمان بن قليج أرسلان مدينة ملطية، وكانت لأخيه معز الدين قيصر شاه بن قليج أرسلان، ثم سار سليمان إلى ارزن الروم وكانت لمحمد ابن صليق، وهو من بيت قديم ملكوا أرزن الروم فخرج صاحب ارزن ليصالح سليمان فقبض عليه، وأخذ البلد منه، وهذا محمد آخر الملوك من أهل بيته.

وفيها توفي سقمان بن محمد بن قرا أرسلان بن داود بن سقمان بن أرتق.

وفي سنة ثمان وتسعين

بعد رحيل الملكين الأفضل والظاهر عن دمشق قدم الملك العادل، وكان قد سار ميمون القصري مع الملك الظاهر فأقطعه أعزاز. وفيها خرب الملك الظاهر قلعة منبج خوفاً من أن تؤخذ منه، وأقطع منبج بعد ذلك لعماد الدين أحمد بن سيف الدين علي ابن المشطوب. وفيها أرسل قراقوش نائب عبد الملك بن محمد بن عبد الملك بن المقدم بفامية إلى الملك الظاهر يبذل تسليم فامية بشرط أن يعطى شمس الدين عبد الملك ابن المقدم اقطاعاً يرضاه، فأقطعه الملك الظاهر الراوندان وكفرطاب، ومفردة المعرة، وهوعشرون ضيعة معينة من بلاد المعرة، وتسليم فامية، ثم إن عبد الملك بن المقدم عصى بالراوندان فسار إليه الملك الظاهر واستنزله منها وابعده فلحق ابن المقدم بالملك العادل، فأحسن إليه.

وفيها سار الملك العادل من دمشق ووصل حماه، ونزل على تل صفرون، وقام الملك المنصور صاحب حماه بجميع وظائفه وكلفه، وبلغ الظاهر صاحب حلب وصول عمه إلى حماه بنية قصده ومحاصرته بحلب، فاستعد للحصار وراسل عمه ولاطفه واستعد للصلح فوقع الصلح، وانتزعت مفردة المعرة، واستقرت للملك المنصور صاحب حماه، وأخذت من الملك الظاهر أيضاً قلعة نجم وسلمت إلى الملك الأفضل، وكان له

سروج وسميساط، وسلم الملك العادل حران وما معها لولده الملك الأشرف مظفر الدين موسى، وسيره إلى الشرق وكان الملك الأوحد بن الملك العادل بميافارقين، والملك الحافظ نور الدين أرسلان شاه بن الملك العادل بقلعة جعبر، ولما استقر الصلح بين العادل والظاهر رجع العادل إلى دمشق وأقام بها، وقد انتظمت الممالك الشامية والشرقية والديار المصرية كلها في سلك ملكه، وخطب له على منابرها، وخطب له فيها باسمه.

وفيها عاد خوارزم شاه محمد بن تكش واسترجع البلاد التي أخذها الغورية من خراسان إلى ملكه.

وفي سنة تسع وتسعين

في المحرم توفي فلك الدين سلطان أخو الملك العادل لأمه، وهو الذي تنسب إليه المدرسة الفلكية بدمشق.

صلاح الدين يوسف بن أيوب

من

طبقات الشافعية الكبرى

لتاج الدين السبكي

- ١٠٧٤٩ -

يوسف بن أيوب بن شادي بن مروان الدويني الأصل، التكريتي المولد

ودوين بضم الدال وكسر الواو بعدها آخر الحروف ساكنة ثم نون، بطرف أذربيجان، من جهة أران أهلها أكراد.

وهو السلطان الملك الناصر، التقي النقي، العالم الذكي، العادل الزكي، فاتح الفتوح، بركة أهل زمانه، صلاح الدين أبي المظفر، ابن الأمير الملك الأفضل نجم الدين.

ولد سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة، بتكريت، إذ أبوه واليها.

وسمع الحديث من الحافظ أبي طاهر السلفي، وأبي الطاهر بن عوف، والشيخ قطب الدين النيسابوري، وعبد الله بن بري النحوي، وجماعة.

روى عنه يونس بن محمد الفارقي، والعماد الكاتب، وغيرهما.

وكان فقيها، يقال: إنه كان يحفظ القرآن و«التنبيه» في الفقه و«الحماسة» في الشعر.

وملك البلاد، ودانت له العباد، وأحبه الخلق، ونصر الإسلام، وغزا الفرنج وكسرهم مرات، وفتح المدن الكبار، وأقام في السلطنة أربعا وعشرين سنة، يجاهد في سبيل الله بنفسه وماله.

وكان ملكا عظيما شجاعا مهيبا عادلا، يملأ العيون روعه والقلوب محبة، قريبا بعيدا، عابدا قانتا لله، لاتأخذه بالله لومة لائم، مجلسه يجمع الفضلاء والفقراء، وأصحابه كأنما هم على قلب رجل واحد، محبة فيه واعتقادا وطواعية.



ولقد صنف في سيرته القاضي ابن شداد كتابا مستقلا، وصنف ابن واصل كتابا في سيرته وسيرة أهل بيته، وصنف أبو شامة في سيرته وسيرة الملك نور الدين، وصنف العماد الكاتب في فتوحاته وصنف آخرون في شأنه، وماعسى الذي نورده بعد ماأطال هؤلاء، ثم اعترفوا بالقصور والتقصير، في حق هذا السيد الكبير، ولنأت بما فيه مقنع وبلاغ.

- ١٠٧٥١ -

ذكر ابتداء أمره قبل ملكه

قدم به أبوه إلى دمشق وهو رضيع، فناب أبوه ببعلبك لما أخذها أتابك زنكي في سنة ثلاث وثلاثين، وقيل: إن أباه خرج من تكريت في الليلة التي ولد فيها صلاح الدين فتطيروا به، وقال بعضهم: لعل فيه الخيرة وأنتم لاتعلمون، فكان كذلك، ثم اتصل والده نجم الدين أيوب بالملك نور الدين الشهيد، خدمه هو وولده صلاح الدين هذا خدمة بالغة، وكان أسد الدين شيركوه أخو نجم الدين عند نور الدين قبلهما، وكان أرفع عنده منهما منزلة، فإنه كان مقدم جيوشه، فلما تخلخل حال المصريين الفاطميين، وضعفوا عن مقاواة الفرنج، وكادت الفرنج تملك القاهرة، وملكوا بلبيس، وصيروا لهم بالقاهرة شحنة يحكم، وضعف أمر الإسلام بديار مصر جدا، وكان الفاطميون قد بلغوا في سوء السيرة إلى الحد المعروف، وأفتى علماء الاسلام بإباحة دمائهم، ووجوب قتالهم، لما هم عليه من الزندقة والإلحاد، ووصل شاور وزير العاضد خليفة مصر إلى دمشق إلى نور الدين يستنجده، ثم عاد إلى مصر، فجهز نور الدين إليهم عسكرا أمر عليهم أسد الدين شيركوه، وجهز معه أخاه نجم الدين، وابن أخيه صلاح الدين، فدخلوا مصر آمنين، وقتلوا شاور، وولي شيركوه وزارة الخليفة العاضد، إلى أن مات بعد نيف وسبعين يوما، فولي بعده صلاح الدين الوزارة، وهي في ذلك الوقت كالسلطنة، فاستقل بسلطنة مصر، ولقب بالملك الناصر، لقبه بذلك الخليفة العاضد، في سنة أربع وستين، وصار للعاضد معه الاسم فقط، وصار صلاح الدين هو السلطان، فاستمر إلى أول سنة سبع وستين، فقطع صلاح الدين الخطبة للعاضد، وخطب للمستضيء خليفة بغداد، واستقل بالملك، ومات العاضد، وقبض صلاح الدين على الفاطميين بأسرهم، واستولى على القصر وخزائنه، وهي أموال لاتحصى ولاتعرف لملك قبل الفاطميين.

وكان صلاح الدين من حين اتصل بخدمة نور الدين قد طلق

اللذات، وكان محببا إليه خفيفا على قلبه، ولما افتتح مع عمه مصر ثم استقل بالوزارة عظمت سطوته، واتفقت له وقعة مع السودان سنة بضع وستين، وكانوا نحو مئتي ألف، فنصر عليهم وقتل أكثرهم، وهرب الباقون، وابتنى سور مصر والقاهرة على يد قراقوش، واستفحل أمره جدا إلى أن أباد بيت الفاطميين وأهان الرفض وغيرهم من بدع المبتدعين.

ذكر يسير من أخباره بعد استقلاله بالسلطنة وموت العاضد

وقد كان لما قبض على الفاطميين أخذ في نصرة السنة وإشاعة الحق وإهانة المبتدعة، والقبض على الفاطمية والانتقام من الروافض، وكانوا بمصر كثيرين، وكان من أول فتوحاته: برقة ونفوسة، افتتحها على يد أخيه شمس الدولة، في سنة ثمان وستين، ثم في سنة تسع افتتح اليمن، وقبض على المتغلب عليها عبد النبي بن مهدي، ثم في سنة سبعين سار من مصر إلى دمشق بعد وفاة نور الدين، مظهرا أنه يقيم نفسه أتابكا لولد نور الدين، لكونه صبيا، فدخلها يلاطفه، ونزل بالبلد بدار أبيه المعروفة بدار العقيقي التي هي اليوم المدرسة الظاهرية، ثم تسلم القلعة وصعد إليها وأخرج الصبي من الملك، وصار هو سلطان مصر والشام واليمن والحجاز ثم سار قاصدا حماة وحمص، ولم يشتغل بأخذ قلعتها ثم نازل حلب وهي الوقعة الأولى، وفيها سير السلطان غازي بن مودود أخاه عز الدين مسعودا في جيش كبير لحربه، وكان بها ولد نور الدين فترحل عن حلب ونزل على قلعة حمص فأخذها وهو مع ذلك يظهر حسن المقاصد، وأنه قاصد إعزاز الدين وإنقاذ البلاد من الفرنج، وتسهيل أمور المسلمين.

وجاء عز الدين مسعود فأخذ معه عسكر حلب، وصار إلى قرون حماة، وأخذ صلاح الدين يراسلهم دواما للصلح، كيلا يقع سيف بين

المسلمين، وهم يراسلـونه، وهم يظنون أنه يطلب الصلـح لضعفه عنهم، وهم لايعرفون ماعليه الرجل من حسـن النية، وحقق عندهم ماظنوه كثرة عساكرهـم وقلة من كان مع صـلاح الدين من العسكر في ذلـك الوقت، فلما أبـوا إلا المشاجـرة، معتقـدين أن المصـاف معهـم يحصـل غرضهـم، وأعجبتهم كثـرتهم، لاقاهم صلاح الـدين، فكانت الهزيمـة عليهم، وأسر صـلاح الديـن منهـم خلقا، ثـم سـاق وراءهم، ونـزل على حلـب ثانيـا فصالحوه وأعطوه المعرة ، وكفر طاب، وبارين.

وجـاء صـاحب الموصـل غـازي، فحـاصر أخـاه عماد الديـن زنكـي صاحب سنجار، لكونه انتمى إلى صـلاح الدين، ثم صالحه لما بلغ غازي كسر أخيـه مسعود، ونـزل بنصيبين، وجمع العساكـر، وأنفق الأمـوال وعبر الفرات وقدم حلب، فخـرج إلى تلقيه ابن عمه الصالح إسماعيـل بن نور الدين، وأقام على حلب مدة.

ثم كانـت وقعة تل السلطان، وهي منزلـة بين حلب وحماة، جرت بين صلاح الـدين وصاحـب الموصل، في سنة إحـدى وسبعين، فنصر صلاح الدين ورجـع غازي، وعدى الفرات بعـد مااستأصل صـلاح الدين كثيرا من خيـامه وأمـواله، وفـرقها في جماعته، ثـم سار صـلاح الديـن، فتسلم منبـج، وحاصر قلعـة أعـزاز، ثـم نازل حلـب ثـالثـا وأقام عليهـا مـدة، فأخرجـوا ابنة صغيرة لنور الدين إلى صـلاح الدين، فسألته اعـزاز فوهبها لها، ثم عـاد إلى الديـار المصرية، واستناب بـدمشق أخـاه شمس الـدولة تورانشاه، وكان قـد عاد من اليمن، وكانت هذه السفـرة منه إلى الشام مما نقم عليه ظاهرا، للإساءة فيها إلى ولـد نور الدين، وهو ابن مخدومه الذي أنشـأه وأحسن إليـه، وقيامـه على بيت الملـك والعز قبلـه، وهما صاحـب الموصـل وأخوه، غير أن الحال بـالآخـرة تبين أن الله تعـالى قد أراد إعـزاز دينه على يـد هذا الرجـل، وأنه لايتم للمسلمين أمـر بدون سلطان قـاهر قادر على استئصال شأفـة الفرنج في ذلك الوقت، يجتمـع عليه المسلمون

ولاتتفرق عنه كلمتهم، ويكون هو في نفسه جديرا بذلك، وأبى الله أن يكون في ذلك العصر إلا صلاح الدين.

فلما وصل إلى القاهرة عائدا من الشام بعد مافعل مارأيت مجمله دون مفصله، وفي تفاصيله شرح كبير أحلناك على كتبه، خرج إلى الفرنج في سنة ثلاث، والتقاهم على الرملة، فانكسر المسلمون يومئذ، وثبت صلاح الدين وتحيز بمن معه، ثم دخل إلى مصر، ولم شعث العسكر، ثم عاد إلى الشام وملك حلب وغيرها من البلاد، وعظمت الشوكة، ثم توجه لمحاصرة الفرنج بالكرك، وجاء أخوه العادل من مصر، وكان قد استنابه عليها، فسير صلاح الدين تقي الدين عمر، ابن أخيه، ليحفظ مصر، وأعطى أخاه العادل حلب بعد أن كان بها ولده الظاهر بن صلاح الدين، وقدم الظاهر من حلب، ثم أعاد العادل إلى مصر والظاهر إلى حلب، ثم نزل على الموصل، وترددت الرسل بينه وبين صاحبها عز الدين، ثم مرض صلاح الدين فرجع إلى حران، واشتد مرضه بحيث أيسوا منه وحلفوا لأولاده بأمره، والله يريد حياته ليتم إعزاز دينه، فعوفي، ومر بحمص وقد مات بها ابن عمه محمد بن شيركوه، فأقطعها لولده شيركوه، ثم استعرض التركة، فأخذ أكثرها، وكان عمر شيركوه اثنتي عشرة سنة، ثم إن شيركوه هذا الشاب حضر بعد سنة عند صلاح الدين فقال له: أين بلغت في القرآن؟ فقال: إلى قوله تعالى:(إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون في بطونهم نارا).(النساء١٠).

فعجب الحاضرون من ذكائه، وقيل: إن صلاح الدين إنما أخذ الأموال ليحفظها لهذا الشاب.

- ١٠٧٥٥ -

وفي سنة ثلاث وثمانين

افتتح صلاح الدين بلاد الفرنج، وأسر ملوكهم، وكسرهم على حطين، وتوالت عليه الفتوحات وأنقذ البيت المقدس منهم، وافتتحه وأعز الدين.

ومما اقتلعه من يد الفرنج طبرية، وقتل وأسر في ذلك اليوم أكثر من أربعين ألفا، وتسلم قلعتها، وأحضر إليه صليب الصلبوت، وضرب بين يديه في مخيمة أعناق مائتي فارس من عظماء الفرنج.

ثم افتتح مدينة عكا ، وكانت من أعظم حصونهم وأكبر مدنهم، وأقام بها الخطبة الاسلامية، ثم افتتح البيت المقدس وغيره، وأخلى مابين الشام ومصر من الفرنج، وهذا عداد مايحضرنا من فتوحاته من أيدي الفرنج:

قلعة أيله. طبرية. عكا. القدس. الخليل. الكرك. الشوبك. نابلس. عسقلان. بيروت. صيدا. بيسان. غزة. لد. حيفا. صفورية. الفولة. معليا. الطور. اسكندرونة. قلنسوة. يافا. أرسوف. قيسارية. جبلة. يبنى. صرفند عفر بلا. اللجون.نجد قاقون. مجدل. يابا. تل الصافية. بيت نوبا. النطرون. الجيب. البيرة. بيت لحم. يازور. حصن الدير. دمرا. قلقيلية. هريث. الزيب. الوعيرة. الهرمز. معليا. العازرية. نقوع. الكرمل. مجدل. الطار. المعبر في جبل عاملة. والشقيف. سبسطية. ويقال: بها قبر زكريا. وجبيل. وكوكب. وأنطرطوس. واللاذقية. وبكسرائيل. وصهيون. وجبلة. قلعة العيد. وقلعة الجماهرية. وبلاطنس. والشغر. وبكاس. وسرمانية. وبرزية. ودربساك. وبغراس. وكانا كالجناحين لأنطاكية. ومدينة صفد.

وكل هذه مدائن منيعة، وأكثرها اليوم قرى كبار، ومنها مدائن كثيرة باقية إلى الآن.

ونازل صور مدة ولم يقدر له فتحها، وله مصافات يطول شرحها، وافتتح كثيرا من بلاد النوبة من يد النصارى.

ومن تأمل الرسائل الفاضلية رأى العجب من تأثيرات هذا الرجل في الاسلام، ومن شدة بأسه وشجاعته.

وكانت مملكته من الغرب إلى تخوم العراق، ومعها اليمن والحجاز، فملك ديار مصر بأسرها، مع ماانضم إليها من بلاد المغرب والشام بأسرها، مع حلب وماوالاها، وأكثر ديار ربيعة وبكر والحجاز بأسره، واليمن بأسره، ونشر العدل في الرعية، وحكم بالقسط بين البرية، مع الدين المتين والورع والزهد والعلم، كان يحفظ القرآن و«التنبيه» و«الحماسة».

قال الموفق عبد اللطيف: رأيت السلطان صلاح الدين على القدس، فرأيت ملكا عظيما يملأ القلوب روعة، والعيون محبة، قريبا وبعيدا، سهلا محببا، وأصحابه يتشبهون به، يتسابقون إلى المعروف، كما قال تعالى:(ونزعنا ما في صدورهم من غل) (الأعراف ٤٣) وأول ليلة حضرته وجدت مجلسا حفلا بأهل العلم، يتذاكرون في أصناف العلوم، وهو يحسن الاستماع والمشاركة، ويأخذ في كيفية بناء الأسوار وحفر الخنادق، ويتفقه في ذلك، وكان مهتما في بناء سور القدس وحفر خندقه، يتولى ذلك بنفسه، وينقل الحجارة على عاتقه، ويتأسى به جميع الأغنياء والفقراء، فيركب لذلك قبل طلوع الشمس إلى وقت الظهر، ويأتي داره فيمد السماط ثم يستريح، ويركب العصر ويرجع في ضوء المشاعل، ويصرف أكثر الليل في تدبير مايعمله نهارا، وكان يحفظ«الحماسة» ويظن أن كل فقيه يحفظها. انتهى مختصرا.

وقد وثبت عليه الاسماعيلية مرة فجرحوه وسلمه الله، وهو الذي ابتنى قلعة القاهرة على جبل المقطم.

وفتح من بلاد المسلمين: حران، وسروج، والرها، والرقة، والبيرة، وسنجار، ونصيبين، وآمد، وملك حلب والبوازيج، وشهرزور، وحاصر الموصل إلى أن هادنه صاحبها عز الدين مسعود، ودخل في طاعته، وكانت هذه عادته، إذا دخل أحد في طاعته لايقابله إلا بالإحسان.

وفتح أيضا من بلاد الشرق: خلاط، على يد ابن عمه تقي الدين، فهذا ماافتتحه من بلاد الشرق.

واستولى أيضا على افريقية وفتح عسكره مدينة طرابلس الغرب، وكسر عسكر تونس، وخطب بها لبني العباس، وافتتح بلاد اليمن، قيل: ولو لم يقع الخلف بين عسكره الذين جهزهم إلى الغرب لملك الغرب بأسره.

ولم يختلف عليه مع طول مدته أحد من عسكره على كثرتهم، وكان الناس يأمنون ظلمه لعدله، ويرجون رفده لكثرته، ولم يكن لمبطل ولالصاحب هزل عنده نصيب.

وكان إذا قال صدق، وإذا وعد وفى، وإذا عاهد لم يخن، وإذا نازل بلدا وأشرف على أخذه ثم يطلب أهله الأمان يؤمنهم، وكان جيشه يتألمون لذلك، لفوات حظهم، ولايسعهم إلا وفاقه وامتثال أمره.

وكان رقيق القلب جدا، وربما حلق على مدينة وأحاط بها، فسمع بكاء الحريم فتركها، وإنما يفعل ذلك مع المسلمين.

فمن كتاب فاضلي في فتوح حمص: «لما أحدقت العساكر المنصورة بالسور العاصم، إحداق السوار بالمعاصم، وطارت السهام إلى أوكارها من الضلوع، وبرقت الأسنة وكأنها زبد بحار الدموع، حصحص الحق، واتسع الخرق، وعلم ان ماأراده الخالق لايرده الخلق، فارتفع الضجيج،

وعـلا تحت العجاج العجيـج، وأدركتنا رقـة رفضت مـن أيدينـا الرقـاق، وخشيـة عنت لنـا أعنـة الفسـاق، فرفعنـا على الأسـوار أعـلاما منشـورة، بـالكـف والإمسـاك مـأموزة، ووضعـت الحرب أوزارهـا، وحلـت الأمنـة أزرارها، وشفعنا الوجـوه المستورة بالخفر من نسوانها، في الـوجوه المكشوفة بالمعصية من فرسانها».

وربما حـاصر قومـا ولم يمنـع الميرة عنهـم، وجرى معهـم على كـذبهم ليأخـذهم بـالسهولة ثـم يتبين له غـدرهم وكذبهم، وهـو مع ذلـك يحلم عنهم، ويراعـي مصلحة الدين، كما اتفق له في حمص، وقـد افتتح المدينة وعصت عليـه القلعة ولم يمنـع الميرة عن أهلهـا، ثم لما تبين لـه حالهم لم يبادر إلى الهدم مع مـافيه من سرعة نصرته، خشية على القلعـة لكونها من حصون المسلمين، وطاول بهم الأمر إلى أن تيسر له فتحها.

فمن كتـاب فاضلي عـن السلطان وهـو محاصر قلعة حمص، وقـد بلغه أن أهلهـا استنجدوا عليـه بالفـرنج: :«وأمـرنا في القلعـة بأن لايضيـق لها خنـاق، ولايضعـف لأهلهـا أرمـاق، ولايمنـع البيـع والشراء والانتقـال، ويفسح لها مالا يفسـح فيـه مـن يريـد تثقيـل وطـأة الحصار، وكـان مـن استدعائهم الفرنج ماكان، وهان بفضل الله تعالى من أمرهم ماهان».

ثم أخذ يصـف القلعة المشار إليها بكونها«نجما في سحـاب، وعقابا في عقاب، وهامـة لها الغمامة عمامة، وأنملة إذا خضبهـا الأصيل كان الهلال منها قـلامة، عاقدة حبـوة، صالحها الدهـر على أن لايحلها بفزعه، عـاقدة عصمة، صـافحها الزمن على أن لايـروعها بخلعة، فاكتنفـت بها عقارب، لاتطبع طبـع حمص في العقارب، وضربتهـا بالحجـارة، فأظهـرت العداوة المعلومـة بين الأقارب، ولم تكـن غير ثالثة(مـن الجد إلا وقد أثـرت فيها جدريا بضربها) ولم نصـل إلى السابع إلا والبحر أتى ينـذر بنقبها، واتسع

الخرق على الراقع، وسقط سعدها عن الطالع، إلى مولد من هو إليها طالع، وفتحت الأبراج فكانت أبوابا، وسيرت الجبال منها فكانت سرابا، فهنالك بدت نقوب.

»...................................

يرى قائم من دونها ما وراءها»(١).

ومن الكتب والمراسيم عنه

كتب في النهى عن الخوض في الحرف والصوت:(لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض)(الأحزاب ٦٥) الآية، خرج أمرنا إلى كل قائم في صف، أو قاعد في أمام وخلف، أن لايتكلم في الحرف بصوت، ولافي الصوت بحرف، ومن يتكلم بعدها كان الجدير بالتكليم:(فيحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم)(النور ٦٣) وسأل النواب القبض على مخالفي هذا الخطاب وبسط العذاب، ولايسمع لمتفقه في ذلك تحرير جواب، ولايقبل عن هذا الذنب متاب، ومن رجع إلى هذا الإيراد بعد الإعلان وليس الخبر كالعيان، رجع أخسر من صفقة أبي غبشان، وليعلن بقراءة هذا الأمر على المنابر، ليعلم به الحاضر البادي، ويستوي فيه البادي والحاضر، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

قلت: لاشك أن هذا الفصل من كلام القاضي الفاضل.

وهذه وقائع شتى

من ابتداء دخوله إلى مصر قبل أن يتسلطن وإلى أن استأثر الله بروجه الطاهرة، مختصرة مقتصرا فيها على عيون الأخبار.

- ١٠٧٦٠ -

في سنة أربع وستين وخمسمائة

كان مسيرا أسد الدين شيركوه عم السلطان صلاح الدين إلى مصر، المسير الثالث، وذلك أن الفرنج قصدت الديار المصرية في جموع كثيرة، وكان الملك نور الدين من جهة الشمال ونواحي العراق، فطلعوا من عسقلان، وأتوا إلى بلبيس، فحاصروها وملكوها واستباحوها، ثم نزلوا على القاهرة فحاصروها، فأحرق شاور مصر خوفا من الفرنج، وبقيت النار فيها أربعة وخمسين يوما، فلما ضايقوا القاهرة.وضعف المسلمون عنهم بعث إلى ملكهم يطلب الصلح على ألف ألف دينار، يعجل له بعضها، فأجابه ملك الفرنج، واسمه مري، إلى ذلك وحلف له، فحمل إليه شاور مائة ألف دينار، وماطله بالباقي، وكاتب في ذلك الملك العادل نور الدين يستنجد به، وسود كتابه وجعل في طيه ذوائب النساء، وواصل كتبه يستحثه ، وكان بحلب، فساق أسد الدين من حمص إلى حلب في ليلة.

قال القاضي بهاء الدين ابن شداد: قال لي السلطان صلاح الدين: كنت أكره الناس للخروج إلى مصر هذه المرة، وهذا معنى قوله:(وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم) (البقرة ٢١٦).

وقال ابن الأثير: إن صلاح الدين قال: لما وردت الكتب من مصر إلى نور الدين أحضرني وأعلمني الحال، وقال: تمضي إلى عمك أسد الدين بحمص مع رسول إليه تحثونه على الحضور، ففعلت، فلما سرنا عن حلب ميلا لقيناه قادما، فقال له نور الدين: تجهز، فامتنع للخوف من غدرهم أولا، وعدم ماينفقه في العساكر آخرا، فأعطاه نور الدين الأموال والرجال، وقال له: إن تأخرت عن مصر سرت أنا بنفسي، فإنها إن ملكها الفرنج لايبقى معهم بالشام مقام، فالتفت إلي عمي وقال: تجهز يايوسف، فكأنما ضرب قلبي بسكين، فقلت: والله لو أعطيت ملك مصر

ماسرت إليها، فلقـد قاسيت بالإسكنـدرية من المشاق مـالا أنساه، فقال عمي لنور الدين: لابد من مسيره معي، وارسـم له، فأمرني نور الدين وأنا استقيلـه، فانفـض المجلس، ثـم قال نـور الـدين: لابـد من مسيرك مـع عمك، فشكوت الضائقة، فأعطـاني ماتجهزت به، وكأنما أساق إلى الموت، وكان نـور الدين رجلا مهيبـا، فسرت مع عمي، فلما توفي أعطـاني الله من الملك مالا كنت أتوقعه ، انتهى.

فجمـع أسد الـديـن الجيوش، وسـار إلى دمشـق، وعرض بها الجيـش، وتوجه إلى مصر في جيش عرمرم، فقيـل: كانوا سبعين ألف فارس وراجل فتقهقر الفـرنج لمجيئه، ودخـل القاهرة في سـابع ربيع الآخـر، وجلس في الدسـت، وخلع عليـه العاضـد خلع السلطنـة وولاه وزارته، وقـام شاور بضيافتـه وضيافة عسكره وتـردد إلى خدمته، فطلـب منه أسد الديـن مالا ينفقه على جيشه، فماطله، فبعث إليه الفقيه ضيـاء الدين عيسى بن محمد الهكاري، يقـول: إن الجيش طلبوا نفقتهـم، وقد ماطلتهـم بها وقد تغيرت قلوبهم، فـإذا أتيتني فكـن على حذر منهـم، فلم يـؤثر هـذا عند شـاور، وركب على عـادته، وأتـى أسد الـدين مسترسـلا وقيل: إنـه تمارض فجاء شاور يعوده، فاعترضـه صلاح الدين وجماعة من الأمـراء النورية، فقبضوا عليه، فجـاءهم رسول العـاضد يطلـب رأس شاور، فذبـح وحمل إليه في سابـع عشر ربيع الآخـر، ثم لم يلبـث أسد الـدين أن حضرتـه المنية بعـد خمسة وستين يـوما، فقلد العـاضد السلطان الملـك الناصر صلاح الـدين يـــــوسـف السلطنـة، ولقـب الملـك النـاصر، وكتـب تقليـده القـاضي الفاضـل، بعد ماكان وقـع خلف كبير عند الفـراغ من عزاء أسد الـدين فيمن يكون سلطانـا، ثم اتفقت كلمة الأمراء النوريـة على صلاح الدين، قال العماد الكاتب: وألـزموا صاحب القصر، يعني العاضـد، بتوليته.وقال القاضي: كانت الوصية إلى صلاح الـدين من عمه، فلبس خلعة السلطنة بالقصر بين يـدي العاضد، وقبـل يده، وجاء إلى دار الـوزارة، وإن شئت قلت: دار السلطنة فإن الوزارة عنـد الفاطميين هي السلطنة اسما ومعنى،

وجلس في دست الملك، وشرع في تركيب السلطنـة وترتيبها، فأول مادهمه أمـر الخادم الخصي الذي كـان يلقب مـؤتمن الخلافـة، فإنـه شق العصـا باطنا، وائتمر وتنمر، وانضمت إليه طـوائف من أخبث الروافض، وكاتبوا الفرنج خفية، فاتفق أن تركمانيا عبر بـالبئر البيضاء، فرأى نعلين جديدين مع إنسان، فأخـذهما وجاء بهما إلى صلاح الدين، فوجد في البطـانة خرقة مكتوب فيها: إلى الفـرنج من القصر، فقال: دلوني على كـاتب هذا الخط، فدل على يهودي، فلما حضر تلفـظ بالشهادتين، واعترف أنه كتـب ذلك بأمر الطواشي المشار إليـه، واستشعر الطواشي الخبر، فلزم القصر، وأعرض عنه صلاح الـدين إلى أن خرج إلى قريـة له، فأنهض له السلطـان صلاح الديـن من أخذ رأسـه في ذي القعدة، وقرر مكانـه بهاء الدين قـراقوش، فصـار مختـومـا على القصر، لايدخـل القصر شيء ويخرج إلا بمـرأى منـه ومسمع.

فلما قتـل الخادم غار السـودان وثـاروا، وكانـوا أكثـر من خمسين ألـف مقاتلة، وقد قـدمنا أنهم كانوا نحو مائة ألـف، وكل قـاله المؤرخون، ولعل الجمع بينهما أن الخمسين ألفا كانوا مقاتلة فرسـانا، والباقون كانوا رجالة، لايضمهم ديـوان، وأقبلوا كقطـع الليل المظلم، فخـرج إليهم مـن عسكر صـلاح الديـن الأمير أبو الهيجـاء، واتصل الحرب بين القصريـن، ودأب الحرب بينهم يومين، ثـم كانت الدائرة على السودان، وأخـرجوا إلى الجيزة، وكانـت لهم محلة تسمى المنصـورة، فخـربت وحرقـت، ثم بلغ نور الـدين نبأ هذه الأخبار الطيبة، فانشرح صدره، وأمـد صلاح الدين بأخيه شمس الدولة تورانشاه.

ثم دخلت سنة خمس وستين وخمسمائة

وفيها نزل الفـرنج على دمياط في صفر، وحاصروها أحـدا وخمسين يوما، ثم رحلوا خائبين، لأن نور الدين وصـلاح الدين أجلبا عليهم برا وبحرا،

وأنفق صلاح الدين أموالا كثيرة، وقال: مارأيت أكرم من العاضد أرسل لي مدة مقام الفرنج على دمياط ألف دينار مصرية سوى الثياب وغيرها.

وفيها دخل نجم الدين أيوب أبو صلاح الدين مصر، فخرج العاضد بنفسه إلى لقائه، وتأدب ابنه صلاح الدين معه وعرض عليه منصبه.

ثم دخلت سنة ست وستين وخمسمائة

وفيها عمل صلاح الدين بمصر مدرستين للشافعية والمالكية، وخرج بجيوشه فأغار على الرملة وعسقلان، وهجم على ربض غزة ورجع إلى مصر، وجهز بعض جنده إلى قلعة أيلة، فغزوها في المراكب وافتتحوها واستباحوا الفرنج فيها قتلا وسبيا، وكان فتح هذه القلعة واستعادتها من الفرنج أعظم النعم على المسلمين، فإنها كانت قلعة منيعة وكانت الفرنج قد اتخذوها هي والكرك سبيلا إلى الإحاطة بالحرمين الشريفين، فقدر الله فتحها على يد هذا السلطان، رحمه الله.

ومن كتاب فاضلي من السلطان إلى الخليفة يعدد فيه ماللسلطان من الفتوحات ومن جهاد الفرنج: ومنها قلعة بثغر أيلة بناها العدو في البحر، ومنها المسلك إلى الحرمين الشريفين بحيث كادت القبلة يستولى على أصلها، والمشاعر يسكنها غير أهلها، ومضجع الرسول صلى الله عليه وسلم يتطرق إليه الكفار، في كلمات قالها.

ثم دخلت سنة سبع وستين وخمسمائة

فاستفتح السلطان الخطبة في الجمعة الأولى منها بجامع مصر لبني العباس، وأقيمت الخطبة العباسية في الجمعة الثانية بالقاهرة، وأعقب ذلك موت العاضد في يوم عاشوراء بالقصر، وجلس السلطان للعزاء، وأغرب في الحزن والبكاء، وانقرضت دولة الفاطميين، وكان لها أكثر من

مائتـي سنة، وتسلم السلطان القصر بما فيـه من خزائنه وذخـائره واحتاط على آل القصر فجعلهـم في مكان بـرسمهم، وقـررت لهم المؤونه وجمعـت رجالهم واحترز عليهـم، ومنعوا من النساء لئـلا يتناسلوا، وذكـر المؤرخون من نفائس القصر وذخائره مالا نطيل بـذكره، وانتقل الملك العادل سيف الدين أبو بكر إلى القصر بمرسوم أخيـه، فاستقر في نيابة السلطان وكتبت الكتب إلى بغـداد بالبشـارة، وأعاد الجواب والخلعة الفـائقة العبـاسية الى السلطان صلاح الدين.

وفيها ، قـال ابن الأثير: حدث مـاأوجب نفره نـور الدين عـن صلاح الدين، وذلك أن نـور الدين أرسل إليه يأمر بجمـع الجيش والمسير لمنازلة الكرك ليجـيء هو بجيشـه ويحاصرانها، فكتب إلى نـور الديـن يعرفـه أنه قادم، فـرحل على قصد الكرك وأتـاها وانتظر وصولـه، فأتاه كتابـه يعتذر باختلال البلاد، فلـم يقبل عذره، وكان خواص صلاح الديـن خوفوه من الاجتماع به، وهـم نور الديـن بالدخـول إلى مصر وإخراج صلاح الـدين عنها، فبلـغ ذلك صلاح الـدين، فجمع أهلـه وأباه وخالـه الأمير شهاب الدين الحارمي، وسـائر الأمراء وأطلعهم على نية نور الديـن واستشارهم، فسكتوا، فقـال ابن أخيه تقـي الدين عمـر: إذا جاء قاتلنـاه، ووافقه غيره من أهلـه، فشتمهم نجم الديـن أيوب واحتد، وكان ذا رأي ومكـر، وقال لتقي الديـن: اسكت، وزبره وقال لصلاح الـدين: أنا أبوك وهـذا خالك أتظن أن في هـؤلاء من يـريد لـك الخير مثلنا؟ فقـال: لا، فقال: والله لـو رأيت أنا وهـذا نور الدين لم يمكنـا إلا أن ننزل ونقبل الأرض، ولو أمـرنا بضرب عنقك لفعلنا، فما ظنـك بغيرنا؟ فكل من تراه مـن الأمراء لو رأى نور الـدين لما وسعه إلا الترجـل، وهذه البـلاد له، وإن أراد عز لـك فأي حاجـة له إلى المجيء؟ بـل يطلبك بكتاب، وتفـرقوا، وكتب أكثـر الأمراء لنور الـدين بما تم، ولما خـلا بولده قـال: أنت جـاهل تجمع هـذا الجمع وتطلعهم على سرك، ولـو قصدك نور الـدين لم تـر أحدا منهم، ثـم كتب إلى نور الدين بإشارة والده نجم الدين يخضع له، ففتر عنه.

- ١٠٧٦٥ -

ثم دخلت سنة ثمان وستين وخمسمائة

فأرسل السلطان فيها قراقوش مملوك ولد أخيه تقي الدين عمر إلى جبال نفوسة، ومعه طائفة من الأتراك، فلما وصل إلى الجبال استصحب معه منها بعض المتقدمين، ونزل على طرابلس الغرب، فحاصرها ثم فتحت ، فاستولى عليها قراقوش وسكنها وكثرت عساكره وفيها جهز السلطان شمس الدولة إلى برقة فافتتحها على يد غلام له تركي.

ثم بلغ السلطان أمر ابن مهدي الخارج باليمن وماهو عليه من اختلال العقيدة، فجهز أخاه شمس الدولة، فافتتح اليمن وتملكها.

ثم سار السلطان بنفسه من مصر يريد اقتلاع مدينة الكرك من الفرنج وبدأ بها لقربها إليه، وكان من الوهن في الإسلام والعظمة في الدين استيلاء الملاعين على الكرك وعلى قلعة أيلة، فإنهم يمنعون الحاج وأشد من ذلك مايخشى على الحرمين الشريفين منهم، إذ لم يكن بينهم وبينهما حاجز غير لطف الله، وقصدوهما مرات ثم يندفعون بمشيئة الله من غير دفاع من البشر، وكانت الكرك تزيد على قلعة أيلة بمنع القوافل السائرة بين الشام ومصر، فإنها كانت الدرب، وأما غزة والرملة وماحواليهما فكان الفرنج لايمكنون مسلما أن يمر بها، فورد عليها وحاصرهما وقاتل الفرنج، ولم يفتحها في هذه السنة، ورجع إلى مصر.

ثم دخلت سنة تسع وستين وخمسمائة

قال ابن الأثير: جهز السلطان أخاه توران شاه إلى بلاد النوبة، فافتتح منها ماشاء الله، فلما عاد جهزه إلى اليمن بقصد عبد النبي صاحب زبيد، فطرده عن اليمن وملك زبيد وأسر عبد النبي وزوجته الحرة، وكانت صالحة كثيرة الصدقة، وعذب عبد النبي واستخرجت منه أموال، ثم سار

تـوران شاه إلى عـدن، وملكها نـاشر، فأسر وهـزم، ثـم سار فـافتتح مـن حصون اليمن قلعة تعرف بقلعة الجند.

قال أبو المظفـر سبط ابن الجوزي : يقال: افتتح ثمانين حصنـا ومدينة باليمن وماحواليها.

وقـد تقدم في السنـة قبلها إرسـال تورانشـاه، وهو شمـس الدولـة إلى اليمن ووقعة النوبة فقتل، والله أعلم في أي السنتين كان إرساله.

وفي هذه السنة وصـل الموفق ابن القيسراني إلى مصر رسولا مـن الملك نور الـدين يطالب السلطـان صلاح الديـن بحساب جميع ماحصلـه من أرياع البلاد، ولم يعلـم نور الدين بتفاصيـل علو شأن صلاح الـدين وأنه مستول على أعظمممافي يـد نور الدين، فصعب ذلك على صـلاح الدين، وقيل: إنـه أراد شق العصا، ثم ذكـر لنور الديـن حقوقه و إحسانـه، وأمر النـواب بـالحساب، وعـرضـه على ابـن القيسراني، وأراه جرائد العسـاكـر بالإقطـاعات، وأعاده إلى نـور الدين ومعه الفقيـه عيسى وهديـة عظيمة، وهي ختمة بخط ابن البواب، وختمـة بخط مهلهل، وختمة بخط الحاكم البغـدادي، وربعة مكتـوبة بـالذهـب بخط فـارسي، وربعة عشرة أجـزاء بخط راشـد، وثلاثة أحجـار بلخش، وستة قضبـان زمرد، وقطعة يـاقوت وزن سبعة مثـاقيل، وحجـر أزرق ستة مثـاقيل، ومـائة عقد جـوهر وزنها ثمانمائة وسبعـة وخمسـون مثقـالا، وخمسون قـارورة دهـن بلسـان وعشرون قطعة بلور وأربع عشر قطعة جزع، وإبـريق يشم، وطشت يشم، وصحون صيني، وزبـادي أربعون، وكرتان عـود قماري، وزن إحداهما ثلاثـون رطلا بـالمصري، والأخرى أحـد وعشرون، ومـائة ثوب أطلسي، وأربعـة وعشرون بقيارا مـذهبة، وخمسـون ثوب حريـر وحلة فلفلي مذهـب، وحلة مـرايش صفـراء، وغير ذلـك مـن القماش الذي يكثـر عـده، وقيمـة القماش على ماذكـر مائتـان وخمس وعشرون ألف مثقـال ذهب، ومـن الخيل والبغـال

والجواري والسلاح شيء كثير، ومن المال خمسة أحمال، ولم يصل شيء من ذلك إلى نور الدين، لأنه مات قبل وصوله.

ولما مات نور الدين طمعت الفرنج وتحركوا بالسواحل، وسلطن الشاميون الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين، وكان عمره نحو عشر سنين، فاستنجد بالسلطان صلاح الدين صاحب مصر، ونزل الفرنج على بانياس، وصالحهم أمراء دمشق على مال وأسارى يطلقون، فلما بلغ ذلك صلاح الدين انزعج له، وكتب إلى الشاميين يوبخهم، وكتب إلى شيخ الشافعية شرف الدين ابن أبي عصرون يخبره أنه لما أتاه كتاب الملك الصالح تجهز للجهاد وخرج وسار أربع مراحل، جاءه الخبر بالهدنة المؤذنة بذل الاسلام على يد من اقتلعها من دفع القطيعة والأسارى، وسيدنا الشيخ أول من جرد لسانه الذي تغمد له السيوف وتجرد.

ولما بالغ صلاح الدين في توبيخ الأمراء، وكان ابن المقدم أكبر أمراء دمشق خشي من قدوم صلاح الدين إلى الشام، وأشاع أن صلاح الدين يريد انتزاع دمشق من ولد مخدومه نور الدين، وكتب إلى صلاح الدين:«لايقال عنك إنك طمعت في بيت من غرسك، ورباك وأسسك، وفي دست ملك مصر أجلسك» ثم تعطف له وترفق ويقول: «ومايليق بحالك، غير فضلك وافضالك».

فكتب إليه صلاح الدين:«إنا لانؤثر للإسلام وأهله إلا ماجمع شملهم وألف كلمتهم، ولانختار للبيت الأتابكي، أعلاه الله، إلا ماحفظ أصله وفرعه، فالوفاء إنما يكون بعد الوفاة، ونحن في واد والظانون بنا سوء الظن في واد».

ثم دخلت سنة سبعين وخمسمائة

وقد تزايد طمع الفرنج في دمشق بموت نور الدين، فرأى صلاح

الـديـن مـن الحزم جمع المسلمين على سلطـان واحـد يقيـم الملـة وينصر الشريعة، وأنه ذلك الواحد الـذي تعقد عليه الخناصر، وأن الاسلام محتاج إليـه، وصار الحاسـدون والجاهلون بـأحكـام الشريعة يعيبـون منه قصـده لأخذ دمشـق، ويقولـون: كيف يسلـب ولد استـاذه نعمته، وينـزع ملكه، وهم كما قـال:«في واد» فإنه فيما يغلـب على الظنون الصادقـة إنما قصد لم شعث الاسـلام وقيام الـدين، وظهر ذلـك على يده مـن بعد، فخـرج من مصر بجيوش لاتحصى عـددها، واستخلف أخاه الملك العـادل نائبا بها، ووصل إلى بصرى في رابع عشري ربيع الآخر، فخـرج إليه صاحبها منقادا لخدمته، ثم تتـابع عسكر الشام ملاقين مستبشريـن، ونزل بجسر الخشب في الثامـن والعشرين، وقد تكـاثرت العسـاكر وازدحم الملاقـون، وأصبح لدخـول دمشق فعارضه عـدد من الرجـال فدعستهم عساكـره المنصورة، وصدمتهم خيوله وعزماته المأمـورة، ودخل البلد وملكها بلا قتال، ونادى من ساعتـه بإطابة النفوس وإزالـة المكوس، وكانت الولايـة في دمشق قد ساءت، والمكوس التي رفعها نور الدين قـد أعيدت، فأعاد صلاح الدين الحق إلى نصابه، وصارت دمشق مثل مصر وكلاهما في مملكته.

ثم خـرج إلى حمص فنازلها، ونصب المجـانيق على قلعتهـا ولم يملكها، وتـرحـل عنهـا إلى حماة فملكهـا في جمادى الآخـرة، ثـم سـار إلى حلـب وحاصرها إلى آخـر الشهر، وبها الصالح اسماعيـل ولد نور الديـن، واشتد بها الحصار، وهذه هـي الفعلة التي نقمت على صلاح الديـن، فالله أعلم بنيته، وأنه أسـاء العشرة في حق الصالح ابـن نور الدين، بحيـث استعان الصالح عليه بالباطنية، ووعدهم بالأموال، فقتلوا من أمراء صلاح الدين الأمير خمارتكين، وخلقا، وجرحـوا صلاح الدين ثم أمسكهـم وقتلهم عن آخـرهم، ورجـع إلى حمص فحـاصرها بقيـة رجـب وتسلمهـا بالأمـان في شعبـان، ثم عطـف إلى بعلبك فـاستلمها، ثـم رد إلى حمص وقد اجتمـع عسكر حلب وكتبوا إلى صاحـب الموصـل يستعينون به على صلاح الدين، فجهز إليهم جيشه وأمدهم بأخيه عـز الدين مسعود بن مودود بن زنكي،

فأقبل الكل إلى حماة وقد استقرت لصلاح الـدين فحاصروها، فسار إليهم صلاح الـدين فالتقاهـم على قرون حماة فكسرهم أقبح كسرة، ثـم سار إلى حلب فـوقع الصلح بينـه وبين ابن زنكـي، على أن يكون له إلى آخـر بلد حماة والمعرة، وأن يكون لولد نور الـدين حلب وجميع أعمالها، وتحالفوا ورد إلى حماة، وجاءته رسـل الخليفة المستضيء بالخلع والهدايا والتهنئـة بالملك، ثم سار إلى حصن بارين فحاصره ثم تسلمه.

ثم دخلت سنة إحدى وسبعين وخمسمائة

وفيها كان وقعة تل السلطان بنـواحي حلب، وذلك أن عسكر الموصل نكثوا أيمانهم، ووافـوا تل السلطان في جموع كثيرة وعليهم السلطـان سيف الدين غـازي بن مودود بن زنكي، فـالتقاهم السلطان صـلاح الدين في جمع قليـل فهزمهـم وأسر كثيرا منهـم وحقن الـدمـاء، ثم أحضر الأمـراء الذين أسرهم فمن عليهم وأطلقهم.

ثم سار صلاح الـدين إلى منبج وأخذها في شوال مـن ينال بن حسان المنبجي، وكان نور الدين قد أعطاها لينال عندما انتزعها من أخيه غازي ابن حسان، وصعـد الحصن وجلس يستعرض أموال ابن حسـان صاحبها وذخـائره فكـانـت ثـلاثمائة ألـف دينـار، ومـن أواني الـذهـب والفضـة والذخائر والأسلحة ماينـاهـز ألفي ألف دينار، ورأى على بعض الأكياس والآنية، مكتوبا يـوسف، فسأل عن هذا الاسم فقيل: ولـد له يحبه اسمه يوسـف وكان يـدخر لـه هذه الأموال، فقـال السلطان: أنـا يوسـف وقد أخذت ماخبىء لي.

ثم سـار إلى عزاز فنـازل قلعتها ثمانية وثـلاثين يومـا، وقفز عليـه وهو محاصرها قوم من الفداوية وجرح في خده وأخذوا فقتلوا ثم افتتح عزاز.

ومن كتـاب منه إلى أخيه العـادل: «ولم ينلني مـن الحشيشي الملعون إلا

خدش قطرت منه قطرات دم خفيفة، انقطعت لوقتها واندملت لساعتها».

ثم سار من عزاز، فنازل مدينة حلب كرة أخرى في نصف ذي الحجة، وأقامت القلعة في حفظها بكل ممكن وصابرها صلاح الدين شهرا.

ثم دخلت سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة

وفيها ترددت الرسل في الصلح بين السلطان صلاح الدين والملك الصالح اسماعيل بن نور الدين، فرحل صلاح الدين عن حلب وأبقاها لابن نور الدين، ورد عليه عزاز، وتوجه إلى مصياف بلد الباطنية، فنصب عليها المجانيق، وأباح قتلهم، وخرب بلادهم، فتشفعوا بصاحب حماة شهاب الدين خال السلطان، فسأل السلطان الصفح عنهم، وتوجه عائدا إلى مصر، فوصلها، وأمر ببناء السور الأعظم المحيط بمصر والقاهرة، وجعل على بنايته الأمير قراقوش، ولم يزل العمل فيه إلى أن مات صلاح الدين، وصرفت عليه أموال جزيلة.

وفيها أمر بإنشاء قلعة الجبل المقطم التي هي الآن دار سلاطين مصر، وجعل على بنائها أيضا قراقوش، ولم يكن السلاطين قبلها يسكنون إلا دار الوزارة بالقاهرة.

ثم سافر إلى الاسكندرية وتردد إلى السلفي، فسمع منه الحديث، ثم عاد إلى مصر وبنى تربة الشافعي رضي الله عنه.

ثم دخلت سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة

وفيها كانت وقعة الرملة، سار السلطان من القاهرة إلى عسقلان

فسبى من الفـرنج كثيرا وغنم، وسار إلى الـرملة وقد تجمعت عليـه الفرنج وحملـوا على المسلمين فانهزمـوا، وثبت السلطـان وابـن أخيه تقـي الديـن عمر، ودخـل الليل واحتوى الفـرنج على أثقال المسلمين، واستشهـد من المسلمين جماعـة، منهم أحمد ولـد تقـي الـدين عمـر، ولم يبـق للمسلمين قدرة على ماء ولازاد وتعسفوا الرمال راجعين إلى مصر.

وفي هـذه الواقعـة أسر الفقيـه عيسى الهكـاري أكبر الأمـراء، فافتـداه السلطـان بستين ألف دينـار، ودخل السلطـان القـاهرة بعـد ثلاثـة عشر يوما، وتواصلت خلفه العساكر ثم عاد السلطان إلى الشام.

ثم دخلت سنة أربع وسبعين وخمسمائة

وفيها اجتمعت الفرنج عند حصن الأكراد، فسار إليهم السلطان ولم يقع قتال، ثـم أغاروا على أعمال دمشق، وجهز لحربهم فرخشـاه ابن أخي السلطان، فالتقاهم وكسرهم وقتل من مقدميهم جماعة منهم هنفري.

قال ابن الأثير: وماأدراك ماهنفري، به كان يضرب المثل في الشجاعة.

ثم دخلت سنة خمس وسبعين وخمسمائة

وفيها ضربت الطبـول ببغداد وزفت البشائر بانتصـار السلطان صلاح الديـن على الفرنج، وأسره لصاحـب الرملة، وصـاحب طبرية الكافـرين، وهي وقعة مرج العيون.

ومن حـديثها أن صلاح الـدين كان نازلا تـل بانياس يبيـت بسراياه، فلما استهل المحـرم ركب فرأى راعيـا فسأله عـن الفرنج فـأخبره بقربهم، فعاد إلى مخيمه وأمـر الجيش بالركوب فركبـوا، وسار بهم حتى أشرف على الفرنج وهـم في ألف قنطاريـة وعشرة آلاف مقاتل فارس وراجل، فحملوا

على المسلمين فثبتوا لهم، وحملت المسلمون عليهم فولوا الأدبار، فقتل أكثرهم وأسر منهم مائتان وسبعون أسيرا، منهم بادين، وأود مقدم الداوية، وابن بيرزان فاستفك نفسه بمبلغ وبألف أسير من المسلمين، واستفك الآخر نفسه بجملة، وأما أود فجن في حبس قلعة دمشق، وانهزم من الوقعة ملكهم مجروحا، وأبلى في هذه الوقعة عز الدين فرخشاه بلاء حسنا.

واتفق في يوم الوقعة ظفر أسطول مصر ببطستين وأسروا ألف نفس، فلله الحمد على نصره.

وكان قليج أرسلان سلطان الروم طلب حصن رعبان وزعم أنه من بلاده، وإنما أخذه منه نور الدين على خلاف مراده، وأن ولده الصالح اسماعيل قد أنعم به عليه، فلم يفعل السلطان، فأرسل قليج عشرين ألفا لحصار الحصن، فالتقاهم تقي الدين عمر صاحب حماة،ومعه سيف الدين علي المشطوب، في ألف فارس، فهزمهم لأنه حمل عليهم بغتة وهم على غير تعبية، فضربت كوساته، وعمل عسكره كراديس، فلما سمعت الروم الضجة ظنوا أنهم قد دهمهم جيش عظيم فركبوا خيولهم عريا، وطلبوا النجاة وتركوا الخيام بما فيها، وأسر منهم عددا، ثم من عليهم بأموالهم، وسرحهم، ولم يزل تقي الدين يدل بهذه النصرة، ولاريب أنها عظيمة.

وورد بغداد رسول صلاح الدين، وهو مبارز الدين كشطغاي وجلس له ظهير الدين أبو بكر ابن العطار، وبين يديه أرباب الدولة فجاء وبين يديه اثنا عشر أميرا عليهم الخوذ والزرديات، ومع كل واحد قنطارية وعلى كتفه طارقة ملك الفرنج، على القنطاريات سعف الفرنج، وبين يديه أيضا من التحف والنفائس من ذلك صنم حجر طول ذراعين، فيه صناعة عجيبة قد جعل سبابته على شفته كالمبتسم عجبا، ومن ذلك

صينية ملآنة جواهر وضلع آدمي نحو سبعة أشبار في عرض أربع أصابع، وضلع سمكة طوله عشرة أذرع في عرض ذراعين.

وفيها جهز السلطان القاضي أبا الفضائل بن الشهرزوري إلى الخليفة ببغداد أيضا بجواهر مثمنة وعشرة أسرى من الفرنج.

ثم دخلت سنة ست وسبعين وخمسمائة

وفيها توجه السلطان قاصدا بلاد الأرمن وبلاد الروم ليحارب قليج أرسلان بن مسعود بن قليج أرسلان عندما استجار محمد بن قرا أرسلان ابن داود صاحب حصن كيفا بالسلطان على حموه قليج المذكور، ثم صلح الحال بينهما، فنزل السلطان على حصن من بلاد الأرمن، فأخذه وهدمه ثم رجع ، فعند وصوله إلى حمص جاءه التقليد والخلع من الخليفة الناصر، فركب بها بحمص، وكان يوما مشهودا، وجاء إلى دمشق وولى عز الدين فرخشاه نيابة السلطنة بالشام وهو ابن أخيه، ثم توجه السلطان إلى مصر وتوجه منها إلى الاسكندرية، وشاهد ماتجدد بها من السور، وسمع بها الموطأ علي أبي الطاهر ابن عوف.

ثم دخلت سنة سبع وسبعين وخمسمائة

وفيها قصد نائب الشام عز الدين فرخشاه بمرسوم السلطان بلاد الكرك بالعساكر فخربها، وذلك عندما بلغ السلطان أن اللعين صاحب الكرك سولت له نفسه قصد المدينة الشريفة ليتملكها، فلما نهبت بلاده عاد بالخيبة.

وفيها ظهرت الوحشة بين الخليفة الناصر والسلطان، وذلك أن السلطان لما اشتهر اسمه بالعدل وشدة الوطأة، وخافته النفوس الفاجرة، واستبشرت به الأرواح الطاهرة، وحسده ملوك الأطراف، وأحبوا أن يوقعوا

بينه وبين الخليفة سـولوا للخليفة أمورا أوجبت أن يكتب للسلطـان يأخذ عليه في أشيـاء، منها تسميتـه بالملـك الناصر مـع علمه أن الإمـام اختار هذه التسميـة لنفسه، وهذه الـواحدة على ندورتها مـدفوعة بـأن السلطان لقـب بالنـاصر من أيـام الخليفـة المستضيء قبـل ان يلي الناصر الخلافـة فكتب له السلطان جوابا فاضليـا منه:«والخادم ولله الحمد يعدد سوابق في الاسلام والـدولة العباسيـة لايعدهـا أولية أبي مسلم، لأنـه والى ثم وارى، ولآخرية طغـرلبك لأنه نصر ثم حجر، والخادم بحمد الله خلـع من كان ينـازع الخلافة رداءهـا، وأساغ الغصـة التي ذخـر الله للإسـاغة في سيفـه ماءهـا، فرحل الأسماء الكاذبـة الراكبة على المنابـر، وأعز بتأييد الـراهيمي فكسر الأصنام البـاطنة بسيفـه الظاهـر لا الساتـر، وفعل وما فعل للـدنيا، ولامعنى للاعتداد بما هو متوقع الجزاء عنه في اليوم الآخر».

ثم دخلت سنة ثمان وسبعين وخمسمائة

فيهـا افتتـح السلطـان حـران، وسروج، وسنجـار، ونصيبين، والـرقـة، والبيرة، وآمـد، ونـازل الموصل وحـاصرهـا، وبهره مـارأى من حصـانتهـا، وجاءه شيـخ الشيوخ صـدر الدين مـن قبل الخليفـة يتشفع في صـاحب الموصل فرحل عنها.

وفيها بعث السلطـان أخاه سيف الاسلام طغتكين على نيـابة السلطنة بإقليم اليمـن بأسره، وأمره بإخراج نـواب أخيه تورانشاه بها، فـرحل إليها وقبض على متولي زبيد حطـان ابن منقذ واخذ منه أموالا جـزيلة، وسكن سيف الاسلام في اليمن.

وفيها مـات عز الديـن فرخشاه بـن شاهنشـاه بن أيوب نـائب الشام، فبعث السلطان على نيابة دمشق شمس الدولة محمد بن المقدم.

وفيها خرج السلطان بنفسه من مصر غازيا وماتهيأ له العود إليها، وقد عاش بعد ذلك اثنتي عشرة سنة.

ثم دخلت سنة تسع وسبعين وخمسمائة

ورسل الخليفة في كل سنة تجيء غير مرة بالتودد ظاهرا واستعلام أخبار السلطان باطنا، فلا يرون إلا إماما عادلا لايصطلى له بنار، وغضنفرا باسلا لايقوم لغضبه إلا الواحد القهار، وكتب له السلطان كتابا فاضليا فيه من أخبار الفرنج:« كان الفرنج قد ركبوا من الأمر نكرا، وافتضوا من البحر بكرا، وعمروا مراكب حربية شحنوها بالمقاتلة والأسلحة».[٢]

الكواكِبُ الدّريَّة

في

السِيّرةِ النّوريَّة

تصنيف

بَدر الدّين ابن قَاضي شُهْبَة

بسم الله الرحمن الرحيم وبه ثقتي.

الحمد لله مالـك الممالك وموضح المسـالك، وجاعل العـدل نجاة من المهالـك. أحمده وهو المحمود المالك، وأوحـده وهو الغني عـن المشارك، وأشهـد أن لاإله إلا الله وحـده لاشريك لـه، إلهاً لايـزول ملكه ولايفنـى، وملكـاً تخصصَّ بـالصفـات والأسماء الحسنـى، حكم فعـدل في حكمـه، وعلـم ماكـان ومـايكون، فلـم يخف شيء عن علمـه، وأشهـد أن سيدنـا محمداًﷺ عبـده ونبيه ورسولـه وصفيه، الـذي رفع به منـار الحق، وأرسله رحمة للخلق، وزينّـه بالصفات الحسان، وأنـزل عليه(ان الله يأمر بـالعدل والإحسان) [١] صلى الله عليـه وعلى آله الأمجاد وصحبـه الأنجـاد الذيـن جـاهدوا في حـق الله حق جهـاده، واجتهدوا رضي الله عنهـم في مصالـح عباده، وبسطوا بساط العدل في بلاده، وسلّم وكرم، وشرّف وعظم.

وبعد، فـإن العدل قوام الـدنيا والديـن، وسبب صلاح المخلـوقين، به تألفت القلـوب، والتأمت الشعوب، ولاح الفلاح، وظهـر النورُ والصلاح، واتصلت أسبـابُ النجاح، وهو أحسـن ماتزين بـه الملوك الذيـن مكنّهم الله في أرضه، وأوجب عليهم القيام بفرضه، ولايوفّق إلى صراطه القويم إلا من سبقـت له العنايـة في الأزل القديم. ويكفي ملـوكَ العدل من مـزيد الكرامـة قولُ[رسول الله]ﷺ (لمقسطـون على منابر مـن نور) [٢] وقولهﷺ وزاده شرفاً لـديه:(أحـبّ الناس إلى الله وأدنـاهـم مجلسـاً منه يـومَ القيامـة إمام عـادل، وهو من السبعـة الذين يظلهم الله في ظـل عرشه يـوم لاظل إلا ظله) [٣] أو كما قـال ﷺ وعلى الجملة والتفصيـل ففي العـدل الخير كله، فسبحان من وفـق إليه من سبقت له الحسنى، ومن بـوّأه لديه المقامَ الأسنى، فـأضفى عليـه من ملابـس نعمه الفـاخرة، وجمع لـه بين سعادة الدنيا والآخرة.

ولما كان الملك العادل السعيد، نور الديـن الشهيد محمود بن زنكي بن

آق سنقر التركي، سقى الله عهده، ووّطأ في الفردوس مهده، وشكر في مصالح الإسلام سَعْيَه الناجح، وثقَّل بعظيم ميزانَه الرّاجح، ممن شاع فضلُه واشتهر، وذاع عدلُه وظهر، وأشرق نورُه الساطع وبهر، وسلك من العدل في الرعايا أحسن السلوك، ويسر الله تعالى له ببركة العدل ماعجز عنه عظماء الملوك، أحببتُ ان أذكر طرفاً من سيرته الفاضلة، وأحكامه العادلة، ومحاسنة الظاهرة، وسجاياه الطاهرة، وأوصافه الزاهرة المشرقة اشراقَ الشموس الباهرة، ليقتدي بها من نظر إليها ووقف عليها من أعلام سلاطين الإسلام، الذين كرمت سجاياهم، وشرفت مزاياهم، ورغبوا في الذكر الجميل، والثواب الجزيل، وحرصوا على نيل السعادة الكبرى، وأمَلوا حسن الجزاء من الله سبحانه وتعالى في الأخرى.

ورتَّبت هذا الكتابَ على سبعة أبواب مشتملة على: أوصافه، وعدله، وانصافه، ونعوته التي فاق بها على الملوك، وحسن أعماله التي سلك بها من مناهج الرشاد أحسن السلوك. وهذه فهرست الأبواب:

الباب الأول في ذكر مولده وصفاته، وذكر أفعاله الدّالة على حسن نياته.

الباب الثاني في ذكر عدله الدال على رصانة عقله، ووفور كرمه وفضله.

الباب الثالث في ذكر شجاعته وشهامته، ونجدته، وصرامته، وقوة عزمه، وحسن رأيه وحزمه.

الباب الرابع في مافعله في بلاد الإسلام من المصالح، والمساعي الكفيلة بالمناجح، ومأدخلَ على المسلمين من المسار، وعمهم به من المبار.

الباب الخامس في زهـده وورعه وعبادته ودينه وعمله المكمـل لسيادته، الشاهد بتأطيد دعائم سعادته.

الباب السـادس في نبذة مما مـدح به مـن الأشعار الفائقـة، والقصائد البديعة الرائقة.

الباب السابع في ذكر غزواته العديـدة، وفتُوحاته السعيدة، وماجرى في زمانه من الأمور الغريبة، والحوادث العجيبـة وسمّيته «الكواكبَ الدرية في السيرة النّـورية». والله سبحـانـه وتعالى الموفـقّ للصـواب، المرجو لحُسـن الثّواب، وهوتعالى المؤمّل لصلاح الأحوال، وتسديد الأقوال والأفعال.

- ١٠٧٨١ -

الباب الأول

في ذكر مولده وصفاته، وأفعاله الدالة على حسن نياته

ولد نور الدين أبو القاسم محمود بن الأتابك عماد الدين زنكي بن قسيم الدولة آق سنقر التركي السلجوقي مولاهم يوم الأحد عند طلوع الشمس سابع عشر شوّال سنة إحدى عشرة وخمسمائة بحلب، ونشأ على الخير والصلاح وقراءة القرآن والعبادة، وقلة المخالطة للجند، وكان أبوه يقدمه على بقية أولاده، ويرى فيه مخايل النجابة، وكان معتدل القامة، أسمر اللون، واسعَ الجبهة، حسن الصورة، لحيته شعرات في حنكه.

ولما تُوفي والده سنة إحدى وأربعين، وبلغ أسد الدين شيركوه وفاته، ركب من ساعته وقَصَد خيمة نور الدين، وأشار عليه بالتوجُّه إلى حلب، وأن يجعلهَا كرسي مملكته، وذكر أنه إذاملك حلب، اجتمع في خدمته عساكرُ الشام وقال له: أناأعلم أنّ الأمرَ يصيرُ جميعهُ إليك لأن مُلك الشام يحصل بحلب، ومن ملك حلب استظهر على بلاد الشرق، فركب وأمر أن يُنادى بالليل في عساكر الشام بالاجتماع، فاجتمعوا وساروا في خدمة نور الدين إلى حلب، فدخلها في سابع شهر ربيع الأول، وجاء أسدُ الدين إلى تحت القلعة ونادى واليها ففتحها، وأصعدَ نور الدين إليها، وقرّر أمره، ومشى أحواله.

ثم إن نور الدين خرج غازياً ففتح حصوناً كثيرة.

قال ابن عساكر: فتح نيفاً وخمسين حصناً، وكسر برنس انطاكية، وقتله وقتل معه ثلاثة آلاف نفس، وأخذ من القومص (٤) ثلاثمائة ألف دينار، وخمسمائة زردية، وخمسمائة حصان، وخمسمائة أسير.

قال ابن الجوزي: استرجع من أيدي الكفار نيفاً وخمسين مدينة وكان

قد عزم على فتح القدس فوافتـه المَنِيَة، وخُطب له بالحرمين الشريفين مكة والمدينة، وبـلاد الشام ومصر، وأظهر السنة بمـدينة حلب، وأزالَ البِـدعة التـي للروافـض في الأذان: حـي على خير العمـل، وقمع بها الـروافـض، وبنى بها المدارس والمسـاجد، وأصلـح طرقهـا، ووسع أسـواقها، وأسقـط جميع المكوس، وعاقب على الخمر.

وكان في الحرب ثـابِتَ القـدم، حسن الـرمي، صلـب الضرب، يتقدم أصحـابَه في الحرب، يَتَعَـرَّض للشهـادة، ويسـأل الله تعالى أنْ يحشره مـن بطون السباع وحواصل الطيور.

ووقف أوقـافاً على المرضى والمجـانين، وبنى المكـاتب لليتامـى، وبنى المارستـان بدمشـق، ووقـف على سُكـان الحرمين الشريفين، وأقطعَ أُمـراءَ العـرب الأقاطيـع لئـلا يتعـرضوا للحجـاج، وأمـر بـإكمال سور المدينـة، وأجرى إليهـا العَيْنَ التي بأُحد عنـد قبر حمزة رضي الله عنه، وبنى الـربط والجسـور والخانقات والقنـاطير، وجدّد كثيراً مـن قنـيّ السبيل في دمشـق وغيرها مـن البلاد التي ملكها، ووقـف كتباً كثيرة في مدارسه، ولـه أوقافٌ دارّة على جميع أبواب الخير.

وكان الجامـع الأموي قد دثـر، فولَى نظـره لقاضي القضاة كمال الـدين الشهرزوري، فأصلح أمـوره، وفتح المشاهدَ الأربعة، وكان حـاصلُ الجامع بها مـن حين احترق سنـة إحدى وسبعين وأربعمائة. وأضـاف إلى أوقـاف الجامـع المعلـومة، الأوقـاف التـي لاتعـرف شروط واقفيها، وسمّاهـا مـالَ المصـالح، ورتّـب عليهـا لذوي الحاجـات والفقـراء والمساكين والأرامـل والايتام وما أشبه ذلك.

وفتح بـدمشق بـاب الفرج ولم يكن قبلـه هناك بـاب بالكليـة، وأغلق باب كيسان.

وكان رحمه الله حسنَ الخطّ، كثير المُطالعة للكتب الدينية، متبّعا للآثار النبويـة، مواظبـاً على الصلوات في الجماعـات، عاكِفـاً على تلاوة القـرآن، حـريصـاً على فعـل الخير، عفيفَ البطـن والفـرج، مقتصـداً في الإنفـاق، متحرِّيـاً في المطعم والمشرب والملبـس، لم يسمع منـه رحمه الله تعالى كلمـة فُحـش قـط لافي رضاه ولافي غضبـه. وأشهـى مـايكـون إليه كلمـة حـق يسمعهـا، أو إرشاد إلى سنّـة يتبعها، ولـولم يكـن من حسـن خصالـه إلا مـاعلم منـه وشاع أنـه إذا وعـد وفى، وإذا أوعد عفـا، وإذا تحدّث بشيء يقف عليـه، ولايخاف قولـه، ولايجري في مجلسه الفسـقُ والفجُور والشتـم والغيبـة والقـدح في النـاس والكـلام في أعـراضهـم كما يجري في مجالـس الملوك، ولايطمع في أخذ أموال المسلمين.

قال أبـو الحسن ابن الأثير: قـد طالعتُ تـواريخَ الملوك المتقـدمين قبل الاسلام ومنـه إلى يومنا هذا فلـم أرَ فيه بعد الخلفـاء الراشدين وعمـر بن عبد العزيز ملكاً أحسنَ سيرةً من الملك العادل نور الدين، ولاأكثرَ تحرّياً للعـدلِ والانصـاف منـه، قد قصر ليلـه ونهاره على عـدل ينشره، وجهـادٍ يتجهّـزُ له، ومظلمـة يزيلهـا، وعبادة يقـوم بها، وإحسان يـوليه، وإنعـام يُسديه، فلو كان في أمة لافتخرت به، فكيف ببيتٍ واحد!

الباب الثاني

في ذكر عدله الدال على رصانة عقله ووفور كرمه وفضله

قال ابن الأثير: وفي الحقيقة هو الذي جدد للملوك سنّة العدل والانصاف، وترك المحرمات من المأكل والملبس والمشرب وغير ذلك، فإنهم كانوا قبله كالجاهلية همّ أحدهم بطنه وفرجه، لايعرف معروفاً ولاينكر منكراً، حتى جاء الله بدولته فوقف مع أوامر الشرع ونواهيه، والزم بذلك أتباعَه وذويه، فاقتدى به غيره منهم، واستحيوا أن يظهر عنهم ماكانوا يفعلونه.«ومن سن سنة حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها الى يوم القيامة».

كان رحمه الله تعالى أحسن الملوك سيرةً وأعدلهم حكماً، فمن عدله أنه لم يترك في بلد من بلاده ضريبة ولامكساً ولاعشراً بل أطلقها جميعها في بلاد الشام والجزيرة وأعمالها وديار مصر وغيرها مما حكم عليه. وكان يتحرى العدّل وينصف المظلوم كائناً من كان: الضعيف والقويّ عنده في الحق سواء. وكان يسمع شكوى المظلوم ويتولّى كشفَ حاله بنفسه، ولايكل ذلك إلى حاجب ولاأمير، فلاجرم سار ذِكرُه في شرق الأرض وغربها.

ومن عدله: كان يعظّم الشريعة المطهّرة، ويقف عند أحكامها، ويقول: نحن شحن لها نمضي أوامرها. فمن اتباعه[أحكامها] أنه كان[يوما] يلعب بالأكرة فرأى انساناً يحدّث آخر ويومىء بيده إليه، فأرسل إليه يسأله عن حاله، فقال: لي مع الملك العادل حكومة، وهذا غلام القاضي ليحضر معي إلى مجلس الشرع يحاكمني على الملك الفلاني، فعاد إليه ولم يتجاسر يعرفه ماقال ذلك الرجل، ثم لما ألح عليه في السؤال ذكر له قوله، فألقى الجوكان من يده، وخرج من الميدان،

وسـار إلى القـاضي، وهـو حينئـذ كمال الـديـن الشهـرزوي وأرسـل إلى القاضي يقول له: إني قد جئت محاكماً، فـاسلك معي ماتسلكه مع غيري. فلما حضر ساوى بينه وبين خصمـه، وتحاكما فلم يثبُت عليه حـق، وثبت الملكُ لنور الديـن، فقال نور الدين حينئذ للقـاضي ولمن حضر: هل ثبت لـه عندي حـق؟ قـالوا: لا. فقـال: اشهدوا عليّ أني قـد وهبـتُ له هـذا الملك الـذي حاكمني عليـه، وقد كنت أعلـم أنه لاحق لـه عندي، وانما حضرت معه لئـلا يظن أني ظلمتـه. فحيث ظهـر أن الحق لي، وهبتهُ لـه. وهذا غايةُ العـدل بل غايةُ الفضل، وهي درجة فوق درجـة العدل. فرحم الله تلك النفس الزكية الطاهرة المنقادة إلى الحق الواقفة معه.

قـال ابن الأثير: وهـذا مستكثـر من ملـك متأخـر بعـد فساد الأزمنـة وتفـرق الكلمة، وإلا فقـد انقادَ إلى مجلـس الحكـم جماعةٌ مـن الصحابـة مثل: عمر، وعلي، ومعاوية، رضي الله عنهم.

قال: ومن عدلـه أنه لم يعاقِبْ على المظنة والتهمة، بـل يطلب الشهود على المتهم، فإن قـامت عليه بيّنة شرعيـة عاقبه العقوبـة الشرعية من غير تعدّ. فـدفع الله تعـالى بهذا الفعل عـن الناس مـن الشر مايـوجد في غير ولايته مـع شدة السيـاسة والمبـالغة في العقـوبة والأخـذ بالظنّـة. وأمِنَتْ بلادُه مع سعتها، وقلَّ المفسدون ببركة العدل واتّباع الشريعة المطهرة.

قال: وحكى لي من أثـق به أنه دخل يوماً إلى خـزانة المال، فرأى مالاً كثيراً، فقال: من أين هذا؟ قالوا: بعث به القاضي كمال الدين من فائض الأوقـاف، فقال: إنّ هـذا المالَ ليـس لنـا. ولالبيتِ المال في هـذه الجهـةِ شيء، وأمـر بردّه وإعـادته على القـاضي كمال الديـن ليرده على صاحبـه. فأرسلـه مُتَولي الخزانة إلى القاضي فـردّه أيضاً إلى الخزانة، وقـال: إذا سأل السلطـانُ عنه فقـولوا لـه: غيره. فـدخل نـور الـدين الخزانـة مرة أخـرى فـوجده. فـأنكر على الخازن، وقـال: ألم أقلْ لـك إن هذا المالَ يُعـاد على

أصحابه؟ فذكر له القاضي، فردّه إليه، وقال لرسوله: قلْ لكمال الدين: أنت تقدر على حمل هذا، وأما أنا فرقبتي رقيقة لاأطيق حمله والمخاصمة عليه بين يدي الله عز وجل.

قال: ومن عدله أيضاً، بعد موته، وهو أعجب مايحكى، أنْ إنساناً كان بدمشق غريباً استوطنها وأقام بها لما رأى من عدل نور الدين، فلما توفي تعدّى بعض الأجناد على هذا الرجل، فشكاه، فلم يُنْصَف منه، فنزل من القلعة وهو يستغيث ويبكي، وقد شق ثوبه ويقول: يانور الدين! لو رأيتنا ومانحن فيه من الظلم لرحمْتنا. أينَ عدلك؟ وقصد تربةَ نور الدين ومعه من الخلق مالايُحصى، وكل منهم يبكي ويصيح. فوصل الخبر إلى صلاح الدين وقيل له: احفظ البلدَ والرعيّة وإلاّ خرج عن يدك. فأرسل إلى ذلك الرجل وهو عند تربة نور الدين يبكي والناس معه فطيّب قلبه، ووهبه شيئاً وأنصفه، فبكى أشدّ من الأول، فقال له صلاح الدين: لمَ تبكي؟ فقال: أبكي على سلطانٍ عدل فينا بعد موته! فقال له صلاح الدين: هذا هو الحق، وكلما ترى فينا من عدله ومنه تعلمّناه.

قال: ونور الدين أول من بنى دار العدل بدمشق، وسماها دار الكشف. وسببُه أنَّ الأمراء لما قدموا مدينةَ دمشق فبنوا الأملاك واستطالوا على الناس، وخصوصاً أسد الدّين شيركوه، وكثُرت الشكاوى إلى القاضي فلم يُقدم على الإنصاف من أسد الدين، فشكاه إلى نور الدين، فأمر ببناء دار العدل، فلما سمع أسدُ الدين بذلك، أحضرَ أصحابَه وديوانَه وقال لهم: اعلموا أن نورَ الدين مابنى هذه الدّار إلا بسببي وحدي، وإلا فمن هو الذي يمتنع على القاضي كمال الدين؟ والله لئِنْ حضرتُ إلى دار العدل بسبب واحد منكم لأصلبنه، فامضوا إلى كل من كان بينكم وبينه منازعة في ملك فافصلوه وأرضوه بأي طريق أمكن، ولو أتى ذلك على جميع مابيدي، فقالوا له: إن الناس إذا علموا هذا

اشتطوا في الطلب، فقال: خروج أملاكي عن يدي أسهل عليَّ من أن يراني نورُ الدين بعين أني ظالم، فجلس نور الدين في دار العدل لفصل الخصومات والحكومات. وكان يجلسُ في الاسبوع اليومين والأربعة والخمسة وعنده القاضي والفقهاء، ويأمر بإزالة الحجاب والبواب، ويوصل إليه الشيخ الضعيف والعجوز الكبيرة، ويسأل الفقهاء عن ما أشكل عليه من الأمور الغامضة، فلا يجري في مجلسه إلا محض الشريعة المُطهرة. وبقي على ذلك مدة، فلم يحضر عنده أحد يشكو من شيركوه. فعرّفه القاضي الحال، فسجد لله شكراً وقال: الحمد لله الذي جعل أصحابنا ينصفون من أنفسهم قبل حضورهم إلينا. قال: فانظر إلى هذه المعدلة ماأحسنَها، وإلى هذه المهابة ماأعظمها، وإلى هذه السياسة ماأشدّها، هذا مع أنه كان لايريق دماً، ولايبالغ في عقوبة، وانما كان يفعل هذا صدقة في عدله وحُسن نيته.

وحضر إليه يوماً جماعة من التجار وشكوا إليه ان القراطيس كان ستون منها بدينار فصار سبعة وستون بدينار، وتزيد وتنقص ويخسرون. فسأل نورُ الدين عن كيفيّة الحال، فذكروا له أن عقد المعاملة على اسم الدينار في الوسط، وإنما يعدّون القراطيس بالسعر تارة ستين بدينار، وتارة سبعة وستين بدينار. فأشار كل واحد من الحاضرين على نور الدين أن يضرب الدينار باسمه، وتكون المعاملة بالدنانير الملكية، وتبطل القراطيس بالكليّة، فسكت ساعة، وقال: إذا ضربتُ ا لدينار وابطلتُ المعاملة بالقراطيس فكأني خربتُ بيوتَ الرعية، فإن كلّ واحد من السوقة عنده عشرة آلاف وعشرون ألف قرطاس، ايش يعمل بها! فيكون سبباً لخراب بيته. فأيّ شفقة تكون أعظم من هذا على الرعية رحمه الله تعالى!

وحكي أنه كان قبل بناء دار العدل يجلس يوم الثلاثاء بالمسجد المعلّق

الذي بـالكشك ليصـل إليه كـل أحد مـن المسلمين وأهل الـذمة حتـى نساؤهم.

وحكى شاذبخـت الطواشي الخادم النوري، قال: كنت يومـاً أنا وسنقر خجا واقفين على رأس نـور الدين وقـد صلّى المغربَ وجلس وهـو مفكر فكراً عظيماً، وجعل ينكتُ بأصبعـه في الأرض، فعجبنا من فكره وقلنا: في أي شيء يفكـر: في عائلتـه أو وفاء دينـه؟ وكأنـه فطـن بنا، فـرفع رأسَـه، وقال: ماتقولان؟ فقلنا: ماقلنا شيئـاً، فقال: بحياتي قولا لي، فقلنا: عجبنا من افراط مولانـا في الفكر، وقلنا: يفكّر في عائلتِه أو في وفـاء دينه، فقال: والله إني أفكر في والٍ وليّتـه أمراً مـن أمور المسلمين فلـم يعدل فيهـم، أو فيمن يظلم المسلمين من أصحابي وأعواني، وأخـاف المطالبةَ بذلك، فبالله عليكـم والا فخبزي حـرام عليكـم، لاتريـان قصـة ترفـع إلي أو تعلمان مظلمةً إلا وأعلماني بها، وارفعاها إلي.

وحكى أبـو المحاسن بهاء الديـن يوسف بـن رافع بن تميم قـال: كان نـور الديـن لما صارت لـه الموصـل قد أمـر كمشتكين شحنة الموصـل أن لايعملَ شيئاً إلا بـالشرع إذا أمره القاضي، وأن لايعمل القـاضي والنواب كلهـم شيئاً إلا بعـد مـراجعة الشيـخ عمـر الملاء، قـال: فكان لايعمـل بالسيـاسة وبطلت الشحنكيـة. فجاء أكابر الدولـةوقالـوا لكمشتكين: قد كثر الدّعار وأرباب الفساد، ولاينجـي من هذا شيء إلا بالقتل والصلب، فلو كتبتَ إلى نور الدين في ذلـك، فقال: أنا لاأكتب إليه في هذا المعنى ولاأجسرُ على ذلك، ولكن قولوا للشيـخ عمر يكتب إليه، فحضروا عنده، وذكروا لـه ذلك، فكتب إلى نـور الدين، وقال لـه: إن الدّعار والمفسـدين وقطّاع الطـريق كثروا ويحتاج إلى نـوع سياسة، ومثلُ هـذا لايجيء إلا بقتل وصلب وضرب، وإذا أُخـذ مال إنسـان في البرّيّة مـن يجيء ليشهد لـه؟ قال: فقلب نور الـدين كتابه وكتب على ظهره: إن الله تعـالى خلق الخلقَ وهـو أعلـم بمصلحتهـم، وإنّ مصلحَتهـم تحصـل فيما شرعـه على وجـه

الكمال، ولو علم أنَّ على الشريعة زيادة في المصلحة لشرعه لنا، فما لنا حاجة إلى زيادةعلى ماشرعه الله تعالى، فمن زاد فقد زعم أن الشريعة ناقصة فهويكملها بزيادته، وهذا من الجرأة على الله وعلى شَرْعه، والعقول المظلمة لاتهتدي، فالله سبحانه يهدينا وإياك إلى الكتاب وإلى صراط مستقيم. قال: فجمع الشيخْ عمر أهل الموصل وأقرأهم الكتابَ وقال: انظروا كتاب الزاهد إلى الملك، وكتاب الملك إلى الزاهد.

وحكي أنه دخل في أيام نور الدين إلى حلب تاجرٌ موسر فمات بها، وخلّف ولداً صغيراً ومالاً كثيراً، فكتب من بحلب إلى نور الدين يذكر له أنه قد مات هاهنا رجل تاجر موسر خلّف عشرين ألف دينار أو فوقها، وله ولدٌ صغير عمره عشْر سنين، وحسّن له أن يرفع المال إلى الخزانة فإذا كبر الفتى يرضى منه بشيء ويمسك الباقي للخزانة، فكتب نور الدين على الرقعة: أما الميّتُ فرحمه الله تعالى، وأما الولدُ فأنشأه الله، وأما المال فثمّره الله، وأما الساعي فلعنه الله. وهذه الحكاية تحكى عن غير نور ا لدين، فلعله مما تطابق فيه الحافر[على الحافر].

الباب الثالث

في ذكر شجاعته وشهامته ونجدته وصرامته وقوة عزمه وحسن رأيه وحزمه

فقد كانت النهاية إليه في ذلك، وكان أصبرَ الناس في الحرب، وأحسنهم مكيدة ورأياً، وأجودهم معرفة بأمور الأجناد وأحوالهم. وبه كان يضرب المثل السائر في ذلك.

يقال انه لم يُرَ في زمانه على الفرس أحسن منه، كأنه خلق عليها لايتحرك ولايتزلزل، وكان من أحسن الناس لعباً بالأكرة وأقدرهم عليها، وربما ضرب الكرة ويجري الفرس ويتناولها بيده من الهواء ويرميها إلى آخر الميدان، ولم يرَ جوكانه يعلو رأسه، وكانت يدُه لاتُرى والجوكان فيها، بل تكون في كم قبائه استهانة باللعب.

وكان إذا حضر الحربَ أخذ قوسين وشدَّ تِركاشين (٥)وكان يباشر الحرب بنفسه، وكان يقول: قد تعرضتُ للشهادة غيرَ مرة فلم أدركها ولو كان فيّ خيرٌ ولي عند الله قيمةٌ لرزقتها، والأعمال بالنيات.

وقال له يوماً القطب النيّسابوري الفقيه الشافعي: يامولانا السلطان، لاتُخاطر بنفسك وبالإسلام والمسلمين فانك عمادهم، فلو أصبت في معركة، والعياذُ بالله، لايبقى من المسلمين أحدٌ إلا أخذه السيفُ وتؤخذ البلاد، فقال: ياقطب الدين، اسكتْ، فإن قولك هذا إساءةُ أدبٍ على الله، ومن محمود حتى يقال له هذا؟ قبلي من حفظ البلاد، ذلك الله الذي لاإله إلا هو، فبكى من كان حاضراً.

قال ابن الأثير: ومن أحسن الآراءِ ماكان يفعله مع جنده، فإنه كان

إذا توفي أحـدُهم وخلَّـف ولداً أقـرَّ إقطاعـه عليه، فـان كان الـولد كبيراً استبد بنفسه، وإن كان صغيرا رتب معـه من يتولى أمره إلى أن يكبر،فكان الأجناد يقولون: هذه أمـلاكنا يرثها الولد عن الوالـد فنحن نقاتل عليها. وكان ذلك سبباً عظيماً من الأسباب المقتضية للصبر في المشاهد والحروب.

ومـاكان يكِـلُ الجند إلى الأُمـراء، بل يتـولاهم بنفسـه ويباشر خيـولهم وسلاحهم مخافـة ان يقصر الأمراء في حقهم، ويقول : نحـن كل وقت في النفير، فإذا لم يكن أجنادنا كاملي العدة دخل الوهن على الإسلام.

وأما هيبته ووقاره فإليه النهايـة. وكان، كما قيل، شديداً من غير عنف، رقيقاً مـن غير ضعف، واجتمع لـه مالم يجتمع لغيره، فـإنه ضبط نـاموس الملك مع أجناده وأصحابه إلى غاية لامزيد عليها، وكان يلزمهم بوظائف الخدمـة، الصغير منهـم والكبير. ولم يجلـس عنده أمير مـن غير أمـره لـه بالجلوس إلا نجم الـدين أيوب والد صلاح الدين يوسـف، وأما ما عداه كـأسد الـدين شيركـوه ومجد الديـن ابن الـداية وغيرهما فـإنهم كانـوا إذا حضروا عنده يقومون إلى أن يأمرهم بـالقعود. وكان مع هذه العظمة وهذا الناموس إذا دخـل عليه الفقيه أو الصوفي، يقوم لـه ، ويمشي بين يديه ، ويجلسه إلى جانبـه كأنه أقرب النـاس إليه، وكان إذا أعطى أحـدهم شيئاً يقول : هـؤلاء لهم في بيت المال حق، فإذا قنعـوا منا ببعضه فلهـم المنة (علينا) .

وكان مجلسـه : كما روي في صفة مجلـس رسول الله ﷺ : « مجلـس حلـم وحياء لا تـؤبن فيـه الحرم » . هكذا كـان مجلسه لا يـذكر فيـه إلا العلم والـدين وأحـوال الصالحين، والمشـاورة في أمر الجهـاد وقصد بـلاد العدو، ولا يتعدى هذا.

وحكي : أن الحافـظ ابن عساكـر رحمه الله حضر مجلس الملـك الناصر

صلاح الدين يوسف لما ملك دمشق، فرأى فيه من اللغط وسوء الأدب من الجالسين ما لم يحدث في غيره ، فشرع يحدث صلاح الدين كما كان يحدث نور الدين، فلم يتمكن من القول لكثرة الاختلاف من المحدثين وقلة استماعهم ، فقام، وبقي مدة لا يحضر المجلس الصلاحي؛ وتكرر من صلاح الدين الطلب له فحضر ، فعاتبه صلاح الدين على انقطاعه، فقال : نزهت نفسي عن مجلسك ، فإني رأيته كبعض مجالس السوقة لا يستمع إلى قول قائل، ولا يرد جواب متكلم. وقد كنا بالأمس نحضر مجلس نور الدين، فكنا كما قيل كأنما على رؤوسنا الطير، تعلونا الهيبة والوقار، فإذا تكلم أنصتنا، وإذا تكلمنا أنصت لنا . فتقدم صلاح الدين إلى أصحابه أن لا يكون منهم ما جرت به عادتهم إذا حضر الحافظ.

قال ابن الأثير: هكذا كانت أحواله رحمه الله جميعها مضبوطة محفوظة .

وكان معتنياً بحفظ أصول الديانات، ولا يمكن أحداً من إظهار ما يخالف الحق، ومتى أقدم مقدم على ذلك، أدّبه بما يناسب بدعته، وكان يبالغ في ذلك ويقول : نحن نحفظ الطرق من لص وقاطع طريق والأذى الحاصل منهما قريب، أفلا نحفظ الدين ونمنع عنه ما يناقضه.

قال: وحكي أن إنساناً بدمشق يعرف بيوسف بن آدم كان يظهر الزهد والنسك، وقد كثر اتباعه وأظهر شيئاً من التشبيه، فبلغ خبره نور الدين، فأركبه حماراً وأمر بصفعه، وطيف به في البلد جميعه، ونودي عليه: هذا جزاء من أظهر في الدين البدع ثم نفاه من دمشق، فقصد حران.

قال: ويسوق الله القصيري الأعمار إلى البلاد الوخمة .

الباب الرابع

فيما فعله في بلاد الإسلام من المصالح والمساعي الكفيلة بالمناجح

ومأأدخل على المسلمين من المسارّ وعمّهم به من المبار

وذلك عظيم كثير. من ذلك أنه بنى أسوارَ مدن ا لشام جميعها وقلاعها، منها: دمشق، وحمص، وحماة، وحلب، وبازين، وشيزر، ومنبج، وغيرها من القلاع والحصون، وحصّنها وأحكم بناءها، وأنفق عليها من الأموال مالاتسمح به النفوس، وبنى أيضاً المدارسَ بدمشق وحمص وحماة وحلب وغيرها للشافعية والحنفية، حتى ان بلاد الشام كانت خاليةً من العلم وأهله، وفي زمنه صارت مقراً للعلماء والفقهاء والصوفية، وبنى الجوامعَ في غالب البلاد، فجامعهُ في الموصل إليه النهاية في الحسن والاتقان، وكان قد فوّض أمرَ عمارته والخرج عليه إلى الشيخ عمر الملاء رحمه الله، وكان من الصالحين، فقيل له: انه لايصلح لمثل هذا العمل، فقال: إذا وليّت العمل بعضَ الأجناد أو بعض العمال أعلم أنه يظلم في بعض الأوقات، ولايفي الجامع بظلم رجل مسلم، وإذا وليّت هذا الشيخَ غلب على ظني أنه لايظلم أحداً، فإذا ظلم كان الإثم عليه لاعليّ.

وإنما سميَ هذا الشيخُ بالملاء لأنه كان يملأ تنانير الآجر، ويأخذ الأجرةَ يتقوَّتُ بها، وكان ماعليه من الثياب مثلَ القميص والعمامة يملكه لغيره، فلا يملك من الدنيا شيئاً، وكان عالماً بفنون العلوم، وجميعُ الملوك والأعيان والعلماء يزورونه ويتبرّكون به، وكان يعمل مولِداً لرسول الله ﷺ في كل سنة ويحضر دعَوته صاحبُ الموصل والأكابر، وكان نورُ الدين يحبه ويكاتبه.

وكـان مكان الجامـع النوريِّ خـربةً واسعـةً ماشرع أحـدٌ في عمارتها إلا وقصر عمره، فأشار الشيخُ عمر على نور الـدين بعمارتها جامعاً، فاشتراها وأنفق عليهـا أموالاً كثيرة يقـال ستين ألف دينـار، ويقال ثـلاثمائة ألف دينار، فتـم في ثلاث سنين، ولما تـوجه نور الـدين إلى الموصـل، وهي المرة الأخيرة، فصلى فيـه، ووقـف عليـه قـرية بـالموصـل، ورتـب فيـه خطيباً ومؤذنين، وعمـل له ا لبسـط والحصر وغيرها، ثـم دخل الشيـخُ عمر على نور الـدين وهـو جالـس على دِجْلة فترك بين يـديه دسـاتيرَ الخرج على الجامع، وقال: يامـولانا، أشتهي أن تنظر فيها، فقال: يـاشيخ نحن عملنا هـذا لله تعـالى، دع الحساب إلى يـوم الحسـاب، ثـم رمـى بالـدسـاتير في دجلة.

وبنى جامع حماة على نهر العاصي، وهو من احسن الجوامـع وأنزهها .

وبنـى البيمارستانـات في البـلاد، ومن أعظمهـا البيمارستـان الذي بنـاه بدمشق، فانه عظيم كثير الخرج.

وحكي أنه وقع بيـد نور الدين افرنجي من أكابـر الملوك، ففدى نفسه بمال عظيم، فشاور نـور الدين أُمراءَه، فـأشاروا ببقائه في الأسر خوفـاً من شره، فأرسل إليه نور الـدين في السر يقول: أحضِر المال، فأحضر ثلاثمائة ألف دينـار، فأطلقه نور الـدين. فعند وصولـه إلى مأمنه مات، وبلـغ نور الدين خبره فأعلم أصحابـهَ، فتعجبوا من لُطف الله بالمسلمين حيث جمع لهم الحُسنيين: الفداء وموت ذلك اللعين.

وبنـى نـور الديـن البيمارستـان بـدمشـق، وبنـى أيضاً مـدرستـه ودارَ الحديث بدمشق، ووقف عليها الأوقاف. قاله ابن الأثير .

قال الشيخ عماد الدين بـن كثير: ومن شرط البيمارستان أنه على الفقراء والمساكين، وإذا لم تـوجد بعـض الأدوية التـي يعزّ وجـودها إلا فيـه فلا

يُمنع منه الأغنياء، ومن جاء إليه فلايمنع من شرابه ولهذا جاء نور الدين وشرب من شرابه رحمه الله تعالى، قال: ويقول بعضُ الناس إنه لم تخمد منه النار منذ بني إلى زماننا [٦] هذا.

قلت: ويقال إنها مستمرة لم تخمد إلا في فتنة تمرلنك، عامله الله بما يستحق.

حكى الشيخ الجزري في تذييله على المرآة أن نور الدين لما حضر إلى البيمارستان أحضر له قدح شراب فشربه، وقال: هذا حلال على جميع المسلمين وعلى مثلي وعلى أقلّ العالم، وحرام على اليهود والنصارى، وعلى غلام وجارية تحت الرقّ، فلا يدخله إلا من هو معتوق.

قال: وبنى أيضاً الأبراجَ على الطرق بين المسلمين والفرنج، وجعل فيها من يحفظها ومعهم الحمام الهوادي، فإذا رأوا أحداً أرسلوا الطيور، فأخذ الناس خبرهم وتجهزوا لهم، فلم يبلغ العَدوُّ منهم غرضاً، وكان هذا ألطفِ الفِكر وأكثره نفعاً.

قال: وبنى الربط والخانقاهات في جميع البلاد للصوفية، ووقف عليهم الوقوف الكثيرة، وأدرَّ عليهم الإدرارات الصالحة، وكان يُحضر مشايخَهم عنده ويقربهم ويدنيهم ويباسطهم ويتواضع لهم، وإذا أقبل عليه أحدُهم يقوم له مذ تقع عينه عليه، ويعتنقه ويجلسه معه على سجادته، ويقبل عليه بحديثه، وكان كذلك يفعل بالعلماء من التعظيم والتوقير والاحترام، ويجمعهم عند البحث والنظر، وكانوا يقصدونه من البلاد الشاسعة من خراسان وغيرها، وكان إذا نقل عن انسان منهم عيب يقول: ومن المعصوم؟ إنما الكامل من تعدّ ذنوبه.

قال ابن الأثير: إن بعض الأمراء حسد قطبَ الدين النيسابوري الفقيه الشافعيّ لقربه من نور الدين، فقال له: يامسكين، لو نظرت في عيب

نفسك لشغلك عن عُيوب غيرك، ولو صحَّ ماتقول فله حسنة تغفرُ له زلة تذكرها وهي العلم والدين، وأما أنتَ وأصحابك ففيكم أضعاف ماذكرت، وليست لكم حسنة تغفرها، والله لئن عدتَ إلى ذكره أو ذكر غيره بسوء لأؤدبنك، فكف عنه.

قال ابن الأثير: هذا هو الاحسان والفعل الذي ينبغي أن يُكتب على العيون بماء الذهب.

قال: وبنى داراً للحديث بدمشق، وهو أولُ من بنى دار الحديث فيما علمنا، وبنى مكاتبَ الأيتام في كثير من البلاد، وأجرى عليهم وعلى معلميهم الخيرات الوافرة، وبنى أيضاً المساجد الكثيرة ووقف عليها وعلى من يقرأ بها القرآن، قال: وهذا فعل لم يسبق إليه، قال: وبلغني ممن هو عارف بأعمال الشام أن وقوف نور الدين في وقتنا هذا وهو سنة ثمان وستمائة في أبواب البر بالشام كلّ شهر تسعة آلاف دينار صورية، ليس فيها ملك فيه كلام، بل حقٌّ ثابت بالشرع باطناً وظاهراً.

وذكر العماد الكاتب في أول كتابه البرق الشامي نورَ الدين وأثنى عليه وقال: في سنة تسع وستين وخمسمائة التي توفي فيها نورُ الدين أكثر فيها من الأوقاف والصدقات وعمارة المساجد المهجورة، وأمر بتعفية آثار الآثام وإسقاط كل مافيه من الحرام، فما أبقى سوى الجزية والخراج ومايحصل من قسمة الغلات على قويم المنهاج.

قال: وأمرني بكتابة مناشير لجميع البلاد، فكتبتُ أكثر من ألف منشور، وحسبنا ماتصدَّق به على الفقراء في تلك الأشهر فزاد على ثلاثين ألف دينار، وكانت عادته في الصّدقة ان يُحضر جماعةً من أماثلِ البلد من كلِّ محلة ويسألهم عمن يعرفونه في جوارهم من أهل الحاجة، ثم يصرف اليهم على قدر حاجاتهم، قال: ولو اشتغلتُ بذكر وقوفه وصدقاته في

كلِّ بلد لطال الكتاب ولم يبلغ إلى أمد، ومشاهدة أبنيته دالةٌ على خُلوص نيّته، تغني عن خبرها بالعيان، وتكفي أسوارُ البلدان والربط والمدارس على اختلاف المذاهب واختلاف المواهب، وفي شرح طوله طول، وعمله لله ذلك مبرور مقبول.

قال: ولما أسقط نور الدين الجهات المحظورة والشبه المحذورة، عزل الشحن، وصرف عن الرعية بصرفهم المحن، وقال للقاضي كمال الدين الشهرزوري: انظر أنت في ذلك، واحمل أمور الناس فيها على الشريعة، قال: ولم يكن لبيت المواريث حاصل ولاالديوانه حامل، فجعل نور الدين ثلث مايحصل منه لكمال الدين الحاكم فوفره نوابه وكثروه، وماكان نور الدين يحاسب القاضي على شيء من الوقوف، ويقول: أنا قد قلدته على أن يتصرف بالمعروف (٧) .

وحكى الشيخ أبو البركات الحسن بن محمد بن هبة الله أنه حضرمع عمه الحافظ أبي القاسم رحمه الله مجلسَ نور الدين لسماع شيء من الحديث، فمر في أثناء الحديث أنَّ النبيﷺ خرج متقلداً سيفاً، فاستفاد نور الدين أمراً لم يكن يعرفه، وقال: كان رسول اللهﷺ يتقلد السيف، يشير إلى التعجب من عادة الجند إذ هم على خلاف ذلك لأنهم يربطونه بأوساطهم، قال: فلما كان من الغد مرّ وأنا تحت القلعة والناس مجتمعون ينتظرون ركوب السلطان، فوقفنا ننظر إليه، فخرج نور الدين رحمه الله تعالى من القلعة وهو متقلد السيف وجميع عسكره كذلك، فرحم الله هذا الملكَ الذي لم يفرط في الاقتداء بالنبيّ ﷺ بمثل هذه الحالة، بل لما بلغَتْه رجعَ بنفسه وردَّ جنده عن عوائدهم اتباعاً لما بلغه عن نبيّهﷺ ، فما الظن بغير ذلك من السنن!

وكان رحمه الله فرداً في زمانه من بين سائر الملوك، ولو لم يكن إلا استماعه للموعظة وانقيادة لها وان اشتملت على ألفاظ قد أغلظ فيها.

وحكى شرف الدين بن المستوفي في تاريخ إربل ان المنتجب الواعظ أبا عثمان ابن أبي محمد البحتري عمل في نور الدين قصيدة وأنشده إياها من لفظه وهي قوله:

مثّل وقوفك أيها المغرور
يوم القيامة والسماء تمور

انْ قيل نور الدين رحتَ مسلماً
فاحذر بأن تدعى ومالك نور

أنهيت عن شرب الخمور وأنت من
كأس المظالم طافح مخمور

عطّلت كاسات المدام تعفّفاً
وعليك كاساتُ المكوس تدور

ماذا تقولُ إذا نقلت إلى البلى
فرداً، وجاءك منكر ونكير

ماذا تقولُ إذا وقفتَ بموقف
فرداً ذليلاً والحسابُ عسير

وتعلّقتْ فيك الخصوم وأنت في
يوم الحساب مسحب مجرور

وتفرقت عنك الجنود وأنت في
ضيق اللحود موسَّد مقبور

وودِدت أنك ما وليتَ ولايةً
يوماً، ولا قال الأنامُ أمير

وبقيت بعد العزّ رهنَ حفيرة
في عالم الموتى وأنت حقير

وحشرت عرياناً حزيناً باكياً
قلقاً، ومالك في الأنام مجير

أرضيتَ أن تحيا وقلبك دارس
عافي الخراب وجسمك المعمور

أرضيتَ أن يحظى سواك بقربه
أبداً وأنت مبعد مهجور

تـدعـى بنـور الـديـن فـاحـذر في غـد
تـدعـى ظـلام الـديـن مـالـك نـور[٨]

قال صاحب الروضتين: ولعل هذه الأبيات كانت من أقوى الأسباب المحركة لإبطال تلك المظالم والخلاص من تلك المآثم، رضي الله عن الواعظ والمتعظ بسببه، ووفّق من رام الإقتداء به.

وكان هذا الواعظ من كبار الصالحين ليسَ له شيءٌ ولايقبل من أحد شيئاً، إنما كانت له جبة يلبسها اذا خرج إلى مجلس وعظه، وكان في مجلس وعظه ألوف من الناس.

وقال قاضي القضاة بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم: حكى لي السلطان الملك الناصر صلاحُ الدين، قال: أرسلني الملكُ العادلُ نورُ الدين إلى عمّي أسد الدين شيركوه، وكان لايفعل شيئاً الا بمشورته، وقال: امض إليه، وقل له: قد خطر في بالي أن أبطل هذه الضمانات بأسرها والمؤن والمكوس، وخذ رأيه في ذلك، قال: فجئت إلى عمّي، وأنهيتُ إليه ماقال لي، فقال: امضِ وقل له: يامولانا، إذا فعلتَ ذلك فالأجناد الذين أرزاقهم على هذه الجهات من أين تعطيهم، وتحتاج إليهم غداً للجهاد وخروج العساكر للغزاة، فقال صلاح الدين: فقلت لعمي: هذا أمر قد ألهمه الله إياه فساعد عليه، فصاحَ في وقال: امضِ إليه وقل له ماقلتُ لك، قال: فعدتُ إلى نور الدين وأنهيتُ إليه ماقال لي عمي، فقال: امضِ إليه وقل له: إذا كنا نغزو من هذه الجهات نتركها ونقعد ولانخرج، قال: فعدتُ إلى عمي وقلت له ماقال، فقال: قل له: إن تركوك تقعد فجيد هو، فراجعته في ذلك ان لايثبطه في ذلك فصاح في وقال: امض وقل له ماقلت لك، فجئت إليه وقلت له ذلك، فترك ذلك مدة ثم أمضى ماكان عزم عليه.

وحكي عن بعض مماليك نور الدين أنه كان يرفع يديه إلى السماء ويبكي ويتضرع ويقول: ارحم العشار المكاس.

قال صقر بن يحيى: بلغني ان موفق الدين خالداً رأى في النوم نور الدين دفع إليه ثيابه ليغسلها، فقصّها على نور الدين فتمعّر وجهه، فخجل موفق الدين، وبقي أياماً على غاية من الخجل، فاستدعاه نور الدين يوماً وقال: قد آن لك أن تغسل ثيابي، اقعد واكتب باطلاق المؤن والمكوس والأعشار واكتب للمسلمين إني قد رفعت عنهم مارفعه الله تعالى عنكم، واثبت ما أثبَتَه اللهُ عليكم. فكتب موفق الدين توقيعاً بذلك.

وحدث رضي الدين أبو سالم عبد المنعم بن المنذر أن نور الدين حين خرج لأجل شيزر خرج أبو غانم بن المنذر صحبته، فأمره نور الدين رحمه الله بكتابة منشور باطلاق المظالم: بحلب، وحمص، وسنجار، وحرّان، والرحبة، وعزاز، وتل باشر، وعداد العرب [٩] فكتب عنه توقيعاً نسخته:بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ماتقرّب به إلى الله سبحانه صافحاً واطلقه مسامحاً لمن علم ضعفه من الرعايا، رعاهم الله، لضعفهم عن عمارة ماأخربته أيدي الكفار، أبادهم الله تعالى، عند استيلائهم على البلاد، وظهور كلمتهم على العباد، رفقاً بالمسلمين المثاغرين، ولطفاً بالضعفاء والمرابطين الذين خصهم الله تعالى بفضيلة الجهاد، واستمنحهم بمجاورة أهل العناد، اختباراً لصبرهم وإعظاماً لأجرهم، فصبروا احتساباً، وأجزل الله لهم أجراً وثواباً:(إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب) [١٠] ، وأعاد عليهم ماغتصبوا عليه من أملاكهم التي أفاء الله عليهم بها من ا لفتوح العمرية، وأقرها في الدولة الإسلامية، بعد ماطرأ غلبها من الظلمة المتقدمين، واسترجعه بسيفه من الكفرة الملاعين، فطمس عنهم بذلك معالم الجور، وهدم أركان التعدي، وأقر الحق مقرّة لقوله تعالى: (من جاءَ بالحسَنَة فلهُ عَشْرُ أمْثالها) [١١] (واللهُ يُضاعفُ لمن

يشاء) (١٢). ثـم أعانـه اللهُ بعونـه، وأيَّده بنصره، وقمـع به عـادية الكفـر، واظهـر بهمته الإسـلام، وأظهـره على الفئة البـاغية، وأمكنـه مـن ملوكهـا الطـاغية، فجعلهـم بين قتيـل غير مقاد، وهـارب ممنوع الـرّقـاد(وآخريـن مُقَرنين في الاصفاد *هذا عطاؤنا فـامْنُنْ أو امْسِك بغير حساب* وان له عندنا لزلفـى وحسن مآب) (١٣) علم أن الدنيا فانية فـاستخدمها للآخرة الباقيـة، واستبقى ملكه الـزائل بأن قدّمه وجعلـه ذخراً للمعاد، فـالتقوى مادة زاده اذا انقطعت المواد(يَـوْمَ لاتَمْلِكُ نفسٌ لنفسٍ شيئاً والأمْـرُ يَوْمَئِذٍ لله) (١٤) ، فسمح لكافة المسافـرين وجميع المسلمين بالضرائب والمكوس، فأسقطها من دواوينـه، وحرّمها على كلّ متطاولٍ إليها، ومتهـافت عليها، تجنباً لاثمها، واكتساباً لثوابها، فكان مبلغُ مـاسامح به واطلقه وأنفذَ الأمر فيه اتبـاعاً لكتاب الله وسنـةِ رسوله ﷺفي كـل سنة من العين مـائة ألف وستـة وخمسون ألـف دينـار، جهة ذلـك: حلب المحـروسـة خمسون ألـف دينار، عـزاز عن مكس جـددته الفرنـج خذلهم الله على المسافـرين عشرة آلاف دينار، تل باشر واحد وعشرين ألـف دينار، المعرَّة ثلاثة آلاف دينار، دمشق المحـروسة لما استنجد بـه أهلها واستصرخ بـه من فيها خـوفاً على أنفسهم وأموالهم من استيلاء العدو، وضعفهم عـن مقاومته، ماكان يؤخذ منهم في كـل سنة، وهو رسم يسمـونه الفيئـة، عشرون ألـف دينار، حمص ستـة وعشرون ألف دينـار، حران خمسـة آلاف دينار، سنجـار ألف دينـار، الرحبـة عشرة آلاف دينار، عـدا د العرب عشرة آلاف دينـار، طلباً لما عنـدَ الله، (واللهُ عنـده حُسْنُ الثـواب) (١٥) ، فـالواجـب على كـل إمام عـادل وسلطـان قادر أن يمـده ويـودّه، ويشدّ عضـده، ويقـوّي عـزمه، وينفّـذ حكمه. وعلى كل مسلـم أن يواصله بالـدعاء آناء الليل وأطـراف النهار. وكتب إلى كل مـن يصلُ إليه من أئمة الديـن وفقهاء المسلمين وأصحاب الزوايا المتعبـدين، وكافة التجار المسـافرين، أحسنَ اللهُ تـوفيقهم، ليُشْعروا بذلـك من حضرهم مـن التجار المترددين إليهم مـن السفّار ليعرفـوا قدر ماأنعم الله به عليه وعليهم(ولِيُنْذِروا قَوْمَهم إذا رَجَعوا إليهم) (١٦) ويُمدّوه

بأدْعِيَتِهم، ويبرئوا ذمته مما سبق من أخـذ مؤنتهم، فإنه لم يصرف ذلك إلا في وجـه برّ، وتجهيـز جيـش، ومعونـة مجاهـد، وردع كافـر ومعـاند، فهـم شركاؤه في الثواب، فلما وقف نور الديـن على قوله: ويبرئوا ذمته مما سبق، استحسن ذلك ووعده باقطاع حسن.

وذكـر قاضي القضـاة بهاء الديـن أن نورَ الـدين سيَّر كتـاباً إلى بغـداد يعلم الخليفـة بما أطلقه وبمقدار ماأطلـق، ويسأله ان يتقدم إلى الـوعاظ بأن يستحلـوا من التجـار ومن جميع المسلمين لـه وان يجعلوه في حـل مما كان وصـل إليه مـن أموالهم، فتقدم بـذلك، وجعـل الوعـاظَ ينادون على المنابر بذلك.

قال صـاحب الـروضتين: نقلتُ من خـطّ الشيخ الأمين أبي ا لقـاسم عبـد الرحمن بـن الحسين بـن عبدان الأزدي الـدمشقـي: وقف المولى نـور الدين بستـان الميدان، سوى الغيطة التـي من قبلته، بعد عمارتـه واصلاح مايحتـاج إليه على تطييب المساجـد التي يأتي ذكـرها: وهي جامـع دمشق المحروسـة، جامع القلعة بها، ومـدرسة الحنفية التـي جدّدها نور الـدين، مسجد ابن عطية داخـل باب الجابية، مسجد ابن لبيد بـالفُسْقار، مسجد سـوق الرمـاحين، المسجـد المعلّق بسـوق الصـاغـة، مسجد دار البطيـخ المعلّق، مسجد العبّاس بسوق الأحد بالصالحية، المسجد الذي جدَّده نورُ الديـن جوار بيعة اليهود، جـامع الصالحين بجبـل قاسيون: يُبتاع بـذلك طيـب وعـود، ويفرق على هـذه الأمـاكـن: النصـف للجـامع بـدمشـق، والنصف الثـاني ينقسم على أحـد عشر جزءاً: جـزءان للمدرسـة، وتسعة أجزاء للمساجد البـاقية لكل مسجد جزء واحد. تطيـب هذه الأماكن في الأوقات الشريفـة، ومواسـم الاجتماعات، وليـالي شهر رمضـان، والأعياد، وأيـام الجُمـع وقتَ عقـد الجمعـة في الجوامـع، وليالي الجمعـة والخميـس والاثنين.

-١٠٨٠٣-

قال: ونقلت من خطّه أيضاً أن نور الدين حضر عنده بقلعة دمشق يوم الخميس تاسع عشر صفر سنة أربع وخمسين وخمسمائة القاضي زكي الدين أبو الحسن علي بن محمد بن يحيى القرشي، والفقهاء الشيخ شرف الدين بن أبي عصرون، والخطيب عز الدين أبو البركات بن عبد، والإمام عز الدين أبوالقاسم علي بن الحسن الشافعيون وشرف الدين أبو القاسم عبد الوهاب بن عيسى المالكي، وشرف الاسلام نجم الدين بن عبد الوهاب الحنبلي، ورضي الدين أبو غالب بن عبد المنعم بن محمد بن أسد التميمي رئيس دمشق، ونظام الدين أبو الكرم المحسن بن أبي الضياء متولي الوزارة بدمشق، والأعيان من شهود العدالة بدمشق وهم: عبد الصمد بن تميم، وعبد الواحد بن هلال، والصائن أبو الحسن وغيرهم. فسألهم نور الدين عن المضاف إلى أوقاف المسجد بدمشق من المصالح التي ليست وقفا عليه، وأن يُظهر كل واحد منهم مايعلمه من ذلك ليعمل به ويقع الاعتماد عليه، وقال لهم: ليس يجُوز لأحد منكم أن يعلم من ذلك شيئا إلا ويذكره، ولايُنكر شيئا مما يقولهُ غيره إلا وينكره، والساكت منكم مصدق للناطق ومصوِّب لقوله، وليس العمل إلا على ماتتفقون عليه وتشهدون به، وعلى هذا كان الصحابة رضي الله تعالى عنهم يجتمعون ويتشاورون في مصالح المسلمين، وكل من الحاضرين شكره على ماقصده، وأثنى عليه، ودعا له بالبقاء. ثم أمر نور الدين رحمه الله تعالى متولي أوقاف الجامع والمساجد والبيمارستان وقنيّ السبيل ومايجري مع ذلك أن يقرأ عليه بمحضر من المذكورين ضريبة الأوقاف موضعا موضعا ليفرد مايعلمون أنه للمصالح دون الوقف. فافتتح با لسوق المستجدّ تحتَ المئذنةِ الغربية جوارَ البيمارستان، فقال الصائن وابن تميم وابن هلال: هذا السوق بكماله لمصالح المسلمين وليس من وقف الجامع لأنه أحدث في طريق المسلمين، كما شهدوا به، ومبلغ ذلك خمس وعشرون عضادة. ثم عين للمصالح أيضاً مافي زيادة الجامع القبلية وزيادة باب البريد في الصف القبلي والشامي من العضائد والحوانيت

والحجر التي علوها، وجميع بيوت الخضراء من قبلة الجامع والفرن المستجدّ بها، ودار الخيل والمساكن والحوانيت المجاورة لدار الخيل، وحانوت في الخواصين في الصف الغربي، واثني عشر حانوتا متلاصقات من ا لصف الشرقي تعرف بالمعتصمات، ونصف حانوت، والفرجة المستجدة بحضرة دار الوكالة إلى سوق علي، وعدتها ثلاثة عشر حانوتاً ومصطبة، وثلاثة حوانيت في الصف الشامي من سوق علي لصق الفرجة من شرقها، وحانوت بالفُسقار في الصف القبلي يعرف بسكنى ثعلب الفقاعي، وحوانيت اللبادين والتي بحضرة الفوارة تحت اللبادين وقيسارية العقيقي بسوق الأحد وتعرف بدار الشجرة، وحانوتان في الصف الشرقي بحضرة فندق الزيت من غرب درب التماريين، وحانوت بقنطرة الشماعين في الصف الشامي بحضرة البياطرة، وقطعة جوار المأمونية من غربها، والعضائد التي في الصف الشامي من سوق ا لأحد وهي خمس عشرة عضادة، وستة أسهم من طاحون السقيّفة، وذلك كلّه بعضه ميراث عن بني أمية كالخضراء ودار الخيل، وبعضهُ اشتُري بمال الوقف والمصالح، وبعضه أخذ ممن باد أهلهُ الموقوف عليهم ولم يكن له مال، وبعضُه أحدث في الطريق، قال: فلما شهدوا بصحة جميع ماذُكر، وأن منافع ذلك وأجوره جاريةٌ في ا لمصالح، قال نور الدين: إنّ أهم المصالح سد ثغور المسلمين، وبناء السور المحيط بدمشق والخندق لصيانة المسلمين وحريمهم وأموالهم، وصوّبوا ماأشار إليه وشكروه، ثم سألهم عن فواضل الأوقاف هل يجوز صرفها في عمارة الأسوار وعمل الخندق للمصلحة المتوجهة للمسلمين، فأفتى شرفُ الدين المالكي بجواز ذلك، ومنهم من توقف ليتروى، فقال الشيخ شرف الدين بن أبي عصرون: لايجوز أنْ يُصرف وقفُ مسجد إلى غيره، ولاوقفٌ معيّن إلى جهة غير تلك الجهة، وإذا لم يكن بدّ من ذلك، فليس طريقه إلا أن يقرضه من إليه الأمر في بيت المال للمسلمين. فيصرفه في المصالح ويكون القضاء واجبا من بيت المال فوافقه الأئمة الحاضرون معه على ذلك، ثم

سأل ابن أبي عصرون نورَ الدين: هل أنفق شيء قبل اليوم على سور دمشق، وعلى بناء الكلاسة من شام الجامع، وعلى إنشاء السقف المقرنص تحت النسر بالجامع، وعلى الرصاص المعمول على سطح الرواق الشامي من الجامع، وسائر العمائر المتعلقة بالجامع المعمور بغير إذن مولانا، وهل كان إلا بمبلغ الأمر العالي في عمل ذلك، فقال نور الدين: لم ينفق ذلك ولا شيء منه إلا بإذني، وأنا أمرتُ به وبفتح المشهدين غربيّ الجامع المعمور اللذين كانا مخربين، وكنت مبلغاً عني ومؤذناً أمري.

هذا مختصر المحضر الذي كتب فيه صورة ماجرى في ذلك المجلس، وهو مشتمل على فوائد حسنة، وتأكيد لمانقل من سيرة هذا الملك في وقوفه مع أوامر الشريعة، وفي ذلك المحضر خطوط الجماعة الحاضرين.

وحكى صاحب الروضتين عن بعضهم أنه حضر صبيّ عند الملك العادل وبكى، وذكر ان أباه محبوس على أجرة حجرة من حجر الوقف، فسأل عن حاله، فقالوا: هذا الصبي ابن الشيخ أبي سعيد الصوفي، وهو رجل زاهد قاعد في حجرة وليس له قدرة على الأجرة، وقد حبسه وكيل الوقف لأنه اجتمع عليه أجرة سنة، قال الملك العادل نور الدين كم أجرة السنة؟ قالوا: مائة وخمسون قرطاساً. وذكروا سيرته وطريقته وفقره،فرقّ له وأنعم عليه، وقال: نحن نعطيه كلّ سنة هذا القدرَ ليصرفه إلى الأجرة ويقعد فيها، وأمر باخراجه من الحبس، فوصل إلى قلب كل أحد من الحاضرين الفرح حتى كأنَّ الانعامَ كان في حقّه.

الباب الخامس

في ذكر زهده وورعه وعبادته ودينه وعلمه

المكمل لسيادته، الشاهد بتأطيد دعائم سعادته

قال ابن الأثير: فان قال قائلٌ كيف يوصف بالزهد من له المالك الفسيحة وتجبى إليه الأموال الكثيرة، فليذكُرْ نبيَّ الله سليمان بن داود عليه السلام مع ملكه وهوسيّد الزاهدين في زمانه، ونبيّنا ﷺ قد حكم:حضرموت، واليمن والحجاز، وجميع جزيرة العرب من حدود الشام إلى أرض العراق، وهو على الحقيقة سيّدُ الزاهدين، قال: وإنما الزهد خلوُّ القلب من محبة الدنيا لاخلو اليد منها.

وكان نور الدين رحمه الله تعالى مع سعة ملكه وذخائر بلاده لايأكلُ ولا يلبس ولايتصرف فيما يخصه إلا من ملك اشتراه من سهمه من الغنائم، وكان يُحضر الفقهاء ويستفتيهم فيما يحلُّ له من تناول الأموال المرصدة لمصالح المسلمين، فيأخذ مايفُتونه بحله، ولم يتعدَّه إلى غيره البتة.

ويقال إن نفقته كانت من الجزية في كل شهر ألفا قرطاس يصرفُها في كسوته وملبوسه ومأكوله حتى أجرة خياطه، ويستفضل منها مايتصدق به في آخر الشهر، ويقال انّ قيمة القراطيس مائة وخمسون درهماً، وماكان يصلُ إليه من هدايا الملوك وغيرهم يبعُه ويعمّر به المساجدَ المهجورة، ويشتري لها أوقافاً ولايتناولُ منها شيئاً، ولايلبس قط ماحرمه الشرعُ من حرير أو ذهب أو فضة، ومنع من شُرب الخمر وبيعها في جميع بلاده ومن إدخالها إلى بلد ما، وكان يحدُّ شاربَها الحدَّ الشرعي، كل الناس عنده فيه سواء.

كان كثيرَ الصيام، وله أوراد في الليل والنهار. وكان يقدم أشغال المسلمين عليها، ثم يتمم أوراده.

أخبرت عنه زوجته الخاتون بنتُ معين الدين أنه كان إذا جاء إليها يجلسُ في المكان المختص به فتقوم بخدمته، ولاتتقدم إليه إلا في أخذ ثيابه عنه، ثم تنعزل في المكان المختص بها، وينفرد هو تارةً يطالعُ في وقائع أصحاب الأشغال، أو ينظر في كتاب أتاه ويجيب عنه، وكان يصليّ فيطيل الصلاة، وله رحمه الله تعالى أوراد في النهار، فإذا جاء الليل وصلىّ العشاء، نام ثم استيقظ نصف الليل، فيتوضأ ويصلي إلى الفجر، ثم يصليّ الصبح، ويظهر للركوب ويشتغلُ بمهمات الدولة.

وأرسلتْ إليه الخاتونُ يوماً أخاها من الرضاع تذكر له أنه لم يكفها ماكان قرّره، وتطلب منه زيادة، فلما قال ذلك، تنكر واحمر وجهه، ثم قال: من أين أعطيها مايكفيها؟! والله لاأخوض في نار جهنم في هواها، إنْ كانتْ تظن أنَّ الذي بيدي من الأموال هي لي فبئس الظن، إنما هي أموال المسلمين مرصدة لمصالحهم، وأنا خازنُهم فلا أخونهم فيها. ثم قال لي: لي بمدينة حمص ثلاثة دكاكين اشتريتها من الغنائم، وقد وهبتُها إياها، فلتأخذها، وكان يحصُل منها قدر يسير.

وقدكانت زوجته هذه أيضاً من الصالحات الخيّرات تُكثر القيام، فنامت ليلةً عن وردها فأصبحت وهي غضبى، فسألها نور الدين عن أمرها، فذكرت له نومها الذي فوّت عليها وردها، فأمر نور الدين عند ذلك بضرب طبلخانة في القلعة وقت السّحر ليوقظ النائم ذلك الوقت لقيام الليل، ورتب للضارب جراية وجامكية.

قال ابن الأثير: وكان لايفعل فِعلاً إلا بنيّة حسنة. وكان بالجزيرة رجلٌ من الصالحين كثير العبادة والورع، شديد الانقطاع عن الناس، وكان نور الدين يكاتبه ويراسله، ويرجع إلى قوله، ويعتقد فيه اعتقاداً حسناً. فبلغه

أن نور الدين يُدمن اللعبَ بالكرة، فكتب إليه يقول: ماكنت أظنك تلهو وتلعب وتعذب الخيل لغير فائدة دينية؟ فكتب إليه نور الدين بخطه يقول: والله مايحملني على اللعب بالكرة اللهو والبطر، إنما نحن في ثغر والعدو منا قريب، فربما وقع صوتٌ فتكون الخيل قد أدمنتْ على سرعة الانعطاف بالكر والفرّ، فاذا طلبنا العدو أدركناه، ولو تركناها على حالها لصارت جماماً لاتنفع، ولا يمكننا ملازمة الجهاد ليلاً ونهاراً، صيفاً وشتاءً، إذ لابد من الراحة للجند، فهذا والله الذي يبعثني على اللعب بالكرة.

قال: فانظر إلى هذا الملك المعدوم النظير الذي يقل في أصحاب الزوايا المنقطعين إلى العبادة مثله، فان من يجيء إلى اللعب بهذه النية الصالحة حتى يصير من أعظم العبادات وأكبر القربات، فقلّ في العالم مثله، وفيه دليل على أنه كان لايفعل شيئاً إلا بنية صالحة، وهذه أفعال العُلماء الصالحين العاملين.

قال: وحُكي عنه انه حمل إليه من مصر عمامة من القصب الرفيع مذهبة، فوضعت بين يديه، فلم يلتفت إليها، وبينما هم معه في حديثها، إذْ جاءه رجل صوفي فأمر له بها، فقيل له: إنها لاتصلح لهذا الرجل، ولو أعطي غيرها كان أنفع له، فقال: أعطوها له فإني أرجو أن أعوَّض عنها في الآخرة، فسلمت إليه، فسار بها إلى بغداد فباعها بستمائة دينار أميري أو سبعمائة دينار أميري. ويقال انه أعطاها لشيخ الصوفية أبي الفتح بن حمويه، فبعث بها إلى العجم، فبيعت بألف دينار.

قال: وكان عارفاً بمذهب أبي حنيفة النعمان رضي الله عنه، وليس عنده تعصب على أحد، والمذاهبُ كلها عنده سواء.

قال ابن عساكر: وسمع نورُ الدين الحديثَ وأسمعه، وكان قد

استجيز لـه ممن سمعـه، وجمعه حرصـاً منه على فعـل الخير في نشر السنة بالأداء والتحـديث، ورجاء أن يكون ممـن حفظ على الأمة أربعين حـديثاً كما جـاء في الخبر. فمـن رآه شاهـدَ مـن جَـلال السلطنة وهيبـة المملكـة مـايبهره، فـاذا فـاوضه رأى مـن لطـافته وتـواضعـه مايحيّره. وكـان يحبّ الصالحين ويؤاخيهم ويزورهم في أماكنهم لحسن ظنه فيهم.

قال الشيـخ شهاب الديـن في المرآة: وقد صنـف له جَدّي كتـاباً سماه البحر النوري فيه أحاديث العـدل والجهاد ومواعظ وغير ذلك، وصنف نور الدين أيضاً كتابا في الجهاد وهو بـدمشق، ثم قال: فقد ذكرت مانقله علماء السير مما وقع له من سيرته، ومايستدل بها على صالح سريرته، وقد وقع لي مـآثر لم يذكـروها، ومفاخر لم يسطـروها، لم تكن لغيره مـن ملوك الجاهلية ولا الإسلام، ولارأوها في الأحلام.

وكـان مشغولاً بصيـد الغزلان، ومـازال بدر مبـادرته إلى الخيرات يتـم ولانقصان، هـذه المكارم لاقعبان، وهذه الفصـاحة لاسحبان، فمـن ذلك انه كان في عزمه ان يفتح البيت المقدس، فعمل منبراً وقبلةً بجامع حلب على اسم القدس، فتوفي إلى رحمة الله تعالى قبـل الفتوح، فلما ملك صلاح الدين بيتَ المقدس حملَ المنبرَ إليه، وأبقى القبلة بجامع حلب.

ومنها أنه كان لـه عجائز بدمشق وحلب، وكان يخيـط الكوافي ويعمل السكاكر للأبـواب وتبيعها العجائز ولايدري بهن أحد، فكان يـوماً يصوم ويفطر على أثمانها.

وحكى لي شرف الدين يعقوب ولـد المبارز المعتمد أن في دارهم سكرة من عمـل نور الديـن على خرستـان، وهي باقيـة إلى سنة خمسين وستمائة يتبركون بها.

ومنها ماحكـاه لي الشيخ أبو عمر شيخ المقادسـة رحمه الله تعالى قال:

-١٠٨١٠-

كان نـور الدين يـزور والد الشيخ أحمد في المدرسـة الصغيرة التي على نهر يزيد المجاورة للـدير، ونو الدين بنى هذه المدرسـة والمصنع والفرن، قال: فجاء يومـاً لزيارة والدي، وكـان في سقف المسجد خشبة مكسـورة فقال له: يانـور الدين، لو كشفـت السقف وجدّدته فنظـر إلى الخشبة وسكت، فلما كـان من الغـد جاء معماره ومعـه خشبة صحيحـة، فنظر إلى الخشبـة المكسـورة ومضـى، فعجـب الجماعـة، فلما جاء إلى الـزيـارة قـال بعـض الحاضرين: يانور الدين، ناكـرتنا في كشف سقف وإعادته، فقال: لاوالله، وإنما هو الشيـخُ أحمد رجل صـالح وإنما أزوره لأتنفـع به، ومـاأردتُ أن أزخـرف لـه المسجد، وانقـضَ مـاهـوصحيـح، وهذه الخشبـة يحصـل بها المقصود، فدعوني مع حسن ظني فيه، فلعلّ الله ان ينفعني ببركته.

ومنها ماحكـاه لي رجل من أهل حران لقبه الشيـخ حياة في سنة خمس وستمائة، وقد كان نيف عن التسعين سنة، قـال: لما قُتل أتابك زنكي على قلعـة جعبر وملك نـور الـدين قلعـة حلـب، تصدق وأزال المكـوس ورد المظالم، وأنا حديـث عهد بعرس، وقد ركبني دين، فقـالت لي زوجتي: قد سمعت أوصـاف نور الديـن وإحسانه إلى النـاس، فلو قصدتـه وأنهيت إليه حـالك لقضى دينـك ، قال: فخرجت مـن حران وليس معـي سوى درهمين، تـركت عنـدهـا درهماً، وتزودت بـدرهـم، وأتيـتُ الفرات وقـت القائلـة، فعبرتُ جسر منبج، وخلعت ثيابي، ونـزلت فتوضـأت، وصليت ركعتين، وإذا إلى جانبـي رجلٌ ملفـوف في عباءة، فقـال لي: يا فقير، مـن أيـن أنت؟ قلـت: أنا فقير مـديون، وقـد بلغنـي إحسانُ نـور الديـن إلى الخلق فقصدته لعلـه يقضي ديني، فقال: وأين أنت من نـور الدين، ومن يوصلـك إليه؟ كـم عليك دين؟ قلـت: خمسون ديناراً، فـأخرج يـده من العباءة وبحث في الرمـل، وأخرج منه قرطاساً وألقـاه إليّ، وقال: خذ هذا واقـض به دينـك، وارجع بـه إلى أهلك قـال: فأخـذته فعـددته وإذا بـه خمسون دينـاراً، والتفت فلـم أره، فبهت وبت في مكـاني أفكر هـل أرجع إلى حـران أو أمضي إلى حلـب، وقلـت في نفسي : فهـذه أو في بها دينـي

فمن أين أتقوت؟ ثم قمت وقصدت طريق حلب، فبت بباب بزاعة، وقمت في الليل فأصبحت تحت قلعة حلب وقمت الصباح، وإذا قد فتح بابها ونزل نور الدين في أبهة عظيمة والأمراء بين يديه حتى جاء إلى الميدان.

فلما أراد أن يدخل، نظر إليّ ورمقني طويلاً، وأشار إلى خادم بين يديه فجاء إليّ وقال: قم، فأخذني وصعد بي القلعة، قال: فندمتُ على مجيئي إلى حلب، وقلت: ياليتَني قبلت من ذاك الرجل الصالح، ولعلّ نور الدين توهم أني اسماعيلي فداوي، فلما كان بعد ساعة، عاد نورُ الدين إلى القلعة، وجلس في الإيوان، ومدّ سماط عظيم ولم يمد يده إليه، وإذ فُتح باب عن يمينه وخرج منه خادم وعلى يده طبق خوص وفيه عصارة عليها رغيف، فتأملتُها من بعيد فإذا هي ثردة، فتناول منها شيئاً يسيراً وأكل الناس، وأكلتُ معهم. وانصرفَ الناس، وبقيتُ قاعداً خائفاً، فأوما إليّ، فقمت وأتيتُ بين يديه وأنا خائف أرعد، فقال: من أين أنت؟ فقلت: من حران. قال: وماالذي أقدمك؟ قلت: عليَّ دين، وبلغني إحسانُك إلى الناس، فقصدتُك لتقضي ديني، قال: وكم دينك؟ قلتُ خمسون ديناراً، قال: أفما قد أعطاك أمس صاحب العباءة على الفرات خمسين ديناراً؟ هلا رجعت إلى أهلك وأنت عليك خرقة الفقر، وإذا حصل القوت للفقير مايطلب شيئاً آخر! ثم قال: مانضيع تعبك، ورفع سجادتَه وكانت زرقاء، فإذا بقرطاس مثل القرطاس الذي أعطاني صاحب العباءة، قال: فبكيت بكاءً كثيراً وقلت: لاآخذه حتى تخبرني بصاحب العباءة، فقال: هذا أمر لايلزمك، فقلت: يامولانا، أنا رجل غريب ولي حرمة، فبالله عليك أخبرْني! فقال: احلف لي أنك لاتحدّث بهذا في حياتي. فحلفتُ له، فكشف القباءَ عنه، وإذا بتلك العباءة على جسده، وقال:أنا ذاك الفقير، فقلت: بالذي أعطاكَ هذه المنزلةَ بأي شيء وصلتَ إلى هذا؟ فقال: بقوله تعالى:(إنّ الذين سبقَتْ لَهُمْ مِنّا الحُسنى)[١٤] ولكن لابد من السبب. لما التقينا بالفرنج على حارم ونصرنا

الخمـــة، ونم أنت وإياه على باب البرج، قال: فقلتُ في نفسي: هذا الشيخ في زمن شبابه ماارتكبَ كبيرة لما ارتفع يقع فيها، والله لأقتلَنّه قبل أن يقع في معصية، قال: فعمدت إلى كاذة (١٥) لي فأصلحتُها وقلت: والله لأقتلنه قبل أن يصل إليه، وجئتُ بالمملوك إلى الخيمة فسهرت عليه ونور الدين في أعلى البرج، فلما كان وقتُ السَّحر غلبتني عيناي، فنمتُ فوقعت يدي على خدّ الغلام، واذا به مثل الجمرة وقد أخذته الحمّى، فأخذته ومضيت إلى خيمتي، فلما أصبحت أحضرت الطبيب فرآه، فقال: هذا مرضه سماوي، فلما كان وقتُ الظهر مات، فغسّلتهُ وكفنّته ودفنته، فلما كان في اليوم الثاني دعاني نو رالدين: قال: اقعُدْ فقعدت، فقال: ياسهيل(إنّ بعض الظنّ إثم) (١٦) قال: فاستحييت، قال: قد عرفتَ حالي وأنتَ ربيتني، هل عثرتَ لي على زلة؟ قلت: حاشى لله. قال: فلم حملت الكاذة وحدثتك نفسك لي بالسوء؟ ما أنا معصوم. لما رأيت الغلام وقع في قلبي منه مثل النار، فعلمت أنه من تسويل الشيطان فقلت: اشتـــــــــره لعـــــــل يـــــــــذهـــــــب عني ماأنا فيه، فلم يذهب، فقالت لي: ماأقنع إلا بأن تحضره عندك في البرج الليلة، فأمرتك أن تحضرَه فأحضرتَه، فلما كان في تلك الليلة ماتركتني أنام، وبقيتُ أنا وإياها في حرب إلى الصباح وقت السحر، فهممت أنْ أفتح باب البرج وأصعده إلى عندي، فجاءتني اليقظةُ وكشفت رأسي، وقلت: إلهي، محمود عبدك، المجاهد في سبيلك، الذابُّ عن دين نبيِّك عليه أفضل الصلاة والسلام، الذي عمّر المدارسَ والربط، ووقف الأوقاف، وفعل مافعل تختم أعماله بمثل هذا؟ قال: فسمعت هاتفاً يقول: قد كفيناكَ يامحمود أمره، لابأس عليك! فعلمت أنه قد حدث به حادث، وأما أنت ياسهيل فجزاكَ الله عن الصّحبة خيراً، والله إنَّ القتل أهونُ عليّ من الوقوع في المعصية. ثم قدّم سهيلاً وأحسن إليه.

قال: وحكى لي الكمال ابن البانياسي ابن أخي الشهاب قال: حكى لي

من يتولى أوقافَ نور الدين أنه أجّر بعض بساتينه لرجل من دمشق بستمائة درهم، فأصابت البساتينَ جائحة، فجاء ذلك الرجل يتضرر، فأسقطوا عنه ثلاثمائة درهم، فلما كان بعد أيام، جاء الرجلَ ومعه ستمائة درهم وهو يبكي، فقلنا له: مالك؟ فقال: رأيتُ في المنام وقد خرج عليّ نورُ الدين من قبره وبيده جوكان وقال: أنت تكسر وقفي، وأراد ان يضربني، فقلت: أنا تائب، ورمى بالدراهم، فقلنا له: خذها، فقال: لاوالله ، أخاف ان يضربني.

قال: وحدث رجل من أهل حرّان قال: خرج يوماً نور الدين من حران قاصداً إلى الرّها، فاجتاز على نهر وفقير نائم على جانب النهر، فوقف وسلّم عليه، فرفع الفقير رأسه وقال بيده كذا، ومعناه في أيّ شيء أنت، فحرّك نور الدين اصبعاً واحدة، فحرك الفقير اصبعين، ومضى نور الدين باكياً، فقيل له: ماهذا؟ قال: أشار إليّ الفقير فقال: في أيّ شيء أنت؟ وهذا كلّه لماذا؟ فقلت: من أجل رغيف واحد، فأشار إلي بإصبعيه وقال: فأنا آكل كلّ يوم رغيفين ومأأنامثلك.

وقال الفقيه أبوالفتح الأشيري معيد النظامية وكان قد جمع سيرةً مختصرة لنور الدين: بلغنا عن جماعة يُعتمد على قولهم أنَّ نور الدين كان أكثر الليل يصلّي ويناجي ربه مقبلاً بوجهه عليه ويؤدي الصلوات الخمس في أوقاتها بتمام شرائطها وأركانها وركوعها وسجودها.

قال: وبلغنا عن جماعة من الصوفية الذين يعتمد على أقوالهم ممن دخلوا ديار القدس للزيارة حكاية عن الكفار أنهم يقولون: ان القسيم إبن القسيم، يعنون نور الدين، له مع الله سر، فإنه مايظفر علينا بكثرة جنده وعسكره، وإنما يظفر علينا وينصر بالدعاء وصلاة الليل، فإنه يصلي الليلَ ويرفع يديه إلى الله ويدعو والله سبحانه وتعالى يستجيب دعاءه ويعطيه سُؤله، ومايردُّ يده خائبة، ويظفر علينا بهذا. فهذا كلام الكفار في حقه.

وحدّث الشيخ داود المقدسي خادم قبر سيدنا شعيب عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام قال: حضرت في دار العدل في شهر ربيع الأول سنة ثمان وخمسين، فحضر رجلٌ زاهد وفيه سمة الخير معروف بالسداد والصلاح، فسألت عنه، فقالوا: أخو الشيخ أبي البيان. وكان شخصٌ قد أودع عند أخيه أبي البيان وديعةً وقد توفي، فادعى المودع على هذا الشيخ أنه يعلم بالوديعة وطالبه بالردّ عليه، فأنكرَ هذا الرجل علمه بالوديعة، فأوجب عليه القاضي كمال الدين حكم الشرع ان يحلف أنه لاعلم له بهذه الوديعة، فحلف على ذلك، فجعل المودع يشنِّع عليه ويقول: انه حلف كاذباً، ويتكلم في عرضه، ويقول في حقه من التنمس وغيره، فحضر إلى عند الملك العادل شاكياً منه، وذاكراً سيرتَه وطريقته، ومن ذا الذي يقدر ان يقول في حقِّي هذا، ويتعرض بالتماسه من الملك العادل التقدم باحضاره والإنكار عليه مما يقول في حقه، فلما فرغ من هذا الكلام ورمى ماكان في جُعبته من دعوى الحقيقة والطريقة، وكان حاصلُه التماس الإنكار عليه، فقال له الملك العادل: أليس ان الله تعالى يقول:(وإذا خاطَبَهم الجاهِلُون قالوا سَلاماً) (١٧) يجهل عليك، ويقول في حقِّك بالجهل مالايجوز، فيجب عليك ان لاتعمل معه مثل معاملته فتكون مثله، وكأنك قابلتَ الاساءة بالاساءة، ومن حقِّك ان تقابل الاساءة بالإحسان، فقلت في نفسي: الحقُّ ماقال الملك العادل، إما قرأ هذا في كتب التفاسير فثبت في قلبه، او أجراه الله على لسانه وأنطقَه به.

قال قاضي القضاة بهاء الدين بن رافع بن تميم: كان نور الدين ينفذ في كل سنة في شهر رمضان يطلب من الشيخ عمر الملاء شيئا يفطر عليه، فكان ينفذ إليه الأكياس فيها الفتيت والرقاق وغير ذلك، فكان نور الدين يفطر عليه، وكان إذا قدم الموصل لايأكل إلا من طعام الشيخ عمر الملاء.

وقال صاحب المرآة حكى لي شيخنا تاج الدين الكندي رحمه الله قال:

الله تعالى عليهم وعُدْتُ إلى حلب، التقاني شاب حسنُ الوجه طيّب الرائحة، فسلّم عليّ، وقال: يامحمود، أنت من الأبدال، قد أعطاك الله الدنيا، فاشترِ بها الآخرة، وسَلْه مهما شئت، ثم علّمني كلمات وقال: إذا طلبت أمراً فاذكرها، فقلت له: من أنتَ رحمك الله؟ قال: أنا أخوك الخضر، ثم غاب عني، فإذا عزمتُ على أمر، أو أردتُ أن أذهبَ إلى مكة أو المدينة أو أيّ بلد شئتُ لبستُ هذه العباءة وتكلمتُ بتلك الكلمات، وأغمضُ عيني وما أفتحها إلا وأنا في تلك البقعة.

قال: حكى لي نجم الدين الحسنُ بن سلام، أحدُ عدول دمشق وأعيانها، وكان صديقنا قال: لما ملك الأشرفُ بن العادل دمشق وعمر مسجد أبي الدرداء في القلعة، دخلتُ عليه يوماً وهو فيه، فقال لي: يانجم الدين، كيف ترى هذا المسجد وقد عمّرتهُ وأفردتُهُ عن الدور، وماصلّى فيه أحد منذ زمن أبي الدرداء إلى الآن؟ قال: فقلت له: الله الله يامولانا، مازالَ نورُ الدين منذ ملك دمشقَ يصلِّي فيه الصلوات الخمس، قال: من أين لك هذا؟ قلت: حدّثني والدي أنه لما نزلتِ الفرنج على دمياط بعد وفاة أسد الدين وضايقوها، أشرفَتْ على الأخذ، فأقام نور الدين عشرين يوماً صائماً لايُفطر إلا على الماء، فضعف وكاد يتلف، وكان مُهاباً فلم يتجاسرْ أحد أن يخاطبه في ذلك، وكان له إمام يقال له يحيى ضرير يصلِّي به في هذا المسجد، وكان يقرأ عليه القرآن وله عنده حُرمة. فاجتمع إليه خواصُّ نور الدين وخَدَمه، وقالوا: قد خِفْنا على السلطان، ونحن من هيبته مانقابله، وأنت تدل عليه، ونسألك أن تسأله أن يتناولَ مايحفظُ به قُوَّته، قال: نعم إذا صليّتُ بعد غداة غد الفجر سألته. قال: فلما كان في تلك الليلة رأى الشيخُ يحيى في المنام رسول الله ﷺ يقول له: يايحيى، بشّر نورَ الدين محمود برحيل الفرنج عن دمياط، قال: فقلت: يارسول الله، ربما لايصدّقني، وأريدُ أمارة، قال: قل له بعلامة يوم حارِم، قال: فانتبه يحيى وهو ذاهبُ العقل، فلما صلّى نور الدين خلفه الفجرَ وسلّم وشرع يدعو، فهابه أن يتحدّث معه، فقال له

نور الدين: يايحيى، قال :لبيك يامولانا، قال: تُحدِّثني أو أحدِّثك؟ فارتعد يحيى وخرس، فقال: له: أنا أُحدِّثك: رأيتَ رسول الله ﷺ في نوم هذه الليلة وقال لك كذا وكذا، فقال: نعم، فبالله يامولانا مامعنى قوله ﷺ بعلامة يوم حارم. فقال نور الدين: لما التقى الصّفان خفتُ على الاسلام لأني رأيتُ من كثرة الفرنج ماهالني، فانفردت عن العسكر، ونزلت فمرَّغتُ وجهي في التراب، فقلتُ:ياسيِّدي، من محمود في الفئتين، الدين دينك، والجند جندك، وهذا اليوم فافعل مايليق بكرمك، قال: فنصرنا الله عليهم.

قال: وحدثني شهاب الدين ابن البانياسي عم كمال الدين ابن البانياسي وكان على ديوان جامع دمشق، أول ماقدمت الشام اجتمعتُ به في درب الشعارين في قاعة الوزير صفيٍّ الدين بن شكر وزير العادل إبن أيوب، وكان هناك جماعة، فاشتغل الوزيرُ بالحديث معهم، وكان الشّهاب إلى جانبي، فتذاكرنا نور الدين، فقال: كان أبي يخدم نورَ الدين في أسفاره ومقامه على ديوانه، قال: حكى لي وأنا صغير، قال: خرج نورُ الدين من دمشق يتصيد في أرض قطنا ويعفور وأنا معه، فبينما هو ذاتَ يوم قد ركب من المخيم ليذهب إلى الصيد، إذا برجل أعجمي قد أقبل من ناحية دمشق ومعه خيل ومماليك، وكان تاجراً، فلما وصل إلى نور الدين، ترجَّلَ وقبل الأرض، فرحب به نور الدين وكان صديقه، قال: أين الأرمغان؟ قال: حاضر، ومضى نور الدين ، فلما عاد استدعاه، فاحضر قماشاً وعدةَ مماليك فيهم مملوكٌ مستحسن جداً،فقبل المملوكَ وردَّ الباقي، وكان له خادمٌ أبيض اسمه سهيل قد رباه، فقال له: ياسهيل، خذ هذا المملوكَ وادفَعْ إلى التاجر خمسمائة دينار وخلعةً وبغلة. قال أبو الشهاب: فحدثني سهيل، قال: لما قال كذا، قلت في نفسي: إنا لله وإنا إليه راجعون، هذا ماشترى مملوكاً قط يساوي خمسين ديناراً يشتري مملوكاً بخمسمائة دينار، قال: ففعلت ماأمرني فتركني اياماً وقال: ياسهيل، احضر المملوك مع المماليك كل يوم يقف في الخدمة، قال: فأحضرته، فلما كان بعد أيام قال لي: أحضره وقت العشاء الآخرة الى

لم يتبسم نور الدين إلا نادرا، قال: وحكى لي جماعة من شيوخنا المحدثين أنهم قرأوا عليه حديث التبسم وكان يرويه، فقالوا: تبسم، فقال: لاوالله لاأبتسم من غير عجب.

ذكر ألقابه التي جاءت من بغداد مع الخلعة ويخطب له بها على المنابر

اللهم وأصلح المولى السلطان الملك العادل العالم العامل الزاهد العابد، الورع المجاهد، المرابط المثاغر نور الدين وعدته، ركن الاسلام وسيفه، قسيم الدولة وعمادها، اختيار الخلافة ومعزها، رضي الامامة وأثيرها، فخر الملة ومجيرها، شمس المعالي وملكها، سيد ملوك المشرق والمغرب وسلطانها، محيي العدل في العالمين، منصف المظلوم من الظالمين، ناصر دولة أمير المؤمنين.

ثم إن نور الدين أسقط الجميع قبل موته، وقال: اللهم وأصلح عبدك الفقير محمود بن زنكي.

وروي أنه كتب رقعة بخطه إلى وزيره خالد بن القيسراني يأمره بأن يكتب له صورة مايدعى له على المنابر، وكان مقصوده صيانة الخطيب عن الكذب، ولئلا يقول ماليس فيه فكتب ابن القيسراني كلاما دعا له فيه، ثم قال: وأرى حين يقال على المنبر: اللهم وأصلح عبدك الفقير إلى رحمتك، الخاضع لهيبتك، المعتصم بقوتك، المجاهد في سبيلك، المرابط لأعداء دينك، أبا القاسم محمود بن زنكي بن آق سنقر ناصر أمير المؤمنين، فإن هذا مايدخله كذب على نور الدين، فكتب نور الدين على رأس الرقعة بخطه ماصورته: مقصودي أن لايكذب على المنبر، أنا بخلاف مايقال، أفرح بما لاأعمل، قلة عقل، عظيم الذي كتبت به جيد، اكتب به نسخا إلى البلاد.

وكتب في آخر الرقعة ثم يبدأ بالدعاء: اللهم أره الحق حقا، اللهم

أسعده، اللهم أنصره، اللهم وفقه، من هذا الجنس، وكان يقول لأصحابه: حرام على كل من صحبني ولايرفع إلي قصة مظلوم لايستطيع الوصول إلي.

قال ابن الأثير: حكى لنا الأمير بهاء الدين علي بن السكري وكان خصيصا بخدمة نور الدين قال: كنت مع نور الدين يوما في الميدان بالرها والشمس في ظهورنا فكلما سرنا تقدمنا الظل، فلما عدنا صار الظل وراء ظهورنا، فأجرى فرسه وهو يلتفت وراءه ،ثم قال لي: أتدري لأي شيء أجري فرسي والتفت ورائي؟ قلت: لا، قال: قد شبهت مانحن فيه بالدنيا تهرب ممن يطلبها، وتطلب من هرب منها، فرضي الله عن ملك يفكر في مثل هذا، وأنشد صاحب الروضتين في هذا المعنى:

مثل الرزق الذي تطلبه
مثل الظل الذي يمشي معك
أنت لاتدركه متبعا
فإذا وليت عنه تبعك

وذكر عبد الرحمن بن نصر الشيزري في كتابه المسمى المنهج المسلوك في سياسة الملوك، قال: حدثني الفقيه أبو طاهر ابراهيم بن الحسين بن الحصني الحموي قال: كنت عند الملك العادل محمود بن زنكي في دار العدل بدمشق، وقد أخرج جريدة خراج الأملاك فجعل ينظر فيها، فلما انتهى إلى ذكر خراج معرة النعمان قال: إني عزمت على انتزاع أملاك أهل المعرة من أيدي أهلها، فقد رفع إلي أهل الخبر من الثقات أن جميع أهل المعرة يتقارضون الشهادة، فيشهد أحدهم لصاحبه في دعوى ملك حتى يشهد معه ذاك في دعوى أخرى، وان الملك الذي بأيديهم إنما حصل لهم بهذا الطريق، قال: فقلت له: أيها الملك، إن الله أوجب عليك العدل في رعيتك، فانظر واكشف، وتوقف في الأمور إذا رفعت اليك، فإن أهل المعرة خلق كثير، كيف تستحل تواطؤهم على شهادة الزور وانتزاع

الأملاك من أربابها بمجرد هذا القول؟ لايجوز، قال: فأطرق ساعة ثم قال: إني أمسكها عليهم، ثم أكشف عنها بعد ذلك، والتفت إلى كاتبه وقال: اكتب إلى الوالي بالمعرة ليمسك جميع الملك الذي في أيدي أهله حتى تستدعي البينة في ذلك، فكتبه ووضعه بين يديه ليعلم عليه، وإذا صبي على شاطىء بردى يغني ويقول:

اعدلوا مادام أمركم ... نافذا في النفع والضرر

واحفظوا أيام دولتكم ... إنكم منها على خطر

إنما الدنيا وزينتها ... طيب ما يبقى من الأثر

قال: فلما سمع الملك العادل ذلك تغير لونه، وهملت عيناه بالدموع، ثم نظر فقال:(فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره إلى الله)[١٨] ثم استدار نحو القبلة وقال: اللهم إني أستغفرك وأتوب إليك مما عزمت عليه الآن، ثم تناول الكتاب فمزقه وجعل يستغفر الله جميع ذلك اليوم.

وحكى الشيخ جمال الدين المطري رحمه الله في تاريخ المدينة الشريفة له على ساكنها أفضل الصلاة والسلام، قال: وصل السلطان الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي بن آق سنقر رحمه الله في سنة سبع وخمسين وخمسماية إلى المدينة الشريفة لرؤيا رآها ذكرها بعض الناس، وسمعتها من الفقيه علم الدين يعقوب ابن أبي بكر المحترق أبوه ليلة حريق المسجد الشريف عمن حدثه عن أكابر من أدرك: أن السلطان محمودا المذكور رأى النبيﷺ ثلاث مرات في ليلة واحدة وهو يقول له في كل مرة: يامحمود، أبعدني عن هذين الشخصين، يشير إلى أشقرين تجاهه، فاستحضر وزيره قبل الصبح، فذكر له ذلك، فقال: هذا أمر قد حدث في مدينة النبيﷺ ليس له غيرك، فتجهز وخرج على عجل

بمقدار ألف راحلة ومايتبعها من خيل وغير ذلك حتى دخل المدينة على غفلة من أهلها والوزير معه، فزار وجلس في المسجد لايدري مايصنع فقال له الوزير: تعرف الشخصين إذا رأيتها؟ قال: نعم، فطلب الناس عامه للصدقة، وفرق عليهم ذهبا كثيرا وفضة، وقال: لايبقى أحد بالمدينة إلا جاء، فلم يبق إلا رجلان مجاوران من أهل الأندلس نازلان في الناحية التي هي قبلة حجرة النبيﷺ من خارج دار آل عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه التي تعرف اليوم بدار العشرة، وطلبهما للصدقة فامتنعا وقالا: نحن على كفاية مانقبل شيئا، فجد في طلبهما، فجيء بهما، فلما رآهما قال للوزير: هما هذان، فسألهما عن حالهما وماجاء بهما، فقالا: لمجاورة النبيﷺ فقال: أصدقاني، وتكرر السؤال حتى أفضى إلى معاقبتهما، فأقرا أنهما من النصارى وأنهما توصلا لكي ينقلا من في هذه الحجرة الشريفة باتفاق من ملوكهم، فوجدهما قد حفرا نقبا تحت الأرض من تحت حائط المسجد القبلي وهما قاصدان إلى جهة الحجرة الشريفة، ويجعلان التراب في بئر عندهما في البيت الذي هما فيه، فضرب أعناقهما عند الشباك الذي في شرقي حجرة النبيﷺ خارج المسجد، ثم أحرقا بالنار آخر النهار، وركب متوجها إلى الشام، فصاح به من كان نازلا خارج السور واستغاثوا وطلبوا أن يبني عليهم سورا يحفظ أبناءهم وماشيتهم، فأمر ببناء هذا السور المجدد اليوم فبني في سنة ثمان وخمسين، وكتب اسمه على باب البقيع فهو باق إلى اليوم، رحمه الله وقدس روحه.

الباب السادس

في نبذة مما مدح به من الأشعار الفائقة والقصائد البديعة الرائقة

وكان رحمه الله قليل الابتهاج بالشعر ويجيز عليه، وقد مدح بأشعار كثيرة، وأوصافه فوق مامدح به، وكان في أول دولته شاعرا زمانهما أبو عبد الله محمد بن نصر بن صغير القيسراني، وأبو الحسن أحمد بن منير، ولهما فيه مدائح، وله إليهما منائح، فمن ذلك قول ابن القيسراني فيه:

ذو الجهادين من عدو ونفس
فهو طول الحياة في هيجاء
أيها المالك الذي ألزم النا
س سلوك المحجة البيضاء
قد فضحت الملوك بالعدل لما
سرت في الناس سيرة الخلفاء
قاسما ما ملكت في الناس حتى
لقسمت التقى على الأتقياء
شيم الصالحين في جتر الترك
وكم من سكينة في قباء
أنت حينا تقاس بالأسد الورد
وحينا تعد في الأولياء
صاغك الله من صميم المعالي
حيث لا مشبه سوى الآلاء
وكأن القباء منك لما ضم
من الطهر مسجد بقباء
أنت إلا تكن نبيا فما تلك
إلا خلائق الأنبياء
رأفة في شهامة، وعفاف
في اقتدار، وسطوة في حياء

وجمال ممنطق بجلال
وكمال متوج ببهاء
وكأن السيوف من عزمك الماضي
أفادت ما عندها من مضاء
ولعمري لو استطاع فداك الـ
ـقوم بالأمهات والآباء

وله أيضاً فيه:

لله عزمك أي سيف وغى
طبعت مضاربه على القهر
ما زفت الحرب العوان به
إلا انجلت عن معقل بكر
هل وجه نور الدين غير سنا
سطع الدجى عن خجلة البدر
ملك مهابته طليعته
أبداً أمام جيوشه تسري
كم فك كيدهم بصاعقة
شغلت قلوبهم عن الفكر
تركت حصونهم سجونهم
فالقوم قبل الأسر في أسر
عصم العواصم فهي ضاحكة
تجلو الظبى ثغراً على ثغر
وإذا سرايا خيله قفلت
نهضت سرايا الخوف والذعر
ورمى القلاع بمثل جندلها
حتى استكان الصخر بالصخر
يا سائلي عن نهج سيرته
هل غير مفرق هامه الفجر

عـــدل حقيـــق مـــن تـــأملـــه
أن يحيـــي العمـــريـــن بـــالـــذكـــر
وشهـــامـــة في الله خـــالصـــة
عقـــدت عليـــه تمائم الأجـــر
ونـــدى يـــد مـــاضر واردهـــا
ألا يبيـــت مجاور البحـــر
هـــذا المخيـــم في ذرا حلـــب
وثنـــاؤه أبـــدا على ظهـــر

وله أيضا:

ملـــك أشبـــه الملائك فضـــلا
وشبيـــه بهالـــك الأمـــر جنـــده
عـــم إحســـانـــه فـــأصبـــح يتلى
شكـــره في الـــورى ويـــدرس حمده
فسقـــى الله ذكـــره أينما حـــل
ولافـــاتـــه مـــن النصر رفـــده

وله أيضا فيه:

ســـام الشـــآم ويـــا الهامـــن صفقـــة
لـــولاه مـــا اعنـــت على يـــد ســـائم
تلـــك التـــي جمحـــت على مـــن راضهـــا
ودعـــوت فـــانقـــادت بغير شكـــائم
وإذا السعـــادة ســـاعـــدت في دولـــة
قـــام الـــزمـــان لها مقـــام الخادم
حصـــن بـــلادك هيبـــة لا رهبـــة
فـــالـــدرع في عـــدد الشجـــاع الحازم
هيهـــات يطمـــع في محلـــك طـــامـــع
طـــال البنـــاء على يمين الهادم
كلفـــت همتـــك السمـــو فكلفـــت
وكـــأنمـــا هـــي دعـــوة مـــن ظـــالـــم

وأظـــــن أن النــــــاس لما لم يـــــروا
عـــدلا لعـــدلـك أرجفـــوا بـــالقـــائم

ولابن المنير فيه:

أيــا ملـــك الـــدنيـــا الحلاحـــل والـــذي
لـــــه الأرض دار والبريـــــة أعبـــــد
وليســـت بـــدعـــوى لا يقـــوم دليلهـــا
ولكنــــه الحق الــــذي ليـــس يجحـــد
أخـــو غـــزوات كـــالعقـــود تنـــاسقـــت
تحل بــــأجيـــــاد الجيــــاد وتعقــــد
لســـــان بـــذكـــــر الله يكســـــو نهاره
وجفـــن في الـــدجـــى ليـــس يـــرقـــد
وبـــذل وعـــدل أغـــرقـــا وتـــألقـــا
فـــلا الـــورد مثمـــود(١٩) ولا الباب مؤصد
قـــــوام سماوي، وحـــــزم مســــدد
ورأي شهـــــابي، وعـــــز مــــؤيـــــد

الباب السابع

في ذكر غزواته العديدة وفتوحاته السعيدة وماجرى في زمانه من الأمور الغريبة والحوادث العجيبة من ولادته إلى وفاته

سنة إحدى عشر وخمسمائة

فيها ولد نور الدين محمود

وفيها غرقت سنجارمن سيل المطر، وهلك فيها خلق كثير حتى إن السيل أخذ باب المدينة وذهب به عدة فراسخ، واختفى تحت التراب الذي جره السيل ثم ظهر بعد سنين، ومن أعجب ماحكي أن السيل حمل مهدا فيه طفل، فعلق المهد في شجرة، ونقص الماء وسلم ذلك الطفل، وغرق غيره من الماهرين في السباحة.

وفيها زلزلت إربل وبغداد وغيرهما من البلاد المجاورة لها زلزلة عظيمة، ووقع بالجانب الغربي من بغداد دور وحوانيت على أهلها.

وفيها هجم الفرنج على ربض حماة، وقتلوا خلقا كثيرا ورجعوا إلى بلادهم.

وفيها توفي السلطان(غياث الدين) محمد بن ملكشاه السلجوقي سلطان بلاد العراق وخراسان وغير ذلك من البلاد الشاسعة والأقاليم الواسعة، وكان من خيار الملوك وأحسنهم سيرة، وقام بالأمر بعده ابنه محمود وله أربع عشرة سنة، وفرق خزائنه في العسكر، وقيل كانت أحد عشر ألف ألف دينار ومايناسب ذلك من العروض.

سنة اثنتي عشرة وخمسمائة

وفيها مات بغدوين الذي افتتح القدس وكان جبارا خبيثا شجاعا، هم بأخذ مصر، وسار في جموعه حتى وصل بلبيس، ثم رجع عليلا فمات بسبخة بردويل، فشقوه وصبروه ورموا حشوته هناك.

قال الذهبي: فهي ترجم إلى اليوم، ودفن بالقمامة، وتملك القدس بعده القمص صاحب الرها، وكان قد قدم القدس زائرا، فوصى له بغدوين بالملك بعده.

وفيها توفي الخليفة المستظهر، وولي بعده أبو منصور الفضل ولقب بالمسترشد بالله.

ومن الاتفاق الغريب أنه لما مات السلطان ألب أرسلان، مات بعده الخليفة القائم، ثم لما مات السلطان ملكشاه مات بعده الخليفة المقتدي، ثم لما مات السلطان محمد، مات الخليفة المستظهر بالله.

هذا وفيها كان حريق كبير ببغداد واحترقت الريحانين ومسجد ابن عبدون وفيها قبض علي ابي طاهر بن الخزري صاحب المخزن وأعدم وأخذ من داره أربعمائة ألف دينار.

سنة ثلاث عشرة وخمسمائة

فيها خرج على المسترشد أخوه أبو الحسن بن المستظهر بالله، فمضى إلى واسط، ودعا إلى نفسه، واجتمع معه جيش وتملك واسط وأعمالها وجبى الخراج، وشق ذلك على الخليفة، فبعث ابن الأنبارى كاتب

الانشاء إلى دبيس وعرفه ذلك، وقال: إن أمير المؤمنين معول عليك، وجهز صاحب جيشه عنانا في جمع كبير، فلما سمع أبو الحسن ذلك ترحل من واسط في عسكره ليلا، فأضلوا الطريق، وساروا ليلهم أجمع حتى وصلوا إلى عسكر دبيس، فلما لاح لهم العسكر، انحرف أبو الحسن عن الطريق، فتاه مع عدد من خواصه وذلك في تموز ولم يكن معهم ماء وأشرفوا على التلف فأدركه نصر بن سعد الكردي فسقاه حتى عادت نفسه إليه، ونهب ماكان معه من ماله وحمله إلى دبيس إلى النعمانية، فأقدمه إلى بغداد، وخيم بالرقة، وبعث به إلى المسترشد بالله بعد تسليم عشرين ألف دينار قررت عنه، وكانت أيامه أحد عشر شهرا وشهر وزيره ابن رمهويه على جمل ثم قتل في الحبس، ودخل الأمير أبو الحسن على أخيه المسترشد بالله فقبل قدمه فبكيا معا، ثم قال له: فضحت نفسك وباعوك بيع العبيد، وأسكنه داره التي كان فيها وهو ولي عهد، ورد جواريه وأولاده وأحسن السيرة إليه، ثم شدد عليه بعد ذلك.

وفيها خطب بولاية العهد للأمير أبي جعفر منصور بن المسترشد بالله وله اثنتا عشرة سنة.

وفيها كانت الوقعة بين السلطان سنجر ومحمود ابن أخيه، وذلك أن سنجر لما بلغه موت السلطان محمد قصد العراق عازما على أن يملكه، فلما سمع محمود بحركة عمه سنجر نحوه، راسله ولاطفه، وقدم له تقادم، فأبى إلا القتال أو النزول له عن السلطنة، فتجهز محمود، وصمد معه ثلاثون ألفا، وأقبل سنجر في نحو مائة ألف، وكانت الوقعة بصحراء ساوه، وكان مع سنجر خمسة ملوك على خمسة أسرة، وأربعون فيلا عليها البركصطوانات والبراواب والزينة الباهرة وخلق من الإسماعيلية، فلما التقوا هبت ريح سوداء أظلمت الدنيا، وظهر في الجو حمرة منكرة، وآثار مزعجة، وخاف الناس، ثم انكشفت الظلمة واقتتلوا، فانكسرت ميمنة سنجر ثم ميسرته، وثبت هو في القلب وحده، وتفرق

أكثر جيوشه في النهب، فحمل سنجر بالفيلة فولت الخيل منها فتأخر محمود ولم ينهزم، ولم يتبعه سنجر لأنه رأى جيشه قد انهزم أكثره، وثقله نهب، وقتل كثير من أمرائه وأسر وزيره، وأرسل إلى ابن أخيه يقول: أنت ابن أخي وولدي وما أؤاخذك لأنك محمول على ماصنعت، ولاأواخذ أصحابك لأنهم لم يطلعوا على حسن نيتي لهم، فقال محمود: أنا مملوكه، ثم جاء بنفسه وسنجر قد جلس على سريره فقبل الأرض، فقام سنجر فاعتنقه وأجلسه معه، وخلع عليه خلعة عظيمة، وكان على سرج فرس الخلعة جوهر بعشرين ألف دينار، وأكل معه، وخلع على أمرائه وأفرد له أصبهان يكون حاكما عليها وعلى مملكة فارس وخوزستان، وجعله ولي عهده من بعده، وزوجه ابنته، ثم عاد إلى خراسان، ثم جاء رسله بالتقادم إلى الخليفة وهي ثلاثون تخت ثياب وتحف وعشرة مماليك، واقطاع إلى الخليفة بخمسين ألف دينار، وللوزير ببضعة آلاف دينار.

وفيها سارت الفرنج إلى مدينة حلب وفتحوها وملكوها(٢٠)، وقتلوا من أهلها خلقا كثيرا، فسار إليهم صاحب ماردين إيل غازي بن أرتق في جيش كثيف، فهزمهم عنها، ولحقهم إلى جبل قد تحصنوا فيه، فقتل منهم مقتلة عظيمة ولم يفلت منهم إلا اليسير، وأسر من مقدميهم نيفا وسبعين أسيرا، وقتل سيرجال صاحب أنطاكية، وحمل رأسه إلى بغداد.

وفيهاظهر قبر سيدنا ابراهيم الخليل وقبر اسحاق ويعقوب صلوات الله عليهم، ورآهم كثير من الناس لم تبل أجسادهم وعليهم قناديل من ذهب وفضة قاله حمزة بن أسد التميمي في تاريخه على ماحكاه ابن الأثير رحمه الله تعالى.

سنة أربع عشرة وخمسمائة

فيها كانت وقعة عظيمة بين الكرج والمسلمين بالقرب من تفليس

ومع الكرج كفار من القفجاق فقتلوا من المسلمين خلقا كثيرا، وغنموا أموالا جزيلة،وأسروا نحواً من أربعة آلاف أسير، ونهب الكرج تلك النواحي، وفعلوا أشياء منكرة، وحاصروا تفليس، ثم ملكوها عنوة بعدما أحرقوا القاضي والخطيب حين خرجوا إليهم يطلبون الأمان، وقتلوا عامة أهلها، وسبوا الذرية، واستحوذوا على الأموال فلا حول ولاقوة إلا بالله.

وفيها خطب للسلطان سنجر ولابن أخيه محمود معا في موضع واحد، وسمي كل واحد شاهنشاه، ولقب سنجر عضد الدولة، ولقب محمود جلال الدولة.

سنة خمس عشرة وخمسمائة

وفيها انقض كوكب صارت من ضوئه أعمدة عند انقضاضه، وسمع له عند ذلك صوت هزة كالزلزلة.

وفيها هبت بمصر ريح سوداء ثلاثة أيام فأهلكت خلقا كثيرا من الناس والدواب.

وفيها كانت زلزلة عظيمة بالحجاز تضعضع بسببها الركن اليماني زاده الله شرفا، وتهدم شيء من حرم رسول الله ﷺ بالمدينة الشريفة.

وفيها احترقت دار المملكة التي استجدها بهروز الخادم بأصبهان، وكان بها السلطان نائما على سطح، فنزل وهرب في سفينة، وذهب من الفرش والآلات والجواهر مايزيد قيمته على ألف ألف دينار، ولم يبق فيها شيء من الأثاث سوى الياقوت الأحمر، غسل الغسالون التراب وظفروا بالحلي والذهب الذي قد سبك، ولم يبق من الدار ولاخشبة، وأمر السلطان ببناء دار له غيرها، وأعرض عن الدار التي احترقت، وقال: إن أبي لم يمتع بها ولا امتد بقاؤه بعد انتقاله إليها، وذهبت أموالنا فيها.

وفيها احترق بأصبهان جامع كبير أنفقت عليه أموال كثيرة، يقال إنه غرم على أخشابه ألف ألف دينار، وفي جملة مااحترق خمسمائة مصحف ثمينة منها مصحف أبي بن كعب رضي الله عنه.

وفيها كانت ببغداد أمطار عظيمة متوالية، ثم وقع ثلج عظيم، وكثر حتى كان علو ذراع.

قال ابن الجوزي وقد ذكرنا في كتابنا هذا، يعني المنتظم، أن الثلج وقع في سنين كثيرة في أيام الرشيد وأيام المقتدر وأيام المطيع وأيام الطائع والقادر والقائم، وماسمع بمثل هذا الواقع في هذه السنة، فإنه بقي خمسة عشر يوما ماذاب، وهلك شجر الأترج والليمون، ولم يعهد سقوط ثلج بالبصرة إلا في هذه السنة.

وفيها جلس الخليفة المسترشد في دار الخلافة في أبهة عظيمة، والبردة على كتفه والقضيب بين يديه، وجاء الأخوان الملكان محمود ومسعود ابنا محمد بن ملشكاه فوقفا بين يديه، وقبلا الأرض، فخلع على محمود سبع خلع بطوق وسوارين وتاجا، وأجلس على كرسي، ووعظه الخليفة وتلا عليه قوله تعالى:(فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره)[٢١] وأمره بالإحسان إلى الرعية، وعقد له الخليفة اللواء بيده، وقلده الملك، وخرجا من بين يديه ونزلا إلى دارهما والجيش بين أيديهما في أبهة عظيمة.

وفيها مرض وزير السلطان فعاده، وعافاه الله تعالى، وهنأه السلطان بالعافية، فاحتمل واحتفل، وعمل —أعني الوزير— وليمة عظيمة إلى الغاية فيها الملاهي والأغاني نابه عليها خمسون ألف دينار.

وفيها حكى ابن الجوزي عن خط من خبره بالصدق أنه كان في سوق نهر المعلى، ومر بين يديه رجل على رأسه قفص زجاج وهو مضطرب

المشي، يظهر منه عدم المعرفة بالحمل، فما زلت أترقب سقوطه، قال: فسقط فانكسر الزجاج، وبهت الرجل ثم بكى، وقال: هذا والله جميع بضاعتي، والله لقد أصابني بمكة مصيبة عظيمة توفي على هذه، واجتمع حوله جماعة يرثون له ويبكون حوله، وقالوا: ما الذي أصابك بمكة؟ قال: دخلت قبة زمزم وتجردت للاغتسال، وكان في يدي دملج فيه ثمانون مثقالا، فخلعته واغتسلت، وأنسيت وخرجت، فقال رجل من الجماعة: هذا دملجك خذه، له معي سنين، فدهش الناس من إسراع جبر مصيبته.

وفيها قتل الملك الأفضل أحمد بن أمير الجيوش بدر الجمالي مدبر دولة الفاطميين، وخلف من الأموال مالم يسمع بمثله، قال ابن خلكان خلف ستمائة ألف ألف دينار عينا، ومائتين وخمسين إردبا دراهم وخمسة وسبعين ألف ثوب أطلس وثلاثين راحلة أحقاق ذهب عراقي، ودواة ذهب فيها جوهر قيمته اثنا عشر ألف دينار، ومائة مسمار ذهب وزن كل مسمار مائة مثقال في عشرة مجالس، في كل مجلس عشرة مسامير على كل مسمار منديل مشدود مذهب، بلون من الألوان أيها أحب منها لبسه، وخمسمائة صندوق(كسوة لخاصه من دق تنيس ودمياط) وخلف من الخيل والرقيق والبغال والمراكب والطيب، والحلي مالايعلم قدره إلا الله تعالى، وخلف من البقر والجواميس والغنم مايستحيي الإنسان من ذكر عدده، وبلغ ضمان ألبانها في سنة وفاته ثلاثين ألف دينار، ووجد في تركته صندوقان كبيران فيهما إبر ذهب برسم الجواري والنساء.

سنة ست عشرة وخمسمائة

فيها قتل وزير السلطان محمود أبو طالب السميرمي قتله باطني، وكان قد برز للمسير إلى همذان، وكانت قد خرجت زوجته في مائة جارية بمراكب الذهب، فلما بلغهن قتله رجعن حاسرات الوجوه وقد هن بعد العز.

وفيها ظهر معدن النحاس بديار بكر قريبا من قلعة ذي القرنين.

سنة سبع عشرة وخمسمائة

فيها ختن الخليفة المسترشد أولاده وأولاد أخيه، فزينت بغداد وعمل الناس القباب، وعملت خاتون قبة بباب النوى علقت عليها من الديباج والجواهر ماأدهش الأبصار، وعملت قبة على باب السيد العلوي عليها غرائب الحلي والحلل، من ذلك ستران من الديباج الرومي طول الستر عشرون ذراعا على الواحد اسم المقتفي بالله، وعلى الآخر اسم المعتز بالله وبقوا أسبوعا.

سنة ثمان عشرة وخمسمائة

فيها ظهرت الباطنية بآمد، فقاتلهم أهلها فقتلوا منهم سبعمائة نفس، ولله الحمد.

وفيها أخذت الفرنج صور من طغتكين، واستنجد طغتكين بالمصريين فما نجدوه، ولما أشرف طغتكين على الهلاك راسل ملك الفرنج على أن يسلمها إليه ويمكن أهلها من حمل مايقدرون عليه من الأمتعة فأجابه إلى ذلك، ووفى بالعهد وتفرق أهلها في البلاد، ودخلتها الفرنج في اليوم الثالث والعشرين من جمادى الأولى، وكانت من أمنع حصون المسلمين، فإنا لله وإنا إليه راجعون، ودامت في يدهم إلى سنة تسعين وستمائة.

سنة تسع عشرة وخمسمائة

فيها قتلت الباطنة القاضي أبا سعيد محمد بن نصر بن منصور الهروي بهمذان، وكان قد أرسله الخليفة إلى السلطان سنجر يخطب له ابنته.

وفيها قصد دبيس والسلطان طغرل بغداد ليأخذاها من الخليفة، فلما قربا منها برز إليهما الخليفة في جحفل عظيم والناس بين يديه، وعليه السواد والبردة، والقضيب بيده، ثم ركب الناس بعد ذلك، فلما أمست الليلة التي يتقاتلون في صبيحتها، أرسل الله عليهم مطرا عظيما، ومرض السلطان طغرل في تلك الليلة، فتفرقت تلك الجموع ورجعوا على أعقابهم خاسئين خائبين.

سنة عشرين وخمسمائة

فيها استفحل أمر بهرام داعي الباطنية بحلب والشام وعظم الخطب، ثم التمس من طغتكين حصنا يحتمي به، فأعطاه بانياس، فسار إليها، وتجمع إليه أوباش، فعظمت البلية به وبهم، وتألم العلماء وأهل الدين، وأحجموا عن الكلام فيهم والتعرض لهم خوفا من شرهم، لأنهم قتلوا جماعة من الأعيان، وصاروا بحيث لاينكر عليهم ملك ولاوزير(ولايفل حد شرهم متقدم ولاأمير) فلا حول ولاقوة إلا بالله.

سنة إحدى وعشرين وخمسمائة

فيها جاء الخبر بأن السلطان سنجر قتل من الباطنية إثني عشر ألفا، وقتلوا وزيره المعين لأنه كان يحرض عليهم وعلى استئصالهم فتحيل رجل منهم وخدم سائسا لبغال المعين، فلما وجد الفرصة وثب عليه وقتله، وقتل بعده، وكان هذا الوزير ذا دين ومروءة وحسن سيرة.

وفيها فوَّض السلطان شحنكيَّة بغداد إلى عماد الدين زنكي والد نور الدين ثم وَلِيَ بعدَ موت عزِّ الدين مسعود بن آق سنقر في هذه السنة الموصل، فرتب الأمور على أحسن نظام وأحكمِ قاعدة.

وكان الفرنج قد اتّسعت بلادُهم، وكثرت أجنادهم، وامتدّت إلى بلاد المسلمين أيديهم، وضَعُفَ أهلُها عن كفّ عاديتهم، وتتابعت غزواتهم، وامتدّتْ مملكتهم من ناحية ماردين وشبختان إلى العريش، ولم يتخللها من ولاية المسلمين غيرُ حلب وحماة وحمص ودمشق، وكانت سراياهم تبلغ ديار بكر إلى آمد، ومن الجزيرة إلى نصيبين ورأس العين، وأما أهلُ الرقة وحران فكانوا معهم في ذُل وهوان، وانقطعت الطريق إلى دمشق إلاّ على الرحبة والبرية، ثم زاد الأمرُ وعظم الشرّ حتى جعلوا على أهل كلِّ بلد جاورهم خراجاً، ثم لم يقنعوا بذلك حتى أرسلوا إلى دمشق واستعرضوا الرقيق ممن أخذ من الروم والأرمن وسائر بلاد النصرانية، وخيّروهم بين المقام عند أربابهم والعود إلى أوطانهم، فمن اختار المقام تركوه، ومن آثر العود أخذوه، وناهيك بهذه الحالة ذلة للمسلمين، وأما أهل حلب فإن الفرنجَ أخذوا منها مناصفة أعمالها حتى في الرحا التي كانت على باب الجنان، وبينها وبين المدينة عشرون خطوة، وأما باقي بلاد الشام فكان حالُها أشدّ حال من هذين البلدين، فلما نظر الله سبحانه وتعالى إلى بلاد المسلمين وولاها عمادَ الدين زنكي، غزا الفرنجَ في عُقر دارهم، وأخذ للموحدين منهم بثأرهم، واستنقذ منهم حصوناً ومعاقل، وسيأتي تفصيل ذلك ومافتحه من البلاد الإسلامية إن شاءَ الله تعالى.

وفيها ملك عماد الدين زنكي والد نور الدين مدينة حلب وماحولها من البلاد.

وفيها تحارب الخليفةُ والسلطان محمود ببغداد، فثارت العوام مع جيش

الخليفة، فكسروا جيش السلطان، وقتلوا خلقاً من الأمراء، وأسروا ونهبوا دار السلطان ودار وزيره وجرت خبطة عظيمة جداً، ونالت العوام من السلطان، وجعلوا يقولون له: ياباطني، تترك الفرنج والروم وتقاتل الخليفة! ثم حصل الصلح بينهم وتحالفوا، ودخل جيشُ السلطان إلى بغداد وهم في غاية الجهد من قلة الطعام عندهم في المعسكر، وقالوا: لو لمْ نصالح لمتِنا جوعاً، وظهر من السلطان حلم كبير على العوام.

سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة

فيها فتح عماد الدين زنكي جزيرةَ ابن عمر ثم مدينة إربل، وعظم شأنه، واتسعت دولته.

سنة ثلاث وعشرين وخمسمائة

فيها ملك عماد الدين زنكي سنجار والخابور والرحبة، وافتتح نصيبين.

وفيها أظهر عماد الدين زنكي أنه يريد جهادَ الفرنج، وأرسل إلى تاج الملوك بوري يستنجده، فبعث إليه عسكراً بعد أن أخذ عليه العهدَ والميثاق، وأمر ولده سونج أن يسيرَ إليهم من حماه ففعل، فأكرمهم عمادُ الدين زنكي وطمأنهم أياماً ثم غدر بهم، وقبض على سونج وعلى أمراء أبيه، ونهبَ خيامَهم وحبسهم بحلب وهرب جندهم، وسار من يومه إلى حماة واستولى عليها، وحاصر حمصَ مدةً فلم يقدر عليها، فرجع إلى الموصل، ولم يطلق سونج ومن معه حتى اشتراهم أبوه بخمسين ألف دينار.

قال الذهبي: ثم لم يتم ذلك ومقت الناسُ زنكي على قبيح فعله. انتهى.

وحكى صاحب الروضتين عن الرئيس أبي يعلى أن زنكي طلب في إطلاق سونج وأصحابه خمسين ألف دينار، فاتفق حضور دُبيس بن صدقة من العراق منهزماً، فطلبه زنكي، وأطلق من كان عنده من سونج وأصحابه.

وفيها اتفق أن بهرام الإسماعيلي داعي الباطنية وكان مقيماً ببانياس كما تقدم، فاستدعى برقاً بن جندل مقدم وادي التيم وقتله صبراً بين يديه لالسبب، فتألم الناس لذلك لشهامته وحسنه وحداثة سنة، وهاج أهلُ وادي التيم طالبين بثأره مع أخيه الضحّاك بن جندل، فحشدوا وقصدوا بانياس، وجمع بهرام أيضاً وخرج إليهم، فبغتوه صباحاً وأعجلوه قبل أن يركب من مخيَّمه هو وأصحابه، فقتلوه وأصحابه، أشدَّ قتلة، وأخذوا رأسَه وطافوا به في بلادهم، ثم بعثوه إلى خليفة مصر الآمر لأنهم كانوا ينتمون إليه ويقولون بانتظار الحاكم ليعود من غيبته، ويقسمون في أيمانهم بحقه، فبعث إلى أعيان أهل الوادي الخلع والافتقاد، ثم قام بعد بهرام صاحبه اسماعيل العجمي، فحذا في الإضلال والإستغواء حذوه، وعامله الوزير المزدقاني بما كان يعامل به بهراماً، فإنه كان يصادق الباطنيَة ويراعي أصحابهم. وغرضه في ذلك أن يساعدوه على أعدائه، وينجدوه إن دهمه أمرٌ لايطيقه فلم يُغن عنه ذلك من أمر الله شيئاً، وضرب عنقه الملك بوري صاحب دمشق، وأحرقَ بدنَه، وعلقّ رأسه، وانقلبت البلدُ بالسرور، وحمدوا الله. وثارت الأحداث والشطار في الحال بالسيوف والخناجر يقتلون من رأوا من الباطنية وأعوانهم ومن يتهم بمدحهم ويتبعونهم حتى أفنوهم، وامتلأت الطرق والأسواق بجيفهم، وكان يوماً مشهوداً أعز الله فيه الإسلام وأهله، وأخذ جماعة أعيان، منهم شاذي الخادم تربية أبي طاهر الصائغ الباطني الحلبي، وكان هذا الخادم رأس البلاء، فعوقب عقوبة شديدة شفت القلوب، ثم صلب هو وجماعته قبلي السور، وقتل بدمشق ممن كان يرمى بمذهب الباطنية ستة آلاف نفس، ولما سمع اسماعيل الداعي وأعوانه ببانياس بما جرى انخذلوا وذلوا،

وسلَّمَ اسماعيلُ اللعين بـانياس إلى الفرنج، وذهب هو وأعـوانه إلى ا لبلاد الافرنجية في الذلـة والقلة، ثم مرض إسماعيل بالإسهـال وهلك، فلارحمه الرحمن.

ولما عـرف الفرنـج بـواقعة البـاطنيـة وانتقلـت إليهم بـانيـاس قويـت نفوسهم وطمعوا في دمشـق وحشدوا وتألبوا، وتجمعوا من الـرها وأنطاكية وطرابلس والقدس والسـواحل، فكانوا نحواً من ستين ألـف مابين فارس وراجل، فتأهـب تاج الملوك بوري، وطلـب التركمان وأنفق الخزائن، وأقبل الملاعينُ قاصدين دمشق، فنزلـوا على جسر الخشب والميدان، وبرز عسكرُ دمشـق، وجاء التركمان والعـرب وعليهم الأمير مُـرى بن ربيعـة، وتفرقـوا كراديسَ في عـدة جهات، فلم يبرز أحد من الفـرنج، بل لزمـوا خيامهم، فـأقام النـاس أيـاماً هكـذا، ثـم وقع المصـاف، فحمـل المسلمون وثبـت الفرنـج، فلم يزل عسكرُ الإسـلام يكر عليهم ويقتل منهـم إلى أن فشلوا وخذلوا ثم ولّوا مدبرين، وهـرب جيش الفرنج بالليل، وابتهج الخلق بهذا الفتح المبين، فـلله الحمد والشكر.

سنة أربع وعشرين وخمسمائة

فيهـا كانـت زلزلـة عظيمة هـدمت بيـوتاً كثيرة ببغـداد، ووقع بـأرض الموصل مطـر عظيم، وأمطـرت عليهم نـاراً فأحـرقت دوراً كثيرة وخلقـاً، وتهاربَ الناس.

وفيهـا وجد ببغـداد عقارب طيـارة لها شوكتـان، وخاف النـاسُ خوفـاً شديداً.

وفيها ملـك عماد الدين زنكـي بلاداً كثيرة مـن الجزيرة وبلاد الفـرنج، وفتح حصـن الأثارب عنوةً، وجعله دكـا، وكان على أهل حلب مـن هذا الحصن ضرر عظيـم لقربـه منهم، فـإن الأثارب على ثـلاثة فـراسخ مـن

غربي حلب، وجرت له حروب طويلة وخطوب جليلة ونصر عليهم في تلك المواقف كلها، وقتلَ خَلْقاً، ومنها ذلت الفرنج وعلموا عجزهم عن زنكي.

وفيها قتل الباطنيةُ الخليفة الآمر بن المستعلي صاحب مصر وله من العمر أربع وثلاثون سنة، ومدة خلافته تسع وعشرون سنة وخمسة أشهر ونصف، وهو العاشر من الفاطميين من ولد عبيد الله المهدي، ولما قتل تغلبَ على الديار المصرية غلام من غلمانه أرمني استحوذ على الأمور ثلاثة أيام حتى حضر أبو عليّ أحمد بن الأفضل بن بدر الجمالي، فأقام الخليفةَ الحافظَ عبد المجيد ابن الأمير أبي القاسم ابن الإمام المستنصر وله من العمر ثمان وخمسون سنة، ولما أقامه استحوذ على الأمور دونه، وحصره في مجلسه لايدع أحداً يدخل عليه إلا إذا أراد، ونقل الأموال من القصر إلى داره، ولم يبق للحافظ سوى الاسم فقط.

سنة خمس وعشرين وخمسمائة

فيها وثب اثنان من الباطنية على تاج الملوك صاحب دمشق فجرحاه فأدركهما جماعته فهبروهما بالسيوف، وسبب ذلك أن الباطنية لما جرى عليهم ماذكرناه في سنة ثلاث وعشرين وخمسمائة تجرأوا على تاج الملوك، وندبوا لقتله هذين الرجلين، فتوصلا حتى خدما في ركابه، ثم وثبا عليه فجرحاه، فتعلّل مدةً ثم مات رحمه الله.

وفيها قتل أبو علي أحمد بن الأفضل بن بدر الجمالي وزير الحافظ، فنقلَ الحافظُ الأموال التي كان أخذها إلى داره واستوزر بعده أبا الفتح يانس الحافظي ولقبه أمير الجيوش، ثم احتال له فقتله، واستوزر ولده الحسنَ بعده.

سنة ست وعشرين وخمسمائة

فيها تملك دمشقَ شمسُ الملوك إسماعيل بعد أبيه تاج الملوك بوري ابن طغتكين، فقام بأعباء الأمر، وخافته الفرنج، وأبطل بعض المظالم، وفرح الناسُ بشهامته، وفرط شجاعته، واحتملوا ظلمه. وأخذ شمسُ الملوك مدينة حماة من زنكي.

سنة سبع وعشرين وخمسمائة

فيها قتل شمسُ الملوك أخاه سونج الذي كان أسره زنكي، فحزن الناسُ عليه.

وفيها أخذ شمسُ الملوك بانياسَ من الفرنج بالسيف وقلعتها بالأمان، فلما نزلوا أسروا كلهم، ثم قدم دمشق مؤيداً منصوراً، والأسرى بين يديه ورؤوس القتلى: ورأى الناسُ ماأقرَّ أعينَهم، فلله الحمدُ والمِنة، وكان يوماً مشهوداً.

سنة ثمان وعشرين وخمسمائة

وفيها أخذ شمسُ الملوك الشقيف وبيروت، ونهب بلاد الفرنج.

وفيها افتتح الأتابك زنكي بن اقسنقر قلاعاً كثيرة، وقتلَ خلقاً من الفرنج، وفتح المعرة —وكانت بيد الفرنج سبعاً وثلاثين سنة— وردَّ على أهلها أملاكهم، فكثر له الدعاء.

سنة تسع وعشرين وخمسمائة

فيها كانت وفاةُ الخليفة المسترشد بالله وولاية الراشد، وسببُ ذلك أنه كان بين السلطان مسعود وبين الخليفة المسترشد واقع كبير، اقتضى

الحال أن الخليفة أراد قطعَ الخطبة له ببغداد، فاتفق موتُ أخيه طغرل ابن محمد بن ملكشاه، فسار مسعودٌ إلى البلاد فملكها، وقوي جأشه ثم شرع بجمع العساكر ليأخذ بغداد من يد الخليفة، فلما علم الخليفة بذلك انزعج واستعدّ لذلك ثم خرج من بغداد في جحافل كثيرة فيهم القضاة ورؤوس الدولة من جميع الأصناف، ومشوا بين يديه أولَ منزلة حتى وصل إلى السرادق، ثم سار إلى أن التقى الجيشان في يوم الاثنين عاشر رمضان واقتتلوا قتالاً كثيراً، ولم يقتل من الصفين سوى خمسة أنفس، ثم حمل الخليفة على جيش الملك مسعود فهزمهم، ثم تراجعوا فحملوا على جيش الخليفة فهزموهم وقتلوا منهم خلقاً عظيماً وأسروا الخليفة، وأخذوا مامعه، وكان معه خزائن عظيمة، وكانت صناديق الذهب على سبعين بغلاً أربعة آلاف ألف دينار، وكان الثقل على خمسة آلاف جمل، وخزانة السبق أربعمائة بغل.

ووصل الخبر إلى بغداد، فنفر أهل بغداد في يوم عيد الفطر، ووثبوا على الخطيب، وكسروا المنبر والشباك، ومنعوه من الخطبة، ومشوا في الأسواق على رؤوسهم التراب يبكون ويصيحون، وخرج النساء حاسرات يندبن الخليفة في الطرق وتحت التاج.

قال ابن الجوزي: وزلزلت بغداد مراراً كثيرة ودامت كل يوم خمس أو ست مرات إلى ليلة الثلاثاء، فلم تزل الأرض تميد من نصف الليل إلى الفجر والناس يستغيثون، وتفاقم الأمر، واستسلم الناس.

ثم أرسل سنجر إلى ابن أخيه مسعود يقول له: ساعة وقوف غياث الدنيا والدين على هذا المكتوب يدخل على أمير المؤمنين، ويقبّل الأرض بين يديه، ويسأله العفو والصفح ويتنصل غاية التنصل، فقد ظهر عندنا من الآيات السماوية والأرضية مالاطاقة لنا بسماع مثلها، فضلاً عن المشاهدة من العواصف والبروق والزلازل، ودوام ذلك عشرين يوماً،

وتشويش العساكر، وانقلاب البلدان، ولقد خِفتُ على نفسي من جانب الله وظهور آياته، وامتناع الناس من الصلوات في الجوامع، ومنع الخطباء مالا طاقة لي بحمله، فبالله تتلافى أمرك معه، وتعيده إلى مقر عزه، وتسلم إليه دُبيساً ليحكم فيه، وتحمل الغاشيةَ بين يديه أنتَ وجميع الأمراء كما جرت عادتنا وعادة آبائنا، فلما قرأ مسعود هذه المكاتبة امتثل ماأمره به عمه، وضرب للخليفة سرادقاً عظيماً، ونصب فيه قبةً عظيمة تحتها سرير هائل، وألبس الخليفةَ السوادَ على عادته، ثم جاء مسعود فدخل عليه، وقبل الأرض بين يديه، ووقف يسأل العفو، فقال: قد عفا الله عن ذنبك فأشكر وطب نفسا. ثم عامله مسعود بما أمره به عمُّه، ثم أحضر دبيساً مكتوفاً بين أربعةِ أمراء ومع كل واحد سيف مسلول وكفن منشور، وألقي بين يدي السرير، وقال مسعود: ياأمير المؤمنين، هذا السبب الموجب لما تم، فإذا زال السبب زال الخلاف، ومهما تأمر يُفعل به، وهو يبكي ويتضرع ويقول: العفو عند القدرة، وأنا أقل وأذل، فعفا عنه و(قال لاتثريب عليكم اليوم يغفر لكم) (٢٢) فجعل يقبل يدَ أمير المؤمنين ويمرّها على وجهه وقال: بقرابتك من رسول الله ﷺ إلا ماعفوتَ عني وتتركني أعيش في الدنيا، فإن الخوف منك قد برح بي.

وطار هذا الخبر في الآفاق، وفرح الناس بذلك واطمأنت قلوبهم. فلما كان مستهل شهر ذي القعدة، جاءت الرسل من جهة الملك سنجر إلى ابن أخيه يحثه على الإحسان إلى الخليفة، وأن يبادر بسرعة ردّه إلى وطنه. وأرسل مع ا لرسل جيشاً ليكونوا في خدمة الخليفة إلى بغداد. فصحب الجيش معه سبعة عشر من الباطنية، ويقال ان مسعوداً لم يعلم بهم والله أعلم. فركب السلطان والعسكر لتلقي الرسل، فهجمت الباطنية على الخليفة في خيمته وقتلوه بها، وقطعوه قطعاً، ولم يلحق الناس منه إلا الرَسوم. وقتلوا معه جماعةً أحاطوا بالسرادق، فخرج الباطنية وقد فرغوا من شغلهم فقتلوا، ووقع النحيب والبكاء، وذلك على باب مراغة، ودفن بها، كذا قاله الذهبي، وقال ابن كثير: وحمل إلى بغداد وصلي عليه فيها.

ولما وصل خبر قتله إلى بغداد وقع النحيب والبكاء، وخرج الناس حفاة ممزقين الثياب، والنساء منشرات الشعور يلطمن ويقلن فيه المراثي على عادتهن لأن المسترشد كان محبباً فيهم بمرّه، لما فيه من الشجاعة والعدل والرفق بهم، وكان عمره ثلاثاً وأربعين سنة وثلاثة أشهر، وتمكن في خلافته تمكناً عظيماً لم يره أحد ممن تقدمه من الخلفاء من عهد المستنصر بالله إلى خلافته إلا أن يكن المعتضد والمكتفي، ولم يكن للسلطان معه في كثير من الأوقات سوى الخطبة، واجتمعت عليه العساكر وقاد الجيوش وباشر الحروب.

قال ابن كثير: وهو آخر خليفة رؤي خطيباً، وعمل العزاء في الديوان ثلاثة أيام.

ثم جلس ابنه الراشد في الشباك في الدار المثمنة المقتدرية، وبايعه الأمراء والأعيان، وخطب له ببغداد، وظهر للناس، وكان أبيض مشرباً بحمرة، جسيماً مستحسناً، وكان يومئذ كبيراً له أولاد، ونادى بإقامة العدل وردَّ بعض المظالم، وظهر في أيامه الرفض كثيراً، ثم إنّ السلطان مسعوداً جهز إلى دُبيس من قتله، وأراد بذلك أن ينسب قتلة[المسترشد] إلى دُبيس وأنه أخذ بثأر الخليفة منه. وعلى كل حال أراح الله الارض ومن عليها من ذلك المارد الرافضي.

وفيها اختلت أحوال الشام لسوء سيرة شمس الملوك، فإنه حنق على الناس، وصادر الاعيان، وكاتب أهل دمشق الاتابك عماد الدين زنكي وسألوه إدراكهم، وأطمعوه في دمشق، ثم اجتمع جماعة من عسكره وغيرهم وتشاوروا فيما دهمهم من ظلم صاحبهم وعسفه وهتكه لحرمهم، وأخذه أموالهم وأزواجهم، وقال بعضهم: هذا نوع من ا لجنون والسَوْداء لادواء له إلا بالموت، وأنهوا الحال وخوّفته، فلم يلتفت إليها وسبّها وكاد يبادر إليها، فلما خرج من عندها أشار عليها الخواص بالتمكين من قتله، لادواء له إلا بالموت، وأنهوا الحال الى والدته صفوة الملوك زمرد

خاتـون، فاستدعت ولـدها شمس الملـوك، ولامته وخوفتـه ، فلم يلتفت إليها وسبها وكاد يبادر إليها، فلما خـرج من عندها أشار عليها الخواص بـــالتمكيـــن مـــن قتـــله
وقيل لها: إنّه قد عزم على قتلك، فمكنت مـن ذلك، فاجتمع عليه طائفة من الغلمان فقتلـوه في بعض الـدهاليز، وابتهـج الناس بمصرعـه، وشكروا الله تعالى على الـراحة منه، وأجلس في الملـك أخوه شهاب الديـن محمود ابن تاج الملوك بـوري، فخرج إليه خلق من العساكـر والأحداث وصدّوه، ولم يمكنوه من مقاربة البلد، ثم حصل الصلح معه ورجع.

سنة ثلاثين وخمسمائة

فيها وقـع بين الخليفة الراشد وبين السلطـان مسعود بسبب أنـه أرسل إلى الخليفـة يطلب منـه مـاكان كتـب له والـده خطـه به حين أسره وهـو أربعمائة ألف دينـار. فامتنـع الراشـد من ذلـك، وأرسل إليـه يقول: أمـا الأمـوال المضمونـة فانها كـانـت لاعادة الخليفـة إلى داره ولم تحصل وأنـا مطالـب بالثأر، وأما مـا ل البيعة فحتى تعـاد إليّ أملاكي واقطاعـي، وأما الرعية فلا سبيل لك عليهم، ومـاعندي إلا السيف، ثم استنهض الخليفة الأمراء، وأرسـل إلى عماد الديـن زنكي فجاء إليـه والتفت عليـه خلائق، وجاء في غضون ذلك السلطان داود بن محمـود [بن محمد] بن ملك شاه، فخطب لـه الخليفة ببغـداد وخلع عليه، وبـايعه، فتـأكدت الـوحشة بين الخليفة والسلطان جـدا، وبرز الخليفة إلى ظاهر بغـداد، ومشى الناس بين يديـه كما كانوا يعاملـون به أباه، وخـرج ا لسلطان داود من جانـب آخر، فلما بلغهم كثـرة الجيوش مـع السلطان مسعود حسَّـن عماد الديـن زنكي للخليفة أن يذهب معه إلى بلاد الموصل.

واتفق دخول السطان مسعود إلى بغـداد في غيبتهم، فاستحوذ على دار الخلافة بما فيها حتى استخلص من نسـاء الخليفة وحَظاياه الحليّ والمصاغ والثياب التـي للزينـة وغير ذلك، وجمع القضـاة والفقهاء وأبـرز لهم خط

الراشد أنه متى خرج من بغداد لقتال السلطان مسعود فقد خلع نفسه من الخلافة، فأفتى من أفتى من الفقهاء بخلعه فخلع، وكانت خلافته أحد عشر شهراً وأحد عشر يوماً، واستُدعي محمد بن المستظهر بالله وبويع له بالخلافة عوضاً عن ابن اخيه الراشد وله من العمر أربعون سنة، ولقب بالمقتفي، ويقال إنه رأى النبيﷺ في المنام وهويقول له: سيصل هذا الامر إليك فاقتف بي، فصار الأمر إليه بعد ستة أيام، فلقب بذلك لذلك، ويقال إنهم بايعوا المقتفي على ألا يكون عنده خيل ولا آلة سفر، وأخذ مسعود جميع مافي دار الخلافة من دواب وأثاث وذهب وستور، ولم يترك بدار الخلافة سوى أربعة أفراس وثمانية بغال برسم الماء. وسار الراشد صحبة زنكي ودخل الموصل.

فائدة: ولي المقتفي والمسترشد الخلافة وكانا أخوين، كذلك السفاح والمنصور وكانا أخوين، وكذلك الهادي والرشيد ابنا المهدي وكانا أخوين، وكذلك الواثق والمتوكل ابنا المعتصم وكانا أخوين، وأما الثلاثة إخوة: فالأمين والمأمون والمعتصم بنو الرشيد، والمنتصر والمعتز والمعتمد بنو المتوكل، والمكتفي والمقتدر والقاهر بنو المعتضد، والراضي والمتقي والمطيع بنو المقتدر، وأما أربعة إخوة فلم يكن إلاّ في بني أمية، وهم الوليد وسليمان ويزيد وهشام بنو عبد الملك بن مروان.

وفيها تحركت الأسعار بدمشق والشام، فبيعت الغرارة بأربعمائة درهم، وجاء جراد عظيم فزاد الناس خوفاً.

وفيها طلع على دمشق وأعمالها والبقاع وبعلبك سحاب مظلم أسود سد الأفق، ثم أحمر حتى كأنه النار، وجاءت من بعده ريح شديدة، ووقع برد كبير ومطر مفرط في الكثرة، وفاضت ا لسيول وامتدت المدود واختلطت أنهار دمشق بعضها ببعض، وأخرب بردى مايجاوره.

وفيها اجتمعت عساكر حلب مع ا لأمير سوار الدين نائب حلب، وكبسوا اللاذقية بغتة وقتلوا وأسروا وغنموا.

قال ابن الأثير: كانت الأسرى سبعة آلاف نفس بالصغار والكبار، ومائة ألف من الدواب والمواشي، وخربوا اللاذقية، وفرح المسلمون بذلك فرحاً عظيماً.

سنة احدى وثلاثين وخمسمائة

فيها خرج الراشد من الموصل متوجهاً نحو مراغة، وسببه مابلغه من انتظام الحال بين الأتابك زنكي وبين الخليفة المقتفي والسلطان مسعود على ضياع قررت له ببغداد، على أن يخطب له في البلاد التي تحت يده من الموصل والشام، وعلى أن لايكلّف الحضور عند السلطان ولايزور ولايزار.

وشرط هو أن يسلم الراشد اليهم ولايخطب له ويخلعه، فلما تم ذلك خرج الراشد من الموصل ليلاً، وتبعه أصحابه من الغد، وعلم بهم زنكي فلم يتعرض لهم، فلما تعدّى الموصلَ تبعه داود السلجوقي، وساروا إلى همذان، فلما علم بهم السلطان مسعود خرج من بغداد إلى همذان لدفع الراشد وابن أخيه داود، وتقاربت العساكر واصطفت الجيوش، فحمل مسعود على القلب وفيه داود فكسره، ثم حملت ميسرته وكسرت الميمنة، فاستنهض الراشد الأتراك ووعدهم ونخاهم، فردّوا إلى عسكر مسعود، وكانوا قد نزلوا عن خيولهم واستراحوا، وبعضهم قد نزع عن نفسه، وبعضهم قد شرب وسكر، فحملوا عليهم فانهزموا جميعهم. فلما رأى مسعود انهزام أصحابه وتحكم السيوف فيمن بقي منهم، ولى منهزماً ودخل أصفهان مكسوراً، ولما وصلت الأخبار إلى بغداد بكسرة الملك مسعود، اضطرب أمر الخليفة المقتفي، وسار الراشد إلى أصفهان ومعه داود والعساكر، فعاثوا في البلاد وأخربوا القرى وظلموا الناس وأخربوا

كثيرا من قرى الملاحدة، فدست إليه الملاحدة من قتله على باب أصفهان في ليلة السابع والعشرين من رمضان، وخلص الأمر للمقتفي، وتقررت السلطنة لسنجر ثم لمسعود.

وفيها كثر موت الفجأة بأصبهان، فمات كثير من الناس، وأغلقت دور كثيرة.

وفيها تزوج الخليفة المقتفي فاطمة بنت السلطان محمد بن ملكشاه أخت السلطان مسعود على صداق مائة ألف دينار، وحضر السلطان مسعود العقد، ونثر الناس أنواع النثار.

وفيها صام أهل بغداد رمضان ثلاثين يوماً، ولم يروا الهلال ليلة إحدى وثلاثين مع كون السماء مصحية. قال ابن الجوزي: وهذا شيء لايقع مثله.

سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة

فيها ولد صلاح الدين يوسف بن أيوب بقلعة تكريت.

وفيها كانت زلزلة عظيمة في بلاد الشام والجزيرة والعراق، فانهدم شيء كثير، ومات خلق كثير تحت الردم.

وفيها كان بخراسان غلاء كبير حتى أُكلت الكلاب.

وفيها أخذ عمادُ الدين زنكي مدينة حمص، وتزوج بالست زمرّد خاتون أم شمس الملوك إسماعيل وهي أخت الملك دقاق لأمه، وهي التي تنسب إليها المدرسة الخاتونية البرانية بدمشق بأعلى الشرف القبلي.

وفيها كسى الكعبةَ رجلٌ من التجار يقال له راسب الفارسي بثمانية عشر ألف دينار، وذلك لانه لم يأتها كسوة في هذا العام لأجل اختلاف الملوك.

وفيها خرج ملك الروم من القسطنطينية ومعه خلق كثير لايحصون كثرة من الروم والفرنج وغيرهم من أنواع النصارى، وقصد الشام فخافه الناس خوفاً عظيماً، وقصد مدينة بزاعة وحصرها—وهي على مرحلة من حلب— وفتحها عنوة. ثم سار عنها إلى شيزر، وهي حصن منيع على مرحلة من حماة فحصرها، ونصب عليها ثمانية عشر منجنيقاً، وأرسل صاحبها إلى زنكي يستنجده، فحضر ونزل على حماة، وكان كل يوم يركب في عساكره ويسير إلى شيزر بحيث يراه ملك الروم، ويرسل سرايا يتخطف من يخرج من عساكرهم للميرة والنهب. ثم يعود آخر النهار، وكان الروم قد نزلوا على شرقي شيزر، فأرسل اليهم زنكي يقول لهم: إنكم تحصنتم بهذه الجبال، فاخرجوا عنها إلى الصحراء حتى نلتقي، فإن ظفرتم بنا أخذتم شيزر وغيرها، وإن ظفرنا بكم أرحنا المسلمين من شركم، ولم يكن له بهم قوة لكثرتهم، وإنما قال هذا ترهيباً لهم، وكان زنكي يراسل فرنج الشام ويحذرهم ملك الروم، ويعلمهم أنه إن ملك بالشام حصناً واحداً أخذ البلاد التي بأيديهم، وكان يراسل ملكَ الروم ويوهمه أن الفرنج معه، فاستشعر كل واحد من الفرنج والروم من صاحبه، فرحل ملك الروم عنها، وكان مقامه عليها أربعة وعشرين يوماً، وترك المناجيق وآلات الحصار بحالها، فسار زنكي خلفهم فظفر بطائفة منهم من ساقة العسكر، فغنم منهم، وقتل وأسر وأخذ جميع ماخلفوه، ورفعه إلى قلعة حلب، وكفى الله المؤمنين القتال.

سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة

فيها كانت زلزلة عظيمة بمدينة جنزة مات بسببها مئتا ألف وثلاثون ألفاً وخسف بها، وصار مكان البلد ماء أسود عشرة فراسخ في عشرة فراسخ، وزلزلت حلب في ليلة واحدة ثمانين مرة، وخرج أهلها إلى الصحراء.

قال ابـن الأثير: ولم تزل الزلازل تتعـاهدهم بـالشام من رابـع صفر إلى تاسع عشره، وكان معها صوت وهدة شديدة.

وفيها قتل صاحب دمشق شهاب الديـن محمود بن تاج الدين بن تاج الملوك بوري، قتله ثلاثة من خواصـه ليلاً وهربوا من القلعة، فأدرك اثنان وصلبا، وأفلـت الثالـث. وتملك بعـده أخوه جمال الـدين محمـد بن تـاج الملوك، وكان ببعلبك قبـل ذلك، فجاء الأتابك زنكي وأخـذ بعلبك بعد أن نصب عليها أربعة عشر منجنيقاً تـرمي ليلاً ونهاراً، فأشرف أهلها على الهلاك فسلموا البلد، وعصـى بالقلعة جماعة مـن الأتراك ونزلوا بـالأمان، فغدر بهم وصلبهم، فمقته النـاس، ونفر منه أهل دمشق، وقالـوا: لوملك دمشقَ فعـل بنا مثلَ مـافعل بهؤلاء، ولما ملك ولاَّهـا لنجم الديـن أيوب والد صلاح الدين وكتب له ثلثها، فاستقر فيها إلى أيام نور الدين محمود.

سنة أربع وثلاثين وخمسمائة

فيهـا دخـل المقتفـي على الخاتـون فاطمـة أخـت السلطـان مسعـود، وأغلقت بغـداد، وكان وقتاً مشهـوداً، وتزوج السلطـان بنت أمير ا لمؤمنين ا لمقتفي.

وفيها نقصت ا لمياه مـن سائر الدنيا، وفيها توفي رجل صـالح من أهل باب ا لأزج، فنودي للصـلاة عليه بمدرسة الشيخ عبـد القادر، فلما أريد غسلهُ عطس وعاش.

وفيها ولد تقيُّ الدين عُمر بن شاهِنشاه بن أيوب بن شادي.

وفيهـا قدم الأتـابك زنكـي من بعلبـك، فنـزل البقاعَ طـالباً دمشـق، فوردت اليه هديةُ صاحـب دمشـق، وطلب منه العود ويعطيه خمسين ألف دينار ويعطيـه حمص، فأشار نجم الـدين على زنكي بقبول ذلـك، وقال:

هـذا مال كثير قـد حصـل بلاتعـب، وبلد كبير بـلا عنـاء، ودمشق بلـد عظيم، وأهـل دمشق قد ألـف أهلها هـذا البيت، وتمرَّنوا على سياستهم، وقد بَلغَتْهم الأحـوال التي جرت ببعلبك، فـامتنع عمادُ الدين زنكـي من قبول ماأشار به، ففاته ذلك، ولم يظفر بعوضه، فإنه جاء ونزل على داريا، وأرسل إلى جمال الديـن محمد بن بوري يطلـب منه دمشق ويعوضـه عنها أيّ بلد شاء، فلم يجبه، فالتقـى العسكران، وانهزم الدمشقيون، وقتل كثير منهـم. ثـم تقدم زنكـي إلى المصلّى، فـالتقـاه جمع كثير من جنـد دمشـق وأحـداثها ورجـال الغوطـة، فقاتلـوه فانهزمـوا، وأشرف البلدُ على الأخـذ، لكن عاد زنكي فـأمسك عدة أيام عن القتال، وتابع الـرسل إلى صاحب دمشق بتسليمهـا، فلم يجبه، فعـاد إلى القتال والـزحف، فمرض صـاحب دمشق ومـات في ثامـن شعبان وهو مثـل الوقت الـذي مات فيـه أخوه، وكانـت مدة ولايته سنة واحـدة، وكان حسن السيرة قليل الظلـم، فحزن الناس عليه وولي بعده ابنـه مجير الدين أبق، ودبر دولته معين الـدين أنر. فلما ألحَّ عليهـم زنكي بالقتـال راسل أنر الفرنـجَ يستنجدهم، وخـوفهم من زنكـي إن تملّك دمشـق، فتجمعت الفرنـج، وعلم زنكـي، فسار إلى حوران لملاقاتهم، فهـابوه ولم يجيئوا، فعاد إلى حصار دمشـق، ونزل بعذرا، وأحـرق قرى المرج وتـرحل، فجـاءت الفرنـج واجتمعـوا بأنـر، وكان قـد شارطهم إن رحّلوا زنكـي يعطيهم بانياس، وكانت لـزنكي، فسار أنر في عسكر دمشـق إلى بانياس وأخـذها وسلمهـا إلى الفرنج. فغضـب زنكي، وعاد إلى دمشـق فعاث بحـوران وأفسد، وجـاء إلى دمشق فـاقتتلوا معـه، وقتل جماعة، ثم رحل عنها ومع أصحابه شيء كثير من النهب.

وسـار إلى حصـن باريـن —وكـان بيـد الفـرنج— فحـاصره حصـاراً شديداً، فراسلوه في طلب الأمان، فأجابهم وتسلم الحصن.

قـال ابـن الأثير: وكـان هـذا الحصـن مـن أضرّ بـلاد الفـرنـج على المسلمين، فـإن أهله كـانـوا قد أخـربوا مـابين حماة وحلـب من البلـدان وانقطعت السبل، فأزال الله بزنكي هذا الضرر العظيم.

وفي مـدة مقامـه في بـارين سيّر جنـده إلى المعـرّة وكفـر طاب وتلـك الولاية جميعها واستولى عليها، وهي بلاد كثيرة وقرايا عظيمة.

سنة خمس وثلاثين وخمسمائة

فيها وصلت البردة والقضيـب إلى بغداد، وكانا قد أخـذا مع المسترشد سنة تسع وعشريـن، فحفظهما السلطان سنجر عنده حتـى ردّهما في هذه السنـة، وفيها أصـاب الحجّاجَ عطـش شـديد، فهلـك منهم خلـق كثير، ومنهم من تأخر وصوله حتى فاتته الوقفة.

وفيهـا ظهر ببغـداد رجل قـدم إليها وأظهـر الزهـد والنسك، وقصـده الناس مـن كل جانـب، فمات ولد لإنسان فدفنـه قريباً مـن قبر السبتي، فذهب ذلـك المتزهد فنبشه ودفنه في مـوضع آخر، ثم قـال للناس:أعلموا أننـي رأيت عمـر بن الخطـاب في المنـام ومعه علي رضي الله تعـالى عنهما وقالا: في هـذا الموضع صبـيٌ من أولاد عليّ بـن أبي طالـب، ودلّهم على المكان، فحفروه، وإذا صبيّ أمرد، فمن الـذي وصل إلى قطعة من كفنه! وانقلبـت بغـداد، وخـرج أربـاب الدولـة وأخـذوا ذلـك التراب للبركـة، فازدحـم الخلق، وبقـوا يقبلون يـد المتزهـد وهو يبكـي ويتخشّع، وبقـي النـاس على هذا أيـاماً والميّـت مكشوف يـراه الناس ويتمسّحـون به ثـم أنتن، وجاء الأذكياء وتفقـدوا الكفن فإذا هو جديد، فقـالوا: كيف يمكن أن يكون هـذا من أربعمائة سنة! ونقبـوا عن ذلـك حتى جاء أبـو الصبيّ فعرفه، وقال: هذا والله ولدي دفنته عند قبر السبتي، فمضوا معه فـرأوا أن القبر قد نبش، فكشفـوه فإذا ليس فيه ميـت، وسمع المتزهد فهـرب، ثم وقعوا به وقرّروه فأقرّ، فأركـب حماراً وصفع. قلت: كذا حكاه الذهبي والله أعلم بصحتـه . ويلـزم من صحته نسبـة التغفل الـى أهل بغـداد في ذلـــــك الـــــــــــوقـــــــــت، اذ

على تقدير صحة قول ذلك المتزهد عندهم كيف اقتضى عقلهم أن يحفروا قبر ولد من آل عليّ رضي الله تعالى عنه، ويقطّعون كفنه ويكشفونه وينتهكون حرمته! بل لو قيل لهم إنه قبر أبي لهب ماكان يليق أن يفعل به ذلك، بل كان اللائق إذاصدّقوا قوله أن يُعظَّم ذلك الضريح ويزار، وعلى تقدير وقوع ذلك من جهلة الناس، كيف لم ينكر عليهم العلماء والحكّام مع مقامه تلك الأيام! هذا من الأمور المستبعدة.

وفيها ملكت الإسماعيلية حصن مصياف، كان واليه نائباً لصاحب شيزر، فاحتالوا عليه، ومكروا به حتى صعدوا إليه، فقتلوه وملكوا الحصن، وبقي في أيديهم إلى دولة الملك الظاهر بيبرس.

سنة ست وثلاثين وخمسمائة

فيها كانت وقعة عظيمة بين السلطان سنجر وبين ملك الخطا، وسبب ذلك—كما حكاه الكتبي عن تاج الدين ابن حمويه— أن طائفة من الترك تعرف بقرلق كانوا بما وراء النهر بنواحي سمرقند ترعى بمروجها وتتنقل في مراعيها، ولهم أموال ودواب، لايعرفون عدد أغنامهم، و أهل تلك الناحية ينتفعون بمعاملتهم وجلبهم، ولايتضررون بسببهم، وهم يعفّون عن أموال غيرهم، ويكفّون دوابهم عن الزروع. فاتفق أن الامراء السنجرية أغروا سنجر وألحّوا عليه بأن يبعث الجيوش اليهم يغزونهم ويكسب أموالهم، فسيّر اليهم جيشاً فغزاهم وأوقع بهم، وغنم أموالَهم، وسبى ذراريهم، وقتل رجالهم، فانحازوا إلى جهة، وبعثوا جماعة من مشايخهم إلى السلطان سنجر يسألونه الكف عن أذيتهم وتركهم على ماهم عليه، وقالوا: نحن قوم في الصحارى والخراب وليس لنا مضرة على أحد هنا ولانخيف السبيل، ولانطرق القرى، ولانؤذي الزروع، ومع هذا فنحن نبذل على خراج دوابنا في كل سنة للسلطان خمسة آلاف فرس وثلاثين ألف رأس غنم، فلم يلتفت إليهم ولاقبل منهم مابذلوه، فلما

عـادت شيوخهـم إليهـم بذلـك، قصـدوا ملك الخطـا الملقـب بكوخـان مستصرخين ومستعـدين، وأطمعـوه في البـلاد، وهـوّنوا عليـه بلـوغ المراد، فجمـع فـأوعـى، وسـار في سبعمائة ألف مقـاتـل، واجتهـد سنجـر كـل الاجتهاد، فجمع سبعين ألفـاً، وكان اللقاء بصحارى سمـرقند على ست مراحل منهـا، فانكسر سنجر، وقتل جمع كثير مـن عسكره، وأسرت زوجته وأولاده وخواصه، ونجـا سنجر بنفسه، وتقدم الخطا إلى سمـرقند وبخارى واستـولـوا عليهما، وأمنـوا من فيهما، واستحـوذ ملكهـم على دار الإمـارة، ورتب نـائباً في كـل بلد، وأقر النـاس على معايشهـم، وعاد بـالغنائم إلى بلاده.

سنة سبع وثلاثين وخمسمائة

فيها سار عماد الديـن زنكي إلى بلد ا لهكاريةوكانـت بيد الأكراد، وقد أكثـروا في البلاد الفسـاد، فملك تلـك البلاد وبنى هنـاك قلعةً عظيمـة وسماها القلعـةَ العمادية، وفيها خُطـب للأتابك زنكـي بآمد، وفيهـا أخذ مدينة عانة والحديثة.

سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة

فيها عزم السلطان مسعود على قصد الموصـل والشام لوحشةوقعت بينه وبين عماد الـدين زنكـي، فترددت الرسـل بينهما حتى استقـر الحا ل على مـائة ألف دينـار يحملها زنكـي للسلطان، دفـع إليه منهـا عشرين ألـف دينـار، ثـم إن الأمـور تقلبـت، وعـاد أصحـاب الأطـراف خـرجـوا على السلطان، فاحتاج إلى مداراة زنكي فأطلق له الباقي من المال استمالة له.

وفيها ملـك عمادُ الدين زنكـي عدةَ بلاد من ديـار بكر، وملك مـدينة المعدن الـذي يعمل منه النحـاس من أرمينية، ومـدينة حران، وأخـذ من أعمال ماردين عدةَ مواضع.

- ١٠٨٥٣ -

سنة تسع وثلاثين وخمسمائة

فيها فتح الأتابك زنكي الرهـا، وكانت مدة حصاره لها ثمانية وعشرين يومـاً، وكانت الرهـا من أشرف المدن عند النصارى وأعظمهـا محلاً، وهي إحدى الكراسي عندهم، فأشرفها البيـت المقدس، ثم أنطاكية، ثم رومية، ثم القسطنطينيـة، ثم الـرها، وكان على المسلمين مـن الفرنـج بالـرها شرّ عظيم، ملكوا من نواحي مـاردين إلى العراق عدة حصون كسروج والبيرة، وكانـت غارتهم تبلغ مـدينة آمد مـن ديار بكر ومـاردين ونصيبين ورأس عين والرقة. ولما ملكها زنكي استباحهـا، ونكس صلبانها، وأباد قسوسها ورهبـانها، وملأ النـاس أيديهم مـن النهب والسّبـي. ثم إنـه دخل البلـد فراعه وأنف لمثلـة من الخراب، فأمر بإعادة ماأخذ مـن أثاث ومال وسبي ورجال وجوار وأطفال، فردوا عن آخـرهـم لم يفقد منهم إلا الشاذ والنادر، فعاد البلـدُ عامـراً بعد أن كان داثـراً. ورتب البلدَ وأصلـح شأنـه، وسار عنه، فاستـولى على ماكان بيد الفـرنج من المدن والحصون والقـرى. وكان فتحاً عظيماً طار في الآفـاق ذكره، وطاب بها نشره، وشهده خلـق كثير من الاولياء والصالحين.

قـال ابن الأثير: حكـى لي جماعة أعـرف صلاحهـم أنهم رأوا يوم فتـح الرّهـا الشيخ أبـا عبد الله بن علي بـن مهران الفقيه الشـافعي، وكـان من العلماء العـاملين الـزاهـديـن في الدنيـا المنقطعين عنهـا ولـه الكـرامـات الظاهرة، ذكـروا عنه أنه غاب في زاويتـه يوم ذلك، ثم خـرج عليهم وهو مستبشر مسرور قال: حدثنا بعض إخواننا أن الأتـابك زنكي فتح مدينة الرها وأنه شهد معه فتحها يومنا هـذا، ثم قال: مايضرك يازنكي مافعلت بعد اليـوم[وبقي يردّد هـذا القول مراراً، فضبطـوا ذلك اليوم فكـان] يوم الفتح، ثم إن نفرا من الاجناد حضروا عنـد الشيخ وقالوا: منذ رأيناك على السور تكبّر أيقنا بالفتح وهوينكر حضوره، وهم يقسمون أنهم رأوه عياناً.

قال ابن الأثير: وحكى لي بعض العلماء بالاخبار والأنساب —وهو أعلم من رأيت بها— قال: كان ملكُ جزيرة صقلية من الفرنج لما فتحت الرها وكان بها بعض الصالحين من المغاربة المسلمين وكان الملك يحضره ويكرمه ويرجع إلى قوله، ويقدمه على من عنده من الرهبان والقسيسين. فلما كان الوقت الذي فتحت فيه الرها سيّر الملك في البحر جيشاً إلى افريقية، فنهبوا وأغاروا وأسروا، وجاءت الأخبار إلى الملك وهو جالس وعنده هذا العالم المغربي وقد نعس وهو شبيه النائم، فايقظه الملك وقال له: كان قد فعل أصحابنا بالمسلمين كيْتَ وكيْتَ، أين كان محمد من نصرهم؟ قال له: كان قد حضر فتح الرها، قال: فتضاحك من عنده من الفرنج، فقال لهم الملك: لاتضحكوا فوالله ماقال عن غير علم، واشتد هذا على الملك، فلم يمض إلا قليل حتى أتاهم الخبرُ بفتحها.

قال: وحكى لي أيضا غير واحد ممن أثق بهم أن رجلاً من الصالحين قال: رأيتُ زنكي بعد قتله في المنام في أحسن حال، فقلت: مافعل الله بك؟ قال: غفر لي، فقلت: بماذا؟ قال بفتح الرها.

سنة أربعين وخمسمائة

فيها استولت ا لفرنج بالأندلس على ساحل البحر الغربي الذي كان بيد المسلمين، وهو مدينة شلب وأشبونة وشنترين وماوالاها.

سنة احدى وأربعين وخمسمائة

فيها احترق القصر الذي بناه الخليفةُ المسترشد وكان في نهاية الحسن. وكان المقتفي قد انتقل إليه بجواريه وحظاياه ليقيم به ثلاثة أيام، فما هو إلا أن ناموا حتى احترق بسبب أن جارية أخذت في يدها شمعة فعلق

لهبها ببعض الاخشاب، فاحترق القصر، وسلم الله الخليفة وأهله، فأصبح وتصدق بأشياء كثيرة، وأطلق المحابيس.

وفيها جلس ابن العبّادي الواعظ فتكلم والسلطان مسعود حاضر، وكان قد وضع على الناس مكساً في البيع فاحشاً، فقال: ياسلطان العالم، أنت تطلق في بعض الأحيان للمغني إذا طربتَ قريباً مما وضعت على المسلمين من هذا المكس، فهبني مغنياً وقد طربت، فهبني هذا المكس شكراً لنعمة الله تعالى عليك، وأسقِطْه عن الناس، فأشار السلطانُ بيده إني قد فعلت، فضج الناس بالدعاء له ونودي في البلد بإسقاطه، ففرح الناس.

وفيها قتل الأتابك عماد الدين زنكي بن آق سنقر رحمه الله تعالى، قال ابن الأثير: كان يحاصر قلعةَ جعبر، فبينا هونائم دخلَ عليه نفر من مماليكه فقتلوه غيلة، وهربوا إلى القلعة، ولم يشعر أصحابهُ بقتله، فلما صعد أولئك النفر إلى القلعة، صاح من بها إلى العسكر يعلمهم بقتله، فبادر أصحابه إليه فأدركه أوائلهم وبه رمق.

حدثني والدي عن بعض خواصه، قال: أدركته وهو في السياق، فحين رآني ظنّ أني أريد قتله، فأشار إليّ باصبعه السبابة، فوقفت من هيبته، وقلت له: ياMولانا، من فعل بك هذا حتى أقتله؟ فلم يقدر على الكلام، وختم الله بالشهادة أعماله.

ومن أعجب ماحُكي أنه لما اشتدّ حصارُ قلعة جعبر، جاءَ في الليل ابن حسان المنبجي، ووقف تحت القلعة ونادى صاحبها فأجابه، فقال له: هذا المولى أ تابك صاحبُ البلاد، وقد نزل عليك بعساكر الدنيا ولامعين لك، وأنا أرى أن أدخل في قضيتك وآخذَ لك منه مكاناً عوض هذا المكان، وإن لم تفعل فأي شيء تنتظر؟ فقال له صاحب القلعة: انتظر الذي انتظره أبوك.

وكـان بلك بـن بهرام صاحـب قلعة حلـب قد نـزل على أبيه حسـان وحـاصره في منبج أشـدَّ حصـار، ونصب عليـه عدة مجانيـق، وقـال يومـاً لحسان وقـد أحرقه بحجارة المنـاجيق: أيّ شيء تنتظر؟ ماتسلـم الحصن، فقال له حسان: أنتظر سهماً من سهـام الله تعالى. فلما كان من الغد، جاء بلك يـرتب المنجنيـق إذ أصابـه سهم فـوقع في لبّتـه وخرّ ميتـاً، ولم يكن بجسده شيء ظـاهر سـوى ذلك المكـان لأنه لبـس الدرع ولم يـزرره على صدره، فلما سمع ابن حسان ذلك رجع عنـه، وفي تلك الليلة قتل أتابك فكان هذا مـن الاتفاقات العجيبة والعبر الغـريبة ذكر ذلك يحيـى بن أبي طيّ في كتاب السيرة الصلاحية.

وكان زنكي حسن الصورة أسمر مليـح العينين طويل القامة، ليس بالطويل البائن، وكانت سيرته من أ حسن سير الملوك، وكان من أ كثرها حزمـاً وضبطاً لـلأمور، وكـانت رعيتـه في أمن شـامل يعجـز القوي عـن التعدي على الضعيف.

قال ابـن الأثير: حدّثني والـدي قال: قدم الشّهيـدُ أتابك زنكـي الينا بجزيرة ابن عمـر في بعض السنين، وكان من زمن الشتاء، فنـزل بالقلعة، وتـرك العسكـر بـالخيـام، وكـان مـن جملة أمـرائه عـز الـديـن أبـو بكـر الدبيسي—وهو من أكبر أمرائه ومن ذوي الـرأي عنده— فدخل الدبيسي البلدَ ونزل بدار انسان يهودي وأخرجـه منها،فاستغاث اليهودي إلى زنكي وهو راكب، فسـألَ عن حاله فـأخبر به وكان الشهيد واقفـاً والدبيسي إلى جانبه وليـس فوقه أحد، فلما سمـع الاتابك ذلك الخبر، نظـر إلى الدبيسي نظر مُغضب ولم يكلمـه كلمة واحـدة، فتأخر القهقـرى ودخل البلـد، وأخرج خيـامه وأمـر بنصبها.ولم تكـن الأرضُ تحتمـل وضع الخيـام عليها لكثـرة الوحل.

قـال: فلقد رأيـتُ الفراشين وهـم ينقلـون الطين لينصبوا خيمتـه، فلما

رأوا كثرته جعلـوا على الأرض تبناً ليقيموها وينصبوا ا لخيـام، وخرج اليها من ساعته، وناهيك بهذا سياسة و إنصافاً.

قال:وكان ينهى أصحابَه عن اقتنـاءِ الأملاك ويقول:مهما كانت البلاد لنا فأي حاجـةٍ لكم في الأملاك، فإنّ الاقطـاعات تغني عنها، وإن خـرجتِ البـلادُ مـن أيـدينـا فـالأملاك تـذهـب معهـا، ومتـى صـارت الأمـلاك لأصحاب السلطان ظلموا الرعيّة وتعدّوا عليهم وغصبوا أملاكهم.

وفيها لما قتل زنكـي سار أسدُ الديـن شيركوه من ساعتـه وقصد خيمةَ نور الـدين، وقـال له: أنـا أعلمُ أن الوزيـر جمال الديـن قد أخـذ عسكر الموصل وعزم على تقديـم أخيك سيف الدين غازي وقصـده الموصل.وقد رأيت أن أصيّرك إلى حلب وتجعلهـا كرسيَّ مملكتك وتجتمع في خـدمتك عساكر الشام. ثم أخذه وسار في خدمتِه وسلّمه قلعتَها كما قدمنا.

وفيها سار مجير الدين صاحـب دمشق في عسكره إلى بعلبك وحاصرها وبها نائب زنكي نجـم الدين أيوب والـد صلاح الدين، فسلّمهـا صلحاً له، وأخـذ منه مـالاً، وملكه قرايـا من أعمال دمشق. وانتقـل نجم الـدين أيـوب إلى دمشق وأقـام بها. ولما بلغ ذلـك نـورَ الديـن، خاف أن يفسـد عليه أسـد الدين ويميـل إلى صاحب دمشق لحصـول أخيه نجم الـدين عنده. ومال نورُ الدين محمود إلى مجد الـدين أبي بكر بن الداية حتى ولاّه جميع أموره وجميعَ مملكته، فشق ذلك على أسد الدين.

وفيها حاصر عبد المؤمن مراكش، وكـان بها اسحق بن علي بن يوسف ابن تاشفين، فـاستمر أحدَ عشر شهراً ثم أخـذها عنوة، فذكـر أنه مات من أهلها أيـام الحصار بالجوع نيّف على عشرين ومـائة ألف. ولما دخلها عبد المؤمن ضرب عنق اسحق المذكور في عـدة من القواد، وقتل في ذلك اليوم نيـف على سبعين ألف رجل. كـذا نقله الـذهبي في تاريـخ الاسلام عن اليسع بن حزم في هذه السنة.

وذكر الكتبي في تاريخه في السنة التي بعدها أن عبد المؤمن استولى على مراكش بالسيف، وقتل من بها من المقاتلة، ولم يتعرض للرعية، واحضر اليهود والنصارى، وقال: أنتم تزعمون أن بعد الخمسمائة عام يظهر من يعضد شريعتكم. وقد انقضت المدة، وأنا أخيِّركم بين ثلاث: اما أن تسلموا، أوتلحقوا بدار الحرب وإما أضرب رقابكم. فأسلم منهم طائفة ولحق بدار الحرب أخرى. وأخرب الكنائس والبيع وردّها مساجد، وأبطلت الجزية، وفعل ذلك في جميع ولايته. ثم فرق بيتَ المال وكنسه ورشّه، وصلى فيه، وأمر الناس بالدخول إليه والصلاة فيه كما فعل أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه،وقصد حسن السيرة ليعلم الناس أنه لايؤثر جمع المال ولايدخر شيئاً، ثم أقام معالم الاسلام والحدود على الوجه الشرعي مع السياسة الكاملة، وقال: من ترك الصلاة ثلاثة أيام فاقتلوه. وشدد في الأمور، ولم يدع منكرا الا أزاله، وكان يصلي بالناس الصلوات الخمس، ويقرأ كل يوم سبعا من القرآن بعد صلاة الصبح، ويلبس الصوف، ويصوم الاثنين والخميس.

وفيها: وردت الأخبار بأن ابن جوسلين جمع الفرنج من كل ناحية وقصد مدينة الرها على غفلة من النصارى المقيمين بها، فدخلها واستولى عليها وقتل من فيها من المسلمين. فنهض نورُ الدين محمود في عسكره، ومن انضاف إليه من التركمان وغيرهم في زهاء عشرة آلاف فارس، ووقفت الدواب في الطرقات من شدّة السير، ووافوا البلد وقد حصل ابن جوسلين وأصحابه فيه، فهجموا عليهم.ووقع السيف فيهم، وقتل من أرمن الرها والنصارى من قتل، وانهزم ابن جوسلين بنفسه، ومحق السيف كل من ظفر به من نصارى الرها، واستخلص من كان أسر فيه من المسلمين، ونهب من الرها شيءٌ كثير من المال والأثاث والسبي، وفي هذه المرة نهبت وخربت وخلت من أهلها، ولم يبق بها إلاّ القليل.

قال ابن الأثير: ومن عجيب ماجرى أن نورالدين أرسل من غنائمها

إلى الأمراء، وأرسـل إلى زين الـدين علي جملـة من الجواري، فحملـن إلى داره،ودخل لينظر اليهن،فخرج وقـد اغتسل وهو يضحك،فسئل عن ذلك، فقال: لما فتحنا الـرها مع زنكي، كان مـن جملة ماغنمت جـارية فمالت نفسي إليها، فعـزمت أن أبيتَ معهـا، فسمعت منـادي الشهيد وهو يـأمر بـإعـادة السبـي والغنـائم، وكـان مهيبا مخوفـا فلـم أجسر على إتيـانها وأطلقتها، فلما كـان الآن أرسل إلي نـورُ الديـن سهمي مـن الغنيمة وفيـه الجارية، فوطئتها خوفا من العود.

وفي شوال مـن هذه السنة تـرددت الرسـل والمراسلات بين نور الـدين محمـود وبين معين الديـن أنـر إلى أن استقرت الأحـوال بينهما على أجمل صفة، وتزوج نورُ الدين بابنة معين الدين، وجهزت إليه إلى حلب.

وفيها قلّ المطر جداً، وقلـت مياهُ الأنهار، وانتشر جرادٌ عظيم، وأصابَ الناسَ داء في حلوقهم، فمات بذلك خلق كثير.

سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة

فيها سار نور الدين محمود ففتح أرتـاح وهي غربي حلب، وأخذ ثلاثة حصون صغار للفرنج، فهابته الفرنج وعرفوا أنه كبش نطاح مثل أبيه.

وفيهـا أظلم الجو ونـزل غيـثٌ ساكـب، ثـم أظلمت الأرض في وقـت العصر ظـلاماً شـديـداً، وبقيت السماء في عين النـاظـر كصفرة الـوَرْس، وكذلك الجبـال وأشجار الغوطة وكلما ينظر إليه مـن حيوان وجماد ونبات. ثـم جـاء في أثـر ذلـك من الـرعـد القـاصـف والبرق الخاطـف والهدات المزعجة والرجفات المفزعة ماارتـاع لها الناس، ثم سكن بقدرة الله وأصبح على الأرض والأشجار وسائر النبات غبار بين البياض والغبرة.

قلـت: وقد شـاهدت بـالقاهـرة في سنة سـت وعشرين وثمانمائة مثـل

هذا، غير أنه لم ينـزل مطر، ولم يحصل رعد ولابـرق، وإنما حصلت ظلمة، واحمرت السماء، وتغيّر الجو تغيّراً كثيراً، وظهـرت رائحـة مثـل رائحـة الحريق، وحصل للناس من ذلك خـوف، وتضرعوا إلى الله تعالى بالدعاء، واستمر من بعـد العصر إلى الليل، ثم أصبح على رخـام المدارس والبلاط تراب أصفر ذكر بعض الناس أنه من تراب برقة من بلاد المغرب.

وفيها ولد ببعلبك الملك العادل سيف الدين أبو بكر بن أيوب، وقيل في سنة فتح زنكي الرها.

وفيها اشتـد الغلاء بإفـريقية، فهلك أكثـر الناس حتى خلـت المنازل وأقفرت المعاقل.

وفيها رأى رجل في المنام قائلاً يقول: مـن رأى أحمد بن حنبل غفر له؟ قـال ابن الجوزي: فلـم يبق مـن خاص ولاعـام إلا وزاره، قال: وعقـدتُ يومئذ مجلساً فاجتمع فيه ألوف من الناس.

سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة

فيها نـزل الفرنج على دمشـق، خرج ملكُ الألمان في جيـوش لاتحصى، فاجتمـع اليه ملـوك الفرنج التـي بالساحـل، واجتمعوا في بيـتَ المقدس وصلـوا صلاة الموت وعـادوا إلى عكـا وفرقـوا في العسـاكر سبعمائة ألـف دينـار، ولم يظهـروا أنهم يـريـدون دمشـق، بل بـانيـاس بثغـرهـا، وهـرب المسلمون بين أيديهم، وجمعـوا الغلال والاتبان فأحـرقوها، وكان صـاحب دمشق مجير الـدين آبق بـن محمد بن بـوري بن طغتكين، ومدبـر الامور معين الديـن أنر، والامـر كله لـه ليس لمجير الـدين منـه شيء. ولم يشعر أهل دمشـق إلا وملك الالمان قد خيّـم على المزّة وزحف إلى البلـد، وكان معـه نحـو ستين ألـف راجـل وعشرة آلاف فـارس. وخـرج اليهـم معين الديـن ومجيرُ الديـن في مائة ألف راجـل سوى الفـرسان في يـوم السبت

سادس شهر ربيع الأول وتقاتلوا قتالاً شديداً، واستشهد من المسلمين في هذا اليوم نحو مئتين منهم الفقيه الامام يوسف الفندلاوي شيخ المالكية عند النيرب قريب الربوة، كذلك الزاهد عبد الرحمن الحلحولي

قتلا في مكان واحد، وكان معينُ الدين قد رأى الشيخ يوسف وقال له: ياشيخ، أنت معذور ونحن نكفيك، وليس بك قوة على القتال، فقال: قد بعت واشترى فلا نقيله ولانستقيله، يشير إلى قوله تعالى:(إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأنَّ لهم الجنة) (٢٣) واستظهر الكفار على المسلمين، وشرع الكفار في قطع الأشجار والتحصن بها، وهدّوا القناطر وباتوا تلك الليلة على هذه الحال، وقد لحق الناسَ من الارتياع لهول ماشاهدوه والروع بما عاينوه ماضعفت به القلوب وحرجت معه الصدور، وباكروا الظهور اليهم في غد ذلك اليوم وهو الأحد، وزحفوا اليهم ووقع الطراد بينهم، واستظهر المسلمون عليهم، وأظهروا القتل والجراح فيهم. وأبلى الامير معينُ الدين في حربهم بلاءً حسناً، فظهر من شجاعته مالم يظهر من غيره، وقتل من الفرنج خلائق، واستشهد[من المسلمين] جماعة. ولم تزل رحى الحرب دائرة بينهم إلى أن أقبل الليل وعاد كل واحد منهم إلى مكانه. وبات الجند بازائهم وأهل البلد على أسوارهم.

ثم إن الفرنج تقدموا وخيّموا بالميدان الأخضر، وضايقوا البلدَ حتى نزلوا على أبوابه. وكان أنر قد كاتب سيف الدين غازي ونورَ الدين ابني زنكي، فلما كان في اليوم الخامس وصل سيف الدين غازي في عشرين ألف ونزل بحمص، ووصل نور الدين محمود إلى حماة، وفرح المسلمون بذلك، فأرسل غازي يقول لمعين الدين: قد حضرت بجيش عظيم، ولم أترك ببلادي من يحمل السلاح، فإن أنا جئت ولقيت الفرنج وكانت علينا هزيمة وليست دمشق لي ولالي بها نائب لم يسلم منا أحد، وأخذتها الفرنج وغيرها، فإن أحببتَ أني أقاتِلهم فسلم البلد إلى من أثق به، وأنا

أحلف لك إن كان النصر لنا لاأدخل إلى دمشق، وأرجع إلى بلادي. فمطله معين الدين، وبعَث إلى [الفرنج] الغرباء يقول لهم: إنّ ملك الشرق قد حضر، فإن رحلتم وإلا سلّمت دمشق إليه، وحينئذ تندمون. وأرسل إلى فرنج الشام يقول لهم: بأيّ عقلٍ تساعدون هؤلاء الغرباء علينا وأنتم تعلمون أنهم إن ملكوا أخذوا مابأيديكم من البلاد الساحلية، وأنا اذا رأيت الضعف عن حفظ البلد سلّمته إلى ابن زنكي، وأنتم تعلمون أنه إن ملك لايبقى لكم معه مقام بالشام، فأجابوه إلى التخلي عن ملك الألمان، وبذل لهم حصن بانياس. فاجتمعوا بملك الالمان، وخوّفوه من عساكر الشرق، وحسّنوا له الرحيل، وكان زمان الفاكهة، فأكل الفرنج منها فانحلت أجوافهم، ومات منهم خلق كثير، ومرض الباقون.

ولما ضاق بأهل دمشق الحال، أ خرجوا الصدقات والأموال على قدر أحوالهم، واجتمع الناس في الجامع الرجال والنساء والصبيان، ونشروا مصحف عثمان رضي الله تعالى عنه، وحثوا الرماد على رؤوسهم وبكوا وتضرعوا، فاستجاب الله تعالى. وكان مع ملك الألمان قسيس كبير طويل اللحية يقتدون به يسمى الياس، فأصبح في اليوم العاشر من نزولهم على دمشق، فركب حماره، وعلق في عنقه صليباً وفي يديه صليبين، وجمع القساوسة بين يديه بالصلبان، وركب الملوك والرجالة بين يديه، ولم يتخلف من الفرنج أحد إلا من يحفظ الخيام وقال لهم القسيّس: قد وعدني المسيح أني أفتح اليوم دمشق، ولايردني أحد، وقصدوا البلد ففتح المسلمون الأبواب واستسلموا للموت، وغاروا للاسلام، وحملوا حملة رجل واحد، وكان يوماً لم ير في الجاهلية ولا في الاسلام مثله، وقصد واحد من أحداث دمشق القسيس لعنه الله وهو في أول القوم فضربه، فأبان رأسه عن بدنه، وقتل حماره، فانهزم الفرنج لعنهم الله وقتل منهم أكثر من عشرة آلاف، وأحرقوا الصلبان وتبعوهم إلى الخيام، وحال بينهم الليل، فأصبحوا ولم يبق لهم أثر، وبعثوا يطلبون من معين الدين بانياس فقال:

أنـا وعدتُكـم إن رحلتـم، وهـذا فعلَ الله تعـالى، فقـالـوا: نحنُ نعـود إلى دمشق، ونقيمُ عليهـا، ولانرحل حتى نـأخذَها، وكانـوا قد أحرقوا الـربوة، وهـدّوا الجواسق، وقطعـوا الاشجـار، ودرسوا ظـاهـرَ دمشق، فـرأى معينُ الدين أن يفديَ دمشق ببانياس، فأعطـاهم إياها،وبقيت في أيديهم حتى فتحها نـور الدين محمـود. وعاد سيـف الدين غـازي إلى بلاده، واستبشر الناسُ بهذه النعمـة التي أسبغها الله عليهم، وأكثـروا من الشكر لـه تعالى عما أولاهـم.

وذكـر الحافظ أبـو القاسـم ابـن عساكـر رحمه الله تعالى في تـاريخه أنَّ الفقيـه الفندلاوي رؤي في المنـام، فقيل لـه: أين أنـت؟ قال: في جنـاتِ عدن على سُرر متقابلين. وقبره الآن يُـزار بمقابر الباب الصغير مـن ناحية حائط المصّلى، وعليه بلاطة كبيرة منقورة فيها شرح حاله. قاله ابن الأثير.

وفيها وردت الأخبار في رجـب من ناحية حلـب بأن نور الديـن محمود صاحبهـا كان قد توجـه إلى ناحية الأعمال الافـرنجية. وقصد فاميـة وظفر بعـدة من الحصـون والمعاقـل الافرنجيـة، وبعـدة وافرة مـن الفرنـج، وأن صـاحب أنطـاكيـة جمع الفرنـج وقصده على حين غفلـة منـه، فنال مـن عسكره وأثقالـه، وانهزم بنفسه وعسكره، وعاد إلى حلب سـالماً لم يفقد منه إلا النفر القليل بعد قتل جماعة وافرة من الفرنج.

وذكـر ابن أبي طـي أن أسد الـدين لما كـان في نفسه على نـور الديـن لتقديم ابـن الداية عليه، لم ينصـح يومئذ. فمرّ بـه نورُ الدين، فقـال له: ماهذا الوقوف والغفلة في مثل هـذا الوقت والمسلمون قد انكسروا، فقال: ياخـوند، ايـش ننفع نحـن، انما ينفعُ مجدُ الديـن أبو بكـر، هو صـاحب الامر—يعني ابن الـداية— فاستدرك نورُ الدين ذلـك، وطيّب قلب أسد الدين، وألزم مجدَ الدين أن يعرف لاسـد الدين حقَّه، وأصلحَ بينهما، قال: وقُتـل في هذه الكسرة شـاهنشـاه بن أيـوب أخـو الملـك الناصر صـلاح الديـن، وهو والـد عز الديـن فرخشـاه وتقي الديـن عمر، والسـت عذرا

المنسوب إليها المدرسة العذراوية بالتربة النجمية جوار المدرسة الحسامية بمقبرة العوينة ظاهر دمشق.

وفيها أبطل نورُ الدين بحلب الآذان بحيّ على خير العمل والتظاهر بسبّ الصحابة، وأنكر ذلك إنكاراً شديداً، وساعده على ذلك جماعةٌ من أهل السنة والجماعة. وعظم ذلك على الطائفة الإسماعيلية وأهل التشيّع، وضاقت له صدورهم وهاجوا وماجوا، ثم سكتوا وأحجموا للخوف من السطوة النورية المشهورة والهيبة المحذورة.

سنة أربع وأربعين وخمسمائة

فيها تحركت الفرنج من الساحل ليقصدوا بلادَ حلب، فسار نورُ الدين بعساكره، وجمع كثيرا من التركمان، وكتب إلى معين الدين يستنجده، فبعث اليه وجاءته عساكر مجاهد الدين بزان بن مامين نائبَ صرخد في عساكر دمشق، وجاءته عساكر أخيه سيف الدين، وسار إلى أنطاكية، فخرج إليه البرنس، وكان بينهم وقعة عظيمة، وكسرهم نور الدين، وقتل منهم ألفاً وخمسمائة وأسر مثلها، وقتل البرنس، وكان هذا اللّعين من أبطال الفرنج المشهورين بالفروسية وصاحب بأس مع اشتهار الهيبة وكثرة السطوة، فأراح الله البلاد وكفى العباد منه، وحمل رأسه إلى نور الدين، وعاد إلى حلب بالغنائم العظيمة والأسارى، فبعث بعضها إلى أخيه وإلى الخليفة وإلى دمشق، وذل دين الصليب، وظهر من نور الدين في هذه الوقعة من الشجاعة والصبر في الحرب على حداثة سنه ماتعجب منه الناس.

وفيها فتح نورُ الدين محمود حصن فامية، وكان على أهل حماة وحمص منه ضرر عظيم، وكانوا يشنون الغارات منه على البلاد، وكان بينه وبين حماة مرحلة واحدة، وهو حصنٌ منيع على تل مرتفع عال من أحصن القلاع وأمنعها.

وفيها جاءت زلـزلة عظيمة، وماجت بغداد نحـو عشر مرات، وتقطع بحلوان جبل من الزلزلة، وهلك عالم من التركمان.

وفيها مات خلقٌ كثير بالبرسام لايتكلم المرضى به حتى يموتوا.

وفيها توفي سيف الدين غازي بـن زنكي صاحب الموصل، وكان عمره أربعا واربعين سنة، وكـان من أحسن الناس صورة، ودفن بـالمدرسة التي أنشأها بـاطن الموصل، وخلّف ولداً ذكـراً أخذه عمه نور الـدين محمود، فربـاه وأحسن إليه، فلـم تَطل أيامـه، ومات شـاباً لم يعقل، وكـان سيف الديـن شجاعاً كريماً ذا عـزم وحزم، وهو أول من حمل على رأسـه سنجق من الأتـابكية أصحـاب الأطراف، فـانه لم يكـن فيهم مـن يفعله لأجـل السلاطين السلجوقية، وهو أول من أمر ألاّ يركب أحدهم إلاّ والسيف في وسطه، فلما أمـر هو بذلك اقتـدى به غيره من أصحاب الأطـراف، ودفن بمدرسـة الأتابكيـة التي بنـاها ووقفهـا على الحنفية والشـافعية بـالموصل، وبنى أيضاً خانقاه.

وتملك بعده الموصل أخـوه قطبُ الدين مودود، وتزوج امـرأة اخيه التي مات ولم يدخل بها—وهي ابنة حسام الدين تمرتاش صـاحب ماردين— فولدت لقطب الدين أولاده الذين ملكوا الموصل بعده.

قـال ابن الأثير: وكـانـت هذه الخاتـون يحل لها ان تضـع خمارها عنـد خمسة عشر ملكـاً من آبـائها وأجـدادها وأخـوتها وبني أزواجهـا وأولادها وأولاد أولادها، ثم ذكرهم ابن الأثير في كتـابه وسمّاهم، وذكر أنها أشبهت في ذلك فاطمَة بنـت عبد الملك بن مروان زوج عمر بن عبد العـزيز، فإنه كان لها أن تضـع خمارها عند ثـلاثة عشرخليفة وهـم من معاويـة إلى آخر خلفاء بني أمية، سوى آخرهم وهو مـروان بن محمد فإنه ابن عم ليس لها بمحرم، والباقي محارم لها.

قال صاحب الروضتين وماتم لها ذلك إلا بعد ذكره أن أمها عاتكة بنت يزيد بن معاوية فمعاوية جد أمها ويزيد جدها لأمها ،ومعاوية بن يزيد خالُها، ومروان جدُّها لأبيها، وعبدُ الملك أبوها، والوليد بن يزيد ابن اخيها، ويزيد وإبراهيم ابنا الوليد ابنا أخيها. وهؤلاء كلهم خلفاء، وعدّتهم ثلاثة عشر. لكن عاتكة ليست أمها، بل أمها امرأة مخزومية، واختلّ ماذكره. والصواب في ذلك أن يقال: كان لفاطمة أن تضع خمارها عند عشرة من الخلفاء وهم: مروان بن الحكم ونسله سوى مروان بن محمد،وأما عاتكة فالجميع محرم لها سوى عمر بن عبد ا لعزيز ومروان بن محمد وبقي اثنا عشر خليفة: معاوية جدّها، ويزيد أبوها ومعاوية بن يزيد أخوها ومروان حموها، وعبد الملك زوجها، والوليد وسليمان وهشام أولاد زوجها، ويزيد بن عبد الملك ابنها، والوليد بن يزيد ابن ابنها ويزيد بن الوليد وابراهيم بن الوليد ابنا ابن زوجها.

قال: وماذكره ابن الأثير من أمر بنت حسام الدين، فستُّ الشام بنتُ أيوب أكثر منها محارم من الملوك يجتمع لها من ذلك أكثر من ثلاثين ملكا من إخوتها الأربعة: المعظّم، وصلاح الدين، والملك العادل، وسيف الاسلام، ومن أولادهم وأولاد أولادهم وأولاد أخيها الأكبر شاهنشاه بن أيوب بن تقيّ الدين عمر وذريته أصحاب حماة، وفرخشاه وابنه الأمجد صاحب بعلبك. انتهى كلام الروضتين.

قال ابن الأثير: ولما ملك قطبُ الدين الموصلَ والبلادَ الجزرية كان أخوه نور الدين بحلب وهو أكبر من قطب الدين. فكاتبه الأمراء وطلبوه إليهم، فسار نور الدين من حلب في سبعين فارساً من أكابر دولته، منهم أسدُ الدين شيركوه ومجد الدين ابن الداية، فسلم اليهم محمد بن المقدم سنجار. فلما سمع قطب الدين الخبر، جمع عساكره وأرسلوا إلى نور الدين ينكرون عليه إقدامه وأخذه ماليس له، ويهددونه

بقصده وإخـراجه من البـلاد قهراً ان لم يـرجع اختياراً، فـأعاد[الجواب]:
إنني أنا الأكبر، وأنا أحق أن أدبّر أمر أخـي منكم، وماجئت حتى كاتبني أمـراؤكم يـذكرون كـرههم لكـم، فخفت أن يحملهـم بغضُهم لكـم على إخراج البـلاد من أيدينا، وأمـا تهددكم إياي بالقتـال فأنا ماأقـاتلكم إلا بجندكم، ولهذا جئتكم جريدة. وهرب إليـه جماعة من أجنادهم، فخافوا أن يلقوه ويخامـر عليهم باقـي العسكر، فـدخل الامراء في الصلـح، وقال جمال الديـن الوزيـر: نحن نظهـر للسلطان والخليفـة اننا تبـع نور الـدين محمود، ونـور الدين يظهر للفـرنج أنه تبع لنـا، فمتى كاشفناه وحـاربناه، فان ظفـر بنا طمـع فينا السلطـان، وان ظفرنا بـه طمع فيـه الفرنـج، ولنا بالشـام حمص وقد صـار له عندنـا سنجار[وهذه أنفـع من تلـك، وتلك أنفع له مـن هذه، والرأي ان نسلم إليـه حمص ونأخذ منه سنجـار]. وهو في ثغر بـإزاء الفرنج ويتعين مسـاعدته. فـاتفق الجماعة على هـذا الرأي ، وسار جمال الـدين الوزيـر إلى نور الدين وأبـرم معه الأمر وتسلـم حصن حمص، وسلّم سنجار إلى أخيه. وعاد نورُ الديـن وأخذ ماكان بسنجار من الأمـوال، واتفقت كلمتهما واتحدت آراؤهما وكـل واحد منهما لايصـدر إلا عن أمر أخيه.

وفيهـا اتصل الخبرُ بنـور الـديـن بإفسـاد الفـرنـج بالأعمال الحورانيـة بالنهـب والسبي وأن الأرض أجدبت لانحبـاس المطر وترّحل الفـلاحون، فجاء نور الدين بجيشـه إلى بعلبك ليوقع بالفرنج، فاتفـق عند وصوله إلى بعلبك نـزول الغيث واستمـر من يـوم الثلاثـاء إلى مثله، وجـرتِ الأودية وزادتِ الأنهار، وامتلأت برك حوران، فجهد الناس بـالدعاء، وقالوا: هذا ببركتـه وحسـن نيتـه وسيرتـه. ثم نـزل بجسر الخشـب المعـروف بمنـازل العسكر، وراسـل مجير الدين صاحـب دمشق والرئيس مؤيد الديـن بن الصـوفـي يقـول: إننـي مـاقصـدت بنـزولـي هنـا طلبـا لمحـاربتكم، وإنما دعـاني إلى هذا الأمـر كثـرة شكايـة أهل حـوران (

والعربان)أن الفلاحين أخذت أموالهم وسبيت نساؤهم وأطفالهم بيد الفرنج، وعدم الناصر لهم، ولايسعني مع ما أعطاني الله تعالى وله الحمد من الاقتدار على نصرة المسلمين وجهاد المشركين وكثرة المال والرجال أن أقعد عنهم ولا أنتصر لهم مع معرفتي بعجزكم عن حفظ أعمالكم والذب عنها والتقصير الذي دعاكم إلى الاستصراخ بالفرنج على محاربتي، وبذلكم لهم أموال الضعفاء والمساكين من الرعية ظلماً لهم وتعدياً عليهم، وهذا ما لايرضي الله ولا أحداً من المسلمين، ولا بد من المعونة بألف فارس تجرد مع من يوثق بشجاعته من المقدمين لتخليص ثغر عسقلان وغزة. وكان الجواب: ليس بيننا وبينك إلا السيف. (وسيوافينا من الإفرنج ما يعيننا على دفعك إن قصدتنا ونزلت علينا. فلما عاد الرسول بهذا الجواب) كثر تعجب نور الدين، وأنكر هذا وعزم على الزحف، فجاءت أمطار عظيمة منعته من ذلك.

وفيها مات صاحب مصر الحافظ لدين الله بن أبي القاسم وقام بالأمر بعده ولده الظافر.

سنة خمس وأربعين وخمسمائة

في أولها تقرر الصلح بين نور الدين وأرباب دمشق، وسببه أن نور الدين أشفق من سفك دماء المسلمين، فراسله مجير الدين، ثم خرج إليه هو والرئيس ابن الصوفي، وبذلا له الطاعة وأن يخطب له بعد الخليفة والسلطان، وينقش اسمه على الدينار والدرهم، فرضي وخلع على مجير الدين والرئيس ابن الصوفي وطيب قلبيهما. وخرج إليه الأمراء والأعيان فخلع عليهم، وأفاض إحسانه على فقهاء دمشق وفقرائها، ورحل إلى حلب.

وفيها وردت الأخبار بأن العرب خرجوا على الركب العراقي بين مكة

والمدينة. وظهرت العرب على الحجاج، وأخذوا منهم مالا يحصى، حتى أنه أخذ من خاتون أخت السلطان مسعود ما قيمته مائة ألف دينار. ومات معظم الناس جوعاً وعطشاً وبرداً، وطلى بعض النساء اجسادهن بالطين ستراً للعورة. ووصل إلى دمشق من سلم منهم، فحكوا ما نزل بهم من المصيبة، وأنه كان من الحجاج من وجوه خراسان وعلمائهم وخواتين أمراء العساكر السلطانية والحرم والبنات والأموال والأمتعة الفاخرة ما لايمكن وصفه، وأن العرب استولوا على الجميع، فكسا أهل دمشق العراة منهم، وأطلقوا لهم ما يستعينون به على العود إلى أوطانهم.

وفيها أمطرت باليمن مطراً كله دم، فبقي أثره في الأرض وفي ثياب الناس.

قال ابن الجوزي:وفيها أسر جوسلين صاحب تل باشر وأعزاز وعين تاب ومرعش وغيرها من الحصون شمالي حلب، وكان على المسلمين منه بلاء عظيم، فجهز نور الدين سلحداره إليه في جيش، فظهر جوسلين عليهم وأسر السلحدار. فعز ذلك على نور الدين، فدس عليه جماعة من التركمان وقال: من قدر منكم على جوسلين أعطيته من الأموال والبلاد مهما أراد. فجاءت طائفة منهم فنزلوا في أرض عين تاب، فأغار عليهم جوسلين وأخذ منهم امرأة مليحة، فخلا بها تحت شجرة ، فكمن له التركمان وأخذوه أسيراً وأحضروه إلى نور الدين محمود، فأعطى الذي أسره عشرة آلاف دينار، وأخذ نور الدين جميع ما كان بيده من البلاد والقلاع والحصون وأمن الناس شره.

سنة ست وأربعين وخمسمائة

في المحرم عاد نور الدين إلى حصار دمشق، فنزل بعيون الفاسريا بين

عـذرا ودومة، وأرسـل إلى مجير الـدين وجماعتـه يقـول: قـد كنت اتفقـت معكم وحلفت لكـم، والآن فقد صح عندي أنكـم ظاهرتم الفـرنج، وما قصـدي إلا الجهـاد، فإن رجعتـم عـن الفـرنـج وأعطيتمـوني عساكـركـم لأجاهد في سبيل اللـه، رجعت عنكم، فلم يردوا عليه جوابـاً، فرحل ونزل مسجد القـدم، وأحدقت عساكـره بالبلد وضايقتـه، ولم يزحف خوفـا من سفـك دمـاء المسلمين، ووصلـت الأخبـار بمجـيء الفـرنـج لنصرة مجير الدين، فضـاقت صدور أهل الصـلاح، وزاد إنكارهم لمثل هـذه الأحوال المنكرة، ولم تـزل المناوشات تعمل في كـل يوم من غير مزاحفـة ولا محاربة إلى الثالـث عشر من صفر، فـرحل إلى داريـا مستعداً لقتال الفـرنج. فلما قرب الفـرنج من داريـا أشار على نـور الدين خـواصه بالـرحيل، وقـالوا: نبقى بين الفـرنج وعسكـر دمشق. فارتفـع إلى الزبـداني، ووصل الفـرنج داريا في جمع قليـل، وخرج مجير الـدين آبـق ومؤيـد الديـن ابن الصـوفي واجتمعا بملكهم،فما صادفـا عنده من القوة ما كانا يظنـانه، فاتفقوا على نزول الفـرنج على بصرى فإنها عصـت على مجير الديـن، ورحلوا إلى رأس الماء ونزلـوا على بصرى وضايقـوها، فلـم يظفروا منهـا بطائل، فعـادوا إلى بلادهـم، وبعثوا يطلبون من مجير الدين مـا قرره لهم على ترحيل نور الدين عـن دمشق، وبلـغ نـور الديـن ذلك فعـاد إلى دمشـق، وعرض عسكـره بالبقاع وكانوا ثلاثين ألفاً بـالتركمان والعرب وغيرهم، فنزل أرض كوكبا ثم رحل فنـزل جسر الخشب، ثم رحـل إلى مسجد القدم، فنـودي في دمشق في العسكر والاحداث بـالخروج إلى قتاله، فلم يخرج إلا اليسير، وأقـام مدة من غير قتـال ولا زحف،ثـم تـرددت بينهـم المراسلات ، على يـد الفقيه برهـان الديـن البلخي، وأسـد الدين شيركـوه وأخيه نجـم الديـن أيوب، وتقارب الأمـر إلى تجديد عهـود وأيمان وشروط اشترطها عليهـم، ثم رحـل عنهم عـاشر شهر ربيع الآخر طـالباً ناحية بصرى لأن واليهـا عصى على المسلمين واعتضـد بالفـرنج، فـالتمس نـور الديـن من دمشـق المناجيـق وآلات الحصار، وبعث ذلك مع قطعة من عسكره.

-١٠٨٧١-

وفيها قصد أكثر الفرنج ناحية من البقاع على حين غفلة، فنهبوا ما فيها من المواشي، وسبوا النساء وأسروا الرجال، فنهض اليهم عسكر من بعلبك فلحقهم، وأرسل الله عليهم من الثلوج المتداركة ما ثبطهم عن الوصول إلى بلادهم، فقتلوا من الفرنج مقتلة عظيمة، واستخلصوا الأسرى والمواشي.

وفيها ورد إلى مدينة سبتة مركب فيه جماعة من أسرى المسلمين وفيهم صبيان في جسدين أحدهما ملتصق بالآخر، وهما تامان في الخلقة سوى الفخذين والرجلين، فإنهما برجلين على فخذين يتكلمان العربية وقد تعلما شيئا من القرآن ، وذكرت الفرنج أنهم أصابوهما في بعض الجزائر أو في بعض المراكب ومعهما شيخ كبير وهو والدهما، وأنه مات بصقلية، وكانا جميلي الصورة فصيحي العبارة. وتسامع النصارى بهما فكانوا يأتون إليهما لمشاهدة غرائب صنع الله، ويحملان إلى المواضع والناس يبرونهما، وحصل لهما بذلك نعم طائلة وافرة. قال الكتبي في تاريخه: كذا نقلته من كتاب عطف الذيل لشيخ الشيوخ ابن حموية، قال: ونظير هذا ما حكاه التنوخي في كتاب نشوار المحاضرة أن صاحب أرمينية بعث إلى ناصر الدولة بن حمدان في سنة نيف وأربعين وثلاثمائة رجلين ملتصقين من إحدى الجانبين من فوق الحقو إلى دون الإبط، وكان أحدهما يمشي إلى جنب الآخر ويجعل يده التي تلي جانب أخيه خلف ظهر أخيه ويمشيان وأنهما كانا يركبان دابة ببردعة، وكان أحدهما إذا أراد البول قام الآخر معه. وكان معهما أبوهما، فتعجب منهما ناصر الدولة، وأجزل صلتهما ، وكانا يدخلان على الكبراء والأعيان في الليل حتى لايراهما الناس نهاراً، وحصلت لهما نعمة وافرة. قال التنوخي: وبلغني أن أحدهما مرض ومات وبقي الآخر بعده في عقاب لم يستطع أن يحمله معه، ثم نتن عليه ومرض بسريان العفن إليه فمات فدفنهما أبوهما، وكان عمرهما أكثر من ثلاثين سنة.

وفيها ملك الفرنج عسقلان لانهم ضايقوها، وقتل من الفريقين خلق كثير، وعجز من فيها فطلبوا الأمان فأمنوهم، وكان بها من الذخائر والعدد والغلال مالا يحصى، وقيل إن أهلها كانوا في ضائقة يرتقبون النجدة من مصر، فبينما هم في آخر نفس إذا بمركب صغير قد أقبل من مصر، وإذا فيه رجل ومعه كتاب من صاحب مصر إلى الوالي يقول له: ساعة وقوفك على هذا الكتاب تنفذ لنا من مقصبة عسقلان باقة قصب غلاظ نجعلها شبابات، فقال للرسول: نعم إلى غد. ثم خرج في الليل إلى الفرنج، وأخذ أماناً لأهل البلد.فلما طلع الفجر فتح الأبواب ودخل الفرنج البلد. فأحضر القاصد بالكتاب وقال له: هذا هو الجواب.

سنة سبع وأربعين وخمسمائة

فيها توفي السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه ولم ير أحد من الملوك والسلاطين ما رأى ، وكانت أيامه نيفاً وثلاثين سنة. وذكر ابن هبيرة في كتاب الافصاح، قال: لما تطاول على المقتفي أصحاب السلطان مسعود وأساءوا الأدب ولم يمكنه المجاهرة بالمحاربة، اتفق الرأي على الدعاء عليه شهراً كما دعا النبي صلى الله عليه وسلم على رعل وذكوان شهراً وابتدأ هو والخليفة سراً كل واحد في موضعه يدعو سحراً من ليلة تسع وعشرين من جمادى الأولى، واستمر الأمر على ذلك كل ليلة، فلما كمل الشهر مات مسعود على سريره لم يزد على الشهر يوماً ولا نقص يوماً، فتبارك الله رب العالمين مجيب دعوة الداعين.

ولما مات أجمع رأي الأمراء على تقرير ملكشاه بن محمود ابن أخي مسعود فأجلسوه، واستمر ثلاثة أشهر، وقيل خمسة أشهر، وكان مقدم العساكر خاص بك فعن له أن يقبض على ملكشاه وينفرد بالملك، فقال للكشاه: إني أريد الملك لك من غير منازع، وأخوك ينازعك والمصلحة ن أقبض عليك، وأكتب إلى أخيك، فإذا وصل قبضت عليه وسلمته

إليك، فقال:افعـل، فقبض عليه وكتب إلى محمـد وهو بخوزستان يـدعوه إلى السلطنة، فجاء إلى همذان فجلـس على التخت، ودخل الناس يهنئـونه ويخاطبونه في أشياء، فقال: ما لي في هـذا الأمر شيء، كلامكم مع خاص بك، فهو الـوالد والكل تحت يده، وقـدم له خاص بك مـن المال والخيل والمماليـك والجواهـر شيئاً كثيراً، وأقـام بهمذان أيامـاً. وبلغه مـا في نفس الأمير خاص بـك من التـدبير عليه، فـدعاه هـو وزنكي الجنـدار وشملة التركماني وهـو في أعلى قصر المملكــة، فلما صعـدوا درج القصر أحــس شملة بـالشر، فقال لخاص بك: ارجـع فما هذا عـلامة خير، فلم يـرجع ، فلما حصلوا في بعض مضائق القصر أخذتهم السيـوف، فقتل خاص بك وزنكي الجنـدار وهرب شملـة، ورموا بـرأسيهما وأكلت الكـلاب لحومهما، واستولى محمد على أمـوالهما ومماليكهما. وكان مما أخذ من خـاص بك ألف ألف دينـار، وسبعون ألف ثـوب من الأطلس، وثـلاثمائة مملوك، وخمسمائة جاريـة، ومن النجـائب والبغال والأثـاث والخيم مـا لا يوصـف ولايحد. ومع هذا جبوا له من العسكر كفناً كفنوا به باقي جثته.

وبها فتح نـور الدين انطـرسوس عنـوة وطلبوا منه الأمـان على النفوس فأمنهم، وملك عدة من الحصـون منها المرقب، وكان على الناس منه ضرر عظيم.

وفيها بـاض ديك بيضة واحدة، وبـازي بيضتين، وباضت نعـامة بغير ذكر، حكاه ابن الجوزي.

سنة ثمان وأربعين وخمسمائة

فيها خرجت الغـز على أهل خراسان، وهم تركمان مـا وراء النهر نحو مائة ألف خركـاه. فلما ملك الخطا ما وراء النهر، طردوا عنهـا هؤلاء الغز فنزلـوا بنواحـي بلخ على مـراعيها، وهـؤلاء يدينـون بالإسـلام في الجملة،

ويفعلون فعل التتار، فجهز اليهم سنجر العساكر مع الأمير قماج، فكسروه وقتلوا ولده، وغنموا ما كان معه وأكثروا القتل في العسكر والرعايا، وأسروا النساء والأطفال، وقتلوا الفقهاء، وعملوا العظائم، وخربوا المدارس، وهرب قماج إلى مرو. وأرسل السلطان سنجر يتهددهم، فأرسلوا جماعة من شيوخهم إلى سنجر، وقالوا : قد بغيت علينا ونصرنا الله عليك، وللبغي مصرعه، ونسألك إهدار ما جرى ونكون في خدمتك وتحت طاعتك، ولانريد منك شيئاً، بل نجعل لك علينا جعلا في كل سنة خمسين ألف رأس من الخيل والنجائب، ومثلها من الغنم ومائة ألف دينار. فأشار عليه أعيان أهل مملكته بالصلح، وأشار عليه قماج بأن لايصالح، فمال إلى قول قماج ورد الشيوخ خائبين، فعادوا إلى أصحابهم وقالوا لهم : استعدوا فلابد من قصدكم، فجاؤوا إلى صحراء واسعة كالحلقة الدائرة، والجبال محدقة بها، وليس لها طريق إلا من مضيق واحد، فنصبوا خركاواتهم فيها، وجعلوا الأموال والمواشي حولها كالسور. وجاءهم سنجر بعساكره، فدخل من ذلك المضيق ونشب القتال، وكانت سهام عسكر سنجر تقع في الخركاوات، وسهام الغز لاتقع إلا في الفرسان، وكان سنجر قد وقف عند المضيق في جماعة من أصحابه، ولم يدخل ينتظر الدائرة على من تكون، فحمل الغز حملة فطرحوا المسلمين مثل الغنم، وقتل قماج ومعظم عسكر سنجر، وصار قتلى العسكر كالتلال، وهرب من بقي إلى ناحية المضيق، فلحقهم الغز فأفنوهم من قبل وصولهم إلى المضيق، وخرج الغز إلى المضيق وسنجر واقف في بقايا عسكره، فتقدم إليه كبراؤهم وترجلوا وقبلوا الأرض،وقالوا: سألناك الصلح فأبيت، وأنت سلطاننا، وقد قتل بعض عبيدك وبقي البعض يشيرون إلى أنفسهم، ثم أفردوه عن أصحابه وصاروا كأنهم في خدمته، وهو معهم مثل الأسير يجلسونه على السرير لاغير، وتفرق عنه عسكره، وجاؤوا به إلى خراسان فنزلوا بلخ، واستولوا على البلاد، وأظهروا الفساد، وقتلوا الكبار والصغار وأحرقوا ، وقتلوا القضاة والعلماء في البلاد كلها،

وظهر من جورهم ما لم يسمع بمثله ويتعذر وصف ما جرى منهم في تلك البلاد،ولم يسلم منهم شيء سوى هراة ودهستان فامتنعت لحصانتها، كل هذا وسنجر معهم لايملك لنفسه نفعاً ولا ضراً، ثم عملوا له قفصاً من حديد وجعلوه فيه، وكانوا إذا جاؤوا له بطعام يدخر منه إلى وقت ينسونه فيه، كذا ذكره الكتبي في تاريخه.

وقال الشيخ عماد الدين ابن كثير: إنهم أسروا سنجر، فأقام عندهم شهرين، ثم أخذوه وساروا به فدخلوا كرسي مملكة خراسان، فسأله بعضهم أن يجعلها له إقطاعاً، فقال سنجر: هذا لايمكن ، هذه كرسي المملكة، فضحكوا منه وصفوا له، فنزل عن سرير الملك ودخل خانقاه، وصار فقيراً من جملة أهلها، وتاب عن الملك، واستحوذ أولئك الأتراك على البلاد، وأظهروا فيها الفساد، وأقاموا سليمان شاه ملكاً، ثم عزلوه وولوا ابن أخت سنجر الخاقان محمود بن محمد بن كوخان، وتفرقت الأمور، واستحوذ كل إنسان منهم على ناحية من تلك الممالك، وصارت الدولة دولاً. فسبحان من يعز ويذل.

وفيها كان الغلاء بدمشق، وبلغت الغرارة خمسة وعشرين ديناراً، ومات الفقراء على الطرق.

وفيها أخذت الفرنج ــ خذلهم الله تعالى ــ عسقلان، ولما أن نازلوها خرج المسلمون إليهم، وقاتلوهم، فطردوهم فأيسوا من أخذها وعزموا على الرحيل عنها، فأتاهم الخبر أن أهل البلاد قد اختلفوا، وذلك لأنهم لما قهروا الفرنج داخلهم العجب وادعى كل طائفة أن النصرة على يده، ووقع بينهم خصام على ذلك حتى قتل بينهم رجل فعظمت الفتنة، وتحاربوا فقتل بينهم جماعة ، ورجعت الفرنج في الحال، فلم يكن على السور من يمنعهم فملكوا البلد،(فإنا لله وإنا إليه راجعون) وبقيت في أيديهم إلى أن فتحها صلاح الدين يوسف.

سنة تسع وأربعين وخمسمائة

فيها ملك نور الدين دمشق، وسببه أن الفرنج لما ملكوا في السنة الخالية عسقلان، قوي أمرهم بملكها حتى طمعوا في أخذ دمشق، واستضعفوا مجير الدين، وتابعوا الغارة على أعماله، وأكثروا من القتل بها والسبي، ثم زاد الأمر إلى أن جعل الفرنج على أهل دمشق قطيعة كل سنة، وكان رسولهم يجيء إلى دمشق ويجبيها من أهل البلد، ثم إن طمع الفرنج تزايد حتى أرسلوا واستعرضوا العبيد والإماء الذين نهبوا من سائر البلاد الشامية ، وخيروهم بين المقام عند مواليهم والعود إلى أوطانهم، فمن أحب المقام تركوه ، ومن أحب العود إلى وطنه ردّوه إليه، وكان الأمراءوأعيان الدولة يرسلون لنور الدين يقولون الغياث الغياث، ويقولون: إن شئت حصرناه في القلعة، فرأى نور الدين أخذه بالملاطفة خوفاً من إعطائه البلاد للفرنج، فعدل إلى ملاطفته ومكاتبته ومهاداته، فأنس به، وصار يكاتبه ويستشيره، وكان يكتب إليه نور الدين إن فلاناً من الأمراء يكاتبني في كذا وكذا، فيقبض عليه مجير الدين، ولم يزل يكاتبه في الأمراء والأعيان حتى لم يبق عنده غير عطاء بن حفاظ السلمي الخادم. وكان شهماً شجاعاً، وقد ردّ مجير الدين إليه أمر دولته. فكتب نور الدين إلى مجير الدين يقول: قد نفر عنك عطاء قلوب الرعية، فاقبض عليه ، لعلم نور الدين أنه لايتم له أمر دمشق مع وجود عطاء.فقبض عليه مجير الدين وأمر بقتله، فقال له عطاء: لاتقتلني، فإن الحيلة قد تمت عليك، وذهب ملكك، وسترى قولي، ولم يلتفت إليه، فحينئذ طمع نور الدين في دمشق، وراسل أحداثها وأعيانها ، فأطاعوه، فسار إليهم ونزل إليها.

وكتب مجير الدين إلى الفرنج يستنجدهم، وبذل لهم بعلبك وأموالاً كثيرة، وبلغ نور الدين ذلك، فزحف على دمشق، وظهر له العسكر من دمشق، ووقع الطراد بينهم أياماً، فلما كان يوم الأحد عاشر صفر، زحف إليهم ودفعهم إلى باب كيسان، ولم يكن على السور أحد من العسكر

لسوء تـدبير مجير الديـن، وجاء واحـد من رجـال نور الـدين إلى السـور، وعليه امرأة يهودية، فـدلت له حبلاً فتسلق فيه، وتبعـه الرجال ، وأصعدوا علماً، وصاحوا : نـور الدين يامنصور، فـامتنع الأجناد والرعيـة عن القتال والممانعة لما هـم عليه من بغض مجير الـدين وظلمه وعسفه ومحبتهـم لنور الديـن، وبادر بعـض الخشابين بفأس إلى البـاب الشرقي، فكسر أغـلاقه وفتحه ، فـدخل منـه العسكر ، فلـم يقف بين أيـديهم أحد، ودخـل نور الدين البلـد، وصعد مجير الدين إلى القلعـة معه خواصة، وأغلـق أبوابها، فأرسـل إليه نور الديـن وطيب قلبه، وأمنـه على نفسه، ونادى بأمـان أهل البلد على نفوسهـم وأموالهم، وتقـرر الأمر بين مجير الدين ونـور الدين على حمص، وكتـب لـه منشوراً بها. وأخـرج مجير الـديـن ما كـان لـه في دوره بـالقلعـة والخزائن مـن الأموال والآلات والأثـاث على كثـرتـه إلى الـدار الأتـابكية دار جـده، وأقـام أيـاماً، ثـم سـار إلى حمص بعـد أن كتب لـه منشوراً باقطاعه عدة ضياع بـأعمال حمص برسمه ورسم جنده، ثم أحضر نور الـدين غـد ذلك اليـوم أماثل الـرعية مـن القضاة والفقهـاء والتجار، وخوطبـوا بما زاد في إيناسهـم وسرورهم بما يعـود بصلاح أحـوالهم وتحقيق آمالهم، فأكثروا الدعاء له والثناء عليه.

قال ابن الأثير: ولما استقـر نور الدين في البلـد، عمل مع أهله مكـرمة عظيمة وأظهر فيهـم عدلاً عاماً، وذكـر بعض ما قدمنـاه في أول الكتاب. وأقام مجير الدين بحمص. ثم كاتب أحداث دمشق في إثارة الفتنة، فبلغ نور الدين ذلـك، فأعطاه بالس بدل حمص لبعدها عـن دمشق، فلم يرض بها، ومضى إلى بغداد وبنى له داراً قبالة النظامية، وأقام بها إلى أن مات.

وفيها ظهر بنواحي واسط دم من الأرض لايعلم له سبب.

وفيها هـاجت ريـح شديـدة بعد العشـاء فيها نـار، فخاف النـاس أن تكون الساعة ، وزلزلت بغداد، وتغير ماء دجلة إلى الحمرة.

وفيها قتل بمصر خليفتها الظافر بالله العبيدي، وأقاموا ولده مكانه ولقبوه بالفائز ، وكان صغيراً لم يبلغ الخامسة . فكتب المقتفي لأمر الله عهداً لنور الدين بولاية مصر، ولقبه بالملك العادل، وأمره بالمسير إليها، فلم يتيسر له ذلك لاشتغاله بحرب الفرنج، وقرب عهده بأخذ دمشق.

وفيها ثارت الاسماعيلية، واجتمعوا في سبعة آلاف مقاتل من بين فارس وراجل وقصدوا خراسان، ووقع المصاف، فهزم الله الاسماعيلية، وقتل رؤوسهم وأعيانهم، ولم ينج منهم إلا القليل، وخلت قلاعهم من الحماة، ولولا أن عسكر خراسان كانوا مشغولين لملكوا حصونهم وقلاعهم، واستأصلوا شأفتهم.

سنة خمسين وخمسمائة

فيها تسلم نور الدين بعلبك وكانت بيد نجم الدين أيوب. وكانت قلعتها بيد رجل يقال له الضحاك البقاعي، وأحضر نجم الدين إلى دمشق وأقطعه إقطاعاً حسناً، وجعل ابنه توران شاه شحنة دمشق ثم من بعده جعل أخاه صلاح الدين هو الشحنة بها، وجعله من خواصه لايفارقه حضراً ولا سفراً، لأنه كان حسن الشكل ، حسن اللعب بالكرة، وفي شحنكية صلاح الدين يقول عرقلة الشاعر:

رويدكم يا لصوص الشام
فإني ناصح في مقالي
فإياكم وسمي النبي
يوسف رب الحجى والكمال
فذاك مقطع أيدي النساء
وهذا مقطع أيدي الرجال(٢٣)

وفيها أرسل أمير المؤمنين المقتفي إلى أمير الحرمين يأمره أن يركب على باب الكعبة المشرفة باب ساج جديداً قد ألبس جميع خشبه فضة مطلي

بذهب، وأن يأخذ أمير الحرمين حلية الباب القديم لنفسه، ويسير إليه خشب الباب القديم مجرداً ليجعله تابوتاً يدفن فيه عند موته.

قال أبو شامة: ذكر ذلك الفقيه عمارة الشاعر وقال: سألني أمير الحرمين أن أبيع له الفضة التي أخذها من الباب في اليمن ومبلغ وزنها خمسة عشر ألف درهم.

وفيها قتل أحمد بن محمد الحويزي. كان عاملاً للمقتفي على نهر الملك، وكان أظلم العالم يعلق الرجال بأرجلهم والنساء بثديهن في السرادق، ويعاقبهم بين يديه ويتنمس بالدين، والسجادة الزرقاء تحته والسبحة بيده وهو يسبح ويقرأ القرآن، والناس يعذبون بين يديه، ويومىء إلى الجلاد الرأس والوجه. وكان يدعي الكرامات ، دخل الحمام يوماً بقرية في نهر الملك، فدخل عليه ثلاثة فضربوه بالسيوف وقطعوه، فحمل إلى بغداد ، فمات ودفن في مقبرة جامع المنصور، وحفظ قبره لئلا ينبش، فأصبح وقد خسف بقبره، فاجتمعت العامة على سبه ولعنه، وأظهر الله فيه عظيم قدرته.

سنة إحدى وخمسين وخمسمائة

فيها حاصر نور الدين قلعة حارم، وهي حصن غربي حلب بالقرب من أنطاكية، وضيق على أهلها، وهي من أمنع الحصون وأحصنها، فاجتمعت الفرنج من قرب منها ومن بعد، وساروا نحوه، وكان بالحصن شيطان من شياطين الفرنج يرجعون إلى رأيه، فأرسل إليهم يعرفهم قوتهم وأنهم قادرون على حفظ الحصن والذب عنه بما عندهم من العدد والعدد وحصانة القلعة، ويشير عليهم بالمطاولة وترك اللغط، وقال لهم: إن لقيتموه هزمكم وأخذ حارم، وإن حفظتم أنفسكم أطقنا الامتناع عليه، ففعلوا ما أشار به عليهم، وراسلوا نور الدين في الصلح

على أن يعطوه حصةً من أعمال حارم، فأبى أن يجيبهم إلا على مناصفة الولاية، فأجابوه إلى ذلك، فصالحهم وعاد.

وفيها خلص سنجر من أسر الغز بحيل، وهرب إلى قلعة ترمذ بعد أن أقام عند الغز أربع سنين في الذل والهوان، حتى ضرب به أهل بغداد الأمثال. وكان إذا مر على الانسان شدائد قالوا: أما اشتفى الغز من سنجر! وقيل إنه وعد الموكلين به بالمال العظيم، فأجابوه ووفى لهم، ودخل مدينة مرو وقد زال عنه البؤس.

وورد على نور الدين كتاب سنجر بالتشويق إليه وما ينتهي إليه من جميل أفعاله، وإعلامه بما من الله عليه من خلاصه من الشدة التي كانت عليه بيد الغز بحيلة دبرها، بحيث عاد إلى منصبه من السلطنة، ووعده بنصره على الفرنج، فأمر نور الدين بزينة دمشق، وفعل في ذلك ما لم تجربه عادة فيما تقدم في أيام ملوكها، وأمر بزينة القلعة ، فحليت أسوارها بالجواشن والدروع والتروس والسيوف والأعلام وأنواع الملاهي، وهرع الخلائق والغرباء لمشاهدة ذلك فأعجبهم، وبقي أسبوعاً.

وفيها جاءت الأخبار بإغارة الفرنج على أعمال حمص وحماه. ثم سارت الفرنج في سبعمائة فارس سوى الرجالة إلى ناحية بانياس، فوقع عليهم عسكر الإسلام ونزل النصر، فلم ينج من الملاعين إلا القليل، وصاروا بين أسير وجريح وقتيل، وجاءت الرؤوس والأسارى، فكان يوماً مشهوداً، ثم تهيأ نور الدين للجهاد، وجاءته الأمداد، ونودي في البلد بالتأهب والحث على الجهاد، فتبعه خلق كثير من الفقهاء والصلحاء، ونازل بانياس، وجد في حصارها ، فافتتحها بالسيف، وجاء الفرنج لنصرة صاحب بانياس، وجد في حصارها، فافتتحها بالسيف، وجاء الفرنج لنصرة صاحب بانياس فلم يدركوه إلا وقد أخذت. وبلغ نور الدين أن الفرنج على الملاحة بقرب طبرية ، فنهض بجيوشه وجد في السير حتى أدركهم واقعهم وكسرهم، ووقع القتل والأسر في الكفر.

قال أبو يعلى: ولم يفلت منهم على ما حكاه الخبير الصادق غير عشرة نفر قيل إن ملكهم فيهم، وقيل قتل، ولم يفقد من المسلمين من الأجناد سوى رجلين أحدهما من الأبطال قتل أربعة ثم قتل رحمه الله، وجيء بالرؤوس والأسرى إلى دمشق فالخيالة على الجمال، والمقدمون على الخيل بالزرديات والخوذ، في أيديهم أعلامهم، وفرح المؤمنون، وضج الخلق بالدعاء لنور الدين.

سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة

كان فيها وفي السنة التي قبلها زلازل عظيمة متوالية ، بالشام، وحلب، وحماه، وشيزر، وفامية، وكفر طاب، والمعرة، وأنطاكية، ودمشق، وحصن الأكراد، وطرابلس، فهلك بحلب تحت الردم خمسمائة ألف نفس، وأما حماه فهلكت جميعها إلا اليسير، وأما كفر طاب فما سلم منها أحد، وأما فامية فهلكت وساخت قلعتها، وأما تل عزاز فإنه انقسم نصفين وظهر في وسطه نواويس وبيوت كثيرة، وأما حصن الأكراد وعرقة فهلكا جميعاً، وسلم من اللاذقية نفر يسير، وهلك أكثر أهل طرابلس ونصف أهل أنطاكية، كذا ذكره ابن الجوزي. قال الذهبي:والله سبحانه وتعالى أعلم بصحة ذلك وتحقيق تفاصيله.

وقال غيره: إنه وقع أبراج قلعة حلب وغيرها، وانشق تل حران نصفين، وظهر فيه صنم قائم في الماء ، وخربت صيدا وبيروت وعكا وصور وجميع قلاع الفرنج.

قال ابن الأثير: بلغني من كثرة الهلكى أن بعض المعلمين بحماة فارق مكتبه لمهم له، فجاءت الزلزلة فأخربت الدور، وسقط المكتب على الصبيان جميعهم، قال المعلم: فلم يأت أحد يسأل عن صبي كان له في المكتب.

قال: وأما أهل دمشق، فإنها توالت عليهم الزلازل في أيام وعددها، فارتاع الناس من هولها، وأخلوا منازلهم والمسقف، وخرجوا إلى الجامع والبساتين والصحاري، وأقاموا عدة أيام وليالي على الخوف والجزع يسبحون ويهللون ويرغبون إلى خالقهم ورازقهم في اللطف بهم والعفو عنهم. قال صاحب المرآة: ومات هذه السنة بسبب الزلزلة نحو من ألف ألف ومائة انسان. نسأل الله العافية في العاقبة، وقد قيل في ذلك أشعار كثيرة منها:

روعتنا زلازل حادثات
بقضاء قضاه رب السماء

هدمت حصن شيزر وحماة
أهلكت أهله بسوء القضاء

وبلاداً كثيرة وحصوناً
وثغورا موثقات البناء

فإذا مارنت عيون إليها
أجرت الدمع عندها بالدماء

وإذا ما قضى الله بأمر
سابق في عباده بالمضاء

حار قلب اللبيب فيه ومن
كان له فطنة وحسن ذكاء

وتراه مسجى باكي العين
مروعا من سخطة وبلاء

جل ربي في ملكه وتعالى
عن مقال الجهال والسفهاء

وفيها أخذ نور الدين شيزر من بني منقذ، وبعدما ملكوها مائة وعشرين سنة، وسلمها إلى مجد الدين ابن الداية، وشيزر حصن قريب من مدينة حماة على نصف نهار منها، وهو من أمنع القلاع وأحصنها على

حجر عال، له طريق منقور في طرف الجبل، وقد قطع الطريق في وسطه وجعل عليه جسر من خشب، فإذا قطع ذلك الجسر تعذر الصعود إليه (وكان لآل منقذ الكنانيين). فلما حصلت الزلزلة وخربت القلعة ولم يسلم بها أحد، بادر نور الدين وملكها وعمرها وأصلح أسوارها وأعادها كأن لم تخرب. وكذلك أيضاً فعل بمدينة حماة وكل ما خرب بالشام بهذه الزلزلة، فعادت البلاد كأحسن ما كانت.

وفيها حصل لنور الدين مرض حاد وكان بالقرب من أنطاكية، فتوجه في محفة إلى حلب وحصل في قلعتها، وأوصى أن يكون أخوه نصرة الدين هو القائم في منصبه بعده، ويكون مقيماً في حلب، ويكون أسد الدين في دمشق في نيابة نصرة الدين، ثم اشتد به المرض، وتواصلت الأراجيف بموته، فتقلقلت النفوس، وانزعجت القلوب، وتفرقت جموع المسلمين، واضطربت الأعمال، وطمع الفرنج فقصدوا مدينة شيزر وهاجموها، فقتلوا وأسروا ونهبوا. ثم شاعت الأخبار ، وانتشرت البشائر في الأقطار بعافية نور الدين، فأنست القلوب بعد الاستيحاش، وابتهجت النفوس بعد القلق والانزعاج، وتباشر المسلمون بذلك وشكروا الله تعالى.

وفيها خرجت الإسماعيلية على حجاج خراسان، فقتلوا وسبوا، واستباحوا الركب، وهلكوا عن آخرهم رحمهم الله.

وفيها كان بخراسان غلاء شديد حتى أكلوا الحشرات. وذبح انسان منهم رجلاً علوياً وطبخه وباعه في السوق، فحين ظهر عليه قتل نفسه.

وفيها أخذ المسلمون من الفرنج غزة وبانياس.

وفيها توفي السلطان سنجر بن ملك شاه، واسمه أحمد وإنما سمي سنجر لأنه ولد بسنجار، وكان عادلاً، جلس على سرير الملك إحدى وأربعين سنة مستقلا، وناب عن أخيه محمد اثنتين وعشرين سنة، قيل

إنه خلف من الجوهر ألف رطل وثلاثين رطلاً،قال الذهبي: وهذا لم يملكه خليفة ولا ملك، قال: وكان وقوراً مهاباً ذا حياء وكرم وشفقة على الرعية ، وخطب له على عامة منابر الإسلام، وأسره الغز أربع سنين، ثم خلص فتجمع إليه أطرافه بمرو، وكاد ملكه يرجع إليه ، فأدركته المنية.

قال أبو سعد بن السمعاني:

دخلت عليه في مرض موته مع جماعة من العلماء والمحدثين، فصافحنا بكلتا يديه وسأل الدعاء، وكان كلامه بالفارسية ما يفي هذا بذاك، وبكى وبكينا لبكائه، وانقطع بموت سنجر المملكة السلجوقية من خراسان، واستولى على أكثر ممالكه السلطان خوارزم شاه. ودفن سنجر في قبة عظيمة كان قد سماها دار الآخرة.

سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة

فيها نزل ألف وخمسمائة من الإسماعيلية على زوق تركان بخراسان فسبوا الحريم، وقتلوا الرجال، ورجعوا بالغنائم. فأسرع عسكر التركمان فأحاطوا بهم وقتلوهم، ولم ينج منهم إلا تسعة رجال فلله الحمد. قاله ابن الأثير: وفيها نزلت الفرنج على داريا فأحرقوها ونهبوها، وكانوا قد جاؤوا بغتة فقاتلوهم وأقاموا إلى الليل، ورحلوا بعد أن أحرقوا جامعها وعادوا على الأقاليم.

وفيها وقع برد أكبر من البيض.

وفيها وصل نور الدين إلى دمشق من حلب سالماً في نفسه، واستبشر العالم بمقدمه المسعود، وبالغوا في شكر الله على سلامته وعافيته والدعاء بدوام أيامه.

وفيها وقع في تموز بالبقاع مطر هطال بحيث حدث منه سيل أحمر كما جرت به العادة في تنبوك الشتاء ووصل إلى بردى، ووصل إلى دمشق، وكثر التعجب من آثار قدرة الله بحدوث مثل ذلك في هذا الوقت.

سنة أربع وخمسين وخمسمائة

فيها هادن نور الدين ملك الروم القادم من القسطنطينية بقصد المعاقل الإسلامية بعد تكرار المراسلات، والاقتراحات في التقريرات، وأجيب ملك الروم إلى ما التمسه من إطلاق مقدمي الفرنج المقيمين في حبس نور الدين وأطلقهم، فقابل الروم هذا الفعل بما يضاهيه من الإتحاف بأثواب الديباج (وخيول حسنة) ، ورده إلى بلاده، ولم يؤذ أحد من المسلمين، فاطمأنت القلوب بعد انزعاجها وقلقها.

وفيها وقعت الفتنة بين العلوية والشافعية بخراسان، اتفق أن بعض أصحاب الفقيه المؤيد بن الحسين الموفقي رئيس الشافعية بمرو قتل انسانا من الشافعية اسمه أبو الفتوح الفستقاني خطأ، وهذا أبو الفتوح له تعلق بنقيب العلويين بنيسابوروهو ذخر الدين أبو القاسم زيد بن الحسن الحسيني، وكان هذا النقيب هو الحاكم هذه المدة بنيسابور، فغضب من ذلك وأرسل إلى الفقيه المؤيد يطلب منه القاتل ليقتص منه ويتهدده إن لم يفعل، فامتنع المؤيد من تسليمه وقال: لامدخل لك مع أصحابنا، إنما حكمك على طائفة العلويين ، فجمع النقيب أصحابه ومن يتبعه وقصد الشافعية، فاجتمعوا له وقاتلوه ، فقتل منهم جماعة ، ثم إن النقيب أحرق سوق العطارين وحرقوا سكة معاذ أيضا.

واقتتلوا ثامن عشر شوال من سنة أربع وخمسين، وقامت الحرب على ساق، وأحرقت المدارس والأسواق والمساجد، وكثر القتل في الشافعية فالتجأ المؤيد الشافعي في شرذمة إلى قلعة فرخك، وقصر باع الشافعية

عن القتال، ثم انتقل المؤيد إلى قرية من قرى طوس وبطلت دروس الشافعية بنيسابور وخرب البلد، وكثر القتل فيه.

وفيها وقع بالعراق برد كبار، قال الذهبي: إنه كان فيه ما وزنه خمسة أرطال ونحو ذلك، وقيل إنهم رأوا بردة منها وزنها تسعة أرطال بالبغدادي، فأتلفت الغلال، وزادت دجلة زيادة عظيمة، فغرق بسبب ذلك محال كثيرة من بغداد، وصارت تلالا، ولم يعرف أحد موضع داره الا بالحزر والتخمين، وغرقت تربة أحمد، وخسفت هنالك القبور، وطاف الموتى على وجه الماء. قال ابن الجوزي: وفيها كثر المرض والموت.

سنة خمس وخمسين وخمسمائة

وتعرف هذه السنة بسنة الخلفاء والملوك، لأن فيها مات: المقتفي، والفائز صاحب مصر، والسلطان ملكشاه، وخسرو شاه صاحب غزنة. وهي سنة قران المريخ لزحل في برج السرطان. قاله الكتبي في تاريخه.

ومن الاتفاقات الغريبة أن المقتفي وافق أباه في أشياء: من ذلك مرضهما بالتراقي، وموتهما في ربيع أول، وموت السلطان محمد شاه قبل المقتفي بثلاثة أشهر، وموت السلطان محمود قبل موت أبيه بثلاثة أشهر، وموت كل منهما بعد غرق بغداد بنحو سنة، ومن الغريب أيضا ما ذكره عفيف الناسخ(٢٤) قال: رأيت في المنام قائلا يقول: إذا اجتمعت ثلاث خاءات مات المقتفي، فمات في سنة خمس وخمسين وخمسمائة.

قال ابن خلكان: أخبرني بعض مشايخ العراق الفضلاء أن المستنجد ابن المقتفي رأى في منامه في حياة أبيه كأن ملكاً بالسماء يكتب في كفه أربع خاءات، فعبر الرؤيا بأنه يلي الخلافة في سنة خمس وخمسين وخمسمائة.

وفيها بويع المستنجد بالله أبو المظفر يوسف بن المقتفي، ودخل إلى الحجرة التي كان يقعد فيها فهجمت عليه أم أبي علي الحسن ومعها جواريها بأيديهن السكاكين ليقتلنه، فذعر منها، وقال: أماه، ما الذي صنعت حتى تستحلي دمي؟راقبي الله تعالى فيّ! فتوقفت عن قتله، فخرج من الحجرة، وجاء أصحابه فأحدقوا به، فقبض على أخيه أبي علي الحسن وهو صبي، ولم يضيق عليه، بل كان في ترفه وسعة، وانتقم من الجواري اللاتي أردن قتله.

وفيها مات صاحب مصر الفائزبالله وهو ابن احدى عشرة سنة، وكان يصرع، واسمه عيسى ابن الظافر، بايعوه وهو طفل بعد مقتل والده، وكانت الأمور راجعة إلى الملك الصالح طلائع بن رزيك وهو عبارة عن صاحب مصر.

وفيها بويع العاضد بن يوسف بن الحافظ، وهو ابن عم الفائز بن الظافر بن الحافظ، وهو آخر خلفاء العبيدية.

وفيها استعفى القاضي زكي الدين أبو الحسن علي بن محمد بن يحيى ابن علي القرشي من القضاء بدمشق، فأعفاه نور الدين، وولى مكانه القاضي كمال الدين الشهرزوري، وكان من خيار القضاة ، واليه ينسب الشباك الكمالي الذي يجلس فيه الحكام بالجامع بعد صلاة الجمعة من المشهد الغربي بالجامع الأموي.

سنة ست وخمسين وخمسمائة

فيها قبض المؤيد على نقيب العلويين أبي الحسن زيد الحسيني، ونفى جماعة وقتل جماعة، وخربت نيسابور. ومما أحرق سبع عشرة مدرسة للشافعية وأحرقت خمس خزائن كتب ونهبت سبع خزائن وبيعت بأبخس الأثمان.

وفيها كان الرخص كثيراً ببغداد، وبيع اللحم أربعة أرطال بقيراط، والبيض كل مائة بقيراط.

وفيها مرض نقيب الأشراف بدمشق المعروف بابن أبي الجن مرضاً شديداً أيس منه، ففوض السلطان نور الدين النقابة وما كان بيده من الولايات إلى والده، واشتغل بتجهيز والده وترتيب أكفانه، وعقد له قبراً، فاتفق أنه عافاه الله، وانطرح ولده مريضاً، فمات في اليوم الخامس، فجهز بذلك الجهاز، ودفن في ذلك القبر الذي بناه لوالده.

وفيها قتل الملك الصالح فارس الدين أبو الغارات طلائع بن رزيك الأرمني وزير العاضد صاحب مصر، ووالد زوجته، وكان قد حجر على العاضد لصغره واستحوذ على الأموال، فقتله الحاشية، وهذا هو الذي بنى الجامع عند باب زويلة ظاهر القاهرة.

قال ابن خلكان: ومن العجائب انه ولي الوزارة في التاسع عشر، وقتل في التاسع عشر، ونقل تابوته في التاسع عشر، وزالت دولته في التاسع عشر، وكان الصالح من علماء الرافضة وأدبائهم. واستقر بمنصبه ولده.

سنة سبع وخمسين وخمسمائة

قال ابن الأثير: فيها جمع نور الدين العساكر بحلب، وسار إلى قلعة حارم وحصرها، وجد في قتالها، فامتنعت عليه لحصانتها وكثرة من بها من فرسان الفرنج وشجعانهم، واجتمع الفرنج من سائر البلاد، وساروا نحوه ليرحلوه عنها، فلما قاربوه طلب منهم المصاف، فلم يجيبوه، وراسلوه وتلطفوا في الحال معه، فعاد إلى بلاده.

وفيها نهب عبيد مكة الحجاج، فرحلوا إلى المدينة ، ولم يطف أحد ولم يسع.

-١٠٨٨٩-

سنة ثمان وخمسين وخمسمائة

فيها جمع نور الدين عساكره ودخل بلاد الفرنج، فنزل بالبقيعة تحت حصن الأكراد وهو للفرنج عازماً على دخول بلادهم ومنازلة طرابلس وضرب الناس خيامهم ولم يكن لهم يزك ظناً من نور الدين أنهم لايقدمون عليه، فبينما الناس وسط النهار في خيامهم لم يرعهم إلا ظهور صلبان الفرنج من وراء الجبل الذي عليه الحصن، فالسعيد الذي ركب فرسه ونجا، فخرج نور الدين من ظهر خيمته عجلاً بغير قباء، فركب فرساً هناك للنوبة وفي رجله شبحة فنزل إنسان من الأكراد فقطعها. فنجا نور الدين وقتل الكردي، فسأل نور الدين عن مخلفي ذلك الكردي فأحسن إليهم جزاء فعله، وقتل الفرنج وأسروا خلقاً كثيراً ونهبوا جميع الوطاق، وكان أكثر القتل في السوقة والغلمان.

وسار نور الدين إلى مدينة حمص، فأقام بظاهرها، وأحضر ما فيها من الخيام، ونصبها ببحيرة قدس على فرسخ من حمص، وبينهما وبين الوقعة أربعة فراسخ، واجتمع إليه كل من نجا من المعركة، فقال له بعض أصحابه: ليس من الرأي أن نقيم ههنا، فإن الفرنج ربما حملهم الطمع على المجيء إلينا ونحن على هذه الحال، فوبخه وأسكته، وقال: إذا كان معي ألف فارس فلا أبالي بهم قلوا أو كثروا، والله لاأستظل بجدار حتى آخذ بثأر المسلمين وثأري، ثم إنه أرسل إلى حلب ودمشق وأحضر الأموال والدواب والأسلحة والخيام وسائر ما يحتاج إليه الجند فأكثر، وفرق ذلك جميعه على من سلم. أما من قتل فأقر أولاده على إقطاعه، ومن لم يكن له ولد أعطاه لبعض أهله، فعاد العسكر كأن لم يفقد منه أحد، وأما الفرنج خذلهم الله فإنهم كانوا عازمين على قصد حمص بعد الهزيمة لأنها أقرب البلاد إليهم، فلما بلغهم مقام نور الدين عندها، قالوا إنه لم يفعل هذا إلا وعنده من القوة أن يمنعنا، فتوقفوا، وأكثر نور الدين من الخرج إلى أن فرق في يوم واحد مائتي ألف دينار سوى الدواب

والخيام والسلاح وغير ذلك، وتقدم إلى ديوانه أن يحضروا الجند ويسألوا كل واحد منهم عن الذي أخذ منه، فكل من ذكر شيئاً أعطوه عوضه، فحضر بعض الجند، وادعى شيئاً كثيراً علم النواب بكذبه فيما ادعاه لمعرفتهم بحاله، فأرسلوا إلى نور الدين ينهون القضية ويستأذنونه في تحليف الجندي على ما ادعاه، فأعاد الجواب: لاتكدروا عطاءنا، فإني أرجو الثواب والأجر على قليله وكثيره، وقال له أصحابه: إن لك ببلادك ادرارات كثيرة وصلات كثيرة للفقهاء والفقراء والصوفية والقراء، فلو استعنت بها الآن لكان أمثل، فغضب من هذا وقال: (إن الله لايغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم[٢٥])والله إني لا أرجو النصر إلا بأولئك، فإنما ترزقون وتنصرون بضعفائكم، كيف أقطع صلات قوم يقاتلون عني وأنا نائم في فراشي بسهام لاتخطي، وأصرفها لمن يقاتل عني إذا رآني بسهام قد تخطيء وقد تصيب، ثم هؤلاء القوم لهم نصيب في بيت المال أصرفه إليهم، كيف أعطيه غيرهم، فسكتوا ، ثم كتب إليه نوابه: إذا لم تغير عليهم شيئاً وقد وقعت في هذه الورطة العظيمة ، فلو أمرتنا بالاقتراض من أرباب الأموال ما نستعين به على جهاد العدو، فقد نفدت الخزائن، ويطمع العدو في الإسلام، فبات مفكراً، وقال في نفسه: نقترض ثم ندفع العوض، ثم قال: ما أفعل؟ وبات قلقا إلى وقت السحر، فرأى إنساناً ينشد:

أحسنوا مادام أمركم نافذاً في البدو والحضر
واغنموا أيام دولتكم إنكم منها على خطر

فقام مرعوباً مستغفراً مما خطر له، وعلم أن هذا تنبيه من الله تعالى، فكتب إلى نوابه : لا حاجة لنا بالأموال، ثم إن الفرنج أرسلوا إلى نور الدين في المهادنة فلم يجبهم إليها، وتركوا عند الحصن من يحميه، وعادوا إلى بلادهم وتفرقوا.

وفيها ظهر شاور بن محمد السعدي من بلاد الصعيد، وجمع أوباش الصعيد والعبيد وخرج إلى القاهرة ، فخرج إليه رزيك بن الصالح، فهزمه شاور ودخل القاهرة ،فأخرب دار الوزاة ودور بني رزيك ونهبها، وبعث إليه العاضد بخلع الوزارة ، ولقبه أمير الجيوش، وكانت عادة خلفاء المصريين أنه إذا غلب شخص على صاحب المنصب وعجز صاحب المنصب عن دفعه وعرفوا عجزه وقعوا للقاهر منهم ورتبوه ومكنوه، فإن قوتهم إنما كانت بعسكر وزيرهم، وهو الملقب عندهم بالسلطان، ثم تتبع رزيك بن الصالح إلى أن أحضر فقتله، واستقر في المملكة وتلقب بالناصر، ثم أساء السيرة فخرج عليه أبو الأشبال ضرغام ابن ثعلبه من الصعيد، وتلقب بالمنصور، وجمع جموعاً كثيرة. فخرج إليه شاور، فهزمه ضرغام وقتل ولده، وخذل أهل القاهرة شاور، فانهزم إلى الشام. وكان نور الدين بالشام فتلقاه وأكرمه. وأقام عنده أياماً، ثم طلب منه العسكر، وقال: أكون نائبك بالديار المصرية، واقنع بما تعينه لي من الضياع والباقي لك، فأجابه نور الدين إلى ذلك، وسيأتي ذكره في السنة الآتية، وشاور هذا هو الذي قال فيه عمارة الشاعر من جملة قصائده:

ضجر الحديد من الحديد وشاور
في نصر دين محمد لم يضجر
حلف الزمان ليأتين بمثله
حنثت يمينك يا زمان فكفر

سنة تسع وخمسين وخمسمائة

فيها أمر نور الدين أسد الدين شيركوه بالتجهز للمسير مع شاور، لقصده في الاستصراخ والاستنجاد وإعادة شاور إلى منصبه والانتقام ممن نازعه في الوزارة، فسار وأخذ معه كل فارس منتخب من فرسان الشام ومعه ابن أخيه صلاح الدين يوسف، وسار معهم نور الدين إلى أطراف بلاد الشام مما يلي الفرنج بعساكره ليشغلهم عن التعرض لأسد الدين،

فوصل أسد الدين هو ومن معه إلى مصر، فخرج إليهم أبو الأشبال ضرغام، فحاربهم أياماً، فلما كان في بعض الأيام التقوا على باب القاهرة، فحمل ضرغام في أوائل الناس فجاءته طعنة فخر صريعاً، وعاد شاور وزيراً، وكانت وزارة ضرغام تسعة أشهر ، وهي مدة الحمل.

قال ابن الأثير: وأقام أسد الدين بظاهر القاهرة، وغدر به شاور وعاد عما قرره لنور الدين من البلاد المصرية ولأسد الدين أيضاً ، وأرسل إليه يأمره بالعود إلى الشام فأنف أسد الدين وأرسل نوابه فتسلموا بلبيس وحكم على البلاد الشرقية. فأرسل شاور إلى الفرنج يستمدهم ويخوفهم من نور الدين إن ملك مصر. وكان الفرنج قد أيقنوا بالهلاك إن ملكها نور الدين، فلما أرسل إليهم شاور يستنجدهم على إخراج أسد الدين من البلاد، بادروا إلى إجابته، وطمعوا في ملك ديار مصر، وكان قد بذل لهم مالاً على المسير إليه، فتجهزوا وساروا.

فلما بلغ نور الدين خبر تجهزهم للمسير إليه سار بعساكره في أطراف بلاده مما يلي الفرنج ليمتنعوا عن المسلمين، فلم يمتنعوا لعلمهم أن الخطر في مقامهم إن ملك أسد الدين مصر أشدّ من الخطر في مسيرهم ، فتركوا في بلادهم من يحفظها ، وسار ملك القدس في الباقين إلى مصر، وكان قد وصل إلى الساحل جمع كبير من الفرنج في البحر لزيارة بيت المقدس، فاستعان بهم ملك الفرنج، ولما قارب الفرنج مصر فارقها أسد الدين ، وقصد مدينة بلبيس، وأقام هو وعسكره، وجعلها ظهراً يتحصن بها، واجتمعت العساكر المصرية والفرنجية، ونازلوا أسد الدين بمدينة بلبيس، وحاصروه بها ثلاثة أشهر وقد امتنع بها أسد الدين، وسورها من طين قصير جداً وليس له خندق، وهو يغاديهم القتال ويراوحهم، فلم يبلغوا منه غرضاًولا نالوا شيئاً، فبينما هم كذلك إذ أتاهم الخبر بهزيمة الفرنج بحارم وملك نور الدين الحصن ومسيره إلى بانياس، فحينئذ سقط في أيديهم، وراسلوا أسد الدين في الصلح والعود إلى الشام، وتسليم ما

بيده إلى المصريين، فأجابهم إلى ذلك لأنه لم يعلم بما فعله نور الدين بالفرنج في الساحل، فرجعوا عنه.

قال ابن كثير: وقبض أسد الدين من شاور ستين ألف دينار، وسار إلى الشام، وعاد سالما.

وفيها فتح نور الدين حارم.

قال ابن الأثير: والسبب في هذا الفتح أن نور الدين لما أصابه بالبقيعة من الفرنج ما أصابه، بعث إلى أخيه قطب الدين بالموصل، وفخر الدين قرا أرسلان بالحصن، ونجم الدين بماردين وغيرهم، فطلب منهم النجدة ، فبادروا وجاءوا إليه بأنفسهم إلا صاحب ماردين، فإنه جهز عساكره، وتأخر هو لعذر منعه.

فلما اجتمعت العساكر على مدينة حلب، سار بهم نور الدين إلى حارم ونازلها ، وبلغ الفرنج فحشدوا وجاءوا في ثلاثين ألف فارس وفيهم البرنس صاحب أنطاكية، والقمص صاحب طرابلس، وابن جوسلين وهو من مشاهير الفرنج وأبطالها، والدوك معهم، وهو رئيس الروم ومقدمها. وكان معهم من الرجالة ما لا يحصى، فلما تقاربوا واصطفوا للقتال، بدأت الفرنج بالحملة على ميمنة المسلمين وبها عسكر حلب وفخر الدين ، فاندفعوا بين أيديهم، وقصدوا بذلك أن يبعدوا الفرسان عن الرجالة، فتبعتهم الفرسان، فعطف حينئذ زين الدين في عسكر الموصل على الرجالة فحصدهم بالسيف. وعادت خيالتهم، ولم يمضوا في الطلب خوفاً على رجالتهم من العطف، فصادفوا رجالتهم بين قتيل وأسير، ولم يبق منهم قليل ولا كثير، فسقط في أيديهم، ورأوا أنهم قد ضلوا ، فلما رجعوا ، عاد عليهم المنهزمون، فبقوا في الوسط وقدأحدق

المسلمون بهم من كل جانب، فذلوا وخضعوا، وعمل فيهم السيف، ولم ينج منهم إلا من نجا به فرسه، وأكثر المسلمون فيهم القتل.

قال العماد الكاتب: قتل منهم عشرون ألفاً.

وقال ابن الأثير: زادت عدة القتلى على عشرة آلاف، وأما الأسرى فلم يحصوا كثرة ، ويكفيك دليلاً على كثرتهم أن جميع ملوكهم أسروا، وهم الذين من قبل ذكروا، وسار نور الدين إلى حارم فملكها، وغنم ما كان فيها من الأموال والخيل والسلاح والخيام وغير ذلك، وعاد إلى حلب بالأسارى والغنائم ، وامتلأت حلب منهم، وبيع الأسير بدينار، وفرقهم نور الدين على العساكر، وأعطى أخاه وصاحب الحصن الأموال العظيمة والتحف الكثيرة، وعادوا إلى بلادهم.

قال الكتبي: وفادى نور الدين الملوك، وكان قد استفتى الفقهاء، فقال قوم بقتل الجميع، وقال قوم: نفاديهم ، فمال إلى الفدية، فأخذ منهم ستمائة ألف دينار معجلةً وخيلاً وسلاحاً وغير ذلك، فكان نور الدين يحلف بالله تعالى أن جميع ما بناه من المدارس والأوقاف والربط وغيرها من هذه المفاداة ، وجميع وقفه منها، وليس فيها من بيت المال الدرهم الفرد، انتهى.

قال صاحب الروضتين: وبلغني أن نور الدين رحمه الله تعالى لما التقى الجمعان أو قبيله، انفرد تحت تل حارم، وسجد لربه عز وجل ، ومرغ وجهه وتضرع ، وقال : يارب ! هؤلاء عبيدك وهم أولياؤك وهؤلاء عبيدك وهم أعداؤك، فانصر أولياءك على أعدائك، أيش فضول محمود في الوسط، يشير إلى أنك يارب، إن نصرت المسلمين فدينك نصرت، فلا تمنعهم النصر بسبب محمود إن كان غير مستحق للنصر.

سنة ستين وخمسمائة

فيها فتح نور الدين بانياس عنوة، وكان معه أخوه نصرة الدين أمير ميران، فجاءه سهم في عينه فأذهبها، فلما رآه نور الدين قال له: لو كشف لك عن الأجر الذي أعد لك لتمنيت أن تذهب الأخرى، وكان مع نور الدين ولد معين الدين أنر الذي سلم أبوه بانياس للفرنج، فقال له نور الدين: للناس بهذا الفتح فرحة واحدة ولك فرحتان، قال: يامولانا، ولم؟ قال: لأن اليوم بردت جلدة أبيك من نار جهنم.

قال ابن الجوزي: وفيها ولدت امرأة ببغداد أربع بنات ، وبقي في بطنها ولد، فمات وماتت به، وعاشت البنات.

سنة إحدى وستين وخمسمائة

فيها سار نور الدين إلى حصن المنيطرة، ولم يحشد له ولا جمع عساكره، وإنما سار إليه على غرة من الفرنج إلى أن وصل إليه، فحاصره وأخذه عنوة، وقتل من به، وسبى وغنم. كذا قاله ابن الأثير. وذكر ابن شداد أن ذلك كان في السنة الآتية.

وفيها ثارت فتنة ببغداد بين الشيعة والسنة لأن الشيعة أظهرت النياحة والبكاء على أهل البيت يوم عاشوراء، وأعلنوا بسب الصحابة، وبالغوا حتى إنهم كانوا يضربون من رأوه مكحلاً، فثارت فتنة شديدة.

سنة اثنتين وستين وخمسمائة

فيها عاد أسد الدين شيركوه إلى مصر، وهي المرة الثانية، لما كان في نفسه من الحقد على شاور، لما فعله مما تقدم ، وسير نور الدين معه جماعة من الأمراء وابن أخيه صلاح الدين، فسار في ربيع الآخر، ونزل

الجيـزة غربي مصر على البحـر، وتصرف في البلاد الغـربيـة، وأقام بها نيفـاً وخمسين يومـاً. ثم عـدا إلى بر مصر والقـاهرة، وسـار إلى الصعيد، وكـان شـاور قـد أعطى الفـرنـج الأمـوال وأقطعهـم الإقطاعـات، وأنـزلهم دور القـاهرة، وبنـى لهم أسـواقاً تخصهـم، كـان مقدمهـم الملـك مري وابـن بيرزان، فـاستغاث شـاور بالفـرنج، فـأتوه ، وخـرج شاور وعسكـر مصر والفرنج، فأدركـوا أسد الدين بمكان يعرف بالبابين، ولما بلـغ أسد الدين خبرهم وكثرة عددهـم استشار اصحابه، فكل أشار عليـه بعبور النيل إلى الجانب الشرقي والعود إلى الشام، وقالوا لـه: إن نحن انهزمنا ـ وهو الذي لاشك فيه ـ فإلى أين نلتجيء وبمن نحتمـي، وكل من فيهذهالـديار من جندي وعـامي وفلاح عـدو لنا ويودون لو شربـوا دماءنا، وحـق لعسكر عدتهم ألفا فـارس قد بعدوا عن ديارهـم وقل ناصرهم أن يرتـاع من لقاء عشرات الألوف ، مع أن كل أهل البلاد أعداؤهم.

فلما قالوا ذلـك، قام إنسان من المماليـك النورية يقال لـه شرف الدين بـزغش وكـان مـن الشجاعـة بـالمكان المشهـور، وقـال: من يخاف القتـل والجراح والأسر فلا يخدم الملـوك، بل يكون فـلاحاً أو مع النسـاء في بيته، واللـه لئن عـدتـم إلى الملـك العادل مـن غير غلبـة وبـلاء تعتذرون بـه ليأخذن اقطـاعاتكم، وليعودن بجميـع ما أخذتموه إلى يومنـا هذا، ويقول لكم: تـأخذون أموال المسلمين وتفرون مـن عدوهم، وتسلمون مثـل هذه الديـار المصرية يتصرف فيهـا الكفار، فقال أسـد الديـن: هذا رأيـي وبه أعمل، ووافقهما صـلاح الديـن يوسـف بن أيـوب، ثم كثر الموافقون لهم على القتال، فـاجتمعت الكلمـة على اللقاء، فـأقام بمكـانه حتـى أدركه المصريون. فرتـب أسد الدين عساكـره، فجعل صلاح الديـنابن أخيه في القلـب، وجعـل معـه الأثقال في القلـب يتكثر بها، ولأنـه لم يمكنـه أن يتركها بمكا ن آخـر فينهبها أهل البلاد. وجعـل في الميسرة الأكراد، وقال لصـلاح الـدين ومـن معـه: إن الفـرنج والمصريين يظنـون أني في القلـب

فيجعلـون جمرتهم بـإزائي وحملتهـم فيـه، فـإذا حملـوا عليكـم فـلا تصدقـواالقتال، ولا تهلكـوا أنفسكم، وانـدفعوا بين أيـديهم؛ وإذا عادوا عنكم فارجعوا في أعقـابهم، واختار من شجعان أصحابه جمعاً يثق إليهم ويعرف صبرهم وشجاعتهم، ووقف بهم في الميمنـة ، وجعل شاور الفرنج في الميمنة مـع ابن بيرزان،وعسكـر مصر في الميسرة، وأقام هـو مع الملـك مري في القلـب ومعه شوكة الفـرنج والخيالـة، فلما تقابل الطائفتـان فعل الفـرنج مـا ذكـره أسد الـديـن، وحملـوا على القلب ظنـاً منهـم أنه فيـه، فقاتلهم مـن به قتالاً يسيراً ثم انهزموا بين أيديهم، فتبعـوهم، فحينئذ حمل أسد الدين فيمن معه على من تخلف عـن الفرنج الذين حملوا على القلب من المسلمين، فهزمهـم ووضع السيف فيهم، فأثخـن وأكثر القتل والأسر، وانهزم الباقون. فلما عاد الفـرنج من إثر المنهزمين الذيـن كانوا في القلب، رأوا مكان المعركة من أصحابهم بلقعا ليـس به منهم ديار، فانهزموا أيضاً، وكان هذا مـن أعجب ما يؤرخ، أن ألفي فارس تهزم عسكـر مصر وفرنج الساحل.

ثم سـار أسد الـدين إلى ثغـر الاسكندريـة وجبى مـا في طريقهـا من القـرايا والسـواد من الأمـوال ووصـل إلى الاسكندريـة وتسلمها مـن غير قتال سلمهـا أهلها إليه، فـدخلها ونزل القصر، وجعـل فيه محبس الفـرنج الذيـن أسرهم، ثم استنـاب بها صلاح الـدين، وعاد إلى الصعيـد، وتملكه وجبى أمـواله، وخـرج شاور والفـرنج مـن القاهـرة فحصروا الإسكندريـة أربعة أشهـر وأهلها يقـاتلون مـع صلاح الديـن ويقوونـه بالمال، فـاشتد الحصار، وقل الطعام بـالبلد. فبلغ أسد الدين، فجمـع عرب البلاد وسار إلى الإسكندرية، فعـاد شاور إلى القاهرة، وراسـل أسد الدين يطلـب منه الصلح، وبذل له خمسين ألف دينار سوى ما أخذه من البلاد، فأجابه إلى ذلـك، وشرط أن الفرنـج لايقيمـون بمصر ولا البـلاد، ولايتسلمون منهـا قـريـة واحدة، وأن الاسكـندريـة تعـاد إلى المصريين، فـأجابـه إلى ذلـك

واصطلحوا، وطلب صلاح الدين من ملك الفرنج مراكب يحمل فيها الضعفاء فأنفذها إليه، فحمل فيها الضعفاء إلى دمشق.

وعاد أسد الدين إلى الشام وصلاح الدين معه، فخرج من الاسكندرية في النصف من شوال ، ووصل إلى دمشق ثامن ذي القعدة.

وأما الفرنج فإنه استقر بينهم وبين المصريين أن يكون لهم بالقاهرة شحنة، ويكون لهم من دخل مصر كل سنة مائة ألف دينار.

وكل هذا يجري بين الفرنج وشاور، وأما العاضد صاحب مصر فليس له من الأمر شيء، ولايعلم بشيء من ذلك، قد حكم عليه شاور وحجبه.

وعاد الفرنج إلى بلادهم وتركوا جماعة من فرسانهم ومشاهير أعيانهم بمصر والقاهرة على القاعدة المذكورة .

وفيها احترق اللبادين وباب الساعات بدمشق حريقاً عظيماً صار تاريخاً، وسببه أن بعض الطباخين أوقد ناراً تحت قدر هريسة ونام، فاحترقت دكانه، ولعبت النار في اللبادين ودور كثيرة من الخضراء، ونهبت أموال عظيمة، وأقامت النار في اللبادين ودور كثيرة.

وفيها دخل نور الدين بلاد الفرنج ومعه أخوه قطب الدين وصاحب الموصل، فاجتازوا على حصن الأكراد وهو للداوية، فلم يحاصروه لحصانته وصعوبته، وإنما أخذوا جميع ما في قراه ونواحيها، ثم ساروا إلى حصون لهم ففتحوها: بعضها بالسيف وبعضها بالأمان، منها حصن العريمة وحصن صافيتا، وأسروا وغنموا. ثم توجهوا إلى قلعة هونين، فلما قربوا منها أخلاها أهلها وأحرقوها. فلما وصل إليها نور الدين ، لم يجد فيها فائدة ، فأمر بخرابها وهدم سورها، وعزم على منازلة بيروت، فوقع

خلف في العسكر، فرجع ، وتوجه قطب الدين إلى بلاده، وأعطاه نور الدين الرقة، فاجتاز عليها في طريقه ورتب نوابه بها.

سنة ثلاث وستين وخمسمائة

فيها قطع نور الدين الفرات واستولى على الجزيرة والرها، وعاد إلى منبج. وفيها قبض نور الدين على صاحب قلعة جعبر شهاب الدين بن مالك العقيلي . وسببه أن نور الدين كان قد رصد حول جعبر طائفة من العرب الكلابيين وأمرهم بالقبض عليه. فنزل ذات يوم من القلعة يتصيد في صحاريها، فأحاطت به العرب وبمن معه، فقبضوا عليه وأوصلوه إلى نور الدين فأعطاهم ألوفاً من الذهب والثياب، واعتقله وشدد عليه، ورام منه أن يسلم القلعة، فامتنع ، وذكر أن أهله لايطيعونه في ذلك، وبعث نور الدين بالجيش مع رسوله وكتابه، فلم يقدروا عليها بحرب ولا بسلم، ثم استولى عليها في السنة الآتية.

وفيها فوض نور الدين أمر حمص وأعمالها إلى أسد الدين شيركوه مضافاً إلى ما بيده، والتقدمة على جميع الجيوش، فبقيت حمص بيد أولاده أكثر من مائة سنة إلى أيام الظاهر.

سنة أربع وستين وخمسمائة

فيها أخذ نور الدين قلعة جعبر، وسببه أنه لما حصرها عسكر نور الدين ومقدم العسكر مجد الدين بن الداية في السنة الماضية ولم ير له في فتحها مجالا، ورأى أن أخذها بالحصر محال، سلك مع صاحبها طريق

اللين، وأشار عليه بأخذ العوض من نور الدين، ولم يزل يتوسط معه حتى أذعن على أن يعطى سروج وأعمالها، والملاحة من أعمال حلب، والباب، وبزاعة، وعشرين الف دينار معجلة، فأخذ جميع ما شرطه مكرها في صور ة مختار.

قال ابن الأثير: وهذا إقطاع عظيم جداً، ولكنه لاحصن فيه ، وتسلم مجد الدين قلعة جعبر، وصعد إليها، وهذه القلعة من أعظم الحصون وأحسنها، مطلة على الفرات لايطمع فيها بحصار. وقد أعجز جماعة من الملوك أخذها. وقتل عليها عماد الدين زنكي والد نور الدين ولم تزل بيد شهاب الدين العقيلي وبيد آبائه من قبله من أيام السلطان ملكشاه إلى هذه السنة.

قال ابن الأثير: بلغني أنه قيل لشهاب الدين: أيما أحب إليك وأحسن مقاماً، سروج والشام، أم القلعة؟ فقال: هذا أكثر مالاً، والعز بالقلعة فارقناه.

وفيها سار أسد الدين شيركوه إلى الديار المصرية ثالث مرة، وسببه أن الفرنج قصدت الديار المصرية في جمع عظيم. وكان السلطان نور الدين في جهةالشمال ونواحي الفرات، فطلعوا من عسقلان، وأتوا بلبيس ونازلوها وحصروها، فملكوها قهراً، ونهبوها ، وسبوا أهلها وأقاموا خمسة أيام، ثم أناخوا على القاهرة، فحمل أهلها الخوف مما فعلوه ببلبيس على الامتناع،فحفظوا البلد، وبذلوا جهدهم في حفظه.

وكان شاور قد أمر أهل مصر أن ينتقلوا إلى القاهرة، وأمر بإحراق مدينة مصر قبل نزول الفرنج عليهم بيوم وأنذر أهلها، فخرج الناس منها على وجوههم وهجوا في بلاد مصر، وبلغت أجرة الحمل إلى القاهرة

ثلاثين ديناراً، وترك الناس أكثر أموالهم، فنهبت وأحرقت، وأقامت النارتعمل في مصر أربعة وخمسين يوماً، ثم ضاق الحصار، وخيف البوار، وعرف شاور أنه يضعف عن الحماية، فشرع في عمل الحيل، وأرسل إلى ملك الفرنج يذكر له مودته ومحبته القديمة، وأن هواه معه، ويذكر له تخوفه من نور الدين والعاضد، وأن المسلمين لايوافقونه على التسليم إليه، ويشير عليه بالصلح وأخذ مال لئلا تسلم البلاد إلى نور الدين، فأجابه إلى الصلح على ألف ألف دينار مصرية، يعجل البعض ويؤخر البعض، فحمل إليه شاور مائة ألف دينار وماطلة بالباقي، وسأله الرحيل عن البلد ليجمع له المال، فرحلوا قريباً.

وكان خليفة مصر العاضد عقيب حريق مصر أرسل إلى نور الدين يستغيث به، ويعرفه ضعف المسلمين عن الفرنج، وأرسل في الكتب شعور النساء وقال: هذه شعور نساءٍ من قصري تستغيث بك لتنقذهن من الفرنج، فقام نور الدين لذلك وقعد، وشرع في تجهيز العساكر إلى مصر.

ولما صالح شاور الفرنج على ذلك المال، عاود العاضد مراسلة نور الدين وإعلامه بما لقي المسلمون من الفرنج، وبذل له ثلث بلاد مصر، وأن يكون أسد الدين مقيماً عنده في عسكر، وإقطاعهم عليه خارجاً عن الثلث لنور الدين.

ولما أتى الرسل لنور الدين من العاضد، أرسل إلى أسد الدين يستدعيه من حمص. فلما خرج القاصد من حلب، لقي أسد الدين قد وصله، لأنه لما بلغه ذلك بقي مسلوب القرار، مغلوب الاصطبار، لأنه كان قد طمع في بلاد مصر، فخاف خروجها من يده، وأن يستولي عليها الكفار. فسار في يوم واحد من حمص إلى حلب، فإنه ركب وقت طلوع

الشمس من حمص ودخل حلب في آخر ذلك اليوم.-ويقال إن هذا لم يتفق لغيره إلا للصحابة رضي الله عنهم. واجتمع بنور الدين ، فأمره بالتجهز إلى مصر والسرعة في ذلك، وأعطاه مائتي ألف دينار سوى الثياب والدواب والآلات والأسلحة، وحكمه في العساكر، فاختار ألفي فارس، وأمر صلاح الدين بالخروج معه فامتنع ، وقال: يامولانا ، ما يكفي ما لقينا من الشدائد ؟ فقال: لابد من خروجك. فما أمكنه مخالفة نور الدين ، أحب نور الدين مسير صلاح الدين الدين وفيه ذهاب بيته، وكره صلاح الدين المسير وفيه سعادته وملكه (وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم) (٢٦).

وجمع أسد الدين العساكر من التركمان وغيرهم، وسار إلى مصر في جيش عرمرم قيل كانوا سبعين ألف فارس وراجل، فتقهقر الفرنج لمجيئه، ووصل إلى القاهرة، واجتمع بالعاضد فخلع عليه وأكرمه، وأجريت عليه وعلى عساكره الخيرات الكثيرة، ولم يمكن شاور المنع من ذلك، ورأي العاضد معهم من داخل ، فلم يتجاسر على إظهار ما في نفسه، فكتمه وهو يماطل أسد الدين في تقرير ماكانبذل له من المال، والإقطاع للعساكر، وإفراد ثلث البلاد لنور الدين، وهو يركب كل يوم إلى أسد الدين ويسير معه ويعده ويمنيه (وما يعدهم الشيطان إلا غروراً) (٢٧) ، ثم إنه كاتب الفرنج واستدعاهم، وقال: يكون مجيئكم إلى دمياط في البحر والبر. وبلغ أعيان دولة المصريين ذلك، فاجتمعوا عند أسد الدين وقالوا: إن شاور فساد البلاد والعباد، وقد كاتب الفرنج وهو سبب هلاك الإسلام.

ولما تأخر وصول الفرنج، عزم على أن يعمل دعوة لأسد الدين ومن معه من الأمراء ويقبض عليهم، فنهاه ابنه الكامل، وقال: والله إن عزمت على هذا الأمر، لأعرفن أسد الدين، فقال له أبوه: لئن لم نفعل هذا لنقتلن جميعاً، فقال: صدقت، ولكن نقتل ونحن مسلمون والبلاد

بيد المسلمين، خير من أن نقتل وقد ملكها الفرنج، وليس بينك وبين عود الفرنج إلا أن يسمعوا بالقبض على شيركوه، وحينئذ لومشى العاضد إلى نور الدين لم يرسل فارساً واحداً، ويملكون البلاد . فترك ما كان عزم عليه.

ولما رأى العسكر النوري المطل من شاور، اتفق صلاح الدين يوسف وعز الدين جرديك على قتل شاور. وأعلموا أسد الدين بذلك، فنهاهم، فقالوا: ليس لنا في البلاد شيء مهما هذا على حاله، واتفق أن أسد الدين سار إلى زيارة قبر الإمام الشافعي رضي الله عنه، وقصد شاور عسكره على عادته للاجتماع به، فلقيه صلاح الدين وعز الدين جرديك ومعهما جمع من العسكر، فخدموه وأعلموه أن أسد الدين في الزيارة، فقال: نمضي إليه. فساروا معه قليلاً، ثم ألقوه عن فرسه. وأخذ أسيراً، وهرب أصحابه، وسجنوه في خيمة، وتوكلوا بحفظه. فعلم أسد الدين الحال، فعاد سريعاً، ولم يمكنه إلا إتمام ما عملوه. وأرسل العاضد في الوقت يطلب منه رأس شاور ويحثه على قتله، فقتل وحمل رأسه إلى القصر، فأرسل العاضد إلى أسد الدين خلعة الوزارة معها منشور مكتوب على طرته بخط العاضد ما صورته:

« هذا عهد لم يعهد إلى وزير بمثله، فتقلد أمانة رآك أمير المؤمنين أهلاً لحملها، والحجة عليك عند الله بما أوضحه لك من مراشد سبيله، فخذ كتاب أمير المؤمنين بقوة، واسحب ذيل الفخار بأن اعتزت بخدمتك بنو النبوة، والتزم حق الامانة تجد للفوز سبيلاً» (ولا تنقضوا الإيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً [٢٨]).

ولقبه بالملك المنصور سلطان الجيوش، ثم لم يلبث أسد الدين أن حضرته المنية بعد خمسة وستين يوماً من ولايته، فقلد العاضد بعده الأمر لصلاح الدين يوسف ، ولقبه الملك الناصر، وجهز إليه خلعة الوزارة،

وهـي : عمامـة بيضاء تنيسي بطـرف ذهـب، وثـوب دبيقي بطـراز دقيـق ذهب، وجبـة تحتها سقلاطي بطـراز ذهب، وطيلسان دبيقي بطـراز دقيق ذهب، وعقـد جوهر قيمته عشرة آلاف دينـار، وسيف محلى بجوهـر قيمته خمسة آلاف دينـار ، وفرس حجـرة صفراء مـن مراكيـب العاضـد قيمتها ثمانية آلاف دينـار لم يكن بـالديـار المصرية أسبـق منها بطـوق، وسرفسار ذهب مجوهر، وفي رأسها مئتا حبة جوهـر، وفي قوائمها أربعة عقود جوهر، وفي رأسها قصبة ذهـب في رأسها طلعة مجوهرة ، وفي رأسهـا شدة بيضاء بأعلام ذهب، ومـع الخلعة عدة بقج من المسك، وعـدة من الخيل وأشياء أخـر، ومنشـور الـوزارة ملفـوف في ثـوب أطلـس أبيـض. كـذا ذكـره في الروضتين . وكتب تقليده القاضي الفاضل، وكتب العاضد على طرته:

« هـذا عهـد أمير المؤمنين إليـك، وحجتـه عنـد اللـه عليـك، فـأوف بعهدك ويمينـك، وخذ كتـاب أمير المؤمنين بيمينك. ولمن مضـى بجدنـا رسول اللـه صلى الله عليه وسلم أحسـن أسوة،ولمن بقي لثقته بنـا أعظم سلوة، (تلـك الدار الآخرة نجعلها للـذين لايريـدون علوا في الأرض ولا فساداً والعـاقبة للمتقين[٢٩]) يعني بمن مضـى أسد الدين، وبمـن بقي صـلاح الديـن، قال العماد: وهـذا آخر منشـور طويـت به تلـك الدولـة وختمت ، وتبددت عقودها وما انتظمت.

فقـام صلاح الـديـن بالسلطنـة أتـم قيام، وتـاب عـن أسباب اللهـو، وتقمص بلباس الدين، وحفظ ناموس الشرع المتين.

ولما مات أسـد الدين ، تطـاول جماعة من الأمـراء النورية، وكـل منهم يطلب الأمـر والوزارة لنفسـه، منهم الأمير عين الدولـة الياروقـي، وقطب الـدين خسرو بـن تليل وسيـف الديـن علي المشطوب، وشهـاب الديـن محمود الحارمي خال صـلاح الدين. فطلب العاضد لصـلاح الدين وولاه الأمر، وحمله على ذلك ضعف صلاح الدين ، وانه لايجسر على مخالفته.

ولما عاد صلاح الدين إلى دار الوزارة، لم يلتفت إليه أولئك الأمراء ولا خدموه، فقام بأمره الفقيه ضياء الدين عيسى الهكاري، وأمال إليه المشطوب. ثم قصد شهاب الدين الحارمي، وقال له: إن صلاح الدين هو ابن أختك، وملكه لك، وقد استقام الأمر له، فلا تكن أول من يسعى في أخراجه عنه ولا يصل إليك، ولم يزل به حتى أحضره إلى عنده وحلفه له، ثم عاد إلى قطب الدين، وقال له: إن صلاح الدين قد أطاعه الناس، ولم يبق غيرك وغير الياروقي، وعلى كل حال يجمع بينك وبين صلاح الدين أن أصله من الأكراد، فلا تخرج الأمر منه إلى الأتراك، ووعده زيادة إقطاعه ، فلان وحلف، ثم ذهب إلى عين الدولة الياروقي - وكان أكبر الجماعة وأكثرهم جمعاً - فلم تنفعه رقاه، ولا نفذ فيه سحره، وقال: أنا لا أخدم صلاح الدين يوسف أبداً، وعاد إلى نور الدين بمن معه، فأنكر عليهم فراقهم له، وثبتت قدم صلاح الدين ورسخ ملكه.

قال ابن أبي طي: ولما استولى الملك الناصر على الوزارة ، مال إليه العاضد وأحبه محبة عظيمة، وبلغت محبته له أنه كان يدخل إلى قصره راكباً، فإذا حصل عنده أقام عنده اليوم والعشرة في قصره لايعلم أين مقره.

قال: ولما استولى الملك الناصر على الوزارة ومال إليه العاضد، وبلغ ذلك نور الدين، أعظم ذلك وأكبره، وتأفف منه وأنكره، وقال: كيف أقدم صلاح الدين أن يفعل شيئاً بغير أمري! وكتب في ذلك عدة كتب، فلم يلتفت الملك الناصر إلى قوله، إلا أنه لم يخرج عن طاعته وأمره، وما فارق قبول رأيه وإشارته، وأمر نور الدين من بالشام من أهل صلاح الدين وأصحابه بالخروج إليه، وطلب منه حساب مصر وما صار إليه، وكان يقول كثيراً: ملك ابن أيوب. انتهى!

قال صاحب الروضتين: هذا كله مما تقتضيه الطبيعة البشرية والجبلة الآدمية، وقد أجرى الله سبحانه وتعالى العادة بذلك، إلا من عصم الله، ومن أنصف عذر. والذي أنكره نور الدين إفراط صلاح الدين في تفرقة الأموال واستبداده بذلك من غير مشاورته، هذا مع أن ابن طي متهم فيما نسبه إلى نور الدين بما لايليق به، فإن نور الدين كان قد أذل الشيعة بحلب، وأبطل شعارهم، وقوى أهل السنة، وكان والد ابن أبي طي من رؤوس الشيعة، فنفاه من حلب، وقد ذكر ذلك كله ابن أبي طي في كتابه متفرقاً في مواضع،فلهذا كان كثير التحمل على نور الدين رحمه الله، فلا يقبل منه ما ينسبه إليه مما لا يليق به. انتهى.

وكان صلاح الدين في الصورة الظاهرة نائباً عن الملك العادل نور الدين، والخطبة لنور الدين في البلاد كلها، ولا يتصرفون إلا عن أمره، وكان نور الدين يكاتب صلاح الدين بالأمير الاسفهسلار ويكتب علامته في الكتب تعظيماً أن يكتب اسمه، ولا يفرده في كتاب بل الأمير الاسفهسلار صلاح الدين ، وكافة الأمراء بالديار المصرية، يفعلون كذا أو كذا.

واستمال صلاح الدين قلوب الناس، فبذل لهم الأموال مما كان أسد الدين جمعه، ومما أعطاه العاضد، فمال الناس إليه وأحبوه، وقوي أمره، وضعف أمر العاضد، وأرسل صلاح الدين يطلب من نور الدين إخوته، فلم يجبه إلى ذلك، وقال: أخاف أن يخالفه أحد منهم فتفسد البلاد.

ثم إن الفرنج اجتمعوا ليسيروا إلى مصر، فسير نور الدين العساكر وفيهم أخو صلاح الدين شمس الدولة توران شاه، وهو أكبر من صلاح الدين ، فلما أراد أن يسير قال له: إن كنت تسير إلى مصر وتنظر إلى أخيك أنه يوسف الذي كان يقوم في خدمتك وأنت قاعد فلا تسر، فإنك تفسد البلاد، وأحضرك حينئذ وأعاقبك بما تستحقه، وإن كنت

تنظر إليه أنـه صاحب مصر وقائم فيها مقامـي، وتخدمه كما تخدمني فسر إليه، واشدد أزره، وسـاعده على ما هو بصدده. فقال: أفعـل معه الخدمة والطاعة ما يصل إليك إن شاء الله.

قـال ابن أبي طـي:ولما ملـك الناصر مصر، انتـزع نور الـديـن الرحبـة وحمص من ناصر الديـن ابن أسد الدين. ولقد كان نور الـدين يتألم لملك الملك النـاصر، ويقال إنه لما مرض قـال: ما أخطأت إلا في انفـاذي أسد الدين إلى مصر بعـد علمي برغبته فيها، وما يحزننـي شيء كعلمي بما ينال أهلي من يـوسف بـن أيوب، ثم التفـت إلى أصحابـه فقال: إذا أنـا مت فسيروا بابني إسماعيل إلى حلب، فإنه لايبقى عليه غيرها.

قال ابن أبي طـي: ولقد كان يبلغ الملـك الناصر من أقوال نـور الدين وأقوال أصحـابه أشياء تـؤلمه وتمضه، غير أنه تلقـاها بصدر رحـب وخلق عذب. حـدثني أبي عـن ابن قاضي الـدهليز ـ وكـان من خـواص الملك الناصر ـ قال: جـرى يومـاً بين يدي السلطـان ذكر نـور الديـن، فأكثـر الترحم عليـه، ثم قال: والله لقـد صبرت منه على مثل حـز المدي ووخز الإبر، وما قدر واحـد من أصحابه أن يجد علي ما يعده ذنبـاً، ولقد اجتهد هو بنفسه أيضـاً أن يجد لي هفوة يعدها ذنبـاً فلم يقدر، ولقد كـان يتعمد في مخاطبـاتي ومراسـلاتي الأشيـاء التي لايصبر على مثلهـا لعلي أتضرر أو أتغير، فيكون ذلك وسيلة إلى منابذتي، فما أبلغته أربه يوماً قط. انتهى.

وقد تقدم جواب صـاحب الروضتين قريباً، وقال هنـا: وقد وقفت على كتاب بخط نور الـدين إلى ابن أبي عصرون يشكر فيه من صـلاح الدين، وذلك ضد ما قاله ابن أبي طي، ثم أورد لفظ الكتاب.

وفيهـا قتـل الطـواشي مـؤتمن الخلافـة، وحصلـت وقعـة السـودان بين القصرين، وسببه أنه لما تملك صلاح الـدين نقص إقطاع المصريين، وكان

بالقصر طواشي يدعى مؤتمن الخلافة متحكم في القصر، فاجتمع هو ومن معه على أن يكاتبوا الفرنج ليقدموا إلى الديار المصرية ليخرجوا الجيوش الشامية ويعرفوهم بأنه إذا خرج عليهم صلاح الدين بمن معه، أخرج المصريون من يبقى معه بالقاهرة، وجهز الكتاب مع إنسان ممن يثق إليه، فاتفق أن رجلاً من التركمان عبر البئر البيضاء، فرأى مع انسان خلق الثياب نعلين جديدين ليس بهما أثر مشي، فأنكرهما وأخذهما منه، وجاء به إلى صلاح الدين ، ففتقهما ، فوجد فيهما مكاتبة الفرنج من أهل القصر، يرجون بحركتهم حصول النصر. فأخذ الكتاب وفحص عن كاتبه، فذكر له أنه خط شخص من اليهود، فأحضره ليسأله ويعاقبه عن كتابته، فلما حضر بين يديه نطق بالشهادتين، ثم ذكر أن الآمر له بذلك مؤتمن الخلافة، فكتم صلاح الدين هذا (فأسرها يوسف في نفسه ولم يبدها لهم[٣٠]) فاستشعر الطواشي أن صلاح الدين قد اطلع على الأمر ، فلازم القصر مدة طويلة خوفاً على نفسه، ثم عنّ له في بعض الأيام أن خرج إلى قصر له بقرية يقال له الخرقانية بقرب قليوب وخلا فيه للذته، فأرسل صلاح الدين إليه من قبض عليه وقتله وحمل رأسه إليه، ثم عزل جميع الخدم الذين بالقصر، واستناب على القصر عوضهم بهاء الدين قراقوش، وأمره أن يطالعه بجميع الأمور صغيرها وكبيرها.

فلما حصل ذلك عاد السودان وثاروا وكانوا أكثر من خمسين ألفاً، فاقتتلوا هم وجيش صلاح الدين بين القصرين، واستمر القتال يومين، وقتل كثير من الفريقين.

وكان العاضد يتطلع من المنظرة ويعاين الحرب من المنظرة بين القصرين فقيل أنه أمر من بالقصر أن يقذفوا العساكر الشامية بالنشاب والحجارة ، ففعلوا، وقيل كان ذلك عن غير اختياره، فأمر شمس الدولة

توران شاه الزراقين بإحراق منظرة العاضد،فلما هموا بذلك فتح باب المنظرة ، وخرج منه زعيم الخلافة، وقال: أمير المؤمنين يسلم على شمس الدولة ويقول: دونكم العبيد الكلاب أخرجوهم من بين أظهركم ومن بلادكم، وكان السودان قد قويت أنفسهم بناء على أن العاضد راض بفعالهم، فلما سمعوا ذلك، ضعف جأشهم وقوي عسكر صلاح الدين، ثم إن صلاح الدين أرسل إلى محلة السودان المعروفة بالمنصورة التي فيها دورهم وأهلهم بباب زويلة، فأحرقها؛ فولوا عند ذلك مدبرين، ووضع فيهم السيف، فقتل منهم خلق كثير، ثم طلبوا الأمان، فأجيبوا إلى ذلك، وأخرجهم إلى الجيزة.

وفيها قتل العاضد بالقصر الكامل وأخاه ابني شاور وعمهما، وذلك أنهم لاذوا بالقصر، ولو أنهم جاءوا إلى أسد الدين سلموا فإنه ساءه قتل شاور.

قلت: رحم الله الكامل بن شاور، فإن المرجو من الله أن يغفر له بقوله لأبيه لما هم بمسك أسد الدين ونهاه عن ذلك: « نقتل ونحن مسلمون والبلاد بيد المسلمين ، خير من أن نقتل وقد ملكها الفرنج. » كما قدمناه.

وفيها احترق جامع حلب فجدده نور الدين.

سنة خمس وستين وخمسمائة

فيها نزل الفرنج خذلهم الله تعالى على دمياط.قال ابن الأثير: كان فرنج الساحل لما ملك أسد الدين مصر قد خافوا وأيقنوا بالهلاك، فكاتبوا الفرنج الذين بالانـدلس وصقلية يستنجدونهم ويعرفونهم ما تجدد من ملك مصر، وأنهم خائفون على بيت المقدس من المسلمين، وأرسلوا جماعة من القسس والرهبان يحرضون الناس على الحركة، فأمدوهم بالمال

والرجال والسلاح، وقصدوا دمياط ظناً منهم أنهم يملكونها ويتخذونها ظهيراً يملكون به ديار مصر، فلما نازلوها حصروها وضيقوا على من بها، فأرسل إليها صلاح الدين العساكر في النيل، وحشد فيها كل من عنده، وأمدهم بالمال والسلاح والذخائر، وتابع رسله إلى نور الدين يشكو ما هو فيه من المخاوف، وأنه إن تخلف عن دمياط ملكها الفرنج، وإن سار إليها خلفه المصريون في مخلفيه ومخلفي عسكره بالسوء وخرجوا عن طاعته، وصاروا من خلفه والفرنج من أمامه، فجهز إليه نور الدين العساكر أرسالاً، كلما تجهزت طائفة أرسلها، فصارت الجيوش يتبع بعضها بعضاً.

ثم سار نور الدين فيمن عنده من العساكر فدخل بلاد الفرنج، فنهبها وأغار عليها واستباحها، ووصلت الغارات إلى ما لم يكن يبلغه لخلو البلاد من ممانع.

فلما رأى الفرنج تتابع العساكر إلى مصر، ودخول نور الدين بلادهم ونهبها وإحراقها، رجعوا خائبين، ولم يظفروا بشيء، وهذا موضع المثل السائر: « ذهبت النعامة تطلب قرنين فعادت بلا أذنين»، فوصلوا إلى بلادهم، فوجدوها خاوية على عروشها، وكانت مدة مقامهم على دمياط خمسين يوماً، أخرج فيها صلاح الدين من الأموال مالا يحصى، حكي لي عنه أنه قال: ما رأيت أكرم من العاضد، أرسل إليّ مدة مقام الفرنج على دمياط ألف ألف دينار مصرية سوى الثياب وغيرها. انتهى.

قال الذهبي: إن اقامتهم بدمياط واحد وخمسون يوماً.

وقال الكتبي: ثلاثة وخمسون يوماً، قال: وجيّش صلاح الدين الجيوش مع ابن أخيه تقي الدين عمر بن شاهشاه، ومع خالة شهاب الدين محمود. ووقع في الفرنج الوباء والفناء، فرجعوا بعد أن مات منهم خلق كثير.

-١٠٩١١-

قال العماد الكاتب: بلغني من شدة اهتمام نور الدين رحمه الله بأمر المسلمين حين نزل الفرنج على دمياط انه قرىء عليه جزء من حديث كان له به رواية،فجاء من جملة تلك الأحاديث حديث مسلسل بالتبسم، فطلب منه بعض طلبة الحديث ان يتبسم لتتم السلسلة على ما عرف من عادة أهل الحديث، فغضب من ذلك وقال: اني لأستحيي من الله تعالى أن يراني متبسماً والمسلمون محاصرون بالفرنج.

وفيها وصل نجم الدين أيوب إلى مصر، فخرج صلاح الدين وجميع الأمراء، وخرج العاضد لتلقيه إلى باب الفتوح عند شجرة الإهليلج إكراماً لولده، ولم تجر بذلك عادة، وكان من أعجب يوم شهده الناس، وخلع العاضد عليه، ولقبه الملك الأفضل، وحمل إليه من القصر الألطاف والتحف والهدايا.

وقال له صلاح الدين: ياأبتاه، هذا الأمر لك ونحن بين يديك، فقال له: ياولدي، ما اختارك الله لهذا الأمر إلا وأنت كفؤ له، فلا ينبغي أن يغير وضع السعادة ، فحكمه في الخزائن كلها، وكان رحمه الله كريماً يطلق ولا يرد.

وأقطعه صلاح الدين الاسكندرية ودمياط والبحيرة ، وأقطع شمس الدولة أخاه قوص وأسوان وعيذاب. وكانت عبرتها في هذه السنة مائتي ألف دينار وستة وستين ألف دينار.

وسبب توجه نجم الدين أيوب إلى مصر أن صلاح الدين أرسل طلبه من نور الدين ليكمل له السرور، وتجمع القصة مشاكلة لما جرى للنبي يوسف عليه السلام. قاله ابن شداد.

قال ابن أبي طي: إن سببه أن الخليفة المستنجد بالله أرسل من بغداد إلى نور الدين يعاتبه في تأخير إقامة الدعوة بمصر، فأحضر الأمير نجم الدين أيوب، وألزمه الخروج إلى الديار المصرية ، وحمله رسالة منها: «وهذا أمر تجب المبادرة إليه لنحظى بهذه الفضيلة الجليلة والمنقبة النبيلة قبل هجوم الموت، وحصول الفوت، لاسيما وإمام الوقت متطلع إلى ذلك بكليته، وهو عنده من أعظم القربات».

وفيها توجه نور الدين إلى الكرك فنازلها ونصب عليها المناجيق، وأقام عليها أربعة أيام، فأتاه الخبر أن الفرنج قد جمعوا وساروا إليه، وأن ابن الهنفري وابن الرفيق، وهما فارسا الفرنج في وقتهما ، في المقدمة إليه، فرحل نور الدين نحوهما للقائهما ومن معهما قبل أن يلحق بهما باقي الفرنج، (فكانا في مائتي فارس وألف تركبلي، ومعهم من الراجل عالم كثير، فلما قاربهما رجعا القهقرى إلى من وراءهم من الفرنج[٣١]) فقصد نور الدين وسط بلادهم، ونهب ما كان على طريقه. ثم نزل إلى البلقاء.

وفيها قال ابن الأثير: وكان سبب توجه نور الدين إلى الكرك أن نجم الدين لما أراد التوجه إلى مصر، اجتمع له من التجار ومن كان له مع صلاح الدين أنس ومودة ما لايقدر ، فخاف نور الدين عليهم، فسار إلى الكرك، وسار نجم الدين ومن معه من هناك.

وفيها كانت الزلزلة الكبرى، لم ير الناس من أول الإسلام مثلها، عمت أكثر البلاد من الشام، ومصر، والجزيرة، والموصل، والعراق، والعواصم، وأنطاكية واللاذقية، وجبلة وجميع بلاد الساحل إلى الداروم، وتهدمت الأسوار والقلاع والدور، وهلك من الناس ما يخرج عن العدد والإحصاء.

ووقع معظم دمشق، وشرفات الجامع، وسقف رؤوس المنائر، وكانت تهتز مثل النخل في يوم ريح عاصف.

وكانـت بحلب أعظـم بحيث وقـع نصف القلعـة والبلد، وهلـك من أهلها ثمانـون ألفاً تحت الـردم، ولم يمت بـدمشق إلا رجـل واحد أصـابه حجر وهو على درج جيرون لأن أهلها خرجـوا إلى الصحراء. قاله الكتبي في تاريخه: وبقـي من نجـا من أهل حلـب لايقدرون أن يـأووا إلى بيوتهم خوفـاً من الزلزلـة ، فإنها عاودتهم غير مرة، وكـانوا يخافون يقيمون بظـاهر حلـب من الفـرنـج، فحضر نور الـدين وأمـر بعمارة مـا تهدم من البـلاد والقلاع والأسوار والجوامع، وأخرج من الأموال ما لايقدر قدره، ورتب في كل بلد طائفة صالحة من العسكر خوفاً من الفرنج خذلهم الله.

وأما بـلاد الفرنـج فإن الزلـزلة فعلـت بهم أيضاً قريبـاً من هـذا، وهـم أيضاً خائفون على بـلادهـم من نور الدين، ووقعـت قلعة حصن الأكراد. ولـولا أن نور الـدين كـان بالبلقـاء والفـرنج قبـالته لسـار وأخذ حصـن الأكراد، وجاءه ما أشغل قلبه من نـاحية الشرق ودمشق، أما الشرق فوفاة أخيه قطب الدين مودود بالموصل، وأمـا دمشق فوفاة العمادي، وكان نائبه في حلب وغيرها، وكـانت له بعلبك وتدمـر، وكان عزيزاً عنـده، وصاحبه وحاجبه. وبلغه أيضاً وفاة مجد الدين ابـن الداية بحلب ـ وكان صاحب أمره.

وفيها أمر نـور الدين بعمارة جامـع داريا القائم الآن، وكان قـديماً عند (قبة) أبي سليمان الـداراني، فأحـرقه الفـرنج لما نـزلوا على داريـا أيام مجير الدين آبق، فعمـره نور الدين هذه السنة، وجعله وسـط القرية، وعمر بها مشهد أبي سليمان الداراني.

وفيها كانت حـروب كثيرة بين ملوك الغرب بجزيرة الأندلـس وكذلك بين ملوك الشرق.

- ١٠٩١٤ -

سنة ست وستين وخمسمائة

فيها سار نور الدين إلى سنجار ففتحها، وهدم سورها بالمناجيق، وسلمها إلى ابن أخيه الأكبر عماد الدين زنكي.

ثم سار إلى الموصل ـ وكان بها سيف الدين غازي بن مودود ـ أخي نور الدين ـ باستخلاف من والده، وكان المتولي لأموره فخر الدين عبد المسيح، وهو المتحكم في المملكة، وليس لسيف الدين من الأمر إلا الاسم، وكان عبد المسيح هذا نصرانياً فأظهر الإسلام، وكان يقال إن له كنيسة في جوف داره، وكان سيء الخلق، خبيث السريرة في حق المسلمين والعلماء خاصة، فراسل عبد المسيح نور الدين يسأله الرجوع وعدم التعرض للموصل، فلم يلتفت نور الدين إلى رسالته، وقال له: قل لصاحبك: أنا أرفق ببني أخي منك، فلا تدخل بيننا، وذكر له تهديداً كبيراً، وكان كل من في الموصل مع نور الدين، وكاتبوه بالوثوب على عبد المسيح وتسليم البلد إليه، فلما علم عبد المسيح ذلك راسله في تسليم البلد إليه وتقريره على سيف الدين، ويطلب الأمان لنفسه واقطاعاً يكون له، فأجابه إلى ذلك، وقال: لاسبيل إلى إبقائه بالموصل بل يكون عندي بالشام، فإني لم آت لآخذ البلد من أولادي، وإنما جئت لأخلص الناس منه، وأتولى أنا تربية أولادي، فاستقرت القاعدة على ذلك، وسلمت الموصل إليه. وسكن القلعة، وأقر سيف الدين غازي على الموصل، وولى قلعتها خادماً يقال له كمشتكين، وجعله دزداراً فيها، وقسم جميع ما خلفه أخوه قطب الدين بين أولاده بمقتضى الفريضة الشرعية.

ولما كان يحاصر الموصل، جاءته خلعة من الخليفة فلبسها، فلما دخل الموصل خلعها على ابن أخيه سيف الدين غازي، وأطلق المكوس جميعها من الموصل وسائر ما فتحه من البلاد، وأعطى الشيخ عمر الملاء ستين

ألف دينار من فتوح الفرنج، وأمر ببناء الجامع النوري بالموصل، فبني، وأقام بالموصل نحو عشرين يوماً وسار إلى الشام، فقيل له: إنك تحب الموصل والمقام بها، ونراك أسرعت العود، فقال: قد تغير قلبي فيها، فإن لم أفارقها ظلمت، ولمعنى آخر أنني ههنا لا أكون مرابطاً للعدو وملازما للجهاد، كذا قاله صاحب الروضتين.

قال الشيخ عماد الدين بن كثير: إن نور الدين لما كان في آخر ليلة من إقامته بالموصل رأى النبي صلى الله عليه وسلم في النوم وهو يقول له: طابت لك بلدك ،وتركت الجهاد وقتال أعداء الله ! فنهض من فوره إلى السفر، وما أصبح إلا سائراً إلى الشام، واستقضى الشيخ أبا سعد بن أبي عصرون وكان معه على سنجار ونصيبين والخابور، فاستناب فيها ابن أبي عصرون نواباً، وأخذ معه عبد المسيح إلى دمشق، وغير اسمه عبد الله، وأقطعه إقطاعاً حسناً[٣٢] .

وفيها كانت وفاة أمير المؤمنين المستنجد بالله وخلافة ابنه المستضيء ، وذلك أن المستنجد كان مرض في هذه السنة ثم عوفي، فعمل ضيافة عظيمة بسبب ذلك وفرح الناس.

وكان قد تغير على قطب الدين قيماز، مقدم جيوشه، وعلى ولده المستضيء، وأمر في مرضه بالقبض عليهما، فبلغ قيماز ذلك، فخلا بابن صفية الطبيب، وقال له: لابد من التدبير في الخلاص منه وإلا فعلت بك وصنعت. قال: لاشيء أضر عليه من الحمام، قال: فأشر به عليه ، فأشار عليه، فقال: لست أريده ولا أطيق الحرارة، وطال الأمر على قيماز،فدخل على المستضيءواستوثق منه باليمين ، ثم دخل إلى الدار قهراً، وحمل المستنجد في فراشه، وأدخله الحمام وهو يستغيث ويقول: لا أريده، وقيماز يقول له : يامولانا ، هذا هو الذي ينفعك ولابد منه، ولماحصل في الحمام أغلق الباب حتى مات رحمه الله، وكان حسن

السيرة ، فيـه محبة لأهـل العلـم والخير واكـرام لهم وإحسان اليهـم، آمـراً بالمعروف ، ناهيـاً عن المنكر فطناً ذكياً فصيحاً، يحكى عنـه أنه التقى ابن شبيب في البرية فقـال له: أين شتيت؟ فقـال: عبدك ياأمير المؤمنين،أراد الخليفة ابن شبيب؟ وأراد ابن شبيب عندك

وكان رحمه اللـه من خيـار الخلفاء وأعدلهم وأرفقهـم بالـرعايـا، وضع عنهـم المكوس والضرائب، ولم يترك بـالعراق مكسـاً. وكـان شديـداً على أهل العيث والفساد والسعاية بـالناس .

قـال ابـن الأثيـر : بلغنـي أنـه قبض على إنسـان كان يسعى بـالناس ويكتب فيهـم السعايات، فـأطال حبسه؛ فحضر بعـض أصحابـه وشفع فيـه، وبذل لـه عشرة آلاف دينار، فقـال له: أنـا أعطيك عشرة آلاف دينـار وتحضر لي إنسانـاً مثله أحبسـه، وأكف شره عن الناس.

قـال الشيـخ عماد بـن كثير: إن المستنجد رأى النبـي صلى اللـه عليـه وسلم غير مرة، وكـان آخرهن قبل أن يلي بـأربعة أيام وهو يقـول له: قل اللهـم أهـدني فيمن هـديـت، وعـافنـي فيمـن عافيـت، دعـاء القنـوت بتمامه(٣٣) .

قال الذهبي: إنه ما زالـت الحمرة الكثيرة تعرض في السماء عند مرض المستنجد، وكانت ترمي ضوءها على الحيطان.

وكانـت مدة خلافتـه إحدى عشرة سنة وشهـراً، وهو الثاني والثـلاثون من خلفاء بنـي العباس، وهذا العدد له بحساب الجمـل « اللام والباء»، وفيه يقول بعض الأدباء:

أصبحت لسب بني العباس كلهم
إذا عددت حساب الجمل الخلفا

وولي بعده ابنه المستضيء أبو محمد الحسن، وخلع يومئذ على الناس أكثر من ألف خلعة ، وأطلق الأموال للأمراء العلويين والهاشميين والقضاة والعلماء، ورد المظالم وأسقط المكوس.

قال ابن الجوزي: وأظهر من العدل والكرم ما لم نره في الأعمار. قال: واحتجب فلم يركب إلا مع الخدم، ولم يل الخلافة من اسمه الحسن وكنيته أبو محمد غير الحسن بن علي رضي الله عنهما والمستضيء.

وفيها عزل صلاح الدين قضاة مصر لأنهم كانوا شيعة ، وولي قضاء القضاة لصدر الدين عبد الملك بن درباس الماردانى الشافعي، فاستناب في سائر المعاملات قضاة شافعية . وبنى صلاح الدين بالقاهرة موضع سجن المعونة مدرسة للشافعية. وبنى دار العدل مدرسة للمالكية.

وفيها اشترى تقي الدين عمر بن شاهنشاه منازل العز بمصر، وعملها مدرسة للشافعية، ووقف عليها حمام الذهب والروضة وغيرهما.

وفيها بني الملك الناصر دار سعيد السعداء - خادم من خدام القصر - خانقاه للصوفية، وصنع بيمارستانا للمرضى، وبنى على تربة الشافعي رضي الله عنه بالقرافة مدرسة.

وفيها خرج صلاح الدين إلى الغزاة ، وأغار على الرملة وعسقلان، وهاجم ربض غزة، وكان بأيلة قلعة في البحر قد حصنها أهل الكفر، فعمر لها مراكب، وحملها إلى الساحل على الجمال، وركبها الصناع هناك، وشحنها بالرجال والعدد. (وفتح القلعة في العشر الأول من ربيع الآخر،

واستحلهـا، واستبـاح بـالقتـل والأسر أهلها، ومـلأهـا بـالعـدد والعـدد، وحصنها بأهل الجلاد والجلد (٣٤).) وكان على الحاج منهم خطر عظيم.

وفيهـا تـوجه صـلاح الـديـن إلى الاسكنـدريـة، وأمر بعمارة أسـوارهـا وأبراجها وأبدانها ، وسمع بها حينئذ من السلفي.

وفيهـا شرع صلاح الـدين بعمارة سـور القـاهرة لأنـه قد تهدم أكثـره، وصار طريقاً لايرد داخلاً ولا خارجاً، وولاه لقراقوش الخادم.

وفيهـا أمـر بتغيير شعـار الإسماعيليـة، وقطـع الآذان بحـي علي خير العمل من ديار مصر كلها. وشرع في تمهيد أسباب الخطبة لبني العباس.

وفيها ظهـر بدمشـق مغربي ادعى الـربوبيـة، وأرى الناس خـوارق من السحر، فضربت عنقه.

سنة سبع وستين وخمسمائة

فيهـا خطب لبنـي العبـاس، وسببه أن صـلاح الـدين لما استـولى على مصر وضعـف أمر العـاضد، كتـب إليه نـور الديـن يأمـره بقطع خطبـة المصريين وإقامتهـا لبني العبـاس، فخاف مـن أهل مصر أن لايجيبـوه إلى ذلـك لميلهم إلى العلـويين، وربما وقعـت فتنـة لاتتدارك، فكتـب إلى نـور الدين يخبره بـذلك، فلم يصغ إلى قـوله، وأرسل إليه يلـزمه بذلك إلـزاما لافسحة لـه فيه، واتفق أن العـاضد مرض، فجمـع صلاح الديـن الأمراء والأعيان فاستشـارهـم فمنهم من أجـاب، ومنهـم من خاف ذلـك، إلا أنه لم يمكنـه إلا امتثـال أمر نـور الـديـن، وكـان قد دخـل إلى مصر إنسـان أعجمي يعـرف بالأمير العـالم. فلما رأى ما هم عليـه من الاحجـام، قال: أنا أبتـدىء بها، فلما كان أول جمعة مـن المحرم صعد المنبر قبـل الخطيب ودعا للمستضيء بـأمر الله، فلم ينكـر أحد ذلك عليه. فلما كـان الجمعة

الثانيـة، أمر صلاح الـدين الخطباء بمصر والقاهـرة بقطع خطبة العـاضد وإقامة الخطبة للمستضيء بأمر اللـه، ففعلوا ذلك، ولم ينتطح فيها عنزان، وكتب بذلك إلى سائر البلاد المصرية.

وكان العاضد قـد اشتد مرضه فلم يعلم بذلك، وقيـل بلغه فأرسل إلى صلاح الدين يستدعيه ليوصي إليه، فخـاف أن تكون خديعة، فلم يذهب إليه، ومات العاضد يوم عاشوراء كذا قاله ابن الأثير.

وقـال ابن أبي طـي الحلبي: لما عـول صـلاح الديـن على الخطبة لبنـي العباس، أمـر والده الأمير نجم الـدين بـالنزول إلى الجامع في جماعـة من أصحـابه وأمـراء دولتـه، وذلك في أول جمعـة مـن السنة، وأمـره أن يحضر الخطيـب إليه، ويـأمره بما يختـاره. وإنما فعـل ذلك الملـك الناصر ووكـل الأمر إلى غيره استظهـاراً خوفـاً من فادحـة ربما طرأت، أو عـدو ربما ثار، فيكون هو معتذراً من ذلك.

ولما حضر الخطيـب عند نجـم الديـن قـال له: إن ذكـرت هذا المقيـم بالقصر ضربت عنقك، قال: فلمـن أخطب؟ قال: للمستضيء العباسي. فلما صعـد المنبر، وخطب، ووصـل إلى ذكر الخليفـة لم يذكـر أحداً، لكنـه ذكر الخلفاء والأئمـة المهديين والسلطان الملك الناصر، ونـزل، فقيل له في ذلك، فقال: مـا علمت اسم المستضيء ولا نعوته، ولاتقـرر معي في ذلك قبل جمعة ، وفي الجمعة الثـانية أفعل إن شاء الله تعالى مـا يجب فعله من تحرير الاسم والألقاب على جاري العادة في مثل ذلك.

قال: وقيل إن العاضـد لما اتصل به مافعل من قطـع اسمه من الخطبة قـال: لمن خطـب؟ قيـل لـه: لم يخطب لأحـد مسمـى، قـال: في الجمعـة الأخرى يخطبـون لرجل مسمـى، واتفق أنه مات قبـل الجمعةالثانيـة، قيل إنه أفكـر واستولى عليه الفكر والهم حتـى مات، وقيل إنه لما سمـع ذلك اهتم وقام ليـدخل إلى داره فعثر وسقط، فـأقام متعللاً خمسة أيـام ومات،

وقيل انه امتص فص خاتمه وكان تحته سم فمات، ولما اتصل موته بالملك الناصر قال: لو علمنا أنه يموت في هذه الجمعة ما غصصناه برفع اسمه من الخطبة، فحكي أن القاضي الفاضل قال للسلطان: لو علم أنكم ما ترفعون اسمه من الخطبة لم يمت.

قال: وحكى ابن المارستاني في سيرة ابن هبيرة الوزير قال: من أعجب ما جرى في أمر المصريين أنه رأى إنسان من أهل بغداد في سنة خمس وخمسين وخمسمائة كأن قمرين أحدهما أنور من الآخر،والأنور منهما مسامت للقبلة وله لحية سوداء فيها طول، فيهب أدنى نسيم فيحركها، وأنه حركها وظلها في الأرض ، وكان الرجل يتعجب من ذلك، وكأنه سمع أصوات جماعة يقرأون بأصوات وألحان لم يسمع قط مثلها فسأل من حضر، وقال: ما هذا؟ فقالوا : استبدل الناس بإمامهم، قال: وكان الرجل استقبل القبلة وهو يدعو الله أن يجعله إماماً براً تقياً، واستيقظ الرجل وبلغ المنام ابن هبيرة الوزير إذ ذاك ببغداد، فعبر المنام بأن الإمام الذي بمصر يستبدل به، وتكون الدعوة لبني العباس لمكان اللحية. وقوي هذا عنده حتى كاتب نور الدين حين دخل أسد الدين إلى مصر في أول مرة بأنه يظفر بمصر، وتكون الخطبة لبني العباس بها على يده، وقيل في ذلك الزمان أشعار في هذا المعنى، منها قصيدة شمس المعالي أبي الفضائل الحسين بن محمد بن بركات، وكان صاحب ابن هبيرة، قالها حين سمع تأويل المنام:

لتهنك يا مولى الأنام بشارة
بها سيف دين الله بالحق مرهف
ضربت بها هام الأعادي بهمة
تقاصر عنها السمهري المثقف
بعثت إلى شرق البلاد وغربها
بعوثا من الآراء تحيي وتتلف
فقامت مقام السيف والسيف قاطر
ونابت مناب الرمح والرمح يرعف

وقـــدت لها جيشـــاً مـــن الـــروع هـــائلاً
إلى كـــل قلـــب مـــن عـــداتـــك يـــزحـــف
ملكـــت بـــه أقصـــى المغـــارب عنـــوة
وكـــادت بمـــن فيهـــا المشـــارق تـــرجـــف
ليهنـــك يـــا مـــولاي فتحـــاً تتـــابعـــت
إليـــك بـــه خـــوص الـــركـــائب تـــوجـــف
أخـــذت بـــه مصراً وقـــد حـــال دونها
مـــن الشرك نـــاس في لهى الحق تقبـــذف
وقـــد دنســـت منهـــا المنـــابـــر عصبـــة
يعـــاف التقـــى والـــديـــن منهـــم يـــأنـــف
فطهـــرهـــا مـــن كـــل شرك وبـــدعـــة
أغـــر عـــزيـــز بـــالمكـــارم يشغـــف
فعـــادت بحمـــد اللـــه بـــاســـم إمـــامنـــا
تتيـــه على كـــل البـــلاد وتشرف
ولا غـــرو أن دانـــت ليـــوســـف مصره
وكـــانـــت إلى عليـــائه تتشـــوف
تملكهـــا مـــن قبضـــة الكفـــر يـــوســـف
وخلصهـــا مـــن عصبـــة الـــرفـــض يـــوســـف

قـال يحيى بـن أبي طي: يـريد بيـوسف الأول يـوسف الصـديق عليـه السلام، وبيوسـف الثاني المستنجد باللـه الخليفة يومئذ، وقـاله على سبيل الفأل، ألا تراه قال بعد هذا البيت:

فشـــابهتـــه خلقـــاً وخلقـــاً وعفـــة
وكـــل عـــن الـــرحمن في الأرض يخلـــف

وجرى الفأل في البيـت باسم الملك النـاصر صلاح الدين يـوسف بن أيـوب، لأن المستنجد مـات قبل تغيير الخطبـة لبني العبـاس، وهذا مـن عجيب الاتفاق.

قال العماد:

ولما توفي العاضد جلس السلطان الملك الناصر للعزاء، وأغرب في الحزن والبكاء، وبلغ الغاية في إجمال أمره، والتوديع له إلى قبره، ثم تسلم القصر بما فيه من خزائنه ودفائنه، وكان مذ قتل مؤتمن الخلافة قد وكل السلطان بالقصر بهاء الدين قراقوش، وجعله زمامه، واستنابه مقام نفسه وأقامه، فما دخل القصر شيء وخرج إلا بمرأى منه ومسمع، ولا حصل أهل القصر بعد ذلك على صفو مشرع، فلما توفي العاضد، أمر السلطان بالاحتياط على أولاده في موضع خارج القصر جعله برسمهم على الانفراد،وقرر ما يكون لهم برسم الكسوات والأقوات والازواد، وجمع الباقين من عمومتهم وعترتهم في إيوان، واحترز عليهم في ذلك المكان، وأبعد عنهم النساء لئلا يتناسلوا فيكثروا، وهم إلى الآن محصورون محشورون لم يظهروا، وأنم عرض من بالقصر من الجواري والعبيد، والعدة والعديد، والطريف والتليد، فوجد أكثرهن حرائر فأطلقهن، وجمع الباقيات فوهبهن وفرقهن. وأخلى دوره وأغلق قصوره، وسلط جوده على الموجود، وأبطل الوزن والعد عن الموزون والمعدود، وأخذ ما صلح له ولأهله من أخيار الذخائر، وزواهي الجواهر، ونفائس الملابس، ومحاسن العرائس، وقلائد الفرائد، والدرة اليتيمة، والياقوتة العالية الغالية القيمة، والمصوغات التبرية، والمصنوعات العنبرية، والأواني الفضية.

ووصف العماد أشياء عديدة ثم قال: وأطلق البيع بعد ذلك في كل جديد وعتيق، ولبيس وسحيق، وبال وأسمال، ورخيص وغال، وكل منقول ومحمول، ومصوغ ومعمول، واستمر البيع منها مدة عشر سنين، وتنقلت إلى البلاد بأيدي المسافرين الواردين والصادرين.

قال ابن أبي طي: لما تسلم القصر لم يجد من المال كبير أمر، لأن شاور كان قد ضيعه في إعطائه الفرنج في المرات التي تقدم ذكرها، ووجد فيه

ذخائر جليلة من ملابس وفرش وخيول وخيام وكتب وجوهر. ومن عجيب ما وجد فيه قضيب زمرد طوله شبر وكسر قطعة واحدة ، وكان سمت حجمه مقدار الإبهام، ووجد فيه طبل للقولنج إذا ضرب عليه أحد في باطنه ريح غليظ أو غيره خرج منه ذلك الريح من دبره، ووجد فيه إبريق عظيم من الحجر المائع ووجد فيه سبعمائة يتيمة من الجوهر، وأما قضيب الزمرد فإن السلطان أخذه، وأمر صانعاً ليقطعه، فأبى الصانع قطعه، فرماه السلطان فانقطع ثلاث قطع، ففرقه على نسائه.

وأما طبل القولنج، فأخذه بعض الأكراد ولم يدر ما هو، فضرب به فحبق - أي ضرط - ولم يدر ما شأنه فكسره.

وأما الابريق فأنفذه السلطان إلى بغداد، وفرق على الأمراء أشياء كثيرة من قطع البلخش والياقوت والذهب، ثم باع الباقي.

قال الكتبي في تاريخه: كان في القصر من الجواهر النفيسة ما لم يكن عند خليفة ولا عند ملك مما قد جمع على طول السنين، فمنها الدرة اليتيمة مثل بيضة الحمام، والياقوتة الحمراء وتسمى حافر الحمار وزنها أربعة عشر مثقالاً، والجبل الياقوت الأحمر. وأرسل إلى نور الدين من ذلك عدةً من الأمتعة المستحسنة، والآلات المثمنة، وقطع البلور واليشم، والأواني التي لايتصور وجودها في الوهم، وثلاث قطع من البلخش أكثرها نيف وثلاثون مثقالاً، والثاني ثمانية عشر مثقالاً والأخرى دونهما، وفرق بها من اللآلىء مصونها ومكنونها، ومن الذهب ستين ألف دينار، ومن الطيب والعطر ما لم يسمع بمثله، ومن ذلك عمامة القائم بطيلسانه، فلما حضرت بين يدي نور الدين - وكان بحلب - قال: والله ما كان بنا حاجة إلى هذا، ما وصل إلينا عشر معشار ما انفقناه في العساكر التي جهزناها إلى مصر، وما قصدنا بفتحها إلا فتوح الساحل.

ومن جملة ما بيع خزانة الكتب، وكانت من عجائب الدنيا، يقال إنه لم يكن في جميع بلاد الإسلام دار كتب أعظم من الدار التي بالقاهرة في القصر، ومن عجائبها أنه كان بها ألف ومائتان وعشرون نسخة من تاريخ الطبري. ويقال إنها كانت تحتوي على ألفي ألف وستمائة ألف مجلد، وكان فيها من الخطوط المنسوبة أشياء كثيرة، وحصل القاضي الفاضل نخبها، وذلك أنه دخل إليها واعتبرها، وكل كتاب صلح له قطع جلده ورماه في بركة هناك، فلما فرغ الناس من شراء الكتب، اشترى هو تلك الكتب التي ألقاها في البركة على أنها مخرمة. ثم جمعها بعد ذلك ومنها حصل ما حصل من الكتب قريباً من مائة وعشرين ألف مجلد.

قال ابن الأثير: كان فيه من الكتب المنتخبة بالخطوط المنسوبة والخطوط الجيدة نحو مائة ألف مجلد.

قال ابن أبي طي: واقتسم الناس بعد ذلك دور القصر، وأعطى السلطان القصر الشمالي للأمراء فسكنوه، وأسكن أباه نجم الدين في اللؤلؤة، وهو قصر عظيم على الخليج الذي فيه البستان الكافوري. ونقل الملك العادل إلى مكان آخر منه، وأخذ باقي الأمراء دور من كان ينتمي إليهم، وزاد الأمر حتى صار كل من استحسن داراً أخرج منها صاحبها وسكنها، وانقضت تلك الدولة برمتها، وذهبت تلك الأيام بجملتها، بعد أن كانوا قد احتووا على البلاد، واستخدموا العباد مائتين وثمانين سنة وكسوراً.

قال ـ أي ابن أبي طي: وحكي أن الشريف الجليس ـ وكان قريباً من العاضد يجلس معه ويحدثه ـ عمل دعوة لشمس الدولة بن أيوب، أخي السلطان، بعد (القبض على القصور وأخذ ما فيها) [٣٥] وانقراض دولتهم، وحضر معه جماعة من أكابر الأمراء. فلما جلسوا على الطعام، قال شمس الدولة للشريف: حدثني بأعجب ما شاهدته من أمر القوم،

قال: نعم ، طلبني العاضد يوماً ، فحضرت مع جماعة ، فلما دخلنا عليه وجدنا عنده مملوكين من الترك عليهم أقبية من أقبيتكم، وقلانس كقلانسكم، وفي أوساطهم مناطق كمناطقكم، فقلنا له: ياأمير المؤمنين، ما هذا الذي ما رأيناه قط؟ فقال: هذه هيئة الذين يملكون ديارنا، ويأخذون ذخائرنا وأموالنا.

قال ـــ أي ابن أبي طي: ولما قطعت خطبة العاضد، استطال أهل السنة على الاسماعيلية وتتبعوهم وأذلوهم، وصاروا لايقدرون على الظهور من دورهم، وإذا وجد أحد من الأتراك مصرياً أخذ ثيابه، وعظمت الأذية بذلك، وجلا أكثر أهل مصر عنها إلى البلاد، وفرح الناس بذلك، وكتبت الكتب به إلى الأقطار ، وتحدث به السمار.

ولما وصل خبر ذلك إلى نور الدين ندب للبشارة إلى بغداد شهاب الدين أبا المعالي المطهر بن أبي عصرون، وكتب معه نسخة بشارة تقرأ بكل مدينة يمر فيها، فسار إلى أن وصل بغداد، فخرج الموكب في تلقيه، وجميع أهل بغداد مكرمين لخطير وروده، معظمين لجليل موروده، ونثرت عليه دنانير الإنعام، وحبي بكل إحسان وإكرام. وأرسلت التشريفات إلى نور الدين وصلاح الدين.

قال الذهبي في تاريخ الاسلام: ووصل الاستاذ عماد الدين صندل الطواشي إلى دمشق رسولاً من دار الخلافة في جواب البشارة بالخلع والتشريفات لنور الدين ولصلاح الدين. فلبس نور الدين الخلعة وهي فرجية، وجبة وقباء، وطوق ذهب ألف دينار، وحصان بسرج خاص، وسيفان، ولواء وحصان آخر بحليته، ونجيب بين يديه. وقلد السيفين إشارة إلى الجمع له بين مصر والشام، وخرج إلى دست السلطنة واللواء منشور، والذهب منثور إلى ظاهر دمشق. وانتهى إلى آخر المدينة. ثم عاد وسير إلى صلاح الدين تشريفاً فائقاً، لكنه دون تشريف نور الدين

بقليل، كان أول أهبة عباسية دخلت الديار المصرية، وقضى أهلها العجب. وكان معها أعلام وبنود وأهب عباسية للخطباء بمصر.

وسير إلى العماد الكاتب خلعة ومائة دينار من الديوان.

فائدة: العاضد آخر خلفاء العبيديين، وكان قاطعاً لدولتهم، لأن العاضد في اللغة القاطع، لايعضد شجرها أي لايقطع، يقال إن المعز لما أتى إلى القاهرة قال لديوان الانشاء: أكتبوا لنا ألقاباً يصلح لنا أن نتلقب بها، فكتبوا له ألقاباً آخر ما كان فيها لقب العاضد، وهو اتفاق غريب. وفأل عجيب.

واسم العاضد عبد الله، ولد سنة ست وأربعين وبويع له سنة خمس وخمسين وعمره تسع سنين، وعاش إحدى وعشرين سنة وخلافته إحدى عشرة سنة، وما نقلناه من كون مولده سنة ست وأربعين وخمسمائة قاله ابن كثير.

قال الكتبي: ولد سنة أربع وأربعين، وعاش ثلاثاً وعشرين سنة، وكانت سيرته مذمومة، وكان شيعيا خبيثاً لو أمكنه قتل كل من يقدر عليه من أهل السنة فعل، وكان هؤلاء الطائفة يدعوا شرفاً فاطميين، فملكوا البلاد وقهروا العباد، وقد ذكر جماعة من أكابر العلماء أنهم لم يكونوا لذلك أهلاً ولا نسبهم صحيحاً، بل المعروف انهم بنو عبيد، وكان والد عبيد هذا من نسل القداح الملحد المجوسي، وقيل كان والد عبيد هذا يهودياً من أهل سلمية من بلاد الشام، وكان حداداً، وعبيد هذا كان اسمه سعيداً، فلما دخل المغرب سمي بعبيد الله وزعم أنه علوي فاطمي، وادعى نسباً ليس بصحيح لم يذكره أحد من مصنفي الأنساب العلوية، ثم ترقت به الحال إلى أن ملك وتسمي بالمهدي، وبنى المهدية بالمغرب ونسبت إليه، وكان زنديقاً خبيثاً عدواً للاسلام متظاهراً

بالتشيع،مستترا به، حريصا على إزالة الملة الاسلامية، قتل من الفقهاء والمحدثين والصالحين جماعة، كان يرسل على الفقهاء والعلماء فيذبحون في فرشهم، وكان ما قصده إعدامهم من الوجود ليبقى العالم كالبهائم فيتمكن من إفساد عقائدهم وضلالتهم (ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون) (٣٦).

وكان له شيعة ببغداد وخراسان، وكانوا يرجفون أن المهدي يظهر بالمغرب ويغلب على الأرض كلها، وكان له دعاة بالمغرب يدعون الناس إليه وإلى طاعته، ويأخذون عليهم العهود، ويلقون إلى الناس من أمره بحسب عقولهم واحتال كل طبقة منهم، فمنهم من يلقون إليه أنه الله الخالق الرازق، وكان إذا ضج الناس من هذا، أخذ الدعاة، فمرة يحبسهم، ومرة يقتلهم ويقول: ما أمرت بهذا، ويقول الدعاة: هو أمرنا، وبأمره فعلنا، وله أن يمتحننا، وبقي هذا البلاء على الإسلام من أول دولتهم إلى آخرها، وذلك من ذي الحجة سنة تسع وتسعين ومائتين إلى هذه السنة.

وفي أيامهم كثرت الرافضة ، واستحكم أمرهم، ووضعت المكوس على الناس، واقتدى بهم غيرهم، وأفسدت عقائد طوائف من أهل الجبال الساكنين بثغور الشام كالنصيرية والدرزية، والحشيشية نوع منهم، وتمكن دعاتهم منهم لضعف عقولهم وجهلهم ما لم يتمكنوا من غيرهم.

وأخذت الفرنج أكثر البلاد بالشام والجزيرة حتى أخذوا : القدس، ونابلس، وعجلون، والغور، وبلاد غزة، وعسقلان، وكرك، والشوبك، وطبرية، وبانياس، وصور، وعكا، وصيدا، وبيروت، وصفد، وطرابلس، وأنطاكية، وجميع ما والى ذلك إلى بلاد سيس، واستحوزوا على : بلاد آمد، والرها، ورأس العين، وبلاد شتى غير ذلك، وقتلوا من المسلمين، خلقاً، مما لايحصيهم إلا الله، ، وسبوا ذراري المسلمين من النساء

والولدان مما لايحد ولا يوصف، وكادوا أن يتغلبوا على دمشق، ولكن الله سلم لما من الله على المسلمين بظهور البيت الأتابكي ومن يلوذ به مثل صلاح الدين، وأزالوا هذه الدولة عن رقاب العباد، وكانوا أربعة عشر مستخلفاً عدة خلفاء بني أمية، لكن بني أمية كانت مدتهم نيفاً وثمانين سنة، وكان ثلاثة من هؤلاء المستخلفين بإفريقية، (وهم المهدي ، والقائم ، والمنصور ، والباقي بمصر) وهم الملقبون بالمعز، والعزيز، والحاكم، والظاهر، والمستنصر، والمستعلي، والآمر، والحافظ، والظافر، والفائز، والعاضد. فالمهدي تولى خمساً وعشرين سنة ثم ولي بعده ابنه القائم بالله اثنتي عشرة سنة وسبعة أشهر وكان أسوأ حالاً من أبيه، وزاد شره أضعافاً مضاعفة، جاهر ـ لعنه الله ـ بشتم الانبياء. وكان ينادي في الأسواق بإفريقية والمهدية: العنو عائشة وبعلها، العنو الغار ومن حوى، وقتل الفقهاء والعلماء القتل الذريع.

ثم تولى بعده ابنه المنصور بالله سبع سنين وستة عشر يوماً.

ثم تولى بعده المعز لدين الله ثلاثاً وعشرين سنة وخمسة أشهر، وله بنيت مدينة القاهرة، وهو أول من خطب له بمصر منهم، وأذن فيها بحي على خير العمل.

ثم تولى بعده ابنه العزيز بالله إحدى عشرة سنة وخمسة أشهر.

وتولى بعده ابنه الحاكم بأمر الله، وعمره إحدى عشرة سنة وستة أشهر، خمساً وعشرين سنة وشهراً، وكان أسوأهم سيرة، وأقبحهم سريرة، وكان يجري منه ما لو جرى من الصبيان حالة لعبهم لاستنكر، ولنذكر شيئاً من أفعاله القبيحة وسيرته الملعونة، أخزاه الله تعالى، كان قبحه الله كثير التلون في أقواله وأفعاله، وكانت أخلاقه متضادة بين شجاعة وإقدام، وجبن وإحجام، ومحبة للعلم وانتقام من العلماء، وميل إلى

الصلحاء وقتل الصلحاء، ، والغالب عليه السخاء، وربما بخل بما لم يبخل به أحد، ولبس الصوف سبع سنين، وامتنع من دخول الحمام، وبقي ثلاث سنين يجلس في الشمع ليلاً ونهاراً، ثم عنّ له أن لايجلس إلا في الظلمة، وكان يتوصل إلى القتل بكل حيلة، وقتل من العلماء والكتاب ما لا يحصى، وجرى في أيامه أمور كثيرة عجيبة، منها أنه أمر بسب الصحابة رضي الله عنهم، وأمر أن يكتب ذلك على أبواب المساجد والشوارع، ثم محاه ونهى عنه، ثم أمر بقتل الكلاب، ثم نهى عنه، ونهى عن صلاة التراويح عشر سنين ثم أباحها، ، وهدم قمامة وبنى مكانها مسجداً، ثم أعادها كما كانت أولاً، وبنى المدارس وجعل فيها العلماء والمشايخ، ثم هدمها وقتلهم، وكانت أفعاله كلها من هذه النسبة، ومنها أنه كان يعمل الحسبة بنفسه، فيدور في الأسواق على حمار له، فمن غش في معيشته أمر عبداً أسود يقال له مسعود أن يفعل به الفاحشة العظمى، ولم يسبق إلى هذا الأمر المنكر غيره عثره الله. ومنها أنه منع النساء من الخروج إلى الطرقات ليلاً ونهاراً، ومنع الأساكفة من عمل الخفاف المتخذة للنساء، ولم تزل النساء ممنوعات من الخروج إلى الطرقات إلى خلافة الظاهر.

قال ابن خلكان: وكانت مدة منعهن سبع سنين وسبعة أشهر، ومنها أنه أمر بغلق الأسواق نهاراً وفتحها ليلاً، فامتثلوا ذلك دهراً طويلاً، حتى مر يوماً بشيخ يعمل النجارة بعد العصر، فوقف عليه وقال: ألم أنهكم عن هذا؟ فقال: ياسيدي، ما كنا نسهر لما كنا نتعيش في النهار، فهذا من جملة السهر، فتبسم وتركه، وأعاد الناس إلى أمرهم الأول، ومنها أنه نهى عن أكل الملوخية والجرجير وعلل تحريم الملوخية بميل معاوية إليها، وعلل تحريم الجرجير بكونه منسوباً إلى عائشة رضي الله عنها، وعذره قبحه الله أنجس من ذنبه، واطلع على جماعة أكلوا الملوخية ، فضربهم بالسياط، وطاف بهم القاهرة، ثم ضرب رقابهم على باب زويلة، ومنها أنه نهى عن بيع الرطب، وجمع منه شيئاً كثيراً وأحرقه، وكان مقدار النفقة

على إحراقه خمسمائة دينـار، ونهى عن بيع العنب، وأنفـذ شهوداً إلى الجيزة ومعـاملهـا حتـى قطعـوا أشياء كثيرة مـن كـرومهـا ورمـوهـا إلى الأرض، وداسوهـا بالبقـر. وجمع ما كان في مخازنها مـن جرار العسـل فحملت إلى شـاطـىء النيل وكسرت وقلبـت في البحـر، ونهى عـن بيع الـزبيـب على اختلاف أنـواعه، ومنع الناس مـن حمله إلى مصر، ثم جمع منـه شيئاً كثيراً وأحرقه، ونهى عن بيع السمك الذي لاقشر له، ثم ظفر بمن باعه فقتله.

ومنهـا أنه أمـر النصـارى أن تحمل في أعنـاقهـم الصلبان، وأن يكـون طـول الصليـب ذراعاً، وزنتـه خمسـة أرطـال، وأمر اليهـود أن يحملـوا في أعناقهم قرامي خشب زنة الصلبان، وأن يلبسوا العمائم السود، ولايكتروا مـن مسلم حماراً ولا بهيمـة، ثم أفـرد لهم حمامـات ، وأمرهـم أن يدخلـوا إليهـا والصلبان والقـرامـي في أعناقهـم، وأمـرهـم في وقـت بـالدخـول في الاسلام كـرهاً، ثم أمرهـم بالعود إلى أديـانهم، فارتد منهم في سبعـة أيام ستة آلاف نفـر، وخرب كنائسهـم ثم أعادهـا ، وكان يفعل ذلـك اختباراً لطاعة العامة ليترقـى إلى إدعاء الربوبية كما ادعاها فرعـون في زمن موسى عليه السلام.

وكان أمـر الرعيـة إذا ذكره الخطيب على المنبر أن يقـوم الناس صفـوفاً احترامـاً لاسمـه، وكـان يفعـل ذلـك في سـائر مملكتـه حتـى في الحرمين الشريفين، وكان أهـل مصر على الخصوص إذا قـاموا خـروا سجداً حتـى إنه يسجد بسجودهم من في الأسواق من الرعاع وغيرهم.

ثم ادعى الـربوبية وكتب له: بســم الحاكم الرحمن الرحيـم، وصار قوم من الجهـال إذا رأوه يقولون : يـاواحد، ياأحد، يـامحيي، يامميـت، وادعى علـم الغيب في وقـت، وكان يقـول: فلان قـال في بيته كـذا وكذا، وكـان ذلـك باتفـاق اعتمـده مـع العجائز اللـواتي يـدخلـن إلى بيوت الأمـراء وغيرهـم ويعرفنه ذلك. فرفعت إليه في أثناء ذلك رقعة مكتوب فيها:

بـــــالجور والحكـــــم قـــــد رضينـــــا
وليـــــس بـــــالكفـــــر والحماقـــــة
إن كنـــــت أوتيـــــت غيبـــــاً
بين لنـــــا كـــــاتـــــب البطـــــاقـــــة

فحين قرأهـا سكت عن الكلام في المغيبـات، وكان هو وأصحابـه من الخلفاء بمصر يدعون السيادة ويقولون: نحـن من ولد فاطمة بنت رسول اللـه صلى الله عليـة وسلم، يـريدون الافتخـار بذلـك على بني العبـاس خلفـاء بغداد، فيقـولون: أبـونا علي بـن أبي طـالب رضي اللـه عنه وأمنـا فاطمـة رضي الله عنها، وكان الحاكـم يقول ذلك في كـل جمعة على المنبر، وكانـت ترفع الـرقاع وهو على المنبر في أشغال النـاس، فرفعت إليـه رقعة مكتوب فيها:

إنـــــا سمعنـــــا نسبـــــاً منكـــــراً
يتلى على المنبر في الجامـــــع
إن كنـــــت فيما قلتـــــه صـــــادقـــــاً
فـــــانسـب لنـــــا نفسـك كـــــالطـــــائع

أو كـــــان حقـــــاً كما تـــــدعـــــي
فـــــاعـــــدد لنـــــا بعـــــد الأب الســـــابـــــع
أو فـــــدع الأشيـــــاء مستـــــورة
وادخـــــل بنـــــا في النســـــب الـــــواســـــع

فرماها من يده ولم ينتسب بعدها.

وحكى سبـط ابن الجوزي في مـرآة الزمـان:أن المحضر الذي بـرز من ديوان القادر بالله بالقدح في الحاكم وفي أنسابه كان من شهد فيه وأثبت اسمـه ونسبـه في هـذا الكتـاب مـن السـادة والأشراف والقضـاة والعلماء والعـدول والأكابـر والأماثـل ما يعـرفونـه من نسـب الديصـانية الكفـار المنسوبين إلى ديصان بن سعد الخرمي، شهـادة يتقربون بها إلى الله تعالى،

معتقدين ما أوجب الله تعالى على العلماء أن يبينوه للناس ولايكتمونه . شهدوا جميعاً أن الناجم بمصر وهو منصور بن نزار الملقب بالحاكم:

حكم الله عليه بالبوار والخزي والنكال والاستيصال :

ابن معد بن اسماعيل بن عبد الرحمن بن سعيد لا أسعده الله، وأنه لما صار إلى المغرب تسمى بعبيد الله،و لقب نفسه المهدي، ومن تقدمه من سلفه الانجاس الروافض الكلاب الارجاس عليه وعليهم لعنة الله ولعنة اللاعنين أدعياء لانسب لهم في ولد علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ولايتعلقون منه بسبب من الاسباب وأنهم كفار فجار ملحدون زنادقة معطلون وللإسلام جاحدون، ولمذهب المجوس معتقدون، قد عطلوا الحدود، وأباحوا الفروج، وسفكوا الدماء، وسبوا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام،وادعوا الربوبية ، وكتب فيه من الأعيان الرضي والمرتضى، والشيخ أبو الحسن الاسفرائيني، والشيخ أبو الحسن القدوري، وجماعة من العلماء ببغداد وأعيانها، وصنف له بعض الباطنية كتاباً ذكر فيه أن روح آدم انتقلت إلى علي، وروح علي انتقلت إلى الحاكم، وقرىء هذا الكتاب بجامع القاهرة، فقصد الناس قتل مصنفه، فسيره الحاكم إلى جبال الشام بناحية وادي التيم وناحية بانياس، فاستمال الناس وأعطاهم المال، وأباح لهم الخمور والفروج، وأقام عندهم مدة يدعوهم إلى معتقد الحاكم، فأضل منهم خلقاً كثيراً، وهناك قرى كثيرة إلى يومنا هذا يعتقدون خروج الحاكم، وأنه لابد أن يعود ويمهد الأرض، وهذه خيالات فاسدة وظنون كاذبة،نعوذ بالله منها.

وكان السبب في هلاك الحاكم أنه أراد قتل أخته سيدة الملوك، وهم أن يرسل إليها القوابل ليتحقق بكارتها، وقال لبعض قهارمتها: سمعت أنكم تجمعون الجموع، وتدخل إليكم الرجال، ولابد من قتلكم أجمعين، وتكرر هذا القول منه مراراً، فعلمت أخته أنه يقتلها لا محالة لما تعلمه

من خبث طويتـه، ومؤاخذته بالصغائر، واصراره على الكبـائر، وصاحب البيت أدرى بـالذي فيـه، وكانـت من النسـاء المدبرات ، فخـرجت يـوماً وأتت إلى دار الأمير سيـف الدين ابـن دواس، وكان الحاكم قـد عزم على قتله وقتلها، فـاجتمعت به وعرفتـه ذلك، فقال لها: كيف الحيلـة في أمره؟ قالـت: الرأي عندي أن تجهـز له رجالاً يقتلونـه عند خروجـه إلى حلوان، فإنه ينفرد لنفسـه، وأنت تكون المدبر لدولة ولده، والوزيـر له، فاتفقا على ذلك، ثـم رجعت إلى قصرها، فلما كـان صبيحة النهار خـرج الحاكم على عادته، وانفـرد بنفسه على المقطم، وكان ابـن دواس قد أحضر عشرة عبيد وأعطى كل واحد منهم خمسمائة دينار، وعـرفهم كيف يقتلونه، فسبقوه إلى الجبل، فلما انفرد، خرجـوا عليه وقتلوه بالقرب من حلـوان. فخرج الناس على عادتهم يلتمسون رجـوعه ومعهم دواب المواكب، ففعلـوا ذلك سبعة أيام، ثم رأوا حماره الأشهـب المدعو بالقمر وقد قطعت يـداه وعليه سرجه ولجامه، فتبعوا أثر الحمار إلى أن انتهوا إلى المقصبة التي في شرقي حلوان، فنزل رجل إليها ، فوجد ثيابـه مزررة لم تحل أزرارها وفيها آثار السكاكين ، فلم يشكوا في قتله.

ثـم تولى بعـده ابنه الظـاهر لإعـزاز دين اللـه خمس عشرة سنة وثمانيـة أشهر وخمسة أيام.

ثم تولى بعده ابنه المستنصر بالله سبعاً وستين سنة، وكان في أيامه غلاء وشدة.

ثم تـولى بعده ابنـه المستعلي بالله أبو القاسم أحمد سبع سنين وشيئاً.

ثم تولى بعده ابنـه الآمر بأحكام الله أبو علي المنصور . بـويع وله من العمر خمس سنين، وقام بـدولته الأفضل بن أمير الجيـوش تسعاً وعشرين سنة ، وهو العاشر من صلب عبيد الله الملقب بالمهدي.

ثم تولى بعده ابن عمه الحافظ لدين الله ابن الأمير أبي القاسم محمد ابن المستنصر تسع عشرة سنة وشيئاً، ولم يل منهم منذ قام المهدي من أبوه غير خليفة إلا هذا والعاضد.

ثم تولى بعده ابنه الظافر بالله خمس سنين ونصفاً.

ثم تولى بعده ابنه الفائز بنصر الله ست سنين وأشهراً.

ثم تولى بعده العاضد لدين الله، وانقطعت تلك الدولة، فالحمد لله على ما يسر من هلكهم وإبادة ملكهم، ورضي عن من سعى في ذلك وأزالهم، ورحم من بين مخرقتهم وكذبهم ومحالهم.

وفيها بدأت الوحشة بين نو الدين وصلاح الدين لأن نور الدين كتب إلى صلاح الدين بأن يجمع العساكر ويحضر إلى الشام ليحصرا الكرك، ويجتمعا هناك لتدبير أمور لايمكن ذكرها في كتاب، فبرز صلاح الدين إلى بلبيس وكتب إلى نور الدين يخبره بأنه واصل.

وخرج نور الدين من دمشق، فنزل على البلقاء، وأقام ينتظره.

وشاور صلاح الدين أصحابه ، فخوفوه من نور الدين، وأثنوا عزمه، فكتب يعتذر من اختلال البلاد وأنه متى أبعد عنها لايأمن أهلها، فشق ذلك على نور الدين ولم يقبل عذره، وعزم على قصد مصر وإخراج صلاح الدين منها، وشرع يتجهز.

وبلغ صلاح الدين، فجمع الأمراء وأهله، وقال: ما ترون؟ فلم يجبه أحد منهم بشيء، فقام ابن أخيه تقي الدين، وقال: إذا جاءنا قابلناه وصددناه عن البلاد، ووافقه غيره من أهله، فشتمهم نجم الدين أيوب، وأنكر ذلك واستعظمه، وكان ذا رأي وعقل، وقال لتقي الدين: اقعد،

وسبه. وقال لصلاح الدين: أنا أبوك، وهذا شهاب الدين خالك، أنظر في هؤلاء، كلهم من يحبك ويريد لك الخير مثلنا؟ فقال: لا، فقال: والله لو رأيت أنا وهذا خالك نور الدين، لايمكننا إلا أن نترجل إليه ونقبل الأرض بين يديه، ولو أمرنا بقتلك لفعلنا، فإذا كنا نحن (كذلك) فكيف غيرنا! وهذه البلاد له، ونحن مماليكه فيها ! وإذا أراد عزلك، فأي حاجة له إلى المجيء، ينفذ كتاباً مع نجاب يأمرك بالمسير إليه حتى تقصد خدمته ويولي بلاده من يريد،وتفرقوا على هذا، فكتب أصحاب الأخبار إلى نور الدين بصورة الحال وما قال نجم الدين.

وأما نجم الدين فإنه خلا بابنه وقال: ياقليل المعرفة، تجمع هذا الجمع الكثير وتطلعهم على ما في نفسك، ومتى بلغ نور الدين أنك عازم على منعه من البلاد قصدك بعساكر الشام والشرق وديار بكر والروم وغيرهم ولم يبق معك أحد وأولهم خالك وغيره ممن ينافسك في الملك، وفي قلوبهم منك ما فيها، وقد كتب أصحاب الأخبار إلى نور الدين بما قلت، فاكتب إليه كتاباً تذعن فيه بالطاعة له، وقل له:مامن حاجة إلى قصدي بنفسك، ابعث أحد غلمانك يحملني إلى بين يديك. فهو إذا سمع هذا عدل عن قصدك، واشتغل بما هو أهم عنده، والأيام تندرج، والله كل وقت في شأن.

ففعل صلاح الدين ذلك، فلما رأى نور الدين الأمر هكذا، عدل عن قصده، واستحيى منه، واشتغل عنه بالفرنج، وكان الأمر كما قال نجم الدين. وتوفي نور الدين ولم يقصده ولا أزاله، وكان هذا من أحسن الآراء وأجودها.

وفيها اتخذ نور الدين الحمام الهوادي، وهي المناسيب التي تطير من البلاد البعيدة إلى أوكارها، وكتب بذلك إلى جميع البلاد ، فاتخذت في الأبراج. وكتب منشوراً لأربابها واعزاز أصحابها، ونودي بالتهديد لمن

اصطاد منها شيئاً، وكان سبب ذلك أن مملكته قد اتسعت، وكانت من حد بلاد النوبة إلى همذان لاتتخللها سوى بلاد الفرنج، فكان الفرنج - لعنهم الله - ربما نازلوا بعض الثغور، فإلى أن يصله الخبر ويسير إليهم يكونوا قد بلغوا بعض الفرص، فحينئذ أمر بذلك، فوجد بها راحة كبيرة، وكانت الأخبار تأتيه لوقتها لأنه كان له في كل ثغر رجال مرتبون ومعهم حمام المدينة التي تجاورهم، فإذا رأوا أو سمعوا أمراً كتبوه لوقته، وعلقوه على الطير، وسرحوه إلى المدينة التي هو منها في ساعته، فتنتقل الرقعة منه إلى طائر آخرمن البلاد التي تجاورهم في الجهة التي فيها نور الدين، وهكذا إلى أن تصل الأخبار إليه، فحفظت الثغور بذلك، حتى أن طائفة من الفرنج نازلوا ثغراً له، فأتاه الخبر ليومه، فكتب إلى العساكر المجاورة له بالاجتماع والمسير بسرعة، وكبس العدو ، ففعلوا ذلك، فظفروا بهم، وكان الفرنج قد أمنوا لبعد نور الدين عنهم، فرحمه الله ورضي عنه،فما كان أحسن نظره في الرعايا والبلاد، ووفق الملوك إلى الاقتداء بسيرته:

وما أحسن قول القاضي الفاضل في وصف الحمام: الطيور ملائكة الملوك، يشير بذلك إلى نزولها على الملوك من جو الهواء نزول الملائكة على الأنبياء عليهم السلام من السماء ، مع فرط ما فيها من الأمانة لايتوهم من جهتها خيانة، وقد أطنب في ذلك العماد الكاتب، وأطرب وأعجب وأغرب.

وفيها أسقط الملك الناصر صلاح الدين عن أهل مصر المكوس والضرائب. وقرىء المنشور بذلك على رؤوس الأشهاد يوم الجمعة بعد الصلاة، وكان مقدار ما أسقطه في السنة من العين مائتي ألف دينار.

وفيها عزل الخليفة المستضيء ابن رئيس الرؤساء وقبض على ابنه كمال الدين، وكان كمال الدين هذا كثير الظلم والعنف في الأحكام، وكان سبباً في عزل والده، تظلمت إليه يوماً امرأة كان يعذب زوجها، وقالت:

خف من دعوة تصادف إجابة ، فاستهزأ، وقال : تحري لها وقت السحر، فلم يكن بعد ذلك إلا أياماً قلائل حتى نكب وأنشد بعضهم:

أتحتقر الدعاء وتزدريه وما يدريك ما صنع الدعاء

سهام الليل لا تخطي ولكن لها أمد وللأمد انقضاء

ويقال: إن المرأة صادفته بعد ذلك، فقالت: يا هذا، انتفعت برأيك ومشورتك.

سنة ثمان وستين وخمسمائة

فيها بعث صلاح الدين هدية إلى نور الدين فيها فيل وحمار عتابي مخطط كثوب عتابي، فأهدى نور الدين الفيل إلى ابن أخيه سيف الدين غازي صاحب الموصل مع شيء من تحف الثياب والعود والعنبر، وجهز الحمار العتابي إلى بغداد مع هدايا وتحف سنايا، وخرج الناس للفرجة، وكان فيهم رجل عتابي كثير الدعاوى، وهو بليد ناقص الفضيلة، فقال رجل : إن كان بعث الينا حمار عتابي، فنحن عندنا عتابي حمار.

وفيها سار نور الدين إلى الموصل وصلى في الجامع الذي بناه ،وتصدق بمال كثير، فلما علم صلاح الدين بتوجهه إلى الموصل، خرج بعساكر مصر إلى الشام وحاصر الكرك والشوبك، ونهب أعمالها، وكان جماعة من العرب نازلين بأرض الكرك ينقلون الأخبار إلى الفرنج، وإذا أغاروا على البلاد دلوهم على المسلمين، فنهبهم صلاح الدين وقتل بعضهم، وأجلى من بقي عن أرض الكرك، ثم عاد إلى مصر.

قال ابن شداد: وهي أول غزاة غزاها صلاح الدين من مصر.

وعاد نور الـدين من الموصل، وقطـع الفرات وقصد بلاد الـروم، وسببه أن الملك عز الدين قليج أرسلان بـن مسعود بن قليج أرسلان بن سليمان السلجـوقي قـد قصـد ذا النون بـن دانشمند صـاحـب ملطية وسيـواس وغيرهما، وأخذ بلاده وأخـرجه عنها طريداً، فسار إلى نـور الدين مستجيراً به، فأكرمه وأحسن إليـه، ووعده النصر والسعي في رد ملكه إليه، وراسل قليج أرسلان ، وشفع إليه في إعادة ما غلبـه عليه من بلاده، فلم يجبه إلى ذلك، فسار نـور الدين نحوه، وفتح مـن بلاده بهسنا، ومرعـش ومرزبان، وما بينهـا من الحصون، وسير طـائفة مـن عسكره إلى سيواس فملكـوها، فلما رأى قليج أرسـلان ذلك، خـاف منه، وراسـل نور الـدين يستعطفـه ويسأله الصفح عنـه والصلح، ورد بلاد ابن الدانشمند، فـأجابه إلى ذلك بشروط: منها أن يجدد إسـلامه على يد رسول نـور الدين، لأنه كـان يتهم بـاعتقاد مـذاهب الفـلاسفـة، ومنها إذا طلـب عسكره إلى الغـزاة يسيره، ومنها أن يزوج ابنته لسيف الدين غازي ولـد أخي نور الدين، وذكر أموراً غيرهـا، فلما سمع قليـج أرسلان الـرسالـة قال: مـا قصد نـور الديـن إلا الشناعة علي بالزندقة، وقد أجبتـه إلى ما طلب، أنا أجدد إسلامي على يد رسولـه واستقر الصلـح، وترك عسكـراً في سيواس مـع فخر الـدين عبـد المسيح في خـدمة ابـن الدانشمنـد، فأقام عنـده حتى تـوفي نور الـدين ، فرحل العسكر عنها، وعاد قليج أرسلان ملكها.

وفيها شرع نـور الدين ببنـاء مدرسة للشـافعية بقرب الجاروخيـة، وهي المدرسة المعروفة بـالعادلية الآن، فأدركه أجله وقـد وضع المحراب وبعض البنيان، وبقـي أمرها على حـاله إلى أن جاء العـادل أبو بكر فـأزال تلك العمارة وبناها هذا البناء المتقن المحكم ودفن بها.

وفيها اجتمع الفرنج بالشام لقصد زرا، فوصلوا إلى سمكين(٣٧) ، فبرز اليهم نور الديـن ، فهربوا منه إلى الفوار، ثم إلى السـواد، ثم إلى الشلالة،

فبعث سرية إلى طبرية، فعاثوا هنالك وسبوا وقتلوا وغنموا وعادوا سالمين. ورجع الفرنج خائبين.

وفيها اجتمع السودان العبيد من بلاد النوبة وخرجوا في أمم عظيمة قاصدين تملك بلاد مصر، وصاروا إلى أعمال الصعيد، وصمموا على قصد أسوان وحصارها ونهب قراها، وكان بها كنز الدولة، فأرسل يعلم الملك الناصر، وطلب منه نجدة، فأنفذ قطعة من جيشه مع الشجاع (البعلبكي)، فلما وصل إلى أسوان وجد العبيد قد عادوا عنها بعد أن خربوا أرضها، فاتبعهم الشجاع وكنز الدولة، فجرى بينهم حرب كثير قتل فيها من الفريقين عالم عظيم، ورجع الشجاع إلى القاهرة، وأخبر بفعال العبيد وتمكنهم في بلاد الصعيد، فأرسل الملك الناصر أخاه شمس الدولة في عسكر كثيف، فوجدهم قد دخلوا بلاد النوبة، فسار إليها ونزل على قلعة ابريم وافتتحها بعد ثلاثة أيام، وغنم جميع ما كان فيها من المال والكراع والميرة، وخلص جماعة من الأسرى، وأسر من وجد فيها، وهرب صاحبها. ثم رجع شمس الدولة.

وخلا بالقلعة شخص من الأكراد يقال له ابراهيم، وانضم إليه جماعة من الأكراد البطالين، فشنوا الغارات على بلاد النوبة حتى برحوا بهم، واكتسبوا أموالاً كثيرة، ثم إنهم قصدوا جزيرة في البحر، فغرق أميرهم وجماعة من أصحابه، ورجع من بقي، وأخذوا جميع ما كان فيها، وأخلوها بعد مقامهم بها سنتين، فعاد النوبة إليها وملكوها، وأنفذ ملك النوبة رسولاً إلى شمس الدولة وهو مقيم بقوص ومعه كتاب فيه طلب الصلح، ومع الرسول هدية وعبد وجارية، ، فكتب له جواب كتابه، وأعطاه زوجي نشاب وقال: مالك عندي جزاء إلا هذا، وجهز معه رسولاً يعرف بمسعود الحلبي، وأوصاه أن يكشف له خبر بلادهم، فسار الحلبي مع الرسول حتى وصل دنقلة، وهي مدينة الملك ، قال مسعود: فوجدت بلاداً ضيقة ليس لهم زرع إلا الذرة، وعندهم نخل صغار منه أدامهم،

قال: ودنقلة ليس فيها عمارة إلا دار فقط، وباقيها أخصاص. قاله ابن أبي طي.

وفيها كانت وفاة الأمير نجم الدين أيوب بن شادي والد صلاح الدين. سقط عن فرسه فمات بعد ثمانية أيام رحمه الله تعالى، وكان صلاح الدين قد عاد من الكرك، فبلغه خبره بالطريق فحزن عليه، وتأسف حيث لم يحضره.

وفيها وصل شهاب الدين بن أبي عصرون من بغداد، وقد أدى الرسالة بالخطبة العباسية، ومعه توقيع لنور الدين بدرب هارون وصريفين، قريتان من أعمال العراق كانتا قديماً لأبيه عماد الدين زنكي، فأراد نور الدين أن ينشيء ببغداد مدرسة على حافة الدجلة ويقف عليها القريتين، فأدركه أجله، وعاقه القدر عن ذلك، وجاء مع شهاب الدين خمسون ديناراً من دنانير النثار التي نثرت يوم دخوله إلى بغداد بالبشارة، وزن كل دينار عشرة دنانير.

وفيها بعث صلاح الدين سرية صحبة قراقش مملوك تقي الدين عمر ابن شاهنشاه إلى بلاد إفريقية، فملكوا طائفة كبيرة منها، من ذلك مدينة طرابلس الغرب وعدة مدن معها.

وفيها أرسل نور الدين وزيره الموفق خالد بن القيسراني إلى صلاح الدين ليقيم حساب الديارالمصرية، وذلك لأن نور الدين استقل الهدية التي أرسلت إليه من خزانة العاضد، وكان مقصوده أن يقرر على الديار المصرية خراجاً يحمل إليه في كل سنة.

فيها قال ابن الجوزي في المنتظم: إنه سقط ببغداد برد كالنارنج، ومنه ماوزنه سبعة أرطال. ثم أعقب ذلك سيل عظيم وزيادة عظيمة في دجلة، لم يعهد مثلها أصلاً، فخربت شيئاً كثيراً من العمران والقرى

والمزارع حتى القبور، وخرج الناس إلى الصحراء، وكثر الضجيج والابتهال إلى الله تعالى حتى حصل الفرج وتناقص الماء، قال: وأما الموصل فإنه كان بها نحو ما كان ببغداد، وانهدم بالماء نحو من ألفي دار، واستهدم بسببه مثل ذلك، وهلك تحت الهدم خلق كثير، وكذلك الفرات زاد زيادة عظيمة هلك بسببها شيء كثير من القرى، وغلت الأسعار بالعراق في هذه السنة في الزروع والثمار، ووقع الموت في الغنم ، وأصيب كثير ممن أكل منها بالعراق وغيرها.

وفيها قال ابن الساعي: توالت الأمطار بديار بكر وغيرها والموصل أربعين يوماً وليلة لم يروا الشمس سوى مرتين لحظتين يسيرتين ثم تتستر بالغيوم، فتهدمت بيوت كثيرة ومساكن على أهلها، وزادت دجلة بسبب ذلك زيادة عظيمة، وغرق كثير من مساكن بغداد والموصل، ثم تناقص الماء بإذن الله تعالى.

وفيها سار نور الدين نحو بلاد الروم وفي خدمته الجيش، وملك الأرمن وصاحب ملطية وخلق من الملوك والأمراء، فافتتح عدة من حصونهم، وصالح على قلعة الروم، فصالحه صاحبها بخمسين ألف دينار جزية، ثم عاد إلى حلب وقد وجد النجاح في كل ما طلب، ثم أتى دمشق مسروراً محبوراً.

وفيها توجه توران شاه أخو صلاح الدين إلى اليمن فملكها، قال ابن أبي طي: وكان سبب خروج توران شاه إلى اليمن أنه كان كريماً جواداً، وكان إقطاعه بمصر لايقوم بقوته، ولا ينهض بمروءته، وكان قد انتظم في سلكه عمارة الشاعر، وكان من أهل اليمن، وكان إذا خلا به وصف له بلاد اليمن وكثرة أموالها وخيرها وضعف من فيها، وأنها قريبة المأخذ لمن طلبها، ووافق ذلك أنه كاتبه رجل من أهل اليمن شريف يقال له هاشم ابن غانم، وأطمعه في المعاونة لأن صاحب اليمن عبد النبي كان تعدى

على هذا الشريف، فأعلم شمس الدولة أصحابه بعزمه على اليمن، فأجابوه. وتجهز ثم دخل على أخيه صلاح الدين، واستأذنه في دخول اليمن، فأذن له، وأطلق له مغل قوص سنة، وزوده فوق ما كان في نفسه وأصحبه جماعة من الأمراء والجند، وسار في البر والبحر، في البر العساكر وفي البحر الأزواد والعدد، فوصل إلى مكة زادها الله شرفاً، فاعتمر بها، ثم خرج إلى اليمن، فلقيه الشريف هاشم بن غانم الحسني وجمع الأشراف من بني سليمان في جمع كبير، فوصل زبيد، فخرج إليه عبد النبي فقاتله فهزمه توران شاه وأسره، وأسر زوجته الحرة، وكانت ذات أموال جزيلة وذخائر جليلة، ونهب الجيش زبيد، ثم سار إلى عدن ففتحها عنوة، وولاها عز الدين الزنجيلي، ثم فتح صنعاء وحصون اليمن والمدائن فيقال إنه فتح ثمانين حصناً ومدينة، واستولى على أموالها وذخائرها، وقتل عبد النبي بن مهدي، وكان هذا قد تغلب على بلاد اليمن ودعا إلى نفسه، وتسمى بالإمام، وزعم أنه سيملك الأرض كلها، وقد كان أخوه علي بن مهدي قد تغلب قبله عليها، وانتزعها من أيدي أهل زبيد. واستقر توران شاه في ملك اليمن، وخطب للخليفة العباسي، وصفت اليمن من أكدارها، وعادت إلى ما سبق من مضمارها، وكتب إلى أخيه الملك الناصر يخبره بما فتح الله عليه وأحسن إليه، فكتب الملك الناصر بذلك إلى نور الدين، فأرسل نور الدين بذلك إلى الخليفة يبشره بفتح اليمن، والخطبة بها، وبكسر الروم مرة ثانية، وكان مما تضمنه كتاب البشارة: ولم ينج من عشرة آلاف غير عشرة (حمر مستنفرة. فرت من قسورة). (٣٨)

وفيها أكثر نور الدين من الصدقات والصلات،وزاد في الأوقاف وكسا الأيتام، وزوج الأرامل، وأغنى الفقراء، وكشف المظالم بحيث لم يبق في بلاده مظلمة.

وفيها وصل رسول نور الدين الموفق خالد ابن القيسراني إلى الديار

المصرية واجتمع بالملك الناصر، وأنهى إليه رسالة نور الدين، فطالبه بحساب جميع ما حصله وارتفع إليه من ارتفاع البلاد، فصعب ذلك على صلاح الدين، وأراد شق العصا، وتوجه بالمخالفة والإباء، ولكنه عاد إلى طباعه الحسنة، وأظهر الطاعة المستحسنة، وأمر بكتابة الحساب وتحرير الجواب، فبادر إلى ذلك جماعة الدواوين والحساب، وعرضه على ابن القيسراني، وأراه جرائد الأجناد وبمبلغ إقطاعاتهم وكميات جامكياتهم ورواتب نفقاتهم، فلما حصل عنده جميع ذلك، أرسل معه هدية إلى نور الدين على يد الفقيه عيسى، وهي خمس ختمات شريفات، إحداها ثلاثون جزءاً مغشاة بأطلس أزرق، مضببة بصفائح الذهب وعليها أقفال ذهب مكتوبة بالذهب بخط يانس، وختمة مغشاة بديباج فستقي عشرة أجزاء بخط راشد، وختمة بخط ابن البواب مجلد واحد، وختمة بخط مهلهل جزء واحد، وختمة بخط الحاكم البغدادي، وثلاثة أحجار بلخش وزن احداها اثنان وعشرون مثقالاً، وحجر وزنه اثنا عشر مثقالاً، وحجر وزنه عشرة مثاقيل ونصف، وست قصبات زمرد: (قصبة) وزنها ثلاثة عشر مثقالاً وثلث وربع وسدس، وقصبة وزنها مثقالان وثلث، وحجر أزرق وزنه سبعة مثاقيل وسدس، ومائة عقد من الجواهر النفيسات وزنها جميعاً ثمانمائة وسبعة وخمسون مثقالاً، وخمسون قارورة دهن بلسان، وعشرون قطعة بلور، وأربع قطع جزع، وابريق يشم، وطشت يشم، وسقرق ميناء مذهب، وصحون صيني وزبادي وسكارج أربعون قطعة ، وكرتان عود قماري، وزن إحداها ثلاثون رطلاً بالمصري، والأخرى واحد وعشرون رطلاً، ومائة ثوب أطلس، وأربعة وعشرون ثوباً من الحرير، وأربعة وعشرون ثوباً من الوشي، وحلة فلفلي مذهبة، وغير ذلك أنواعاً من القماش قيمتها مائتان وخمسة وعشرون ألف دينار مصرية، وعدة من الخيل والغلمان والجواري، وشيء كثير من السلاح على اختلاف ضروبه، ومن الذهب عشرة صناديق مقفلات مختومات لم يعلم مقدار ما فيها، فلما فصلت العير عن الديار المصرية لم تصل إلى الشام حتى مات نور الدين رحمه الله، فمنها ما أعيد، ومنها ما استهلك لأن الفقيه عيسى

وابـن القيسراني وضعا عليهـم مـن نهبهم واستبـدوا بـأكثـرها، وقيـل إنها وصلت جميعها إلى السلطان لأنـه اتصل به خبر موت نور الديـن ، فأنفذ من ردها.

وفيها صلب عمارة اليمنـي الشاعر وأصحابه، وسبب ذلـك أنه اجتمع جماعة من رؤوس الـدولة الفاطمية الذيـن كانوا فيها حكامـاً، فاتفقوا فيما بينهم أن يـردّوا الدولـة الفاطمية، فكتبـوا إلى الفرنـج يستدعـونهم إليهم، وعينـوا خليفـة مـن الفـاطميين ووزيراً، وذلـك في غيبـة السلطـان ببـلاد الكـرك، ثم اتفـق مجيئـه، فحرض عمارة شمـس الـدولـة توران شـاه على المسير إلى اليمن ليضعـف بذلـك الجيش عن مقـاومة الفـرنج إذا قـدموا لنصرة الفـاطميين. فخـرج تـوران شاه ولم يخرج معـه عمارة، بـل أقـام في القاهرة يفيـض في هذا الحديث ويداخل المتكلمين فيه ويصـافيهم، وكاد أمرهـم أن يتم (ويـأبى اللـه إلا أن يتّم نـوره) (٣٩) فأدخلـوا في الشورى الواعـظ زين الدين بـن نجا، فأظهـر لهم أنه معهم، ثم جـاء إلى صلاح الديـن وأخبره بما تمالأوا وتعاقـدوا عليه، وطلـب من السلطـان ما لابـن كامل من الحواصل والعقار فبذله لـه، وأمره بمخالطتهم.وتعريف شأنهم، فصار يعلمه بكل متجدد، فجاء رسول ملـك الفرنج بالساحل إلى صلاح الديـن بهدية ورسالـة ، وفي الباطن إليهـم، وأتى الخبر إلى صلاح الـدين بجلية الحال من بلاد الفرنج.

وقيل إن عبد الصمد الكاتب كـان يلقى الفاضل بخضوع زائد، فلقيه يوماً فلم يلتفت إليه، فقال القـاضي الفاضل: ما هذا الاّ لسبب، فأحضر ابن نجا الواعـظ وأخبره الحال ، وطلب منه كشف الأمر، فأخبره بـأمرهـم، فبعثه إلى صـلاح الدين فـأوضح له الأمـر، فاستـدعاهم السلطـان واحداً واحداً وقـررهم، فأقـروا بذلك فـاعتقلهم، ثـم استفتى الفقهاء في أمـرهـم فـأفتـوه بقتلهـم، فعنـد ذلـك أمـر بقتـل رؤوسهـم وأعيـانهم وأتبـاعهـم وعلمائهم، وأمـر بنفي مـن بقي مـن جيش العبيـديين إلى أقصى البـلاد،

وأفرد ذرية العاضدوأهل بيته في دار فلا يصل إليهم إصلاح ولا إفساد، وأجرى عليهم ما يليق بهم من الأرزاق والثياب، وقد كان عمارة معادياً للقاضي الفاضل، فلما حضر عمارة بين يدي السلطان قام القاضي الفاضل إلى السلطان ليشفع فيه عنده، فتوهم عمارة أنه يتكلم فيه، فقال: يامولانا السلطان، لاتسمع منه ، فغضب القاضي الفاضل وخرج من القصر، فقال له السلطان: إنما كان يشفع فيك، فندم ندماً عظيماً، ولما ذهب به ليصلب طلب أن يمروا به على مجلس القاضي الفاضل، فاجتازوا به عليه، فأغلق بابه، فقال عمارة:

عبد الرحيم قد احتجب
إنّ الخلاص هو العجب

وصلب هو والجماعة بين القصرين، وكان الذين صلبوا منهم: الفضل ابن القاضي، وهو أبو القاسم هبة الله قاضي قضاة الديار المصرية زمن الفاطميين، وابن عبد القوي داعي الدعاة، وقد كان يعلم بدفائن القصر، فعوقب ليدل عليها فامتنع من ذلك، فمات واندرست ، والعوريس، وكان قد تولى ديوان النظر ثم القضاء بعد ذلك، وشبرما كاتب السر، وعبد الصمد أحد أمراء المصريين، ونجاح الحمامي، ورجل منجم نصراني قد قال لهم إن أمرهم يتم بطريق علم النجوم، وعمارة اليمني، وكان عمارة هذا ينتسب إلى الرفض ويتهم بالزندقة والكفر، ذكر العماد الكاتب في الخريدة أنه قال في قصيدته التي يقول في أولها:

العلم مذ كان محتاج إلى العلم
وشفرة السيف تستغني عن القلم
قد كان أول هذا الدين من رجل
سعى إلى أن دعوه سيد الأمم

قال العماد: ويجوز أن يكون هذا البيت معمولا عليه، فأفتى فقهاء مصر بقتله، قال: ولعمارة في مصلوب بمصر يقال له طرخان، وكان قد

خرج على الصالح بن رزيك فظفر به الصالح فصلبه، فقال فيه عمارة:

أرادعلـــو مـــرتبـــةوقـــدر
فـــأصبـــح فـــوق جـــذع وهـــو عـــال
ومـــدعلى صليـــب الجذع منـــه
يمينـــا لاتطـــول إلى الشمال
ونكـــس رأســـه لعتـــاب قلـــب
دعـــاه إلى الغـــوايـــة والضـــلال

قال العماد: فكأنه وصف حاله وما آل إليه أمره.

وحكى القاضي تاج الدين ابن بنت الأعز : أن القاضي العوريس رأى عيسى بن مريم عليه السلام وكأنه أخرج رأسه من السماء، فقال له العوريس: الصلب حق، فقال له عيسى بن مريم: نعم، فعبرها العابر، وقال: صاحب هذه الرؤيا يصلب لأن عيسى معصوم ولايمكن أن يكون ذلك راجعا إليه لأن الله تعالى قص لنا أنه لم يصلب، فينبغي أن يكون راجعاً إلى الرائي، وكان الأمر كما قال: وكتب صلاح الدين إلى نور الدين بما وقع منهم وبهم من الخزي والنكال، قال العماد: فوصل الكتاب يوم وفاة نور الدين.

وفيها وصل أسطول الفرنج من صقلية، فنازلوا الاسكندرية بغتة ، (بناءٍ) على مراسلة الذين صلبوا، وكان معهم ألف وخمسمائة فرس، وعدتهم ثلاثون ألف مقاتل ما بين فارس وراجل. وكان معهم مائتا شيني وست سفن كبار وأربعون مركباً، فبدر إلى حربهم أهل الثغر، فحملوا على المسلمين حملة أوصلتهم إلى السور، ففقد من المسلمين فوق المائتين. فلما أصبحوا، زحفوا على الاسكندرية، ونصبوا ثلاث دبابات بكباشها، وهي الأبراج، وثلاث مناجيق ترمي بحجارة سود استصحبوها من صقلية، وزحفوا إلى أن قاربوا السور، فرأى الفرنج من شجاعة أهل الاسكندرية ما راعهم. وبعثت بطاقة إلى الملك الناصر، فبادر وحضر،

واستمر القتال يومين، وفي اليوم الثالث فتح المسلمون باب البلد وكبسوا الفرنج على غفلة، فأحرقوا الدبابات، وصدقوا اللقاء، ودام القتال إلى العصر، ونزل من الله النصر، وقتل من الفرنج خلق، ورد المسلمون إلى البلد لأجل الصلاة، ثم كبروا عند المغرب وهاجموا الفرنج في خيامهم، فتسلموها بما حوت وقتلوا من الرجالة ما لا يحصى، واقتحم المسلمون البحر فغرقوا المراكب وحرقوها، وهربت بقية المراكب، وصار العدو بين أسير وقتيل وغريق، واحتمى ثلاثمائة فارس في تل فأخذوا أسرى، وغنم المسلمون غنيمة عظيمة ولله الحمد.

وفيها كانت وفاة الملك العادل نور الدين، وكان رحمه الله قد ركب يوم عيد الفطر إلى الميدان الأخضر القبلي وصلى فيه صلاة العيد، ورمى القبق في الميدان الشمالي، ومد سماطا حافلا، وطهر ولده الملك الصالح إسماعيل في هذا اليوم، وزينت له البلد، وضربت البشائر، وكان يوم الأحد، ثم ركب يوم الاثنين وأوكب على العادة، وكان معه همام الدين مودود، فقال لنور الدين: هل تكون ها هنا في مثل هذا اليوم من العام القابل؟ فقال نور الدين: قل هل تكون بعد شهر، فإن السنة بعيدة! فجرى على منطقهما ما جرى به القضاء السابق، فإن نور الدين لم يصل إلى الشهر وهمام الدين لم يصل إلى العام.

ثم شرع نور الدين في اللعب بالكرة مع خواصه، فاعترضه بعض الأمراء وقال له: باش، فغضب لذلك، ولم يكن ذلك من سجيته. وساق ودخل في القلعة، فحصل له نبو مزاج، واشتغل بنفسه وأوجاعه، وتنكرت عليه جميع حواسه وطباعه، واحتبس اسبوعا عن الناس، والناس في شغل عنه بما هم فيه من اللعب والانشراح في الزينة التي نصبوها لأجل طهور ولده، فانعكست تلك الافراح بالأتراح ونسخ الجد ذلك المزاح، وحصل للملك العادل خوانيق في حلقه منعته من النطق، وكان قد أشير عليه بالفصد فلم يقبل، وبالمبادرة إلى المعالجة فلم يفعل، وكان

أمر الله قـدراً مقدوراً. فلما كان يوم الأربعاء الحادي عشر مـن شوال من هذه السنة قبض إلى رحمةالله تعـالى وقت طلوع الشمس عن ثمان وخمسين سنـة، مكث منهـا في الملـك ثمانية وعشريـن سنـة، وصلى عليـه بجامـع القلعـة، ودفـن بالقلعـة، ثـم نقـل إلى تربـة تجاور مـدرستـه التي بنـاهـا لاصحـاب أبي حنيفـة بجـوار الخواصين، وكـانـت دار سليمان بـن عبـد الملك رحمه الله تعالى وقبره بها يزار ويخلق شبـاكه ويطيب، ويتبرك به كل مار ويقول: قبر نور الدين الشهيد لما حصـل له من الخوانيق، وكذا يقال لأبيه الشهيد لأنه قتل ظلماً.

وفيها بويع بعد موت نور الديـن لولده الملك الصالح اسماعيل. وكان صغيراً لم يبلـغ الحلم، وجعـل أتابكـه الأمير شمـس الديـن ابن المقـدم، وحلف له الأمراء والمقدمون بدمشق، وأطاعه الناس في سائر بلاد الشام . وأطاعه صلاح الدين بمصر وخطب له بها، وضرب السكة باسمه فيها.

ثـم بعـد ذلـك اختلفت الأمـراء ، وحـارت الآراء ، وظهـرت الشرور، وكثرت الخمـور، وقد كانـت لاتوجد في زمـانه، ولايجسر أحد أن يتعـاطى شيئاً منهـا ولا من الفواحش، وانتشرت الفـواحش وظهرت حتـى إن ابن أخي نور الديـن سيف الدين غازي بن مودود صـاحب الموصل لما تحقق مـوت عمه ــ وكان محصـوراً منه ــ نادى منـاديه في البلـد بالمسـامحة في اللعب واللهـو والشراب المنكر والطرب، ومـع المنادي دن وقدح ومـزمار الشيطان، فانـا لله وانا إليه راجعـون. وقد كان ابن أخيـه هذا وغيره من الأمراء والملـوك الذين حكم عليهـم لايستطيع أحد منهم أن يفعـل شيئاً من المنـاكر والفـواحش. فلما مات بـرح أمرهـم وعاثـوا في الأرض فسادا. وطمعت الأعداء من كل جانب في المسلمين.

وعـزم الفرنـج على قصد دمشـق وانتزاعهـا من أيـدي المسلمين، فبرز إليهم ابن المقـدم الأتابك، فواقعهم عنـد بانياس وضعف عـن مقاومتهم

فهادنهم مـدة، ودفع إليهم أمـوالاً جزيلة عجلهـا لهم، ولولا أنه خـوفهم بقدوم الملك الناصر صلاح الدين لما هادنوه.

ولما بلـغ ذلك صـلاح الديـن ، كتب إلى الأمـراء وخاصـة ابن المقـدم يلومهـم على ما صنعوا مـن المهادنة ودفع الأمـوال إلى الفرنج، وهـم أقل وأذل، وأخبرهم أنـه عزم على قصد البلاد الشـامية ليحفظها من الفـرنج، فردوا إليـه كتاباً فيـه غلظة، وكلامـاً فيه بشاعـة، وكتبوا إلى سيف الـدين غازي صاحب الموصـل ليملكوه عليهم ليدفع عنهم كيـد صلاح الدين ، فلم يجبهم لأنه خاف أن تكون مكيدة منهم.

ثم توجـه الملك الصالح إلى حلب، وأقام بها إلى أن تـوفي في سنة سبع وسبعين . وكان صـالحا كما سمي، لما اشتد بـه المرض وضعف وصـف له الأطباء قليـل خمر ، فقال: لا أفعـل حتى أسأل الفقهـاء. فأفتـاه بعضهم بـالجواز فلم يفعـل، وقـال : إن كان اللـه قد قـرب الأجـل يؤخـره شرب الخمر؟ قيل لـه :لا ، قال: فوالله لا لقيـت الله وقد فعلت مـا حرم الله، قال: فمات ولم يشربـه. رحمه الله ورحم أباه وجـده، وعوضهم الجنـة بمنه وكرمه.

والحمد لله رب العالمين.

الإعلام والتبيين

في خروج الفرنج الملاعين على ديار المسلمين

صنفه

أحمد بن علي الحريري

- ١٠٩٥٢ -

بسم الله الرحمن الرحيم

الله ولي الهداية

الحمد لله الذي شرف ملة الاسلام على جميع الأمم، وأيدهم وأمدهم بالتأييد والنعم، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له، شهادة أنجو[١] بها الخلاص من العدم، وأشهد أن سيدنا محمدا عبده المرسل إلى كافة العرب والعجم، ونبيه المنصور بالرعب مسيرة شهر، حتى أباد أهل الشرك، وانتقم، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه المخصوصين بفضيلتي السيف والقلم، صلاة دائمة ماشهر سيف، وأنار نور وارتفع علم، وسلم تسليما.

أما بعد فقد حداني أن أصنف مختصرا لطيفا في خروج الكفرة الملاعين على بلاد المسلمين، واستيلائهم على السواحل والجبال، بعد زوال دولة الأمويين وضعف الخلفاء العباسيين، وجور الملوك على الرعية، وقلة الأعباء بالدين، وسميته:

الاعلام والتبيين في خروج الفرنج الملاعين على بلاد المسلمين

وأسأل من الله تعالى الاعانة لي ولكافة[٢-و] أخوتني الموحدين.

أقول: قال أصحاب التاريخ[٢]: وفي سنة تسعين وأربعمائة، قدمت الفرنج الملاعين إلى بلاد الشام، وكان ظهورهم من بحر قسطنطينية في جمع عظيم، فعظم الخطب، وكثر الهم، وكان ذلك في أيام المستعلي[٣] بالله ابن [المستنصربن] الظاهر لاعزاز دين الله، خليفة مصر الفاطمي.

فجمع سلطان الروم واسمه سليمان[٤] شاه الجيوش واستخدم التركمان والتقى الفرنج، ووقعت بينهم وقعة عظيمة (فكسره) الفرنج، وقتلوا غالب عساكره.

ثم إن الفرنج توجهوا إلى أنطاكية، وحاصروها، وقتلوا كثيرا من الناس، وسبوا النساء والصبيان، ودخلوا إلى المعرة، وملكوها وقتلوا غالب أهلها، ووصلوا إلى البارة ، وجبل السماق، وملكوا أفامية، وكفر طاب[٥] ونواحي تلك البلاد، وذلك أول خروجهم.

ثم إن الفرنج شددوا في الحصار على أنطاكية، وصاحبها، يومئذ باغي سنان(يغي[٦] سغان) ثم إن باغي سنان (يغي سغان) أخرج النصارى[٢-ظ] المقيمين بأنطاكية، وطردهم ونهب دورهم، ودام الحصار على أنطاكية تسعة أشهر وهلك أكثر الفرنج عليها من القتل والموت والجوع، وظهر من شجاعة صاحبها مالم يرا(ير) من مثله.

ثم إن الفرنج عاملوا مقدما على برج من أبراجها، وبذلوا له مالا كثيرا، فعاملهم على المسلمين، وطلعوا (وطلع) الفرنج من البرج[٧] وضربوا البوق وقت السحر، فهب باغي سنان(يغي سغان) في ثلاثين فارسا، وترك ماله وأهله وحريمه.

ثم ندم باغي سنان(يغي سغان) على ذلك، وتأسف إذ لم يقاتل عن حريمه، حتى قتل، وخارت قوته، ولم يستطيع (يستطع) أن يثبت على الفرس فتركه أصحابه، ونجوا، فجاء نصراني من الأرمن فقتله، واحتز رأسه، وجاء بالرأس إلى الفرنج.

ثم إن الفرنج أخذوا المعرة بالسيف، وقتلوا بها مائة ألف، فلما بلغ صاحب الموصل ذلك أخذته الغيرة والحمية، وكان اسمه كربوقا، وأقبل بعسكر الموصل، ونزل بمرج دابق، واجتمع إليه عساكر الشام: تركها وعربها، ففزع الفرنج من ذلك [٣-و] فزعا شديدا، وكانوا في غلاء عظيم، فنازلهم المسلمين(المسلمون) فتحصنوا بأنطاكية، ودام الحصار عليهم ثلاثة عشر يوما، وهم في جوع عظيم، فبذلوا أنطاكية بالأمان، فلم يعطيهم(يعطهم) كربوقا الأمان.

وكانت ملوك الفرنج (خمسة) ملوك، وهم: بردويل، وصيخيل(صنجيل) وكندفري، وتيمنت(بيمنت)(٨) ومعهم راهب عتيق كبير السن، يعتقدون فيه، فطمر الراهب في الأرض حربة، ثم قال: إن في هذه البقعة حربة عيسى عليه السلام، فإن وجدتموها نصرتم، فحفروا فوجدوها ففرحوا(ففرح) الفرنج، وخرجوا.

وعملوا المسلمين(وعمل المسلمون) عملة قبيحة، وهو أنهم اختلفوا على كربوقا، وقاتلوه، واشتغلوا عن الفرنج بقتاله، فمالت عليهم الفرنج فهزمتهم، وثبتت جماعة من المسلمين، فقتلوا بأجمعهم(٩) ثم سارت (سار) الفرنج، فحاصروا عرقة(١٠)وملكوها، ثم نزلوا على حمص، وراموا حصارها، فصالحهم صاحبها.

وفي سنة اثني (اثنتين) وتسعين وأربعمائة(٣-ظ)

تجمعت (تجمع) الفرنج ومقدمهم كندفري، وساروا إلى بيت المقدس وملكوه يوم الجمعة ثاني عشرين شعبان سنة اثني(اثنتين) وتسعين وأربعمائة.

وكان مسير الفرنج من أنطاكية، ومقدمهم كندفري في ألف ألف مقاتل مابين فارس وراجل، وفعلة، وأرباب مناجنيق (مناجيق) وعرادات، ونازلوا بيت المقدس، وعملوا برجين طويلين على السور: أحدهما بباب صهيون، والآخر بباب العمود، وباب أسباط وهو برج الزاوية، ومنه فتحها صلاح الدين، فأحرق المسلمين (المسلمون) البرج الذي عملوه بباب صهيون، وقتلوا من فيه وأما الآخر فزحفوا به حتى ألصقوه بالسور، وحكموا به على البلد، فانهزموا المسلمين (فانهزم المسلمون) ونزلوا البلد، وهرب المسلمين (المسلمون) إلى الأقصى والصخرة فاجتمعوا بها، فهجموا عليهم، فحكي أنهم قتلوا من

المسلمين في الحرم مائة ألف وسبوا مثلهم، وأخذوا قناديل (٤—و) الحرم، وكان بعض القناديل منهم (منها) وزنه ثلاثة آلاف مثقال ذهب بالوزن الشامي، وأخذوا تنورا من فضة وزنه أربعون رطلا بالشامي، وأخذوا من الأموال مالا يحصى.

ولما بلغ خليفة مصر ذلك، جهز وزيره الأفضل ابن أمير الجيوش [١١] فخرج من مصر في عشرين ألف، وجد في السير فوصل ثاني يوم فتحه، ولم يعلم، فقصده الفرنج، فولى هاربا إلى عسقلان [١٢]، فتبعوه (فتبعه) الفرنج، وقتلوا من أصحابه خلق كثير (خلقا كثيرا)، وأحرق الفرنج ماحول عسقلان، وقطعوا أشجارها، وعادوا إلى القدس، وهرب من دمشق خلقا كثيرا (خلق كثير) إلى العراق.

وقيل إن الفرنج لما ملكوا القدس، جمعوا اليهود إلى كنيستهم، وأحرقوها عليهم، وكان ممن قتل بالقدس: مكي ابن عبد السلام[١٣] الموصلي (الرميلي) وكان عالما حافظا.

ثم تجهزت عساكر مصر، والتقت الفرنج على عسقلان بظاهرها، فقتل مقدم عسكر المصريين، وحملوا المصريين (وحمل المصريون) فحطموا الفرنج[٤—ظ] وقتلوا منهم على ماقيل مائة ألف، ثم سار كندفري صاحب القدس، فحاصر عكا، فأصابه سهم فقتله لعنه الله، فأسرع أخوه بردويل، وتولى مكانه، وعاد إلى القدس، فلما علم بذلك صاحب دمشق السلطان دقاق بن تتش، فنهض هو وجناح الدولة، صاحب حمص[١٤] وجمعوا العساكر والتقوا بالفرنج ، فكسروا الفرنج، واحتموا بالقدس.

ثم إن الفرنج أخذت سروج[١٥] بالسيف، وأرسوف[١٦] بالأمان، وأخذوا قيسارية بالسيف.

-١٠٩٥٦-

وفي سنة خمس وتسعين وأربعمائة

نازل الفرنج طرابلس[١٧] الشام، فتوجه لنصرتها عسكر مصر، وعسكر دمشق وحمص، فبرز لهم بردويل صاحب القدس، فقتلوا معظم فرسانه، وانهزم وثلاثة[١٨] أنفس، ثم عاد عسكر دمشق، فكشفوا عن طرابلس.

وقتل جناح الدولة، صاحب حمص، فقدم صاحب أنطاكية، وحاصر حمص، فبذلوا له مالا كثيرا، فرحل عنهم ثم تسلم حمص صاحب دمشق السلطان دقاق السلجوقي (٥—و).

وفي هذه السنة التقى سلطان الروم الفرنج، فكسرهم وأسر خلقا كثيرا، ووصل ملك الفرنج صيخيل (صنجيل) إلى بلاد الشام في ثلاثمائة ألف، وحاصر طرابلس مدة، ثم حاصر حمص، ووصل ملك الفرنج القمص عكا، واستمر صيخيل (صنجيل) محاصرا طرابلس وحمص، واستمر القمص محاصرا لعكا[١٩]، ثم كشف (كشفه) عسكر دمشق عن عكا ومنعوه من دخولها، ثم توجه القمص إلى بيروت، وحاصرها مدة، ثم رحل عنها، ولم يقدر عليها.

وفي هذه السنة استنقذ المسلمون بلنسية[٢٠] من الفرنج، وكانت الفرنج قد أخذوها من ثمان (ثماني) سنين، فصارت دار الاسلام إلى سنة ست وثلاثين وستمائة، وبلنسية من أعظم مدائن الأندلس.

وفي هذه السنة قدمت عساكر مصر، وحاصروا الفرنج بمدينة يافا، ثم التقوا هم والفرنج، فقتل من الفرنج أربعمائة نفس، وأسروا ثلاثمائة، ويافا مدينة من سواحل الشام، بالقرب من غزة(٥—ظ).

وفي هـذه السنة أخـذ الفرنـج جبيل بـالأمان، ثـم غدروا بهم، ثـم إن الفرنج رجعـوا إلى عكا وجددوا عليها الحصار، هذا وطـرابلس في الحصار، ثم أخذوا عكا بالسيف وقتلوا المسلمين بها(٢١).

ثـم نازلـوا (نازل) الفـرنج حـران، فخرج (فخـرجت) إليهـم عساكـر الشـام، فـالتقـى المسلمين (المسلمـون) والفـرنــج، فـانتصر المسلمين (المسلمون) ، وكـانت وقعةِ عظيمة مشهـورة، وذلت الفرنج، وقتـل منهم اثنا عشر ألفا(٢٢).

وفي هذه السنة مات صاحب دمشق شمس الملوك السلطان دقاق(٢٣) ابن تتش السلجـوقي، وتولى بعده ولده، وكان صبيـا صغير السن، وجعل أتابكه(٢٤) طغتكين.

هذا والفـرنج محاصريـن (محاصرون) طرابلس، وبنـوا قريبـا منها بـرجا حصينا، فخـرج صاحـب طرابلـس عبد الله بـن عمار، فهجم على البرج، وقتل كـل من كان فيه وأخـربه (وخربـه) واشتد الغلاء بطرابلـس، وأكلوا الجيـف، ثم بعثـوا إلى مصر في البحـر، واستنجدوا بعسـاكـرها، ويشكـوا (ويشكون) مـن الجوع والغلاء والبلاء، فجاءهـم من مصر (٦ــو) شرف الدولة، ومعـه الغلال وقوت (وأقوات) كثيرة في البحـر، ودام الحصار على طرابلس مـدة خمس سنين، ثم تجمعت ملوك الفرنج كلهـا على طرابلس، وعملوا أبراجـا من خشب وحديـد، تمشي على عجل، وألصقوها بـالسور، وآخـر الأمـر: إن الفـرنـج أخـذوهـا بـالسيـف، وقتلـوا منهـا خلقـا كثيرا واستولت الفرنج على طرابلس(٢٥) ، ولله الأمر.

وفي هذه السنة كـانت وقعة عظيمة بين صاحب حلـب وبين الفرنج، فكسروا صاحب حلب وملكوا(وملك) الفرنج قلعة أوتاج(٢٦) (أرتاح).

وفي هذه السنـة كانـت وقعة عظيمـة بين المسلمين والفرنـج، وكانـت

هذه الوقعة بين يافا وعسقلان، ومقدم الفرنج بغدوين، وهم في ألف وثلاثمائة فارس وثمانية آلاف راجل، وكانت المسلمين (وكان المسلمون) خمسة آلاف من المصريين وثلاثمائة فارس من الدمشقيين، فثبت الجمعان حتى قتل من كل واحد منهما أكثر من ألف، ثم قطعوا القتال من غير هزيمة.

ثم إن نواحي الشام امتلأت(٦—ظ) من الفرنج، وملكوا غالب بلاد الشام، فخرج إليهم الأتابك طغتكين من دمشق، وطردهم وقتل منهم ألوف (ألوفا) كثيرة، وزينت دمشق.

وفي سنة إحدى وخمسمائة

سار بغدوين من القدس، وحاصر صور (صورا)، وشد في الحصار، وبنى قبالها حصنا، فبذل له متوليها سبعة آلاف دينار، فرحل عنها، ونزل على صيدا، فكشف (فكشفه) عنها عسكر دمشق[٢٧] ، وطرد الفرنج عنها، ثم عطف عسكره ونزل على طبرية، وهي في يد الفرنج، فخرج إليهم صاحبها جرفاس[٢٨] لعنه الله، فأسروه وملكوا طبرية وأعمالها، فخرج إليهم ابن أخت بغدوين وهم على طبرية فانكسرت الفرنج، وأسر مقدمهم، فبذل في نفسه إطلاق خمسمائة أسير وثلاثين ألف دينار، فأبى طغتكين وذبحه.

ثم وقعت الهدنة بين المسلمين والفرنج أربع سنين[٢٩] ثم تجمع قفل كبير، وساروا (وسار) من دمشق إلى مصر، فأخذتهم (فأخذه) الفرنج، وانقطعت السبل بالملاعين.

وفي سنة (٧—و) ثلاث وخمسمائة

أخذت الفرنج بانياس وجبيل بالأمان لعدم الأقوات، وشدة الغلاء،

وكـان بجبيل عبـد الله بن عمار، صـاحـب طرابلـس[٣٠] فهرب منهـا إلى دمشق، فأكرمه طغتكين، وأقطعه الزبداني.

ثم إن الفرنج أخذت حصن الأكراد في هذه السنة[٣١].

وفي سنة أربع وخمسمائة

نازل الفرنج بيروت، وحـاصروها برا وبحرا حتى أخذوهـا بالسيف(٣٢) ثم أخـذوا صيدا بالأمان، وأقـام بها أكثر عوام المسلمين، فقررت الفـرنج عليهم في كل سنة عشرين ألف دينار.

وفي هـذه السنة أخـذت الفرنـج حصن الأثـارب، وحصن رودبـا[٣٣] (زردنـا) بـالسيـف، وهما مـن أعمال حلـب، وأخلى أهـل منبـج وأهـل بالس[٣٤] بلديهما، وأيقنت المسلمين (وأيقـن المسلمون) باستيلاء الفـرنج على كـل إقليم الشـام، وطلبـوا الهدنـة من الفـرنـج، وصـالحهم رضـوان صـاحـب حلـب على قطيعـة ثـلاثين ألـف دينـار[٣٥]، وثيـاب وخيـل، وصالحهـم صاحب حماة على ألفي دينـار(٣٦)، وصالحهم صاحـب شيزر (٧ــظ) على قطيعة عشرة آلاف دينـار(٣٧)، وصـالحهم صـاحـب حمص على أربعة آلاف دينار[٣٨].

ثـم سارت (سـار) أهل الشـام إلى بغـداد، واستغاثـوا وسبوا الخليفـة، وكسروا منبر جـامــع السلطـان، وكثـر الضجيـج والبكــاء والعـويــل، واستنجـدوا بـالخليفـة والسلطـان، وبطلت الجمعـة ببغـداد وسـائر بـلاد الشـام، فأخـذ الخليفـة في الأهبة، وتهيـأ السلطان للغـزاة فلـم يتم ذلـك لضعف عساكر العراق،ولله الأمر.

وآيسـوا (وآيـس) أهل الشـام مـن أنفسهـم وأموالهم وحـريمهـم، ولم

تنجدهم عساكر مصر ولاعساكر العراق، وشرعوا في مصالحة الفرنج، وأحمى (وحمى) رضوان مدينة حلب، وكان فارسا شجاعا.

ثم إن الفرنج تجمعوا ونزلوا على صور، فسار عسكر دمشق، وحاربوهم (وحاربهم) وطال الحصار على صور، وعملت الفرنج برجا من خشب علوه سبعون ذراعا وشحنوه بالمقاتلة، وجروه على العجل فألصقوه بالصور (بالسور) فأحرقوه المسلمين (فأحرقه المسلمون) بالنفط، وقاتل المسلمين (المسلمون) على صور قتال(٨—و) الموت، وخافت الفرنج من طغتكين أن يحرق الغلات، ثم أخذوا من أهل صور مالا ورحلوا عنهم(٣٩).

وفي سنة سبع وخمسمائة

التقى المسلمون والفرنج بالأردن واشتد الحرب، وثبت الفريقان، ثم ذلت الفرنج، ووضعت المسلمين (ووضع المسلمون) فيهم السيف قتلا وأسرا، وأسر المسلمين (المسلمون) بغدوين لعنة الله، ولم يعرف، فأخذ الذي أسره سلبه، وكان يساوي جملة مال، فأطلقه، فنجا جريحا، ومات(٤٠) بعد أيام لعنه الله.

ثم جاء في النجدة أفرنج أنطاكية، وأفرنج طرابلس فقويت نفوس الفرنج، وكروا فنشبت نار الحرب، فاستظهر عليهم المسلمين (المسلمون) فدام الحرب بينهم ستة وعشرين يوما، وعدمت الأقوات، فسار المسلمون إلى بيسان، ونهبوا ضياع الفرنج من القدس إلى عكا، ثم نزل جيش المسلمين على مرج الصفر، ودخلوا دمشق ومعهم (ودخل دمشق ومعه) مودود صاحب الموصل، وأقام عند صديقه طغتكين بدمشق، وصرف عساكره وأمرهم (٨—ظ) بالقدوم في زمن الربيع ثم دخل هو وطغتكين يوم الجمعة إلى الجامع، ويده في يده في الجامع، فوثب على مودود(٤١)

رجل مـن الاسماعيلية، جرحه وقتلـه، ثم أخذ الاسماعيلي فأحـرق، فكتب ملك الفرنج إلى دمشق:

وإن أمة قتلت عميـدها يوم عيدها، في بيت معبـودها، لحقيق على الله أن يبيدها.

ودفن مودود بخانقاه الطواويس عند دقاق.

وفي هذه السنة مات رضـوان بن تتش(٤٢) السلجوقي،صاحب حلب، وملك بعـده أرسلان(٤٣) وكان رضـوان ظالما غـاشما، إلا أنه كـان فارسـا شجاعا، تهابه الفرنج.

وفي سنة ثمان وخمسمائة

قدم آق سنقر البرسقي(٤٤) وهو نائبا (نـائب) على الموصل ومعه خمسة عشر ألف فارس لغزو الفرنج، وأخذ مرعش بالأمان.

وفي هذه السنـة مات بغدويـن الفرنجـي، الذي ملك القـدس، وكان (وكانت) وفاته بصبخة بردويل(٤٥) فشقوه وصبروه، ورموا حشوته هناك، فهي ترجم(٩ــو) إلى اليـوم ودفنت جثته بالقمامة، وكان خبيثـا شجاعا، وتملك القدس بعده القمص الفرنجي.

وفي سنة ثمان (ثماني) عشرة وخمسمائة

أخذت الفرنـج صور لشدة الغلاء بها وعـدم أقواتها(٤٦)، فدامـت بيد الفرنج إلى سنة تسعين وستمائة، ولم يكن بالشام مدينة أشد حصنا منها.

وفي سنة اثني (اثنتين) وعشرين وخمسمائة

توفي طغتكين صاحب دمشق، وكان بطلا وشجاعا كثير الجهاد(٤٧)، وهو الذي نقل مصحف عثمان بن عفان— رضي او عنه— من طبرية إلى جامع دمشق، وجعله بمقصوره الخطابة، وتملك بعده ولده تاج الملوك بوري.

وفي هذه السنة حاصرت الفرنج دمشق، ثم تناخى عسكر دمشق والتركمان، والفلاحين (والفلاحون) والعربان، على الفرنج فهزموهم، وقتل وأسر من الفرنج خلق عظيم.

وفي سنة ست وعشرين وخمسمائة

غزا عسكر حلب اللاذقية، وأسروا من الفرنج سبعة آلاف وأخربوا (وخربوا) اللاذقية(٤٨).

وفي سنة(٩—ظ) ثلاث وأربعين وخمسمائة

جاءت الفرنج مع ملوكهم إلى القدس، ورجعوا إلى عكا فأنفقوا في العساكر سبعمائة ألف دينار، ثم نزلوا على دمشق في عشرة آلاف فارس وستين ألف راجل، فبرز عسكر دمشق في نحو المائة ألف راجل، فالتقوهم فقتل من المسلمين مائتي (مئتا) رجل، منهم الشيخ الزاهد يوسف القندلاوي، والشيخ عبد الرحمن الجلجولي(٤٩)ثم برزوا من الغد وعملوا المصاف، فقتل من المسلمين والفرنج خلائق كثيرة، فلما كان في خامس يوم وصل في نجدة دمشق غازي صاحب الموصل في عشرين ألف، ووصل أخوه نور الدين محمود من حلب في جيش عظيم، وكان أهل دمشق قد فرشوا الرماد، وحطوا المصحف العثماني في وسط الجامع،

وضجوا (وضج) الخلق وبكوا واستغاثوا بالله، والبنات والصبيان مكشوفين، (مكشوفوا) الرؤوس يتضرعون إلى الكريم الغفار، فلما وصل عسكر الموصل، وعسكر حلب مع نور الدين محمود (١٠—و) ولت الفرنج منهزمين بعد أن قتل من الفرنج ألوف كثيرة، ونزل النصر من الله، وقتل صاحب أنطاكية في ألف وخمسمائة أفرنجي، وذل دين الصليب.

وفي سنة ثمان وأربعين وخمسمائة

أخذت الفرنج عسقلان، وكانت للخلفاء الفاطميين خلفاء مصر، وقد حاصرتها الفرنج قبل ذلك مرات، وعجزوا عنها، ثم أخذوها بعد قتال شديد، وقتل بها خلق كثير من المسلمين، وعظم الخطب، وقضي الأمر، وعسقلان مدينة عظيمة بسواحل الشام، بالقرب من غزة(٥٠).

وفي سنة اثني (اثنتين) وخمسين وخمسمائة

كانت وقعة عظيمة على صفت(٥١) بين نور الدين وبين الفرنج، ونصره الله تعالى على الفرنج وذلهم.

وفي سنة سبع وخمسين وخمسمائة

سار نور الدين بجيشه فنزل تحت حصن الأكراد قاصدا حصار طرابلس، فكبسه الفرنج، وانهزم جيشه، ونجا هو، فنزل على بحيرة حمص(٥٢) (١٠—٣) وحلف بالله لايضله (لايظله) سقف حتى يأخذ بالثأر، وشرع يلم شعث العسكر، ثم أخذ نور الدين بثأره وكسر الفرنج كسرة عظيمة، وأسر البرنس والقومص، وذلت له الفرنج.

وفي سنة تسع وخمسين وخمسمائة

كانت وقعة عظيمة بحارم بين نور الدين والفرنج، فانكسر المسلمين (المسلمون) وأحاط بهم العدو، ثم انتصر المسلمين (المسلمون) بعد ذلك، وكثر القتل في الفرنج، وأسر صاحب أنطاكية، وصاحب طرابلس، ومقدم نصارى الروم، وحصل من الفرنج أكثر من عشرة آلاف أسير، وأخذ نور الدين حارم وبلنياس، وكانت في يد الفرنج من مدة ستة عشر (ست عشرة) سنة(٥٣).

وفي سنة إحدى وستين وخمسمائة

افتتح نور الدين حصن المنيطرة، وهو حصنا قريبا(حصن قريب) من كسروان(٥٤).

وفي هذه السنة(٥٥) حاصرت الفرنج دمياط خمسين يوما، ثم ترحلوا عنها لأن نور الدين أغار على السواحل، وأنفق (١١ —و) العاضد بالله في هذه المحاصرة ألف ألف دينار على يد السلطان صلاح الدين يوسف، وحاصر السلطان نور الدين الكرك(٥٦) ونصب عليها المناجيق، فلم يقدر عليها.

وفي سنة ثمان وستين وخمسمائة

سار صلاح الدين (نور الدين) إلى الموصل، وصلى بالجامع، ثم رجع، وفتح بهسنا(٥٧)، ومرعش(٥٨) وكانا (وكانتا) بيد الفرنج(٥٩)

وفي سنة تسع وستين وخمسمائة

توفي الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي بن آق سنقر، وكنيته أبو

القاسم الشهيد، وكان معتدل القامة أسمر اللون، واسع الجبهة، حسن الصورة، خفيف اللحية، وفتح نيفا وخمسين حصنا، وخطب له في الدنيا، واتسع ملكه، وملك الموصل والجزيرة وديار بكر، ودمشق وحلب، ومصر واليمن والحجاز، وكان عادلا دينا، حريصا على فعل الخير لطيفا، متواضعا يحب الصالحين ويزورهم، ويضيق هذا المختصر عن إيضاح محاسنه ودينه وشجاعته (١١—٣) وغزواته وفتوحاته ومساجده، ومدارسه، وبره وعدله، ومناقبه أكثر من أن تحصى وتحصر، ومات في شوال[٦٠] بعلة الخوانيق بدمشق، ودفن في تربته المنسوبة إليه داخل دمشق، وعمره ثمان وخمسون سنة، ومدة ولايته ثمان وعشرون سنة، وكان ملكا عظيما جليلا عابدا عالما زاهدا ورعا مجاهدا، كثير الصدقات وولي مكانه ولده الملك الصالح عماد الدين اسماعيل، فأخذها ونزعها منه صلاح الدين يوسف، وأخذ أكثر بلاده.

ثم تحركت الفرنج لموت[٦١] نور الدين، وتهيأ صلاح الدين لقتالهم، وقدم إلى الشام من مصر، وتملك دمشق، فأعطى عماد الدين اسماعيل حلب وأعمالها.

وفي سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة

حاصرت الفرنج حماة أربعة أشهر[٦٢]، ثم قدم صلاح الدين إلى دمشق، فلما سمعت الفرنج بقدومه رحلوا عنها.

وفي سنة خمس وسبعين(١٢—و) وخمسمائة

كانت وقعة مرج العيون، ذلك أن السلطان صلاح الدين كان ببانياس، فركب يسير فرأى راعيا، فأخبره بقرب الفرنج، فرد إلى بانياس ولبس وركب الجيش، فكبسوا الفرنج، وهم عشرة آلاف، فكسرهم المسلمين (المسلمون) وقتلوا شطرهم، وأسروا منهم مائتي (مائتين)

وسبعين أسيرا، منهم مقدم الداوية، وأخو صاحب جبيل، وابن صاحب مرقية، وصاحب طبرية، فاستفك (فافتك) بعضهم نفوسهم بالأموال، وهرب مقدمهم جريحا[٦٣] فبعث صلاح الدين إلى خليفة بغداد بجماعة من الأسرى، ونصب المناجنيق (المناجيق) عليها، وحاصرها فتجمعت عليه ملوك الفرنج، فرحل عنها، ولم يقدر عليها، ورجع إلى دمشق[٦٤].

وفي سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة

طلب السلطان صلاح الدين عساكر النواحي، ونزل بأرض بصرى من حوران (١٢—ظ) ليحمي الحجاج من الفرنج، ثم سار فأحرق أعمال الكرك والشوبك، وتجمعت الجيوش بحوران، وأغاروا على طبرية، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة، وعرض السلطان صلاح الدين جيوشه، وأنفق الأموال، وسار فنزل على الأردن، ثم فتح طبرية بالسيف، ثم حشدت الفرنج، وأقبلوا كالليل، فرتب السلطان عساكره في مقابلتهم، وكانت المسلمين (وكان المسلمون) اثني عشر ألف فارس غير الرجالة، وكانت الفرنج ثمانين ألف مابين فارس وراجل، فالتجا (فالتجأ) الفرنج إلى جبل حطين، فأحاط المسلمين (المسلمون) بهم، فهرب القومص، ثم وقع الحرب، ونزل النصر، وخذل العدو، وأسر ملكهم كي، وأخوه ملك جبيل، وهنفري وأزباط (وأرناط) صاحب الكرك، وخلق كثير من الفرنج، ثم قتل السلطان أزباط (أرناط) بيده، وكان أزباط (أرناط) فارس دين النصرانية، وأزباط (أرناط) هو الذي جهز الجيوش لأخذ المدينة النبوية(١٣—و) فأهلكهم الله[٦٥].

فلما فرغ السلطان من هذه الوقعة بادر إلى عكا، فأخذها بالأمان، واستناب على عكا الأمير بهاء الدين قراقوش.

وبلغ الملك العادل هذا النصر العظيم، فأسرع من مصر بجيوشها،

ففتح مدينة يـافا وغيرها بالسيف وفتحت: المجـدل، والناصرة، وصفورية، وقيسارية، ونابلس، وحصـن الفولة، وتبنين، وعسقلان، وصيدا، وبيروت، وجزين.

وذلت الفرنج، وأيقنوا بالهلاك، وسلمـوا حصون (حصونا) كثيرة منهم: حصن الجيسـوع(٦٦)وحصـن لبنـان، والمنيطرة، وعـذبـون (بترون) ونـازل (ونـازلـت) كل فـرقـة مـن الجيش بلـد مـن هـؤلاء، ثم سـارت جيـوش المسلمين وأخذوا: غزة، والـرملة، والدارون، وبيت حبرون، وأخـذوا البثرون بالأمان.

ورجـع السلطان صـلاح الـدين إلى دمشـق بجيـوش المسلمين مؤيـدا منصورا، ثم سار السلطان إلى القدس، فنـازله يوم الأحد منتصف رجب، وكان قـد نزل على غـربيه أولا(١٣ـــظ) ثم انتقـل إلى شماليه مـن باب العمود إلى بـرج الزاوية، ومـن هذا المكان أخذتـه الفرنج، وكـان القدس مشحـونا بـالمقاتلـة من الخيـالة والـرجالـة، مايـزيد على ستين ألفـا، غير النساء، فنصـب عليه المناجنيـق (المناجيق) وآلـة القتال، وتعلق النقـابون بـالسور، وقـاتلـت الفرنـج قتالا شـديـدا، ثم إن الفـرنـج أيقنوا بـالهلاك والخذلان، وطلبـوا الأمـان، فبطـل عنهـم القتـال، واستقـر الأمـر على أن يخرجوا بأنفسهم وأموالهم وأولادهم سوى الخيل الحربية، والسلاح، بعد أن يؤدي كل واحـد منهم عن الرجل عشرة دنـانير، وعن المرأة خمس (خمسة) دنانير، وعـن الصبي والبنت أربعـة دنانير، وعـن الطفل دينار، ومـن عجز منهم كان رقيقا يستملك، ومن أراد من النصـارى الإقامة فليقم، ويؤخذ (وتـؤخذ) منـه الجزيـة، وأقر بـأيـديهم القمامة، وعينـوا أمـاكن يـزورونها، وسلموا البلد يوم الجمعـة سابع عشرين رجب ليلة المعـراج، فكانت مدة استيلاء الفـرنج عليه اثني (اثنتين) وتسعين سنـة (١٤ـــو) لأنهم أخذوه سنـة إحـدى وتسعين وأربعمائة، وكـان بـالقـدس البطـرك الأكبر، فهمـوا المسلمين (فهم المسلمـون) بنهبه، فمنعهـم السلطان، وقـال: الوفـاء خير،

وكان بـالقدس ملـك الرملـة، فأدى عـن نفسه ثمانيـة عشر ألف درهـم، وصعـد المسلمين (المسلمـون) إلى رأس قبـة الصخرة، فـرمـوا الصليـب الذهب، فضج المسلمون ضجة عظيمـة لم يسمع بمثلها، ودخل السلطان الصخرة وغسلهـا «بالماورد» وبلحيتـه وهو يبكـي[٦٧] ومحا الصور منهـا، وكسر الصلبان، وأخـرب دار الداويـة، وعمرهـا المسجد الأقصـى، وفرق الأموال الذي (التـي) أخذها من الفرنج على العلماء والفقهـاء والصوفية، وكانـت سبعمائة ألف دينـار، وكان قـد حضر معه هـذا الفتح زهـاء عن عشرة آلاف مقاتل، ومحيت التصاوير مـن الحرم، وعلقوا القناديل، وطهروه وبسطوه، وتطـاول جماعة من الأعيـان إلى الخطابة، وصنـف كثيرا(كثير)من العلماء خطبا بليغـة، فذكـر السلطان قول ابـن الزكـي قاضي (١٤ ـــ ظ) القضاة بدمشق.

وفتحـه حلبـا بـالسيـف في صفـر
مبشر بفتـوح القـدس في رجـب

فأعطاه الخطـابة ، فخطـب يوم الجمعة بحضرة السلطـان والأمراء، وتلا قوله تعالى: «فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين[٦٨]»، ولبعضهم يقول[٦٩]:

أتـرى منـامـا مـا بعينـي أنظـر
القـدس تفتـح والنصـارى تكسر[٧٠]
«قـد جـاء نصر الله والفتـح» الـذي
وعـد الـرسـول، فسبحـوا واستغفـروا

ثـم بـادر السلطان بعـد فتـح القـدس، فنـازل صور، ونصـب عليهـا المناجنيق (المناجيق) وحاصرها أربعة أشهر، فلم يقدر عليها[٧١]، ثم رحل عنها لما جاء فصـل الشتاء، وأقام بعكا شهرين إلى أن انفصـل الشتاء، ثم سار إلى جبلـة، فتسلمها في الحال، ثـم تسلم الشعـر (الشغر) وبكـاس، ففتح في ست جمع ست قلاع، وهم (وهـي) : جبلة، واللاذقية، وصهيون، والشغر، وبكـاس، وسرماني(١٥ ـــ و) ثم أخـذ حصن بـرزية بالأمـان، ثم

دخل إلى دربساك، وإلى بغراس، فتسلمها، وعزم على قصد أنطاكية، فطلب صاحبها الهدنة، فهادنه، ثم دخل إلى حلب، ورد إلى دمشق، ثم سار إلى الكرك وتسلمها بالأمان لشدة الغلاء، والقحط، ثم سار إلى الشوبك وتسلمها بالأمان، ثم سار وحاصر صفد، ثم وصل إليه أخوه العادل من مصر، وأخذ صفد، بالأمان لشدة الغلاء، ثم أخذ حصن كوكب بالأمان، ثم رجع إلى القدس، وعمل عيد الأضحى بها، ثم سار إلى عسقلان ورتب مصالحها واستناب بها، ثم جهز أخوه العادل إلى مصر خوفا عليها من الفرنج[٧٢]، ثم جدد الحصار على عكا في آخر السنة.

وفي سنة خمس وثمانين وخمسمائة

حشدت الفرنج من جزائر البحر، وهم أهل القسطنطينية، ورومية، وجنوه، وبيرة (بيزا) وموريقا، وردوس (ورودس) والبندقية، وأقريطش وقبرص (١٥ ــ ظ) واللبزدية (واللنبردية) وصقلية وغيرهم، وقامت قيامتهم على ذهاب القدس منهم، وتجمعوا بعددهم وعديديهم وجيشهم وجيوشهم، على حرب صلاح الدين، فالتقاهم فكسروه، وقتل من المسلمين خلائق كثيرة، وأقامت الفرنج بعكا، وكان قد أخذها صلاح الدين، ورتب عليها نائبا وعسكرا، فقتلوا كل من فيها من المسلمين، وأحاطت بها الفرنج برا وبحرا، فنزل السلطان صلاح الدين في مقابلتهم، وجاءت الفرنج النجدات من البحر حتى ملؤوا البر والبحر، وطال الأمر، وعظم الخطب، وجرى بين المسلمين والفرنج من الحروب مالا يوصف، ودام الحصار على عكا عشرين شهرا، والفرنج بعكا والمسلمين (والمسلمون) محيطون بهم، والحرب بينهم سجالا (سجال) وعساكر الاسلام تقوى، وعساكر الفرنج تقوى، ويأتي الفرنج من البحر مراكب في عدد أمواجه، فإذا قتل (١٦ ــ و) المسلمين (المسلمون) أفرنجي (افرنجيا) أخلف البحر مكانه ألف أفرنجي، وأرسل السلطان

صلاح الدين إلى الخليفة يستمده ويستنصر به، هذا والقتال مستمر، والنفوس قد استحكمت، وجرى من الحروب على عكا مايضيق هذا المختصر عن ذكره، ولايسعه، واستمرت النصارى مالكين عكا، وعجز السلطان صلاح الدين عن دفعهم، وقتل كثير من المسلمين(٧٣)، ثم ترحلت الفرنج لقصد عسقلان، فالتقاهم السلطان صلاح الدين بنهر القصب، فانكسرت الفرنج، ورجعت إلى عكا، ووصل السلطان إلى عسقلان فدخلها وهدمها، وهدم حصن الرملة، ولد خوفا من استيلاء الفرنج عليهم.

وفي سنة تسع وثمانين وخمسمائة

توفي السلطان الكبير الأعظم المجاهد في سبيل الله، الملك الناصر صلاح الدين يوسف ابن الأمير نجم الدين أيوب بن شاذي بن مروان، ومولده بتكريت سنة اثني (اثنتين) وثلاثين وخمسمائة، فملك البلاد (١٦—ظ) ودانت له العباد، وقهر الفرنج، وافتتح عدة مدائن، وجاهد في سبيل الله، وأنفق الأموال في الغزاة، ولم يخلف سوى دراهم يسيرة، وكانت دولته أربعا وعشرين سنة، وعمره ست وخمسين سنة، وكان ملكا حسن العقيدة، شديد التمسك بالشريعة، يحب العلم والعلماء، كريما كثير العطايا، والشاهد على ذلك أنه ملك الحجاز واليمن ومصر وأعمالها والشام وبلادها، وديار بكر وديار ربيعة ومضر، ومات ومافي خزائنه غير دراهم يسيرة، قيل إنها أربعين (أربعون) دينارا، وقيل أربعة عشرة دينارا، والله أعلم.

وخرج الملك صلاح الدين المذكور إلى الشام بعد وفاة نور الدين، ففتح البلاد وملك دمشق، وحمص، وحماة، وحلب وآمد، وكسر الفرنج على باب حطين، وفتح طبرية والقدس والكرك، والشوبك، وجبلة، واللاذقية، وصهيون، وجبيل، وبيروت، وصيدا وصور، وعكا، وقيسارية

(١٧—و) وعسقلان، ويافا، وأرسوف، وبيت حبرون، وفتح الحصون الاسماعيلية، وأخذ صفورية والناصرة، والمجدل، وجزين، وحصن الجيتوع(٧٤)وحصن المنيطرة، وحصن لبنان، والفولة، وتبنين، وغيرها من البلاد، يضيق هذا المختصر عن ذكرها وافتتح بسيفه وإخوته، وآله من اليمن إلى الموصل إلى طرابلس الغرب إلى أسوان، ودفن بتربته بالكلاسة(٧٥) جوار جامع بني أمية بدمشق، ومات بقلعة دمشق في شهر صفر سنة تسع وثمانين وخمسمائة، فلقد غشي أهل دمشق يوم موته من البكاء والعويل والضجيج، مالا يعبر عنه، حتى كأن الدنيا كلها تضج صوتا واحدا، وعظم الأسف، واشتد القلق، وخلف سبعة عشر ولدا، منهم العزيز صاحب مصر، والأفضل صاحب دمشق، والظاهر (١٧—ظ) صاحب حلب، وله بنت واحدة، واقتسمت (واقتسم) أولاده بعده البلاد(٧٦).

ثم سار العزيز عثمان بن صلاح الدين، ومعه عمه العادل من مصر، فنازل دمشق، وحاصر أخوه (أخاه) الملك الأفضل علي (عليا) وكان قد ولاه أبوه قبل موته دمشق، فخامر عسكر دمشق، وفتحوها، ودخل العزيز إلى دمشق، واستناب على دمشق عمه العادل، وتوجه العزيز عثمان إلى مصر، وأعطى أخوه (أخاه) الأفضل عوضا عن دمشق صرخد(٧٧).

ثم توجه الملك العادل إلى يافا، وحاصر الفرنج بها، وملكها وهدمها، فنزلت الفرنج على بيروت، وحاصرتها وكان نائبها عز الدين أسامة بن محمد بن أسامة إلى (٧٨) منقذ، فهرب من الفرنج إلى صيدا، وترك بيروت، فملكوها (فملكها) من الفرنج بغير قتال، وذلك في سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة(٧٩).

-١٠٩٧٢-

وفي سنة أربع وتسعين وخمسمائة

ثارت الفرنج وهاجت (١٨—و) وحاصروا تبنين وانتشروا في السواحل، وطمعوا في البلاد بعد موت صلاح الدين، ثم وقعت الهدنة بين المسلمين والفرنج مدة خمس سنين ونصف[٨٠]، ثم وقعت العداوة بين أولاد صلاح الدين، وبين عمهم الملك العادل، واشتغلوا بحرب بعضهم بعضا(واشتغل بعضهم بحرب بعض) عن الجهاد في الفرنج، ووقعت المسلمين (ووقع المسلمون) في مصائب عدة، منها حروب الفرنج، ومنها حروب الملوك، ملوك المسلمين، والعداوة التي تجددت بينهم، ومنها البلاء الشديد، والقحط المؤلم التي (الذي) لم يسمع بمثله، فإنا لله وإنا إليه راجعون، وسوف نذكر الغلاء في أيام العادل، إن شاء الله تعالى[٨١].

وفي سنة ستمائة

أقبلت جيوش الفرنج في البحر إلى عكا وأتته العساكر، وغارت (وأغارت) الفرنج على النواحي، وأغاروا على حماة وحمص، وأسروا وسبوا فيها ،وطمعت الفرنج(١٨—ظ) في البلاد، ثم غزاهم الملك العادل، وصالحهم فيما بعد.

ثم سار الملك العادل بعد مدة، فنازل عكا وحاصرها فصالحه صاحبها، وبذل له مالا وأسرى أطلقهم، ثم غار (أغار) العادل على أعمال طرابلس، ثم سار العادل بجيوشه فنازل سنجار وضربها بالمناجنيق (بالمناجيق) وألح عليها، فعد ذلك من ذنوبه، لأنه ترك غزو الفرنج بالشام، ويقاتل المسلمين على الدنيا.

ثم رجع العادل من سنجار بعد أخذها، وأرسل الملك المعظم عيسى

ومعه عسكر دمشق إلى قتال الفرنج، ونزل على الطور(٨٢)وبنى هناك قلعة منيعة غرم عليها أموالا لاتحصى وكملت في سنة ونصف، وذلك في سنة سبع وستمائة(٨٣).

وفي سنة تسع وستمائة

تملك الباب صاحب عكا أنطاكية، وشن الغارات على التركمان، وعمق حارم فتجمعوا ووقفوا له في واد هناك، فقتلوه وقتلوا غالب جنده ولله الحمد(١٩ـو) والباب هو خليفة النصارى، الذي يولي ملوكهم.

وفي سنة ثلاث عشرة وستمائة

أقبلت (أقبل) الفرنج بفارسهم وراجلهم من البحار، وخرجوا إلى عين جالوت ليأخذوا القدس، فخاف الملك العادل، وعجز وتأخر، وتهيأ أهل دمشق للحصار، وتحصنوا وغرقوا أرض داريا، واختبط الناس، وبعث العادل يستحث عساكر البلاد، واجتمع الأكراد والتركمان والعربان والفلاحين(والفلاحون) وتأخر الملك العادل إلى مرج الصفر، وضج الخلق إلى الله تعالى، ثم تأخرت (تأخر) الملاعين إلى ناحية عكا.

وسارت (سار) خمسمائة من الفرنج ليأخذوا جزين، ونزلوا على واد تحت جزين، فأخلاها أهلها، ثم تجمعت المسلمين (تجمع المسلمون) من تلك البلاد فكبسوا الفرنج، وقتلوا أكثرهم وأسروا مقدمهم وفرقوهم وأبادوهم عن آخرهم.

فلما بلغ صاحب عكا ذلك غضب، وشن الغارات على جزين وماحولها من(١٩ـظ) القرى، فنهض إليهم الملك المعظم عيسى بعساكر دمشق، فتأخرت (فتأخر) الفرنج إلى عكا، ثم سارت (سار) الملاعين إلى مصر في البحر لخلوها من العساكر، ونزلت (ونزل) الملاعين

على دمياط، فجهز الملك العادل العساكـر إلى ابنه الكامل ليكشف عنها، فـأقبـل ونزل تجاه دميـاط، ودام الحصـار والقتـال أربعة أشهـر، وأخـذت (أخذ) الفـرنـج دمياط، وأول مـا أخذوا برج السلسلـة وهو برج شـاهق في وصط (وسط) النيل، ودمياط من شرقيـه، والجيزة بحذائه من غربيه، وعلى جنبي البرج سلسلتـان عظيمتان، تمتد هـذه إلى سور دميـاط والأخرى إلى سور الجيزة، فتمنع المراكب من العبور إلى ديار مصر في النيل.

وأما الملـك المعظم صـاحب دمشق فخـرب قلعة الطـور، وقلعة تبنين وبـانيـاس، خوفـا مـن استيـلاء الفـرنـج عليهم، وأدار الخمـر والمكـوس بدمشق واعتذر بقلة المال.

وفي سنة خمس عشرة(٢٠—و) وستمائة

توفي السلطان الملك العـادل سيف الدين أبو بكر محمـد بن أيوب بن شاذي بن مروان، ومـولده ببعلبك،وكانت وفاته بقـرية عالقين من أعمال دمشق بالقـرب من صيدا، وحمل في محفة إلى دمشق ودفن بتربتـه المنسوبة إليه، وكـان ملكا مدبـرا حليما صفوحا، مـدبر الممالك على الـوجه المرضي عادلا مجاهدا دينـا عفوفا متصدقا، آمـرا بالمعروف ناهيا عـن المنكر، أبطل المظالم والقمار، والمكوس، والخمـور بدمشق، وجميع البـلاد، وكان متحصل ذلك مـن دمشق ، خاصـة، مائة ألف دينار، فـأبطل الجميع، ولقـد فعل العادل في غلاء مصر مـالم يفعله غيره، وكفن من ماله لـلأموات بثلاثمائة ألف دينار للغرباء.

وكان له أولاد كثيرة(كثـر) منهم: شمس الدين مودود، والكـامل محمد، والأشرف مـوسـى، والمعظم عيسـى، والأوحـد أيـوب، والفائز إبـراهيـم، وشهاب الديـن غازي، والعزيز عثمان، والأمجد حسـن، والحافظ أرسلان ، والصالـح اسماعيل، والمغيث محمـود، وفخر الديـن يعقوب، وتقي الـدين

عباس، وقطب الدين أحمد، والقاهر اسحق، وخليل الأصغر، وكان له عدة بنات(٢٠—ظ) أفضلهن خاتون.

واقتسمت (واقتسم) أولاده بعده البلاد[٨٤]، فملك مصر الكامل محمد، وملك دمشق المعظم عيسى، وملك الأشرف علي خلاط، وحران، والرها، والجزيرة، وملك غازي ميافارقين وجامي (حاني) وجبل جوري (جور) وما والاها، وملك الحافظ أرسلان قلعة جعبر، وملك الفائز ابراهيم قوص وأعمالها ، وملك الأفضل علي الفيوم وأعمالها، وملك الأمجد حسن بعلبك وأعمالها، وملك المغيث محمود الكرك والشوبك، وملك فخر الدين يعقوب حلب وأعمالها.

وابنته الست خاتون هي واقفة المدرستين المنسوبتين إليها بدمشق، وكانت عاقلة فاضلة كثيرة الصدقات.

وفي هذه السنة أخذت (أخذ) الفرنج دمياط[٨٥] لأن أهلها هلكوا من الجوع والوباء أيام الحصار، وفتكوا (وفتك) الفرنج بهم وقتلوا وأسروا، وعملوا جامعها كنيسة، وبعثوا بالمصاحف ورؤوس القتلى إلى بلاد الفرنج، فبنى الملك الكامل صاحب مصر حينئذ مدينة وسماها المنصورة عند مفرق النيل، وسكنها بجيشه وحصنها.

وأما الغلاء[٨٦] الذي كان في أيام العادل فإنه اشتد بمصر والشام، ونقص النيل، وأقبل القحط والوباء(٢١—و) المؤلم،وخربت ديار مصر، وخلا منها أهلها، واشتد البلاء، وأكلوا لحوم الآدميين، وهلك خلق كثير من الأغنياء والفقراء، ووقع بعد ذلك فناء عظيم، ووباء كبير، حتى أن السلطان الملك العادل كفن من ماله في مدة يسيرة في هذه السنة نحو مائتي ألف وعشرين ألف ميت[٨٧]، وأكلت الكلاب الأموات لعدم من يدفنها، وأكل من الأطفال والصغار، وخلق كثير، يشوي الصغير والداه

ويأكلانه، وكثر هذا في الناس حتى لاينكر بينهم، ثم صاروا يحتالون على بعضهم بعضا فيأكلون من يقدرون عليه، وإذا غلب القوي على الضعيف، ذبحه وأكله، وفقد خلق كثير من الأطباء في هذه السنة، يستدعون إلى المريض فيذبحونهم ويأكلونهم، وعظم الغلاء بدمشق، ونفذت (ونفدت) خزائن الملك العادل، وأكثر قرى مصر لم يبق بها آدمي من الموت، وكان يخرج من القاهرة في اليوم نحو ألف وخمسمائة جنازة، وأما بظاهرها فلا عدد لهم، ودخل تحت قلم الحشرية في هذا الفناء بالقاهرة مائة ألف وأحد عشر ألف ميت، إلا شيئا يسيراً(٨٨)، وهذا شيء قليل بالنسبة إلى من مات في إقليم مصر، فلقد كان في بلد من بلدان مصر أربعمائة نول للحياكة فلم يبق بها أحد وأشياء كثيرة(٢١—ظ) أعرضنا عن ذكرها، وتوفي الملك العادل المذكور في وصط (وسط) هذه الشدة، وهي حصار الفرنج والغلاء والوباء، فاستراح رحمه الله تعالى.

وفي المحرم سنة ست عشرة وستمائة

أخرب المعظم القدس، وذلك أن (أنه) بلغه أن الفرنج قد عزموا على التوجه إلى القدس، فاتفقوا (فاتفق) الأمراء على هدمه، وقالوا: قد خلت الشام من العساكر، فلو أخذوه (أخذه) الفرنج حكموا على الشام، وكان بالقدس العزيز عثمان، وعز الدين أيبك الاستدار (الاستاذ دار) فكتب إليهما المعظم بهدمه، فتوقفا وقالا: نحن نحفظه، فكتب إليهما المعظم، لو أخذوه لقتلوا كل من فيه، وحكموا على دمشق، وبلاد الاسلام، فشرعوا في خراب السور أول يوم من المحرم، ووقع في القدس صيحة عظيمة، وخرج (وخرجت) النساء المخدرات، والبنات والشيوخ، والعجائز، والشباب، والصبيان إلى الأقصى، وقطعوا شعورهم، ومزقوا ثيابهم، وخرجوا هاربين، وتركوا أموالهم وأهلهم، ولم يشكوا أن الفرنج تصبحهم، وجعل (وجعلت) النساء المخدرات يمزقن ثيابهن ويربطنها على أرجلهن

من الحفاء، ومات خلقا كثيرا (خلق كثير) من (٢٢—و) الجوع والعطش، ونهبت الأموال التي كانت لهم في القدس، وابيع القنطار (وبيع القنطار) الزيت بعشرة دراهم والرطل (ورطل) النحاس بنصف درهم، وذم الناس المعظم على ذلك، فقال بعضهم:

في رجب حل الحميا
وأخرب القدس في المحرم

وكانت القدس حصينة جدا عظيمة البناء.

وفي سنة ثمان(ثماني) عشرة وستمائة

أخذ المسلمين (المسلمون) دمياط من الفرنج لأنهم خرجوا في أهبة كاملة ليغيروا على الغربية في زيادة النيل، ففتح الملك الكامل عليهم سدا، فأحاط بهم الماء بحيث أنهم لايقدرون على الوصول إلى دمياط، فأحدق بهم جيش المسلمين، وكان مع الفرنج صاحب عكا وعسكره، فلما عاينوا الهلاك بذلوا دمياط، فلو صبر الكامل يومين لأسرهم.

وبعث إليهم ولده الملك الصالح نجم الدين أيوب وصالحهم، وجاءت (جاء) ملوك الفرنج إلى خدمة السلطان الملك الكامل، وأنعم عليهم، وكان قد وصل إليه أخواه (٢٢—ظ) الملك المعظم عيسى، والملك الأشرف موسى بجيوشهما، فمد الملك الكامل سماطا عظيما، وحضره ملوك الفرنج، فوقف المعظم والأشرف في خدمة أخيهما الملك الكامل، وكان يوما مشهودا، واتفق أن الملك الكامل اسمه محمد، وأخواه اسمهما: موسى وعيسى، فقام راجح[٩٠] الشاعر وعمل قصيدة، وأنشدها في الحضرة، ومنها:

ونادى لسان الحال في الأرض رافعا
عقيرته في الخافقين ومنشدا

أعبـــادعيســـى إن عيســـى وحـــزبـــه
ومـــوســـى جميعـــاينصران محمـــدا

وفي سنة خمس وعشرين وستمائة

أقبلت (أقبل) الفرنج في البحر، وخرجوا إلى الساحل، وملكوا صيدا، وكانت مناصفة بيننا وبينهم(٩١).

وفي سنة خمس وأربعين وستمائة

حاصر الملك الصالح نجم الدين أيوب عسقلان وطبرية على يد فخر الدين بن الشيخ وأخذهما من الفرنج، وأخذ بصرى وصرخد والصبيبة والصلت(٩٢) وعمر سور القدس ورجع إلى مصر.

وفي هذه (١٣ــو) السنة(٩٣) هجمت (هجم) الفرنج على دمياط وأخذوها بلا طعنة ولاضربة، وكان السلطان نجم الدين نازلا بالمنصورة، وهي على بريد من دمياط، فغضب وشنق من أعيانها ستين نفسا، فقالوا: ايش ذنبنا إذا كان عسكرنا هربوا (هرب) فما نصنع نحن، ففزع العسكر من السلطان وصطوته (وسطوته) وكان السلطان مريضا، فأرادوا (فأراد) مماليكه قتله لأنه شنق هؤلاء بغير ذنب، فقال لهم فخر الدين بن الشيخ: اصبروا عليه فهو على شفا جرف، فإن مات فقد استرحتم منه، وإلا فهو بين أيديكم، ثم إنه قتل فخر الدين بن الشيخ، ثم لم يعيش (يعش) السلطان نجم الدين بعد ذلك إلا أيام (أياما) قليلة، وهو الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل محمد بن الملك العادل أبو بكر بن أيوب، وكان ملكا مهيبا هيبة عظيمة، جبارا سفاكا للدماء، ولم يكن إلا قتل أخيه العادل، فلما قتله رأى في نفسه العبر، ولم ينفعه الحذر، ومات بالمنصورة، فكتمت شجر(٩٤) الدر أم خليل زوجته موته، وبقيت (٢٣ــ ظ) تعلم على التواقيع والمناشير ولاينكر

ذلك، وأقام عشرة أيام ميتا لايدري به أحد، ودفن بتربته بالقاهرة، وهو الذي عمر المدارس بين القصرين المنسوبين إليه، وكانت مملكته على مصر عشرة (عشر) سنين، وهو الثامن من ملوك بني أيوب، وكانت العساكر قد حلفت قبل موته لولده المعظم توران شاه، وكان بحصن كيفا، فساق إليه أقطاي الأكبر، وسلك البرية، وأسرع به إلى دمشق، فدخلها في أواخر رمضان في دست السلطنة، وأخذ أموال السلطنة وأنفقها على الأمراء، ثم توجه من دمشق ووصل إلى المنصورة، وجلس على التخت، وأقام عزاء والده، والدنيا يومئذ بلا خليفة، لأن التتار قتلت الخليفة المستعصم ببغداد، واستولت على بغداد، والمستعصم هذا آخر الخلفاء ببغداد.

وجرى في هذه الأيام من الحروب بين المسلمين والفرنج على بر المنصورة مايطول شرحها، ولايسع هذا المختصر ذكرها، وظهر النصر(٢٤ــو) للمسلمين وقتلوا من الفرنج ثلاثين ألفا، وأسروا الفرنسيس، الملك الأعظم للفرنج، وكان يوم سرور لايعهد مثله، وكان هذا النصر العظيم في أول يوم من سنة ثمان وأربعين وستمائة، هذا وسواحل الشام كلها في يد الفرنج وهو الطراز الأخضر، وهو مابين جبل لبنان وبحر الروم وهم هيفا (حيفا) وأرسوف وقيسارية، وعسقلان، وعكا، وصور، وعذبون (وتيرون) وتبنين والشقيف، وصيدا، وبيروت، وجبيل، وأنفه، والبشرون، وطرابلس، وأنطرطوس، وجزيرة أرواد، والمرقب، وجبلة، واللاذقية، والدنيا يومئذ بلا خليفة، وكان قد وقعت العداوة بين الملك عماد الدين اسماعيل وبين أخوته قبل هذه المدة، وهو يومئذ صاحب دمشق، فوهب قلعة الشقيف للفرنج ليؤازروه ويعينوه، فأنكر عليه العلماء والأمراء والعوام ذلك، وكان رئيسهم ابن عبد السلام[٩٥] خطيب دمشق، وأبو عمرو بن الحاجب[٩٦] المالكي، وزادوا (زاذا) في الإنكار عليه فعزلها وحبسهما بقلعة دمشق (٢٤ــ ظ).

وأما الفرنسيس ملك الفرنج فقبضوا عليه، وأسروه وحبسوه في دار ابن لقمان بالقاهرة(٩٧) ورسم عليه صبيح الطواشي.

ثم بعد هذه الوقعة بثمان وعشرون (وعشرين) يوما قتل الملك المعظم تورانشاه بن الملك الصالح نجم الدين أيوب، وكان فيه نوع خفة وناقص السياسة، قتلوه (قتله) مماليك والده، وكان ملكه أحد (واحدا) وسبعين يوما(٩٨).

ثم تسلطن (تسلطنت) بعده أم خليل شجر الدر(٩٩)، وخطب لها على المنابر بالقاهرة ومصر، وحلفوا (وحلف) لها العساكر، وهي شجر الدر بنت عبد الله جارية الملك الصالح نجم الدين أيوب، وأم ولده خليل، وخطب لها على المنابر بالديار المصرية، وكانت تعلم على التواقيع والمناشير«والدة خليل» واستقرت بالسلطنة، وخلعت على الأمراء، وأنفقت الأموال، وزادت في العطاء، وكثر الدعاء إليها، وأظهرت العدل.

ثم دخل الأمير حسام الدين بن أبي علي في قضية الفرنسيس ملك الفرنج المأسور على أن يسلم دمياط(٢٥—و) ويحمل خمسمائة ألف دينار، فأجابت شجر الدر والأمراء إلى ذلك، فأركبوه بغلة، وساق حوله الجيش إلى باب دمياط، فما وصلوا إلا والمسلمين (المسلمون) على أعلاها بالتكبير والتهليل، والفرنج قد فروا منها إلى المراكب، وأخلوها فلما رأى الفرنسيس ذلك خاف خوفا شديدا.

ثم قال حسام الدين: هذه دمياط قد حصلت لنا، وهذا الفرنسيس في أسرنا، وهو عظيم ملوك الفرنج، وقد أطلع على عوراتنا، وعلم بقتل سلطاننا، وأن ملكنا امرأة، فالمصلحة تركه في أسرنا، فقال الأمير أيبك: ماأرى الغدر.

فقال حسام الدين للفرنسيسن: كم عدة الجيش الذي جئت به لما أخذتم دمياط، فقال: كان الجيش تسعة آلاف فارس، ومائة ألف وثلاثين ألف جرجري غير التجار والغلمان، وكان إطلاقه بعد أربعة أيام من قتلة الملك المعظم، فدفع إليهم المال، فباعوه والله بأهون ثمن، فلما صار هو وأمراؤه(٢٥—ظ) في البحر، بعث يقول: مارأيت أقل عقلا منكم ولاأضعف دين (دينا) ولاأوهن رأي (رأيا) ، قتلتم سلطانكم، وملكتم عليكم امرأة، وبعتموني— وأنا ملك البحر— بهذا الثمن اليسير، وحق ديني لو طلبتم مني مملكتي دفعتها إليكم، حتى أخلص.

وكان الفرنسيس مقيدا محبوسا بدار ابن لقمان، وصبيح الطواشي سجان عليه، فلما صار الفرنسيس في بلاده تعظم وتكبر، وهم بغزو المسلمين، فأرسل إلى السلطان الملك المعز أيبك يتوعده بكتاب ورد من عنده، فأجابه السلطان بكتاب وفيه هذه الأبيات:

قل للفرنسيس إذا جئته
كلام صدق بلسان فصيح

أجارك الله على مافعلت من
(قتل) عباد يسوع المسيح

أتيت مصرا تبتغي ملكها
حسبت أن الزمر بالجهل ريح

فساقك الآن إلى أدهم
ضاق به في ناظريك الفسيح

وجمع أصحابك خلفتهم
من سوء تدبيرك وسط (وسط) الضريح

مائة ألف في مائة ألف ما
منهم إلا قتيل أو أسير جريح(٢٦—و)

وفقك الله لأمثالها
لعل عيسى منكم يستريح

وقـــل لهم إن أرغمـــوا عـــودة
لأخـــذة ثـــار أو لفعـــل قبيـــح
دار ابـــن لقمان على حـــالها
والقيـــد باق والطـــواشي صبيـــح[١٠٠]

ثم إن المسلمين هدموا سور دمياط، وتركوها خاوية على عروشها، وكان سورها من بناء المتوكل على الله[١٠١].

وفي سنة اثني (اثنتين) وستين وستمائة

نازل السلطان الملك الظاهر بيبرس مدينة قيسارية الشام وأخذها من الفرنج، ثم سار إلى أرسوف، وفتحها بالسيف وطرد الفرنج منها[١٠٢].

وفي سنة أربع وستين وستمائة

أغارت عساكر الاسلام على أعمال مدينة صور وطرابلس، ثم نزلوا على صفد، وحاصروا الفرنج بها أربعين يوما، وأخذت بالخديعة وضربت رقاب مائتين من فرسانها، وقد قتل عليها من المسلمين خلق كثير، منهم الأمير الكبير جمال الدين ايدغري العزيزي[١٠٣].

وفي سنة خمس وستين وستمائة

فتح السلطان الملك الظاهر يافا وهدمها، وهدم قلعتها، ثم سار منها قاصدا قلعة الشقيف، ونزل تحتها بوادي العواميد، وحاصرها فوجدها مانعة حصينة جدا(٢٦—ظ) ثم رحل إلى أعلاها فلم يقدر عليها ثم كشف عن مائها فلما كان الليل وأهل القلعة نيام إذ ذبح في الماء عدة من البقر والغنم ورمى بدمائها وكروشها في الماء وقطعه.

- ١٠٩٨٣ -

فلما أصبح وجدوا ماءهم دما غبيظا (عبيطا) منتنا، فسلموا بعد حصار عشرة أيام، وبنى برجا على باب القلعة، وتسمى شقيف تيرون وهو اسم رجل، وهذه القلعة حصينة جدا لايقدر عليها، وبعضها نحت في الشقيف، وبعضها عمارة، وهي شرقي صيدا بينها وبين دمشق، وقلعة أرنون أيضا حصينة جدا، وهي بالقرب منها على خمس (خمسة) فراسخ.

ثم أغار السلطان الملك الظاهر على بلاد طرابلس، وقطع أشجارها، ثم نازل أنطاكية بغتة وافتتحها في أربعة أيام، وقتل بها أكثر من أربعين ألفا من الفرنج، ثم أخذ بغراس بالأمان(١٠٤).

وفي سنة ثمان وستين وستمائة

فتح الملك الظاهر الحصون الاسماعيلية، وأمر على الحصون الاسماعيلية نجم الدين حسن بن المشغراني، وقرر عليه(٢٧—و) أن يحمل في كل عام مائة ألف درهم، والمشغراني نسبة إلى مشغرا، وهي قرية كبيرة نزهة كثيرة المياه، وهي بسفح لبنان الشرقي بين صيدا ودمشق(١٠٥).

وفي سنة تسع وستين وستمائة

افتتح الملك الظاهر حصن الأكراد بالسيف، ثم نازل عكا، وأخذها بالأمان فخضع له صاحب طرابلس، وهادنه عشرة (عشر) سنين(١٠٦).

وفي سنة ثلاث وسبعين وستمائة

قدم الملك الظاهر إلى دمشق، ثم غزا سيس، وفتح أياس وأذنه والمصيصة(١٠٧).

- ١٠٩٨٤ -

وفي سنة ست وسبعين وستمائة

قدم الملك الظاهر إلى دمشق ونزل بالقصر الأبلق جوار الميدان الأخضر، ومات هناك رحمة الله عليه، وحمل في محفة إلى قلعة دمشق، فرأى ولده الملك السعيد أن يدفنه داخل سور دمشق، فدفن بدار العقيقي، وعمل عليه قبة شاهقة فوق الضريح(١٠٨) وكان له من الأولاد: نجم الدين محمد وهو الملك السعيد، والملك نجم الدين خضر، والملك بدر الدين سلامش، وكان له سبع بنات وأربع نساء، وكان له أربعة(٢٧—ظ) آلاف مملوك، وكان عفيف النفس، شريف الطبع عادلا كثير الصدقات، وهو الذي أصلح قبر خالد ابن الوليد بحمص، ووقف عليه وقفا جيدا، وفتح الفتوحات الكثيرة بعد استيلاء الفرنج عليها، من ذلك: قيسارية وأرسوف، وصفت، وطبرية، ويافا، والشقيف، وأنطاكية، وبغراس، والقصير، وحصن الأكراد، وحصن عكار، والقرين، وصافيتا، ومرقية، والمرقب، وبلنياس، وأنطرطوس، ودربساك، ودركوش، وتلميش (وتلمنس) وكفردنين (وكفر ذبين) ورعيان (رعبان) والمرزبان، والذي صار إليه من أيدي المسلمين: دمشق وبعلبك، وعجلون، وبصرى، وصرخد، والصلت، وحمص، وتدمر، والرحبة، وتل باشر، وصهيون، وبلاطنس، وبرزية، والحصون الاسماعيلية، وهي: الكهف، والقدموس، والمنيقة، والقليعة، والكرك، والشوبك، وشيزر، والبيره، والبلاد الشمالية، وفتح الله على يديه بلاد النوبة، وهي أقاليم(٢٨—و)كثيرة واسعة، وأمم كثيرة ودنقلة، وكانت حدود مملكته من أقصى بلاد النوبة إلى قاطع الفراة، وعمر بقلعة الجبل دار الذهب، وجدد الجامع الأنور، والجامع الأزهر، وبنى جامع الحسينية، وجدد قلعة الجزيرة،وقلعة السويس، وجدد الجسر الأعظم على بركة الفيل وأنشأ قنطرته، وجدد جسر ابن منجا، وتمم عمارة حرم النبي صلى الله عليه وسلم، وعمل منبره، وذهب سقوفه وجددها، وجدد المارستان بالمدينة النبوية ونقل إليه سائر المعاجين

والأكحال والأشربة، وجدد قبر الخليل عليه السلام وزاد في وقفه، وجدد بيت المقدس، وأنشأ خانا للسبيل بالقاهرة، وبنى على قبر موسى عليه السلام قبة، وهو عند الكثيب الأحمر قبلي أريحا.

وكانت مدة سلطنته قريبا من سبعة عشر (سبع عشرة) سنة، وقد جمع شمس الدين الذهبي سيرته في مجلدين، رحمه الله تعالى(١٠٩).

وتسلطن بعده ولده الملك السعيد محمد أبو المعالي بركة قان وذلك في شهر صفر سنة خمس (ست) وسبعين وستمائة(١١٠).

وفي سنة (٢٨ـ ظ) ثمان وثمانين وستمائة

مات الملعون صاحب طرابلس البرنس، فخرج السلطان قلاوون بالجيوش المنصورة وبادر إليها فنازلها وضربها بالمناجيق، ودام عليها الحصار ثلاثا وثلاثين يوما، ثم أخذها بالسيف، وقتل عليها خلق كثير من المسلمين، ثم أخربها (خربها) السلطان قلاوون وأحرقها، وبنيت مدينة على نصف فرسخ منها فسكنها المسلمون.

وكان لطرابلس في أيدي الفرنج مائة سنة وخمس وثمانون سنة، وكان أول أخذها من المسلمين بعد حصار خمس سنين وأشهر، ففتحها السلطان قلاوون في ثلاثة وثلاثين يوما، وهو آخر فتحها(١١١).

قال أصحاب التاريخ: ثم قدم إلى عكا فرنج غرباء فثاروا بها، وقتلوا من كان بها من تجار المسلمين، وكانت عكا في أيدي الفرنج، فبلغ السلطان ذلك فغضب وتأهب لغزو عكا، فأدركته المنية، وتوفي السلطان الملك المنصور قلاوون في ذي القعدة من هذه السنة، وعمره قريبا من ستين سنة، وكان فارسا شجاعا، بطلا خيرا سائسا مهيبا، تام الشكل، مليح الصورة(٢٩ــو) فارسا، كثير الوفاء، دري اللون، مستدير الوجه،

خفيف اللحية، عليه جلالة عظيمة، وكانت مدة سلطنته إحدى عشر (عشرة) سنة وأربعة أشهر، وتسلطن بعده ولده الملك الأشرف صلاح الدين خليل، وعمره أربعين (أربعون) سنة(١١٢).

وفي سنة تسعين وستمائة

تجهز الملك الأشرف خليل لغزو عكا ونازلها رابع شهر ربيع الأول بجيوش الاسلام وبأمم لايحصي عددهم إلا الله تعالى، وأبلوا في الحصار، وأعانهم عسكر قبرص، ثم أيقنوا بالغلبة وشرعوا بالهرب في البحر، واستشهد عليها من المسلمين خلق كثير، وثبت الفرنج ثباتا حسنا ثم عمل السلطان كوسات عظيمة زنة ثلاثمائة رطل، فزحف الجيش على عكا سحر يوم الجمعة سابع عشر جمادى الأولى فانقلبت الأرض بضرب الكوسات، فحين لاصق المسلمين(المسلمون) الصور (السور) هربت (هرب) الفرنج إلى البحر، وطلعت الرايات المنصورة، ونكست الصلبان، وبذل السيف مع طلوع الشمس وهدمت (٢٩—ظ) أبراج عكا وأسوارها، وكانت عكا أخذت أولا سنة سبع وثمانين وأربعمائة، ثم أخذتها (أخذها) الفرنج بالسيف، سنة ست وتسعين وأربعمائة، فدامت في أيدي الفرنج إلى أن فتحها صلاح الدين يوسف بن أيوب في سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة ثم أخذتها (أخذها) الفرنج ودامت في أيديهم إلى هذه السنة.

وأما أهل مدينة صور فإن الفرنج الذين بها لما رأوا الدخان والنيران في جنبات عكا هرب أهلها، وأخلوا البلد، وكانت صور حصينة مانعة جدا إلى الغاية، فدخل الصوابي والي تلك الناحية إلى صور، وكتب يبشر السلطان بذلك وهو على عكا، فأمره بإخراب صور فأخربها، وهدمها، وكان بصور خلق كثير من المسلمين، فلم يقتلوا وأقاموا بها، وكان لصور في يدي الفرنج مائة وسبعين سنة.

وأما مدينة صيدا فسار (فسارت) إليها فرقة من الجيش، وأحاطوا بها وافتتحوها وأخربوها وأخربوا (وخربوها وخربوا) قلعتها، وأما أهل بيروت فكانوا متمسكين (٣٠—و) بهدنة، فبدا منهم شرا (شر) لأمراء من المسلمين كانوا بالقرب منهم، وعملوا عليهم حيلة، ونصبوا لهم الشرك حتى أوقعوهم وقتلوا أكثرهم تهورا، ثم إنهم خافوا وأغلقوها، فسار إليهم علم الدين سنجر الشجاعي، وحاصرها وأخذها في رجب، وأسر أهلها، ودك قلعتها، وهدم أسوارها، وكانت قلعتها حصينة مانعة جدا.

ثم إن الشجاعي سار إلى جبيل، وكانت الأفرنج بها تحت الطاعة، فطرد الفرنج منها وهدمها ودك قلعتها.

وأما أهل عثليث فإنهم لما علموا بفتح صور وعكا، هربوا منها وأحرقوا مالم يقدروا على حمله، وتنظف الشام من الفرنج من تلك السنة، ولله تعالى الحمد.

ثم قدم السلطان إلى دمشق مؤيدا منصورا، وزينت دمشق، وكان يوما مشهودا، وقال المولى الرئيس الفاضل شهاب الدين محمود بن سليمان الموقع، وأنشدها للملك الأشرف صلاح الدين خليل بن قلاوون يوم فتح عكا، وهي في روي قصيدة أبي تمام في المعتصم لما فتح عمورية(٣٠—ظ):

الله أكبر ذلت دولة الصلب
وعز بالترك دين المصطفى العربي
ما بعد عكا وقد هدت قواعدها
في البحر للشرك عند البر من أرب
عقيلة ذهبت أيدي الدهور بها
دهرا وشدت عليها كف مغترب

لم يبق من بعدها للكفر مذ خربت
في البر والبحر ما ينجي سوى الهرب
أم الحروب فكم قد أنشأت فتنا
شاب الوليد لها هولا ولم تشب
سوران بر وبحر حول ساحتها
دارا فأدناهما أدنى إلى العطب
مصفح بصفاح حولها شرف
من الرماح وأبراج من الجلب

مثل الغمائم تهوى من صواعقها
بالنيل أضعاف ما تهوى من السحب
كأنها كل برج حوله فلك
من المجانيق ترمي الأرض بالشهب
ففاجأتها جنود الله يقدمها
غضبان لله لا للملك والنشب
ليث أبى أن يرد الوجه عن فرق
يدعون رب الورى سبحانه راب
كم رامها ورماها قبله ملك
جم الجيوش فلم يظفر ولم يصب
لم يلهه ملكه بل في أوائله
نال الذي لم ينله الناس في الحرب
لم ترض همته إلا الذي قعدت
للعجز عنها ملوك العجم والعرب (٣١ — و)
فأصبحت وهي في بحرين واقفة
ما بين مضطرم نار وملتهب
جيش من الترك ترك الحرب عندهم
عار وراحتهم ضرب من الوصب
يا يوم عكا لقد أنسيت ما سبقت
به الفتوح وما قد خط في الكتب

أغضبت عباد عيسى إذ أبدتهم
لله أي رضى في ذلك الغضب
وخاضت البيض في بحر الدماء كما
أبدت من البيض الآساق مختصب
أبحرت للبحر بحرا من دمائهم
فراح كالراح إذ عرفاه كالحبب
بشراك يا ملك الدنيا لقد شرفت
بك الممالك واستعلت على الرتب

ما بعد عكا وإن لانت عريكتها
لديك شيء تلاقيه على تعب
أتيتها يا صلاح الدين معتقدا
بأن ظن صلاح الدين لم يخب
أدركت ثار صلاح الدين إذ غصبت
منه لسر طواه الله في اللقب
وجئتهم بجيوش كالسيول على
أمثالها بين آجام من القصب
فكم تركت عزيز النصر مبتهجا
بكل فتح قريب النجح مرتقب(١١٣)

نجز الكتاب والحمد لله وحد، على يد مصنفه وكاتبه فقير عفو الله تعالى أحمد بن علي الحريري ، في أواخر شوال سنة ست وعشرين وتسعمائة، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، وحسبنا الله ونعم الوكيل(٣١-ظ).

حواشي

١- ديوان الأبيوردي ط . دمشق ١٩٧٥ ج ٢ ص ١٥٦- ١٥٧ مع بعض الفوارق
٢ - هي انقره الحالية ، عاصمة تركيا.
٣- كذا ، ولم يتسلم صنجيل حكم أنطاكية قط.
٣ - ديوان العرقلة ص ٣١ - ٣٢
٤ - ديوان العرقلة ص ١٤.
٥- نقل المصنف من الروضتين حرفيا ، واختصر عدة أبيات من قصيدة العماد، وعز اخطأ الأبيات الثلاثة الأخيرة الى العماد في حين هي لابن عساكر قالها في نور الدين.
٦ - زيد ما بين الحاصرتين من سنا البرق الشامي ص٢٣
٧ - أي السيف
٨ - ديوان العرقلة ص ٥٧
٩ - ديوان العرقلة ص ٥٠
١٠ - ديوان العرقلة ص ٤٩ - ٥٠
١١ - ديوان العرقلة ص ٦٤
١٢ - هذان البيتان للعماد الأصفهاني حسبما جاء في الروضتين ، حيث أورد أبو شامة قبل ذلك أبيات فتيان الشاغوري
١٣ - عبرة أولي الأبصار في ملوك الامصار لابن الأثير الحلبي ، حقق هذا الكتاب كرسالة ماجستير باشرافي نوقشت في جامعة دمشق عام ١٩٩٢ ، ولم يرد في الكتاب هذا الخبر .
١٤- البداية والنهاية ج ١٢ ص ٢٩٥ - ٢٩٦.
١٥ - موضع في بلاد لاعة من اعمال حجة ، معجم المدن والقبائل اليمنية.
١٦ - البداية والنهاية ج ١٢ ص ٢٧٥.
١٧- منامات الوهراني ومقاماته ورسائله - ط القاهرة ١٩٦٨ ص ١٤. ديوان أسامة ص ١٥٨ مع فوارق.
١٨- ليست في ديوانه المطبوع.
١٩ - عزا صاحب الروضتين هذا الكلام الى العماد الاصفهاني .
١٩- الكامل لابن الأثير ج ٩ ص ١٤٢
٢٠- كذا بالأصل وهو وهم فالذي أخذ القافلة ونذر صلاح الدين قتله هو أرناط صاحب الكرك لاريموند الثالث صاحب طرابلس .
٢١- ليس حين مرض بل بعدما استولى على القافلة القادمة من مصر ، وبعدما حاول احتلال كل من مكة والمدينة .
٢٢- البعنه ومنوات في أحواز عكا . معجم بلدان فلسطين
٢٣ - كذا والاوضح « الاسدي» لان التقوي هو الذي دخل الى افريقية
٢٤ - البداية والنهاية ج ١٢ ص ٣٣٦ - ٣٣٧
٢٥ - دفف تدفيفاً أسرع . القاموس
٢٦- البداية والنهاية ج ١٢ ص ٣٣٨
٢٧ - البداية والنهاية ج ١٢ ص ٣٤٩
٢٨- البداية والنهاية ج ١٢ ص ٣٥٠.

٢٩_ في الحقيقة مصدر المؤلف هنا الفتح القسي للعماد .
٣٠ _ البداية والنهاية ج ١٣ ص ٥
٣١ _ تبعد الزيب عن عكا مسافة / ١٤/ كم الى الشمال منها ، وتقع معليا أيضا الى الشمال من عكا على مسافة /٩/ كم من شاطىء البحر . معجم بلدان فلسطين .
٣٢ _ ديوان العرفلة ص ٦٥.

حواشي التاج السبكي

١ـ ديوان قيس بن الخطيم طـ دار صادر بيروت ص ٤٦.
٢ـ توقفت ترجمة صلاح الدين بالأصول هنا بشكل غير طبيعي .

حواشي الكواكب الدرية

١ـ سورة النحل ـ الآية : ٩٠.
٢ـ انظر في موسوعة أطراف الحديث ج ٨ ص ٦٨٢
٣ـ انظر موسوعة أطراف الحديث ج٥ ص ٢٠٩
٤ـ القومص هنا ريموند الثالث صاحب طرابلس .
٥ـ التركش بالفارسية : الكنانة.
٦ـ البداية والنهاية لابن كثير ج١٢ ص ٢٨٠ ـ ٢٨١.
٧ـ انظر سنا البرق الشامي ـ ط. القاهرة ١٩٧٩ ص ٢٦ـ ٢٧
٨ـ ليست في المطبوع من تاريخ إربل.
٩ـ ضريبة كانت تجبى غن رؤوس المواشي.
١٠ـ سورة الزمر ـ الآية: ١٠
١١ـ سورة الانعام ـ الآية : ١٦٠
١٢ـ سورة البقرة ـ الآية : ٢٦١.
١٣ـ سورة ص ـ الآية: ٣٨ ـ ٤٠
١٤ـ سورة الانفطار ـ الآية : ١٩
١٥ـ سورة آل عمران ـ الآية: ١٩٥.
١٦ ـ سورة التوبة ـ الآية ١٢٢
١٧ـ سورة الانبياء ـ الآية ١٠١
١٨ـ الكاذة أداة قطع عريضة الحد ، غالبا ماكانت تستخدم من قبل صناع الأحذية لقطع الجلود.

حواشي الاعلام والتبيين

١- كذا والاقوم: ارجو

٢- كذا دون ان يذكر أيا منهم

٣ - جعل خليفة بعد وفاة أبيه سنة ٤٨٧ هـ/ ١٠٩٤م وأدى تسلمه لعرش القاهرة الى انشطار الدعوة الاسماعيلية الى شطرين ، وقد توفي سنة ٤٩٥ هـ/ ١١٠١م .

٤- كذا والصحيح السلطان قلج أرسلان سلطان سلاجقة الروم... [٤٨٥- - ٥٠٠ هـ/ ١٠٩٢-١١٠٧ م]كانت مدينة نيقية عاصمته عند بداية الحروب الصليبية ، وقد حاصرها الصليبيون وكان غائبا عنها ، فتولت زوجته الدفاع عنها الى أن سلمتها الى سلطات الامبراطورية البيزنطية مما سبب شقاقا حادا بين زعماء الصليبيين والامبراطور البيزنطي. وبعد سقوط نيقية علم قلج ارسلان بالأمر، فجمع جموعا من التركمان وحاول التصدي لجموع الصليبيين واشتبك معهم في أكثر من معركة حتى اخفق في ايقاف زحفهم فتابعوا تقدمهم نحو انطاكية.

٥ - .يبدو ان المصنف اعتمد هنا مصدرا هو غيره فيما يلي ، لذلك أجمل خبر عدة حوادث ، ثم نراه يعود للحديث عن حصار انطاكية حتى سقوطها.

٦- تعني هذه العبارة - الصاعقة- وكان السلطان السلجوقي ملكشاه قد خلفه وراءه سنة ٤٧٩ هـ/ ١٠٨٧ م حاكما على انطاكية، انظر كتابي مدخل الى تاريخ الحروب الصليبية ص ٢٠٥.

٧- قيل بأنه كان من أصل أرمني . انظر من اجل حصار أنطاكية ومصيرها مع مصير حاكمها وحاميتها كتابي مدخل الى تاريخ الحروب الصليبية ص : ٢٣٧ - ٢٣٩.

٨- هم : ١- Baldwin(of Boulogne) وكان أخا لـ Godfrey وقد كان أول حكام الرها الصليبيين (١٠٩٨- ١١٠٠م) ثم صار ملكا للقدس من سنة (١١٠٠-١١١٨م)

٢- Raymond of st . Gilles كونت تولوز

٣ - Godfrey of Bouillon أخو بلدوين الأول ، عين بعد احتلال القدس حاميا للقبر المقدس او بالحري ملكا للمملكة الصليبية التي اسست في القدس

٤- Adhemor of monteil اسقف Puy ونائب عن البابا اوروبان الثاني في مرافقة الحملة الصليبية الأولى واشرف على أمورها.

٥- Bohemond (of Taranto) ابن Robert Guiscard وقد صار اول امراء الصليبيين لمملكتهم التي اسسوها في أنطاكية بعد احتلالهم لها.

٩- انظر معالجة ذلك في كتابي مدخل الى تاريخ الحروب الصليبية ص : ٢٣٨ - ٢٤٢

١٠- الى الشرق من طرابلس ، كان على جبلها قلعة ، لهذا عدت خطا دفاعيا اوليا لصالح طرابلس - معجم البلدان

١١- يريد به بدر الجمالي أول من تحكم بخلفاء الفاطميين، كان من اصل ارمني ، استولى على مقاليد الأمور في القاهرة أيام المستنصر ، واحتكر لنفسه امارة الجيش مع الوزارة وقيادة الدعوة الاسماعيلية ، وبعد وفاته خلفه ابنه الأفضل — انظر ترجمة بدر في ملاحق كتابي مدخل الى تاريخ الحروب الصليبية ص : ٢٩٨ - ٣٠٥

١٢- ماتزال تحمل هذا الاسم على ساحل فلسطين قريبا من غزة هي الآن في الاراضي المحتلة

١٣ ـ هو مكي بن عبد السلام بن الحسين بن القاسم الانصاري ، مؤرخ من الحفاظ ورحالة كانت الفتاوي تأتيه من مصر وغيرها ونسبته الرميلي الى قرية اسمها الرميلة من اراضي فلسطين قتل ببيت المقدس شهيدا محاربا مقبلا غير فار وهو من ابناء الستين. الأعلام للزركلي .

١٤ـ انظر ترجمة كل من دقاق بن تتش وجناح الدولة حسين في ملاحق كتابي : مدخل الى تاريخ الحروب الصليبية ص : ٣٧٦ ـ ٣٧٩، ٣٨٦

١٥ ـ بلدة قريبة من حران من ديار مضر ـ معجم البلدان.

١٦ـ مدينة على ساحل بحر الشام بين قيسارية ويافا ـ معجم البلدان

١٧ـ كانت طرابلس تحكم انئذ من قبل اسرة آل عمار ـ انظر كتابي (تاريخ العرب والاسلام) ص : ٣٧٥،وكتاب: (طرابلس الشام في التاريخ الاسلامي) تأليف السيد عبد العزيز سالم ص ٦٤ـ ٧٦.

١٨ـ اختبأ بعد هزيمته في أجمة قصب ، وقد طرح المسلمون فيها النار فأصابه طرف منها كان من أسباب موته فيما بعد . انظر : ذيل تاريخ دمشق ١٤١، مرآة الزمان . ط . حيدر أباه الدكن: ٨/١/٢.

١٩ـ يبدو ان هذا كان سنة ٤٩٧ هـ/ ١١٠٣م . انظر ذيل تاريخ دمشق: ١٤٣ ـ ١٤٤ مرآة الزمان: ٨/١/٨ History of deeds done Beyond The Sea

لوليم الصوري Vol - 1 - P. 453

٢٠ ـ من أشهر مدن الاندلس ماتزال تحمل ذات الاسم في اسبانيا اليوم.

٢١ـ انظر ابن القلانسي : ١٤٣ ـ ١٤٤ مرآة الزمان : ٨/١/٩ وليم الصوري PP. 454 - 456

٢٢ ـ انظر وليم الصوري : PP 456 - 458

٢٣ـ مات مسموما حسب رواية ابن عساكر ، انظر كتابي :(مدخل الى تاريخ الحروب الصليبية) : ٣٨٦

٢٤ـ كلمة أتابك هي مركبة من عبارتين هما : « اتاوبك» وتعني « أتا» بالتركمانية أب او عم : و «بك» تعني أمير أو مقدم وعلى هذا فالترجمة الحرفية لاتابك هي « العم الأمير» أو « الاب الأمير » ولقد جرت عادة حكام التركمان من سلاطين وسواهم الزواج بعدة زوجات وتطليق بعض الزوجات بعد الانجاب لاسباب متعددة، وغالبا ما كانت المطلقة تزوج من واحد من ضباط السلطان، ويعهد للزوج الجديد بأمر رعاية شؤون الامير الصغير ، وهكذا يغدو هذا الزوج «أتابكاً» ومع الايام تطورت وظيفة الاتابك وأخذت أبعادا سياسية وعسكرية كبيرة.

٢٥ـ بسقوط طرابلس للصليبيين أقاموا فيها إماراتهم الرابعة في الشرق وينبغي ان نلاحظ ان طرابلس سقطت سنة ٥٠٢ هـ وليس سنة ٤٩٥ كما جاء في الاصل هنا. انظر ابن القلانسي : ١٦٢ـ ١٦٣ مرآة الزمان : ٨/١/٢٧. تاريخ العرب والاسلام : ٣٧٥. وليم الصوري :

٢٦ـ احتلت ارتاح قبل هذا بوقت طويل وحدث الصدام المشار اليه هنا « في شهر رجب سنة ثمامن وتسعين » واربعمائة. انظر زبدة الحلب ٢/ ١٥٠.

٢٧ـ قال ابن القلانسي بأن وصول الاسطول المصري وهزيمته للاسطول الجنوي قبالة ساحل صيدا مع توارد الاخبار بنهوض العسكر الدمشقي هو الذي سبب انسحاب الفرنجة ـ ذيل تاريخ دمشق : ١٦٢

٢٨ـ كذا بالاصل ويبدو ان الاسم اصابه تصحيف صوابه جوسلين ـ انظر ابن القلانسي : ١٨٣ ـ ١٨٥

٢٩ـ اورد ابن القلانسي : ١٦٤ بأن ذلك كان سنة ٥٠٢هـ

٣٠ـ حدث تسليم جبيل قبل هذا التاريخ ـ انظر ابن القلانسي : ١٦٤ ـ ١٦٥

٣١ـ مشهور باسم قلعة الحصن الى الغرب من حمص في غاية الحصانة محافظ حتى الآن على شكله التاريخي الى ابعد الحدود . انظر ابن القلانسي: ١٦٧.

٣٢ـــ حدث هـذا عند ابن القلانسي سنة : ٥٠٣ ـ ذيل تاريخ دمشق: ١٦٧ـــ ١٦٨. وليم الصوري :

٣٣ـ تعرف الاثارب الأن باسم الاتارب وهي واقعة الآن في منطقة جبل سمعان التابعة لمحافظة حلب في سورية وتبعد عن حلب مسافة /٢٩/ كم وزردنا بليدة من نواحي حلب الغربية ـ معجم البلدان. انظر ايضا زبدة الحلب ٢/١٥٥ ـ ١٥٦.

٣٤ـ منبج ماتزال معروفة في شمالي سورية . وأما بالس فهي بلدة مسكنة الحالية على الفرات في سورية .

٣٥ـ المبلغ في زبدة الحلب : ٢/١٥٦ «عشرون الف دينار »

٣٥ـ كانت حماه ضمن املاك رضوان بن تتش صاحب حلب، وذكر ابن العديم في ترجمة رضوان في كتابه بغية الطلب في تاريخ حلب :« ولم يبق في يد الملك رضوان من الاعمال القبلية الا حماه ، وليس في يده من الأعمال الغربية شيء» . انظر كتابي مدخل الى تاريخ الحروب الصليبية ص ٣٩٢ ـ ٣٩٣.

٣٧ـ كانت شيزر في يد الأسرة المنقذية.

٣٨ـ كانت حمص من أملاك دمشق.

٣٩ـ سلف للمصنف ان اورد هذا الخبر في حوادث سنة : ٥٠١هـ

٤٠ـ حدثت الوفاة سنة ٥١١ هـ/ ١١١٧م « بعلة طالت به» انظر ابن القلانسي : ١٩٩ وليم

الصوري : Vol I - PP. 515 - 516

٤١ـ انظر ابن القلانسي :١٨٧.

٤٢ـ توفي في رجب من سنة ٥٠٧ انظر كتابي : « مدخل الى تاريخ الحروب الصليبية » : ٣٩٦.

٤٣ـ هو ألب ارسلان، يعرف بالاخرس قتل يوم الاثنين خامس شهر ربيع الآخر سنة ثمان وخمسمائة . انظر ترجمته في كتابي : « مدخل الى تاريخ الحروب الصليبية » ٢٩٤ ـ ٢٩٧

٤٤ـ هكذا جاء الضبط في الاصل وهو خطأ صوابه (البرسقي)

٤٥ـ سلف ان ذكر المصنف وفاته في أخبار السنة السالفة.

٤٦ـ انظر ابن القلانسي : ٢١١.

٤٧ـ انظر ترجمته المنتزعة من تاريخ ابن عساكر . « مدخل الى تاريخ الحروب الصليبية » : ٤٠٨

٤٨ـ حدث هذا سنة : ٥٣٠ عند ابن العديم في زبدة الحلب : ٢/ ٢٦٦٠ـ ٢٦١

٤٩ـ في ذيل تاريخ دمشق: ٢٩٨ « الفندلاوي» و « الحلحولي».

٥٠ـ انظر ذيل تاريخ دمشق : ٣١٩ ـ٣٢٢

٥١ ـ هي صفد الحالية في فلسطين المحتلة. انظر ذيل تاريخ دمشق : ٣٤١

٥٢ ـ في الروضتين : ١/١٢٧ ـ ١٢٨ كان هذا سنة ثمان وخمسين وخمسمائة.

٥٣ـ انظر الخبر مفصلا في الروضتين : ١/١٣٣ ـــ ١٣٤ .وحارم اليوم مركز احدى مناطق محافظة ادلب في شمال سورية وتبعد عن ادلب مسافة ٥٣ كم،

٥٤ـ في شمال لبنان قرب طرابلس . انظر الروضتين: ١/ ١٤١

٥٥ـ كذا في الاصل ، وفي الروضتين : ١/ ١٨٠ ـــ ١٨٢ حدث هذا في اول صفر سنة خمس وستين وخمسمائة .

٥٦ـ كذا في الاصل وفي الروضتين : ١/٢٠٣ ـ ٢٠٤ كان هذا سنة سبع وستين وخمسمائة.

٥٧ـ بهسنا قلعة حصينة بقرب مرعش وسميساط ـ معجم البلدان.

٥٨ـ كانت مرعش بين بلدان الثغور مع بيزنطة، وكانت حصينة لها سوران وخندق وفي وسطها حصن عليه سور ـ معجم البلدان.

٥٩ـ انظر الروضتين : ١/٢٠٧

٦٠ـ في الحادي عشر ـ انظر الروضتين ١/٢٢٧ ـ ٢٣٠.

٦١ـ انظر الروضتين : ١/ ٢٣١.

٦٢ـ انظر الخبر مفصلا في الروضتين : ١/٢٧٥

٦٣ـ ذكر وليم الصوري ٢/٤٤٣ هذه الواقعة واسماء بعض الاسرى وهم : يودس مقدم فرسان ـ المعبد ـ الدواية . بلدوين صاحب الرملة. هيوج صاحب طبرية انظر الروضتين : ٢/٨ ـ ٩

٦٤ـ انظر الروضتين : ٢/ ٥٤ـ ٥٦

٦٥ـ انظر الروضتين : ٢/ ٧٥ـ ٨٧

٦٦ـ هذا اسم مصحف سيرد فيما بعد « الجيتوع» ولعل « الجيدور» هو الاصل الصحيح، والجيدور كورة من نواحي دمشق وهي في شمالي حوران ـ معجم البلدان. هذا وقد اورد صاحب الروضتين : ٢/ ٨٥ـ ٩٢ روايات مفصلة حول اعمال التوسع هذه.

٦٧ـ في حاشية الأصل : قف على بعض مكارم اخلاق الملوك السالفة.

٦٨ـ الانعام : ٤٥.

٦٩ـ انظر الخبر بشكل مفصل في الروضتين : ٢/ ١٠٩ ـ ١١٥. شفاء القلوب في مناقب بني أيوب : ١٢٨ـ ١٥٨.

٧٠ـ البيتان من قصيدة لابن الجواني محمد بن أسعد نقيب الاشراف في مصر آنئذ ، وقد اوردها صاحب الروضتين: ٢/ ١٠٥ وروايته للبيت الاول اصح من رواية الاصل هنا:

اترى مناما ما بعيني أبصر القدس يفتح والفرنجة تكسر

٧١ـ انظر الخبر مفصلا في الروضتين : ٢/ ١١٩ ـ ١٢٠

٧٢ـ وقعت هذه الاعمال كلها سنة ٥٨٤، انظر أخبارها بشكل مفصل في الروضتين: ٢/ ١٢٦ـ ١٣٨

٧٣ـ بدأت هذه الاحداث سنة خمس وثمانين وظلت مستمرة حتى سنة ثمان وثمانين ـ انظر الروضتين : ٢/ ١٤٣ ـ ١٩٦

٧٤ـ انظر ما تقدم في حاشية رقم /٦٦/

٧٥ـ انظر الروضتين : ٢/ ٢١٢ ـ٢٢٤

٧٦ـ انظر الروضتين : ٢/ ٢٢٤ ـ ٢٢٦

٧٧ـ انظر الخبر مفصلا في مفرج الكروب : ٣/ ٦١ـ ٦٧

٧٨ـ كذا وهو جائز وأفضل منه «ابن» وعند ابن واصل : ٣/ ٧٥ حدث ذلك سنة ٥٩٤ هـ هذا ويرجح أن عز الدين هذا لم يكن من بني منقذ واسمه « سامه» لا أسامة.

٧٩ـ انظر مفرج الكروب : ٣/ ٧١:

٨٠ـ انظر الخبر في مفرج الكروب : ٣/ ٧٥ ـ ٧٨.

٨١ـ انظر مفرج الكروب : ٣/ ٩١ـ ١٣٤

٨٢ـ كانت سنة ستمائة بداية لهذه الاحداث حيث أنها استمرت عدة سنوات. انظر مفرج الكروب : ٣/ ١٥٩ـ ١٩٧

٨٣ـ ذكر ذلك ابن واصل في حوادث سنة تسع وستمائة ، انظر مفرج الكروب : ٣/ ٢١٥ ـ ٢١٦

٨٤- انظر مفرج الكروب : ٣/ ٢٥٥ - ٢٧٦

٨٥- جاء في حاشية الأصل : « استيلاء الفرنج على دمياط» وقد حدث هذا سنة ٦١٦ انظر مرآة الزمان : ٢/ ٦٠١. ٦٠٣.

٨٦- جاء في حاشية الأصل : الغلاء في أيام العادل .

٨٧- في حاشية الأصل : اعوذ بالله تعالى من سخطه وغضبه.

٨٨- يقابل هذه الفقرة في الحاشية فقرة مطموسة تعذرت قراءتها.

٨٩- في حاشية الأصل فتح دمياط.

٩٠- الحلي . انظر الخبر مفصلا ، والقصيدة بما فيها هذين البيتين مع شيء من الخلاف، في مرآة الزمان: ٢/ ٦١٨ - ٦٢١

٩١- انظر مرآة الزمان : ٢/ ٦٥٢

٩٢- هي السلط الحالية في المملكة الاردنية

٩٣- ليس سنة خمس واربعين بل سنة سبع واربعين - انظر مرآة الزمان: ٢/ ٧٧٢ - ٧٧٣

٩٤ - الحديث هنا عن حملة القديس لويس على مصر، أم خليل أرملة السلطان شهرت في المصادر باسم « شجر الدر» انظر شفاء القلوب في مناقب بني أيوب : ٣٧٨ - ٣٨٢

٩٥ - عبد العزيز بن عبد السلام (٥٧٧ - ٦٦٠هـ/ ١١٨١ - ١٢٦٢م) سلطان العلماء من كبار فقهاء الشافعية ولد في دمشق، وفيها نشأ وتعلم وتسلم أعلى المناصب وبعد خروجه من السجن توجه الى القاهرة حيث شغل دورا بارز الاهمية وفي القاهرة توفي، وقد صنف عدداً من الكتب. الأعلام للزركلي .

٩٦- عثمان بن عمر ، فقيه مالكي ومن كبار علماء العربية ولد في صعيد مصر ونشأ في القاهرة، وسكن دمشق ومات بالاسكندرية سنة ٦٤٦ هـ/ ١٢٤٩م له العديد من الكتب. الاعلام للزركلي .

٩٧- كذا بالاصل والمشهور بالمنصورة

_١٠٩٩٨_

المحتوى

٣٢٢-	سنة ٥٠٣
٣٢٣-	سنة ٥٠٤
٣٢٤-	سنة ٥٠٧
٣٢٥-	سنة ٥٠٨
٣٢٥-	سنة ٥١٨
٣٢٦-	سنة ٥٢٢
٣٢٦-	سنة ٥٢٦
٣٢٦-	سنة ٥٤٣
٣٢٧-	سنة ٥٤٨
٣٢٧-	سنة ٥٥٢
٣٢٧-	سنة ٥٥٧
٣٢٨-	سنة ٥٥٩
٣٢٨-	سنة ٥٦١
٣٢٨-	سنة ٥٦٨
٣٢٨-	سنة ٥٦٩
٣٢٩-	سنة ٥٧٣
٣٢٩-	سنة ٥٧٥
٣٣٠-	سنة ٥٨٣
٣٣٣-	سنة ٥٨٥
٣٣٤-	سنة ٥٨٩
٣٣٦-	سنة ٥٩٤
٣٣٦-	سنة ٦٠٠
٣٣٧-	سنة ٦٠٩
٣٣٧-	سنة ٦١٣
٣٣٨-	سنة ٦١٥
٣٤٠-	سنة ٦١٦
٣٤١-	سنة ٦١٨
٣٤٢-	سنة ٦٢٥
٣٤٢-	سنة ٦٤٥
٣٤٦-	سنة ٦٦٢
٣٤٦-	سنة ٦٦٤
٣٤٦-	سنة ٦٦٥
٣٤٧-	سنة ٦٦٨
٣٤٧-	سنة ٦٦٩
٣٤٧-	سنة ٦٧٣
٣٤٨-	سنة ٦٧٦
٣٤٩-	سنة ٦٨٨
٣٥٠-	سنة ٦٩٠


Bibliotheca Alexandrina
0414632